الجمهورية العراقية
وزارة الإعلام

الدكتور مصطفى عبد اللطيف جياووك

الحياة والموت في الشعر الجاهلي

منشورات وزارة الاعــلام ــ الجمهورية العراقية

سلسلة دراسات
(١٢٣)

١٩٧٧



الحياة والموت في الشعر الجاهلي

الدكتور
مصطفى عبد اللطيف جياووك



بسم الله الرحمن الرحيم

كان التفكير في هذا البحث من ثمرة نقاش أداره استاذنا الدكتور محمد حسين حول لامية الأعشى التي يتحدث فيها عن القدر ، وكـــان ذلك في محاضراته التي ألقاها على طلبة السنة الاولى للماجســـتير في كليـة الآداب بالاسكندرية ، وقد جعلت الحياة والموت في الشعر الجاهلي موضوعا لبحث تمهيدي تقدمت به اليه ، وكشف لي هذا البحث عن خصب الموضوع ووفرة مادته من الشعر الجاهلي ، وقد شجعني أستاذنا على أن أمضـــي في بحث الموضوع •• وساعدني في وضع خطته ، وكان من أكبر التشجيع أن يقبـــل الاشراف على اعداده •

والبحث يقع في ثلاث أبواب ، الباب الاول منها مخصص للعقـــائـــد الدينية في الجاهلية وما يتأثر بها من القيم الاجتماعية والخلقية •• وقـــــد أخذت نفسي في دراسة العقائد الدينية ـ وهي موضوع الفصل الاول ـ بأن لا أقبل الا ما كان مؤسساً على نص موثوق بصحته كالقرآن الكريم والحديث الصحيح ثم لم أجد بأسا بعد هذا الاساس المتين في أن أقبل من الاخبـــاز ما هو أقل ثقة لاكمال الفهم وتفصيل القول وحاولت ان أترك الحـــديث للنصوص وأن لا أتسع في الاستنتاج في غالب الفصل لما اعرفه من تداخـــل الموضوع بتاريخ الاسلام مما يجعل أبسط الاخطاء خطيرا •

وفي الفصل الثاني جعلت الكـلام على أثر العقـائـــد الدينية في القيم الاجتماعية والخلقية عاما ولم أنسب أكثر هذه الآثار الى دين بعينه الا حـين يكون ذلك واضحا غير ملتبس ، وتجنبت بذلك ما وقع فيـــه غالب الباحثين من غير المسلمين من نسبة كل خبر في عرب الجاهلية الى النصرانية أو اليهودية وهي عندهم عقائد أجنبية داخلة على العـــــرب ، والدافع الى ذلك الغض من

العرب والطعن على الاسلام .. وقد رأيت ان ترك الحديث عاما يدفع ضرر العصبية ولا يضر البحث ، لانني أدرس هذه العقائد لاعرف المادة المتيسرة للشاعر الجاهلي فلا أرفض الشعر أو أقبله نتيجة تصور خاطيء للمستوى الديني والعقلي للجاهلية ..

والباب الثاني من البحث مخصص لاستقراء أفكار الشعراء في الحياة والموت في أغراض الرثاء والحماسة والحكمة ، وهي الاغراض التي لاحظت وفرة مادة البحث فيها دون غيرها ، وقد جعلت لكل غرض منها فصلا خاصا به .. وهذا هو أصلح تقسيم استطعت أن أصل اليه مع انه ليس فاصلا ، فالتداخل بين الرثاء والحكمة ، وبين الرثاء والحماسة واضح . وقد تسبب ذلك في صعوبة تصنيف بعض النصوص ، وأدى الى تردد نصوص قليلة في فصول هذا الباب .

والدراسة الفنية تستقل بباب من فصلين أولهما دراسة لقصص الانسان التاريخي والواقعي وقصص الحيوان . وثانيهما دراسة للصور الفنية واللغة وتركيب القصيدة ، ومن أهم الصعوبات التي وجدتها في هذا الفصل ندرة السمات العامة ، وذلك راجع الى تباعد ما بين الاغراض التي جاء فيها الحديث عن الحياة والموت .

وقد اضطرني البحث الى الرجوع الى كتب التفسير كتفسير الطبري والقرطبي وابن كثير وكتب الحديث كالصحيحين ، وكتب السيرة والتراجم كالروض الانف وطبقات ابن سعد واسد الغابة والاصابة ، وكتب التاريخ مثل تاريخ الطبري وابن الاثير وابن كثير ، والى كتب الادب العامة مثل كتب الجاحظ والاغاني والكامل ، وكتب الطبقات والمجموعات الشعرية كالحماسات والمفضليات والاصمعيات والوحشيات ومنتهى الطلب المخطوط . ودواوين الشعراء .. واخترت من المصادر ـ حيث تيسر لي ـ ما كان محققا تحقيقاً علمياً لأفيد من الجهود المخلصة في اخراجه . وقد أفادتني البحوث

الحديثة ودلتني على الصواب غالبا وأرشدتني الى ما أجهل من مصـــــادر البحث دائماً . ومن ذلك تاريخ العرب قبل الاســـــلام للدكتور جواد علي وتاريخ العرب القديم الذي ترجمه عن جماعة من المؤلفين وأضاف اليه اضافة قيمة الدكتور فؤاد حسنين ، وغير ذلك كثير .

ولا يسعني الا" أن أوجه عميق شكري وتقديري لكل الذين ساعدوني في اتمام هذا البحث والحمد لله أولا" وأخيراً والصلاة والسلام على رسول الله وآله صحبه .



الباب الاول

العقائد الدينية في الجاهلية
واثرها في القيم الاجتماعية والخلقية



الفصل الأول

عقائد الجاهلية

١ ــ الشــــرك :

لا ندري على التحقيق كيف اصطلح مشركو العرب على تسمية دينهـــم ولا يمكن أن أتصور أن دينهم ظل عندهم بلا اسم علم عليه . وانهم لم يفرقوا بينه وبين اليهودية والنصرانية وغيرهما . والغالب ان هذا الاسم طغى عليـه ما أطلقه الاسلام من اسم الشرك[١] .

ويرى قسم من اللغويين ــ ومن أوضحهم في ذلك أبو عبيدة ــ ان العرب كانوا يسمّون دينهم بالحنيفية .. يقول أبو عبيدة : « الحنيف في الجاهلية من كان على دين ابراهيم ، ثم سمّي من اختتن وحج البيت حنيفا لما تناسخت السنون وبقي من يعبد الأوثان من العرب: قالوا نحن حنفاء على دين ابراهيم، ولم يتمسكوا منه الا ّ بحج البيت والختان ، والحنيف اليوم المســلم »[٢] . وجاء عنه في اللسان : « من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين ابراهيم ، فلما جاء الاسلام سمّوا المسلم حنيفا »[٣] .

---

(١) الحيوان ٣٣٢/١ . وصرح الجاحظ بأن الشرك محدث اسلامي .

(٢) مجاز القرآن ٥٨/١ .

(٣) لسان العرب مادة حنف .

وقال غير أبي عبيدة ان الحنيفية عند العرب حج البيت وبعض مسائل الفطرة[٤] وهي مما التزم به العرب وخاصة الاختتان ، وقد ذكر التزامهم به في المصادر الكلاسيكية الاجنبية[٥] .

قال الزجاجي : « وكان الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويغسل موتاه ويختتن ، ولما جاء الاسلام صار الحنيف المسلم »[٦] .

وقال الفرّاء : « الحنيف من سننه الاختتان » .

وقال الأخفش : « الحنيف المسلم ، وكان في الجاهلية يقال : من اختتن وحج البيت حنيف ، لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، فلما جاء الاسلام تمادت الحنيفية ، فالحنيف المسلم »[٧] .

وجاء ما يؤيد ذلك عن أهل الكتاب الجاهليين ومنه قول بسطام بن قيس الشيباني لأخيه بجاد يحذره من أن يحاول انقاذه فيؤسر معه في يوم الغبيط : « ان كررت يا بجاد فأنا حنيف »[٨] . وهي عبارة يمكن ان تحمل على التهديد بالعودة الى الشرك .

---

(٤) مسائل الفطرة كما يروى عشرة : خمس في الراس وخمس في الجسد ومنها الاختتان وقص الشارب وفرق الشعر ونتف الابط ... الخ . انظر الجامع لاحكام القرآن ٩٨/٢ ، معاني الفراء ٧٦/١ ، بلوغ الارب ٢٨٧/٢ .

(٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٨٧/٥ .

(٦) امالي الزجاجي ص ٢ .

(٧) اللسان مادة حنف .. ونقل اقوالا للجوهري والازهري مثل التي اثبتناها .

(٨) النقائض ٣١٤/١ ، الاصابة ٨٥/٥ . في ترجمة قاتله عاصم بن خليفة الضبي .

وجاء في « أخبار فطاركة كرسي المشرق » فيما قبل الاسلام قوله عن الأسقف « بابوي » : « هذا الاب كان فهيماً فيلسوفاً كثير الفحص عن المذاهب وكان من قبل حنفياً مجوسياً » . وقوله ينقل جدالا بين برصوما وزينون حول طبيعة المسيح عليه السلام : « وبهذا وحده ينحل ويبطل ضلالة الحنوفية وطغيانها وتعللات اليهودية وبهتانها » . وقوله : « لأن الحنفاء لبعدهم عن معرفته تمسكوا باسمه فقط وسمّوا أصنامهم آلهة وعبدوها وتغالوا في مدحها حتى اعتقدوا في الصور العديمة الحياة انها لا تموت »[9] .

نرى من هذه المواضع أنه يقصد جماعة تستوعب المجوسية والوثنية ولونا من التوحيد الذي ينتقد القول بتعدد طبيعة المسيح عليه السلام . ولعله يقصد العرب عامة .

وقد ورد استعمال الحنيفية كمصطلح قومي يطلق على العرب عن ابن عباس ، فقد روى عنه ابن الكلبي قوله : « أول من ركب الخيل واتخذها اسماعيل بن ابراهيم وأول من تكلم بالعربية الحنيفية ... »[10] .

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية ان المسعودي وبعض المحدثين يرون أن كلمة الحنيف دخلت العربية من أصل آرامي كنعاني . ويضيف كاتب المادة ان معناها في لغة الأصل المنافق أو الملحد أو الوثني أو الكافر . ولكن جواد علي يذكر ان هذا الاستعمال ليس قديما على وجه ثابت .. وانه قد يكون انتقل من المسلمين الى السريان[11] وهذا أقرب الى الفهم .. فمن الطبيعي أن يعتبر النصارى المسلمين كافرين وأن يحمّلوا كلمة الحنيفية هذا المعنى الذي ليس في أصلها .. ومن البعيد ان ينقل العرب الكلمة ليدللوا بها على معنى يناقض دلالتها الاصلية تماماً .

---

(٩) اخبار فطاركة كرسي المشرق : ص ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ .

(١٠) انساب الخيل : ص ١٢ . ويذكر المحقق ان الكلمة وردت في كل اصول الكتاب التي نشره عنها .

(١١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٥٩ .

والقرآن الكريم لا يترك لبسا في ان الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام • فقد نسبت اليه في سبعة مواضع[١٢] • والقرآن الكريم يصرّح كذلك بأنها دين معيّن فيسميها « ملة ابراهيم حنيفا » في خمس من الآيات الكريمة المذكورة •• ويميزها عن اليهودية والنصرانية والشرك كما سيأتي•

ليس غريباً اذن أن ينظر المسلمون الى الحنيفية على انها دين ابراهيم وانها في الأصل دين توحيد خالص ورثه العرب عنه ، ثم طرأ عليهم الشرك من بعد • وقد فسر دخول الشرك على دين العرب تفسيرات من أهمها ان عمرو ابن لحي الخزاعي رأى الاصنام عند غير العرب فأعجبته فأمرهم بعبادتها • وقد ورد ذلك في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأكثم بن الجون الخزاعي وقد تخوّف من مشابهته لعمرو : « انك مؤمن وهو كافر ، انه كان أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الاوثان وبحّر البحيرة وسيّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي »[١٣] وهو حديث معروف[١٤] •

ويقول السهيلي مصوراً تأثير عمرو بن لحي في العرب : « وكان عمرو ابن لحي حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة جعلته العرب رباً لا يبتدع لهم بدعة الا اتخذوها شرعة لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم • فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة حتى انه اللات الذي يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمى صخرة اللات ويقال ان الذي يلت كان من ثقيف فلما مات قال لهم عمرو أنه لم

---

(١٢) البقرة : ١٣٥ ، آل عمران : ٦٧ ، ٩٥ ، النساء : ١٢٥ ، الانعام : ١٦١ ، النحل : ١٢ ، ١٢٣ .

(١٣) السيرة : الروض الانف ٦١/١ .

(١٤) انظر في ذلك تفسير الطبري « بولاق » ٥٦/٧ ، الاصنام ٨ ، ٥٥ الاشتقاق ص ٤٦٨ المحبر ص ٩٩ ، وانظر طرق الحديث في البداية والنهاية ١٨٧/٢ ، فتح ٤٢٨/٦ ولفظ الحديث في البخاري : « رايت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبة في النار وكان اول من سيب السوائب » .

يمت ولكنه دخل في الصخرة ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بيتاً يسمى بيت اللات »[١٥] .

وللقدماء في سبب دخول الشرك على العرب آراء أخرى منها ان الاصنام في الاصل آباؤهم مثلوها ثم نسوا أصلها فعبدوها متدرجين من الاحترام الى التقديس . ومنها انهم نقلوا من أحجار الحرم للتبرك بها ثم تدرجوا الى عبادة الحجر . وكل ذلك لا يغير من انهم رأوا الشرك طارئا على العرب بعد التوحيد[١٦] .

نظرة القدماء الى الحنيفية كما رأينا واضحة .. واتى اللبس في الحقيقة من انه ورد في الحديث والاخبار أسماء أشخاص معينين وصفوا بأنهم كانوا حنفاء في الجاهلية .. ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل وهو في الواقع أهمهم لأن أخباره وصلتنا في أحاديث صحيحة ميّزته من اليهود والنصارى ونصت على حنيفيته[١٧] . وأدى ذلك الى الظن بأن الحنيفية عقيدة اعتنقتها جماعة صغيرة يمكن احصاء أفرادها ، وليس الاسم الذي أطلق على دين الاكثرية الساحقة من العرب . كذلك أدى الى ما جاء في أخبار بعض الحنفاء من انهم سألوا عن دين ابراهيم بعض أهل الكتاب ، ونسبة الاخبار لبعض الحنفاء الى النصرانية أحياناً ، أدى الى الظن بأن الحنيفية كانت غامضة في الذهن الجاهلي .

وتبنى النظرة الحديثة الى الحنفاء على هذا التصور . وقد وصل المستشرقون فيها الى نتائج متنافرة غريبة ، من أهمها القول بأن الحنيفية شيعة نصرانية دخل على عقائدها بعض التعديل .

---

(١٥) الروض الانف ٦٢/١ .

(١٦) الروض الانف ٦٣/١ ، البخاري ٥٤٣/٨ ، فتح الباري . والحديث عن ابن عباس .

(١٧) البخاري : فتح الباري ١١٣/٧ . وانظر في اخبار من كان على دين من العرب ومنهم الاحناف : بلوغ الارب ٢٤٢/٢ ، المعارف لابن قتيبة ص ٥٨ ، المحبر ص ١٧١ ، مروج الذهب ٢٥٤/١ .

وممن انتهى الى ذلك سبرنغر وفلهوزن وبرسغال . ويرى فلهوزن خاصة ان الكلمة في الاصل تعني الراهب النصراني ، وكشيعة تعنى جماعة من الزهاد النصارى يمتازون بالتقوى الشديدة وان لهذه الجماعة صلة بظهور الحنيفية عند العرب[١٨] .

ويرى بلاشير أن الحنيفية تشبه المانوية ولهذا فهي تشبه المسيحية[١٩] .

ويرى دي غوى ان معنى الكلمة الكافر . ويظن مرجليوث ان معناها دائما المسلم[٢٠] .

وانتهى كاتب المادة في دائرة المعارف الاسلامية الى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في استعماله للكلمة يتبع استعمالا مقررا وان الكلمة قبل عهده كانت تدل على القوم الذين رفضوا النصرانية واليهودية ـ وان تأثروا بالنصرانية ـ التماساً لدين أبسط وأدنى الى الفطرة . وان حقيقة الحنيفية لا يمكن كشفها بما نملك من أخبارها .

ويرى جواد علي ان الحنفاء كانوا أفراداً لا تجمعهم رابطة غير اتفاق بعض أفكارهم .. مثل رفض الاصنام والدعوة الى الاصلاح .. وانهم لم يكونوا طائفة معينة تسير على شرع ثابت[٢١] .

ومن الواضح من هذا العرض ان هذه الآراء كلها تذهب الى ان الحنيفية فرقة جاهلية صغيرة أو أفراد متفرقون لا يكونون جماعة ، وذلك على عكس رأي القدماء الذين يذهبون الى ان الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام وان العرب ورثوه منه ثم خلطوه بالشرك .. وانهم احتفظوا بالتسمية علماً على شركهم ..

---

(١٨) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٩١/٦ ، النصرانية وادابها ١٢١/١ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٢٤/٨ .

(١٩) تاريخ الادب العربي ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢٠) دائرة المعارف الاسلامية .

(٢١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥٩/٥ .

وأنا أكثر اقتناعاً برأي القدماء .. لأسباب أوجزها فيما يأتي :

وفي مقدمة ذلك ما يتضح من مراجعة المواضع التي جاءت فيها الكلمة في القرآن الكريم ويلاحظ فيها جميعاً التأكيد على ان الحنيفية الابراهيمية والاسلامية ليست مشركة :

يقول تعالى : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . البقرة ١٣٥ .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » . آل عمران ٦٧ .

« قل صدق الله فاتّبعوا ملّة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . آل عمران ٩٥ .

« ومن أحسن دينا ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبّع ملّة إبراهيم حنيفا واتّخذ الله ابراهيم خليلا » . النساء ١٢٥ .

« إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » . الانعام ٧٩ .

« قل إنّني هداني ربّي الى صراط مستقيم دينا قيّما ملّة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . الانعام ١٦١ .

« وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونّن من المشركين ». يونس ١٠٥ .

« إنّ إبراهيم كان أمّة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين » . النحل ١٢٠ .

« ثمّ أوحينا اليك أن اتّبع ملّة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين». النحل ١٢٣ .

« فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديـل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكنّ أكثر النـاس لا يعلمون • منيبين إليـه واتّقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » • الروم ٣٠ •

« حنفاء لله غير مشركين به » • الحج ٣١ •

« وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » • البينة ٥ •

وقد صرحت الآيات الكريمة بنفي الشرك عنـد ذكر الحنيفية عدا آيتي النساء التي جاء فيها : اسلم وجهه لله ، والبينة التي جاء فيها : مخلصـين له الدين • ولو كانت الحنيفية معروفة بترك الاصنام عند العرب مشـتهرة بالتوحيد لما كان هناك مبرر لهذا النفي المؤكد لشبهة الشرك عن الحنيفيـة وتمييزها عنه • وقد التفت الرازي الى ذلك فقال بعد ان روى عن ابن عباس والحسن ومجاهد ان الحنيفية هي الحج : « وثانيها ان الحنيف اسم لمن كان يدين بدين ابراهيم ، ومعلوم انه عليه السلام أتى بشرائع مخصوصة من حج البيت والختان وغيرها ، فمن دان بذلك فهو حنيف • وكانت العرب تديـن بذلك ثم كانت تشرك فقيل من أجل ذلك « حنيفا وما كان من المشـركين » ونظيره قوله : « حنفاء لله غير مشركين به » وقوله : « وما يؤمن أكثرهم بالله الاّ وهم مشركون »[٢٢] • فهو هنا يرى ان نفي الشرك عن حنيفية ابراهيم والاسلام يراد به تفريقها عن حنيفية الجاهلية التي ذكر أخذها بالحج والختان مما شرع لابراهيم عليه السلام واضافتها الشرك •

وقد رأينا ابن عباس والحسن ومجاهدا يفسـرون الحنيفية بالحـج • ونقل الطبري عن عبدالله بن القاسم قوله: «كان ناس من مضر يحجون البيت في الجاهلية يسمّون حنفاء • » وروى مثل ذلك عن الحسن وعطية ومجاهـد والضحّاك بن مزاحم وابن عباس[٢٣] ونحن نلمح في هـذا التفسـير مثل

---

(٢٢) تفسير الرازي : ٤/٩٠ – ٩١ .

(٢٣) تفسير الطبري « المعارف » ٣/١٠٤ .

ما صرّح به الرازي • فاذا كان الحج هو الحنيفية فهو يجمع بين المسلمين والمشركين ثم انه ينبغي التفرقة بينهم •

وقد رأينا ان الحنيفية نسبت الى ابراهيم وانها دينه وملّته[٢٤] وابراهيم عليه الصلاة والسلام خطير المكان في دين الجاهلية • فقد جاء في الحديث الصحيح ان صورته وصورة ابنه اسماعيل عليهما السلام كانت في داخل الكعبة تمثلهما وهما يستقسمان بالأزلام وقال الرسول صلى الله عليه وسلم حين رآها : « قاتلهم الله أم والله قد علموا انهما لم يستقسما بها قط »[٢٥] • وفسر المسعودي وجود هذه الصور بالكعبة فقال : « وكان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الاصباغ عجيبة منها صورة ابراهيم الخليل في يده الازلام يستقسم بها ويقابلها يخبر الناس مقبضا والعاروب قائم على وفد الناس يقسم فيهم وبعد هذه الصورة صور كثير من أولادهم الى قصي بن كلاب وغيرهم في نحو ستين صورة مع كل واحدة من تلك الصور اله صاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله »[٢٦] • ثم يذكر بعد ذلك انهم أعادوا الصور حين بنوا الكعبة الى حالها •

وصورة ابراهيم والازلام في يده بالكعبة توحي بأنهم تصوروه في صورة مشركة اعترض عليها النبي صلى الله عليه وسلم ومحاها • وكونها أول الصور كما يقول المسعودي يفسر بأن ابراهيم عندهم أصل من أصول دينهم ان لم يكن أصله الوحيد •

وعن ابراهيم عليه الصلاة والسلام باني الكعبة أخذ العرب مناسك الحج كلها • وظلوا يمارسونها على ما شابها من أوهام الشرك الى أن جاء الاسلام • وظلوا ينسبون بناء الكعبة اليه أيضاً •

---

(٢٤) وانظر ايضا : مفردات الراغب ١٣٣/١ ، النهاية في غريب الحديث ٢٦٥/١ . الجامع لاحكام القرآن ١٣٩/٢ .

(٢٥) البخاري : فتح الباري ٣٦٨/٣ ، ٢٩٩/٦ ، ١٣/٨ .

(٢٦) مروج الذهب ١٦٨/٢ ، ١٧٠ ، وانظر حديث صورة ابراهيم في السيرة: الروض الانف ٢٧٤/٢ ، البداية والنهاية ٣٠١/٤ . تاريخ مكة ١١٠/١ ـ ١١١ .

جاء في الصحيح عن عمر رضي الله عنه : « قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلّى » . وجاء : « لما طاف النبي صلى الله عليه وسلم قال له عمر هنا مقام أبينا قال نعم قال أفلا تتخذه مصلّى فانزل الله عز وجل : واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى .. »[٢٧] وعلى الخلاف في حقيقة المقام فقد رجحوا أنه أثر رجل ابراهيم عليه السلام في الصخر عندما كان يبني الكعبة .. ويعتبر الرازي هذا القول قول المحققين[٢٨] ويروى ابن حجر عن أنس أنه رأى هذا الأثر . وعن قتادة انه اندثر لأنهم كانوا يمسحونه وانه رأى من شهد هذا الأثر[٢٩] .. وذهب بعض الرواة الى ان المقام هو الحج كله أو الحرم كله أو غير ذلك . ويبقى لنا من الآية الكريمة ومن الاخبار ان المقام مكان بعينه معروف النسبة الى ابراهيم ..

وجاء في الحديث عن يزيد بن شيبان الأزدي انه صلى الله عليه وسلم أرسل اليهم يقول : « انكم على ارث من ارث ابراهيم فكونوا على مشاعركم »[٣٠] .

ومما يدل كذلك على معرفة عرب الجاهلية بقصة ابراهيم وجود قرني الكبش الذي فدى به ابنه بالكعبة . فقد رآهما النبي عليه الصلاة والسلام معلقين بها يوم الفتح . وأمر سادن الكعبة بأن يخمرهما لانهما يلهيان المصلي[٣١] وقد بقيا بالكعبة حتى رآهما ابن عباس والشعبي[٣٢] ثم انهما

---

(٢٧) البخاري : فتح الباري ١٣٨/٨ ، تفسير ابن كثير ٣٠٨/١ .. ويذكر ابن كثير ان الحديث رواه البخاري ومسلم وابن عون والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٢٨) تفسير الرازي ٥٣/٤ . وانظر الاقوال في المقام في تفسير الطبري « المعارف » ١٩/٧ — ٢٨ ، الجامع لاحكام القرآن ١١٢/٢ .

(٢٩) فتح الباري ١٣٨/٨ .

(٣٠) اسد الغابة ١١٥/٥ ، ١٢٠ الاصابة ٣٤٤/٦ .

(٣١) مسند احمد ٦٨/٤ ، ٣٧٩/٥ . تاريخ مكة ١٥٦/١ ، ١٠٦ . تاريخ اليعقوبي ٤٦/٢ .

(٣٢) تفسير الطبري (بولاق) ٥٣/٢٣ ، البداية والنهاية ١٥٨/١ .

احترقا في حريق الكعبة أيام ابن الزبير[٣٣] . والمفسرون يختلفون في الذبيح من أبناء ابراهيم أهو اسماعيل أو اسحق عليهم السلام . فيذهب ابن كثير الى انه اسماعيل ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم سمي ابن الذبيحين وان مسلما من أصل يهودي ذكر لمعاوية ان الذبيح اسماعيل ولكن اليهود نصوا على اسحق حسداً للعرب . وينتهي الطبري الى ان الذبيح اسحق وان القرنين قد يكونان نقلا من الشام .. ولا يهمنا هنا غير قدم هذا الخلاف ومعرفة أهل الجاهلية بالفداء من قصص ابراهيم عليه الصلاة والسلام . وارتباط ذلك بالكعبة عندهم[٣٤] .

واتسب قسم كبير من العرب الى اسماعيل وخاصة عرب الشمال . حتى ذكروا انه لا خلاف في انتساب العدنانيين اليه عليه السلام مع خلاف طويل في عدة الآباء بين عدنان واسماعيل يقول ابن كثير : « لا خلاف ان عدنان من سلالة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام واختلفوا في عدة الآباء بينه وبين اسماعيل على أقوال كثيرة »[٣٥] . وزاد آخرون فجعلوا قحطان أيضاً من نسل اسماعيل عليه السلام . وفي صحيح البخاري باب باسم : « نسبة اليمن الى اسماعيل منهم أسلم »[٣٦] . وفيه أورد حديث سلمة : « قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يتناضلون بالسوق فقال ارموا بني اسماعيل ... » وروى البلاذري عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « العرب كلها بنو اسماعيل الا أربع قبائل ... » وروى هو والمبرد قوله عليه الصلاة والسلام : « اسماعيل أبو كل عربي في الأرض »[٣٧] .

---

(٣٣) اسد الغابة ١٦٣/٣ .

(٣٤) تفسير الطبري (بولاق) ٥٣/٢٣ – البداية والنهاية ١٥٨/١ .

(٣٥) البداية والنهاية ١٩٣/٢ . وانظر ايضا الروض الانف ٨/١ . الاشتقاق ص٥ ، ٤٣ . اسد الغابة ١٣/١ ، نهاية القلقشندي ص ٢٣ ، عقد الجمان ص ١٠٦ – ١٠٧ .

(٣٦) فتح الباري ٤١٩/٦ ، وانظر البداية والنهاية ١٥٦/٢ ، انساب الاشراف ٥/١ .

(٣٧) انساب الاشراف ٤/١ ، ٥ . نسب عدنان وقحطان ص ١٨ .

ولا يمكن ان تتصور هذا النسب الى اسماعيل عليه السلام اسلامياً متأخرا لأنه يرتقي الى عصر النبي صلى الله عليه وسلم .. وما قبله .. يقول امرؤ القيس[٣٨] :

الى عرق الثرى وشجت عروقي   وهـذا الموت يسلبني شبابي

ويقول متمم بن نويرة[٣٩] :

فعددت آبائي الى عرق الثرى   فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا

وعرق الثرى هو اسماعيل كما جاء في الحديث انه عليه الصلاة والسلام قال : « معد بن عدنان بن ادد بن زند «بالنون» بن اليرى بن اعراق الثرى . قالت أم سلمة : فزند هو الهميسع واليرى هو نبت واعراق الثرى هو اسماعيل لأنه ابن ابراهيم وابراهيم لم تأكله النار كما ان النار لا تأكل الثرى . وقد قال الدارقطني : « لا نعرف زندا الاّ في هذا الحديث »[٤٠] .

وكذلك فان النبي صلى الله عليه وسلم انتسب الى اسماعيل ولكنه هو أو أحد الصحابة أنكر تحديد أسماء آباء العرب بين عدنان واسماعيل .. مما يدل على ان هذا النسب أقدم من عصر الاسلام[٤١] ..

ونسب العرب الى اسماعيل عليه السلام جملة من الاشياء ذات الدلالة : منها انه أول من نطق بالعربية وأول من ركب الخيل . وأول من رمى عن القوس العربية[٤٢] .

---

(٣٨) ديوان امرىء القيس رقم ١١ ص ٩٧ .

(٣٩) المفضليات رقم ٩ ص ٥٤ .

(٤٠) الروض الانف ١/٨ ، البداية والنهاية ٢/١٩٣ ، الطبقات الكبرى ١/١/٢٨ . تاريخ الطبري ٢/٢٧١ ، انساب الاشراف ١/٦ .

(٤١) راجع في ذلك الاشتقاق ص ٤ ، نسب عدنان وقحطان ص ١ ، البداية والنهاية ٢/١٩٤ ، الطبقات الكبرى ١/١/٢٨ . قلائد الجمان ص ٢٦ ، نهاية الارب للقلقشندي ص ٢٤ وكتاب نيكلسون ص ١٨ « الانكليزي » طبع لندن ١٩١٤ من المقدمة .

(٤٢) انساب الخيل ص ١١ ، الحيوان ٣/١٧٣ ، رسائل الجاحظ ١/٣١ ، ٢١٨ ، ٢/٢١ تاريخ اليعقوبي ١/١٨١ .

ويرد أحياناً تصريح بأن العرب كانت تدّعي دين ابراهيم عليه السلام . روى الواحدي في الحوار الذي دار بين المسلمين والمشركين عند النجاشي : « فأنكر ذلك المشركون وادعوا دين ابراهيم ... »[٤٣] وصح ان زيد بن عمرو بن نفيل قال لقريش : « يا معاشر قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيرى »[٤٤] . ولو لم يكونوا يدعون دين ابراهيم لم يكن لقوله هذا معنى أو مبرر ..

نعود بعد ذلك الى الأفراد الذين نصّ أهل الاخبار على انهم كانوا من الحنفاء لنتساءل لماذا ذكروا هؤلاء خاصة اذا صح ما نذهب اليه من ان العرب جميعاً كانوا يزعمون انهم حنفاء ؟ . والحقيقة ان أهل الاخبار لم يقتصروا على الحنفاء في هذا الصنيع . فقد ذكروا أفرادا من النصارى مثل ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث ... وذكرهم لا يعني ان النصرانية انحصرت فيهم على نفس القياس يكون من غير المقصود حصر الحنيفية في الافراد الذين ذكروا انهم كانوا حنفاء .. وأغلب الظن ان ذكر هؤلاء النصارى والحنفاء يدل على الرضا عن دينهم بالمقياس الاسلامي .

ويلاحظ كذلك انهم في الغالب ممن يتصل بسبب بالسيرة وتاريخ الاسلام ... فأسعد أبو كرب كف عن افتتاح المدينة وكسا الكعبة حين علم انهما مهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم ومبعثه . وورقة بن نوفل ممن آمن بالاسلام وطمأن النبي صلى الله عليه وسلم الى طهارة الوحي وصدقه .. وأمية بن أبي الصلت ممن كان يتوقع الرسالة القدسية . وأبو عامر الراهب ممن أصرّ على حرب الاسلام من الأوس والخزرج[٤٥] ..

وبعد .. فان تحقيق هذا الاسم سيمكننا من تفهم كثير من العقائد والعبادات التي وجدت لدى حنفاء الجاهلية المشركين .. اذ ينبغي ان نضع في حسباننا ما انحدر مع هذا الاسم من أفكار وعبادات موروثة .

---

(٤٣) اسباب النزول ص ٦١ .
(٤٤) البخاري ، فتح الباري ١١٣/٧ – ١١٤ . الروض الانف ١٤٦/١ .
(٤٥) الروض الانف ١٤٥/١ ، ٢٣/١ . وانظر الهامش ١٧ ص ١٥ .

ولا نحتاج الى التدليل على معرفة المشركين بالله على نحو ما . فالقرآن الكريم لا يترك شكاً في ذلك .. أما الاصل في هذه العقيدة فقد ذهب المسلمون بحجة قوية من القرآن والحديث الى انها جاءتهم عن ابراهيم عقيدة موحدة ثم طرأ عليها الشرك .. واختلف المستشرقون في أصل هذه العقيدة . ولكنهم يقررون انها عقيدة معروفة بين الساميين أو غالبهم[٤٦] .

واللفظة ـ بغض النظر عن التوحيد ـ وجدت عند العرب من أقدم عصورهم وفي مناطق سكناهم كلها .. يقول دتلف نلسن وهو يناقش الصيغ التي وردت بها اللفظة في النقوش والآثار العربية : « ان آله الوارد ذكره في النقوش الصفوية ذكر أيضاً في النقوش الثمودية التي عثر عليها « هوبر » عام ١٨٩١ . وذلك ضمن أسماء أعلام وعلاوة على ذلك فقد كان مثل « ال » معروفاً في كل مجامع النقوش العربية القديمة فذلك الاله وذلك الاسم كانا اذن معروفين فيما قبل الاسلام ليس فقط في شمال بلاد العرب بل في كل الجزيرة العربية »[٤٧] . ويقول بعد ان يناقش صيغ الاسم عند الساميين والعرب : « فهي نفس الكلمة المعروفة ومعناها الله . وهذا « الله » لم يأت فقط مع محمد بل كان معبودا مقدساً في انحاء بلاد العرب منذ العصور القديمة ولو أن « اله » أو « آله » في عصر تعدد الآلهة لم يلعب دوراً هاماً الا انه كما هو ثابت الاله الرئيس عند الشعوب السامية منذ العصور التاريخية »[٤٨] وينسب جواد علي الى « بعض المستشرقين القول بأن الله تعالى هو اسم صنم كان بمكة أو انه اله أهل مكة[٤٩] .. وهو لا يقبل هذا الرأي لأن التوحيد كان معروفاً قبل الاسلام ووجد في اليمن في الأيام القريبة من الاسلام .

---

(٤٦) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦٣/٥ ، ٧٦ ، النصرانية وادابها ٨/١ .

(٤٧) التاريخ العربي القديم ٢١١ .

(٤٨) التاريخ العربي القديم ٢١٢ . ويذكر هنا ان الله لم ينظر اليه على انه اله قبلي ولم يتصور كانسان . وانما نظر اليه على انه رب العالمين دائما.

(٤٩) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٤/٥ .

ويذهب دتلف نلسن الى ان الاصل في الله انه هو اله القمر في العقيدة العربية التي تؤمن بالقمر والشمس والزهرة كعائلة الهية تتكون من أب وأم وابن[٥٠] وهي العقيدة التي كشفت عنها الآثار العربية في جميع مواطن العرب منذ أقدم عصورهم التاريخية . والقمر ـ كبير هذه الاسرة ـ تحوّل في زعم دتلف نلسن الى الاله الاكبر ومن بعد ذلك أصبح الاله الوحيد في الاسلام . والنقوش التي كشف عنها التنقيب في الجزيرة العربية لا تربط بين « الله » وبين اله القمر .. ولكن نلسن استدل على دعواه من ثبوت كون اللات هي الشمس في النقوش . وكون العزى هي الزهرة . واستدل كذلك مما يروى عن عمرو بن لحي من انه أخبر العرب بأن الرب يشتو بالطائف عند اللات ويصيّف بالعزّى[٥١] . وأضاف حجة غريبة الى هذه الحجج فأدعى ان الحج يحمل صفات قمرية وان الاسلام طمس من عقيدة العرب ما له علاقة بالشمس فاختار التوقيت القمري واتخذ الهلال شعاراً في سبيله الىالتوحيد المنحدر من الاصل القمري[٥٢] .

وهذه نظرية لا تثبت للنقد اذا عرضناها على ما أورده القرآن الكريم والحديث الصحيح عن عقائد الجاهلية .. فاللات والعزّى ومناة آلهة اثنى كما هو واضح من سورة النجم وهي جميعا عندهم بنات الله : « ألكم الذكر وله الأنثى »[٥٣] . وهبل كان صنماً عادياً على اهتمامهم به فقد كان يدعى هبل خزيمة مما يجعله الها قبليا[٥٤] . وصح ان أبا سفيان نادى في أحد :

---

(٥٠) انظر تفاصيل هذه العقيدة في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٢٠/٥ وما بعدها .

(٥١) لم يذكر في الكتاب مرجع هذه الرواية .. وقد وجدتها في الروض الانف ١٤٨/١ . وتاريخ العرب قبل الاسلام ٩٦/٥ ، ١٠١ حيث يذكر للخبر مرجعا اخر .

(٥٢) التاريخ العربي القديم ٢١٥/٢١٦ .

(٥٣) النجم ٢١ . تفسير الطبري « بولاق » ٣٤/٢٧ .

(٥٤) الاصنام ص٢٧ ، انساب‌الاشراف ٣٧/١ ، الطبقات الكبرى ق٢/ج١/ ص٣٩

اعل هبل ، فأجابه المسلمون بقولهم : الله أعلى وأجل[٥٥] . فهو عنده اله آخر لا يرمز الى الاعتقاد بالله .. وود وهو اله القمر ذكر في القرآن الكريم على انه من الهة قوم نوح عليه السلام وذكرته الاخبار على انه اله لكلب بدومة الجندل[٥٦] . وقد ذكروا كذلك انهم كانوا يقدمون له اللبن مما لا يتفق مع كونه الاب واما بعل فانما جاء فيما قصه القرآن الكريم عن الياس ولم يعرفه المفسرون معرفة يقينية مما يدل على ان عبادته في الجاهلية القريبة كانت منسية ، ثم انه تعالى يقول : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . » فهو اذا لا يرتبط مع الاعتقاد بالله ..[٥٧]

هذه ابرز الاصنام في الجاهلية ولا نستطيع هنا ان ندرسها كلها .. ويكفي اذ نلاحظ انها كما ذكرت في المصادر الاسلامية لا يمكن ان تصنف الى عائلة معبودة .. وقد عددها ابن الكلبي مثلا تعدادا دون ان يذكر أية علاقة بينها . بل ذهب الى ان بعضها اقدم من بعض .. وكذلك نلاحظ ان علاقة هذه الاصنام بالكواكب والفلك عامة غير ظاهرة لا في القرآن الكريم ولا في المصادر الاسلامية الاخرى .. وقد نص اهل الاخبار على عبادة تميم للشمس[٥٨] وعلى عبادة الشعرى[٥٩] والثريا[٦٠] والقمر[٦١] عند العرب

---

(٥٥) البخاري : فتح الباري ٢٨٢/٧ ، تفسير الطبري « بولاق » ، ٢٨/٢٦ ، الطبقات الكبرى حـ٢/ق١/ص٣٣ .

(٥٦) الاصنام ص ١٠ جمهرة انساب العرب ص ٤٩٢ : والاية الكريمة هي ٢٣ نوح .

(٥٧) الصافات ١٢٥ . وانظر الاقوال المختلفة في بعل في تفسير الطبري « بولاق » ٥/٢٣ وبعل كما يقول نلسن هو الذي يقابل ال عند العرب ويعني الرب ص ٢١٣ « ترجمت الكلمة الى العربية بلفظ السيد ولكننا راينا السهيلي يذكر الكلمة بلفظ الرب . في الروض الانف ١٤٨/١ . »

(٥٨) المحبر ص ٣١٢ ، ٣١٦ .

(٥٩) تفسير الطبري « بولاق » ٤٥/٢٧ المحبر ١٢٩ .

(٦٠) الاشتقاق ص٤١٦ . جاء اسم عبدالثريا في قبائل الاشعريين .

(٦١) بلوغ الارب ٢٣٧/٢ ــ ٢٣٩ . اورد ذكر الكواكب المعبودة ومنها القمر الذي عبدته كنانة .

ولكنهم لم يربطوا بين هذه الاجرام وبين اى من الاصنام • ونجد بدلاً من ذلك افكارا وعقائد عن الملائكة والجن والنبوة لله تعالى والشفاعة عنده مما سنفصل القول فيه • والاشارة القرآنية الوحيدة الى هذه الثلاثية الفلكية الالهية هي التي وردت في تفكر ابراهيم عليه السلام ووقوفه بفكره عند الكوكب والقمر والشمس • وقد ذكر ابن كثير ان الكوكب هو الزهرة وان هذه الحكاية عن ابراهيم هي في الحقيقة موعظة منه لاهل حرّان[٦٢] • وهي رواية تتفق مع ما يذكره المؤرخون من ان الشمس اله ذكر عند الساميين في الشمال وفي الشرق • وهي الاب[٦٣] • ونحن نجد ابراهيم عليه السلام يتوقف بعد الكوكب ثم القمر عند الشمس قائلا « هذا ربّي هذا أكبر • » فالقرآن الكريم اذن يحكي العقيدة البابلية التي تتخذ الشمس الها اكبر • وهو شيء لا يتفق مع الاعتقاد باللات الهة الشمس عند العرب وهي مؤنثة •

اما ما يذكره نلسن من ان الاسلام محا ماله صلة بالشمس في سبيله الى التوحيد فلا يصح مع ارتباط الصلاة بحركة الشمس يوميا • ولعل الاسلام اختار التوقيت القمري لسهولة مراقبته وضبطه على ابسط الناس من البدو المنقطعين ومن سكان المدن البعيدة عن مركز الحكومات •• واعترف بأنني لم افهم اشارة نلسن الى الصفات القمرية في الحج •

نخلص من ذلك الى ان الاعتقاد بالله وجد في الجاهلية منحدرا من أصول قديمة تزيده رسوخا الديانتان اليهودية والنصرانية والنبوات بين العرب انفسهم • ومنها ما ذكره القرآن الكريم كصالح وهود وشعيب « ابن ذى مهدم »[٦٤] •• فليس صحيحا الا يؤخذ في الحساب ما ابقته هذه النبوات العربية في عقائد العرب ولا ان ينظر اليها على انها تاريخ منسي تماما • فان مرور

(٦٢) الانعام ٦ ٧، البداية والنهاية ١٤٣/١ .

(٦٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ١٢١/٥ – ١٢٢ ، ٩١/٥ – ٩٥ التاريخ العربي القديم ص ٢١٧ .

(٦٤) الاشتقاق ص ٥٢٧ . وروى عن ابن الكلبي انه من سحول التي ذكرها مع قبائل حمير .

النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر في طريقه الى تبوك كشف لنا ان مساكن ثمود كانت شاخصة معروفة •• وقد جاء حديث الحجر في الصحيح وجاءت فيه تفاصيل دقيقة من القصة القرآنية فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم الجيش عن أن يستقي من غير بئر الناقة[٦٥] مما يدل على انها كانت مميزة عندهم •

ونهى ايضا عن دخول الحجر الا للعبرة : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم الا باكين »[٦٦] فكان قبورهم أو رممهم كانت مشاهدة يشار اليها • وهو ما يؤكده المسعودي فيقول : «وديارهم بفج الناقة وبيوتهم الى وقتنا هذا ابنية منحوتة في الجبال ورممهم باقية وآثارهم بادية وذلك في طريق الحج لمن وردمن الشام بالقرب من وادي القرى وبيوتهم منحوتة في الصخر بابواب صغار ومساكنهم على قدر مساكن اهل عصرنا وهذا يدل على ان اجسامهم على قدر اجسامنا دون ما يخبر به القصاص من بعد أجسامهم وليس هؤلاء كعاد اذ كانت آثارهم ومواضع مساكنهم وبنيانهم بارض الشحر تدل على بعد اجسامهم »[٦٧] • فكان ديار عاد كانت مشاهدة بالشحر على ايام المسعودي بحيث عقد هذه المقارنة •• والا فانه كان حريا ان يشك في حجم دور عاد لو جاءه خبرها عن القصاص •

ولا يعني هذا ان اهل الجاهلية كانوا يعون حقيقة نبوة صالح عليه السلام على مثال ما روى القرآن الكريم •• فلو صح ذلك لكانوا موحدين • ولكننا نهتم بما خلفته نبوة صالح في عقائدهم دون وعي تاريخي منهم • اما ما وعوه من القصة فهو المتعلق بالناقة •ولعلهم حملوها على محل النذور الجاهلية كالبحيرة والوصيلة والسائبة والحامي • ولعلهم اعتبروها كائنا الهيا معبودا كجمل طيء الاسود[٦٨] وسقب بكر الذي أكله ضرار بن الخطاب[٦٩]

---

(٦٥) البخاري : فتح الباري ٦/٢٩٢ ، مسلم : النووى ١٨/١١١ .

(٦٦) البخاري : فتح الباري ٤/٣٠٢ ــ ٣٠٣ .

(٦٧) مروج الذهب ١/٣٥٤ .

(٦٨) الروض الانف ٢/٣٤٢ .

(٦٩) جمهرة انساب العرب ص ١٧٩ .

وفي صورة الحيوان المحمي مثل كبش النعمان الذي ذبحه علباء بن أرقم[٧٠] وناقة الملك الغساني التي نحرها الحارث بن ظالم[٧١] ومثل هذا القصص خليق ان يكون مرتبطا في الذهن الجاهلي بقصة ثمود .

ويضاف الى النبوات العربية القرآنية خالد بن سنان العبسي الذى اطفأ نار الحرتين حين اوشكت ان تحوّل قومه الى المجوسية . وهو الذى قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام : « نبي ضيعه قومــــه . » وهو نبي أهل الرس المذكور في القرآن الكريم[٧٢] أو هو حنظلة بن صفوان ــ واسمه عربي واضح ــ في قول آخر .[٧٣] ويضاف الى ذلك مجلة لقمان التي كانت عند ســويد بن الصامت رضي الله عنه وعرضهـــا على النبي فاستحسنهـــا عليه الصـــلاة والسلام .[٧٤] .

وللاعتقاد بالله جوانب يهمنا ان نقف عليها :

ومن ذلك ان القرآن الكريم يذكر انهم اثبتوا الخلق لله . قال تعـــالى : « ولئن سألتهم من خلق الســـموات والارض ليقولنّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » لقمان ٢٥[٧٥] . « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله فأنىّ يؤفكون . » الزخرف ٨٧[٧٦] . « ولئن سألتهم من خلــق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم » ، الزخرف ٩ .

---

(٧٠) انظر القصيدة رقم ٥٥ من الاصمعيات التي يقولها علباء في الاعتذار من فعله ووصف الكبش .

(٧١) الاغاني « دار الكتب » ١١٨/١١ .

(٧٢) اخبار خالد بن سنان العبسي في الاصابة ١٥٤/٢ ، الحيوان ٤٧٦/٤ ، الاشتقاق ٢٧٨ ، مروج الذهب ٥٤/١ ، تاريخ ابن الاثير ٢١٩/١ ، صبح الاعشى ٤٠٩/١ ، بلوغ الارب ٢٧٨/٢ ، نهاية الارب ١١٣/١ .

(٧٣) بلوغ الارب ٧٩/٢ ، المحبر ص ٦ ، ١٣١ .

(٧٤) اسد الغابة ٢٤٩/٤ .

(٧٥) صحيح الطبري انها في المشركين : تفسير الطبري « بولاق » ٥١/٢١ .

(٧٦) تفسير الطبري « بولاق » ٦٣/٢٥ .

واستند القرآن الكريم في جدله مع المشركين في مسائل التوحيد والبعث الى هذه العقيدة جاء في تفسير القرطبي لقوله تعالى : « يا ايها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم • » انه تعالى خصّ خلقه لهم من بين صفاته لأن العرب كانت مقرّة بأن الله خالقها •[٧٧]

واثبتوا لله الرزق والاحياء والاماتة وملك الكون • يقول تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ومن يدبّر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتّقون • » يونس ٣١ •

« قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله قل افــلا تذكّرون • قل من ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون الله قل افلا تتقون • قل من بيده ملكوت كلّ شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون • سيقولون الله قل فأنى تسحرون « المؤمنون ٥٤ـ٩٥ •

وقد انتبه الطبري الى قرب هذه النظرة الى الالوهية من النظرة الكتابية المعترف بها في الاسلام ، فقال في نقاش رواية عن مجاهد توجه قوله تعالى : «فلا تجعلوا لله أندادا وانتم تعلمون • » الى انه موجه الى اهل الكتاب : « واحسب الذي دعا مجاهدا الى هذا التأويل واضافته ذلك الى انه خطاب لاهل التوراة والانجيل دون غيرهم الظن منه بالعرب انها لم تكن تعلم ان الله خالقها ورازقها•• بجحودها وحدانية ربها واشراكها في عبـــادته ما كانت تشرك فيها فقال جلّ ثناؤه : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » وقال : « قل من يرزقكم من السماء والارض •• الاية • » فالذى هو اولى بتأويل قوله وانتم تعلمون اذ كان ما كان عند العرب من العلم « بوحدانية الله » وانه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين •• ولم يكن في الآية دلالة على ان الله جلّ ثناؤه عنى بقوله وانتم تعلمون أحد الحزبين بل مخرج الخطاب

---

(٧٧) الجامع لاحكام القرآن ٢٢٦/١ . البقرة ٢١ .

بذلك عام للناس كافة لأنه تحدى الناس كافة بقوله : « يا ايها الناس اعبدوا ربكم »[٧٨] .

وجاء مثل هذا عن مجاهد في تأويل قوله تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله الاّ وهم مشركون » فنقل الطبري قوله : « ايمانهم قولهم الله خالقنا ورازقنا، هذا (ايمان) ، مع (شرك عبادتهم) غيره »[٧٩] .

فالحنفاء عرفوا « وحدانية الله » كما يقول الطبري في العقيدة دون العبادة وهو رأى واضح في تفسير مجاهد... وهو امر يحصر اهمية الاصنام والشركاء عندهم في العبادة خاصة ويمكننا من ان نفهم فكرة الشفاعة عندهم .

الواقع ان هذه الاصنام والشركاء من الملائكة والجن لم تعبد لقوة لها في ذاتها . وانما هي مرحلة متوسطة بين آمال البشر ورغباتهم ومن يملك تحقيقها وهو الله ..

ومما حكاه القرآن الكريم في ذلك من اقاويلهم : قوله تعالى « ما نعبدهم الاّ ليقرّبونا الى الله زلفى . » الزمر ٣ . « أم اتّخذوا من دون الله شفعاء » الزمر ٤٣ . « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . » يونس ١٨ . وناقش القرآن الكريم الفكرة ورفضها وسخر بها . قال تعالى : « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين . » الروم ١٣ . « وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء . » الانعام ٩٤ . « أم اتّخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون . » الزمر ٤٣ .

ومن المحتمل عند جواد علي ان تكون فكرة الشفاعة عند مشركي العرب من مصدر يهودي او نصراني لوجودها في الدينين .[٨٠] .

ويمكن تصنيف هؤلاء الشركاء الى ملائكة وجن واصنام .

---

(٧٨) تفسير الطبري «المعارف» ١/٣٧١ . البقرة ٥ : ٢٢

(٧٩) يوسف ١٠٦ . تفسير الطبري « بولاق » ١٣/٥٠ ــ ٥٢ .

(٨٠) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٦٥ .

اما الملائكة والجن فيقول فيهم تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون • قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون • » ٤٠ – ٤١ •

ان الاية الكريمة تضع ايدينا على ان فكرة الحنفاء عن الملائكة ليست هي الفكرة الاسلامية نفسها • صحيح انهم كانوا يعرفون الملائكة بهذا الاسم ولكن المسمى به كانوا هم الجن وانما يختلف الملائكة عن الجن بصفات سنحاول ان تتبينها فيما بعد •• وقد نبّه السهيلي الى ان الجاهلية لم تكن تعرف جبريل ولذلك سألت عنه السيدة خديجة (رضي الله عنها) أهل الكتاب عندما أوحي الى النبي عليه الصلاة والسلام •[٨١] •

والطبري ينقل عن أهل التأويل ان الملائكة هي الجن عندهم : « قال آخرون : قال كفار قريش الملائكة بنات الله وقالوا : الجنة هي الملائكة[٨٢] وذلك في تفسير قوله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون • » الصافات ١٥٨ • ونقل الآلوسي عن ابن دريد : « وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة جنا لاستتارهم عن العيون »[٨٣] •

واهم ما تصوروه في الملائكة كونها اناثا وهي نظرة تخالف ما يعرف عند اليهود اذ الملائكة عندهم ذكور •• وان كانوا عرفوا بنوة الملائكة لله فسموهم: بنو الوهيم[٨٤] وفكرة بنوة الملائكة واضحة عندهم يصورها القرآن الكريم ولا نجد ضرورة للوقوف عندها •

---

(٨١) الروض الانف ١٥٦/١ .

(٨٢) تفسير الطبري « بولاق » ٦٦/٢٣ . تفسير القرطبي ٥٢/٧ في آية اخرى .

(٨٣) بلوغ الارب ٣٥١/٢ .

(٨٤) تاريخ العرب قبل الاسلام ٤١/٥ .

ومن أول ما يميز الملائكة عن باقي اصناف الجن الشرف والمحتد . نقل الطبري عن مجاهد ان كفار قريش قالوا الملائكة بنات الله فسألهم ابو بكر عن امهاتها . فقالوا انها بنات سروات الجن .(٨٥)

ومن صفات الملائكة الخاصة الطهر والخير ... يقول الجاحظ : « فان طهر الجني ونظف ونقي وصار خيرا كله فهو ملك في قول من تاول قوله عز ذكره : كان من الجن ففسق عن امر ربه . »(٨٦) .

ولابد من انهم اعتقدوا في الملائكة كذلك القرب من الله وان في امكانها ان تحقق لهم عنده اكثر مما يحقق باقي انواع الجن .

وكانت الملائكة مصورة في الكعبة رأى النبي عليه الصلاة والسلام صورتها في الفتح(٨٧) .. فاذا اضفنا الى هذا الحديث قوله تعالى : « افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . الكم الذكر وله الانثى . »(٨٨) فمن المحتمل ان تكون هذه الاصنام رموزا للملائكة أو انها كانت تحل فيها الملائكة ..

فهي اثنى كما تصوروا الملائكة وهي لله أى بناته بزعمهم . وقد روى الطبري عن « بعض اهل المعرفة بكلام العرب من اهل البصرة » ان هذه الاصنام كانت في جوف الكعبة(٨٩) . وهذا لا يتعارض مع ما يذكرونه من اماكن عبادتها الرئيسية في الطائف وقديد .. اذ يمكن ان يكون من هذه الاصنام نماذج في الكعبة .. وهذا ان صح يصور لنا كيفية عبادتهم للملائكة

---

(٨٥) تفسير الطبري « بولاق » ٦٦/٢٣ .

(٨٦) الكهف ٥٠ ، الحيوان ١٩٠/٦ ونقله الالوسي في بلوغ الارب ٣٥١/٢ .. ويذكر الجاحظ من اصناف الجن عامر ، ومارد ، روح ، عفريت وغيرهم .

(٨٧) السيرة : الروض الانف ٢٧٤/٢ ، تاريخ مكة ١١٠/١ .

(٨٨) النجم ١٩ — ٢١ . وانظر تفسير الطبري « بولاق » ٣٤/٢٧ .

(٨٩) المصدر السابق .

والجن .. وانها كانت عن طريق الرموز التي تمثلها او تحل فيها . وللملائكة صلات بالناس تمتد حتى تشمل النسب . فقد رووا عن العرب اعتقادهم بان جرهما القبيلة البائدة من أب ملك اهبط من السماء لذنب اقترفه وتزوج من الناس ومثلها ذو القرنين وبلقيس ملكة سبأ وقريب منهم بنو السعلاة من بني عمرو بن يربوع .[٩٠] .

ولم تكن الجن مقدسة معبودة كلها في تصورهم . فان منها ما ينتسب الى الله بالبنوة أو نحوها من النسب ومنها ما اجترأ العرب عليه فقتلوه افرادا وقبائل . كالذى يروى عن بني سهم من قريش من انهم حاربوا قبيلة من الجن. ذلك ان جنيا حج فقتله فتى سهمي فقتلت به الجن كثيرا من بني سهم وعلت غبرة شديدة بمكة .. ثم ان بني سهم ومن معهم من احلافهم وعبيدهم ظهروا على الجبال فقتلوا الخنافس والحيات وما اليها فضجت الجن ووسطت قريشا في الصلح[٩١] . وذكروا ان حرب بن امية ومرداس بن ابي عامر احرقا غيضة يسكنها الجن وازدرعاها .. وقد خرجت منها عند حرقها حيات بيض .. ثم ان الجن قتلتهما[٩٢] . واحتالوا انواع الحيل لدفع اذى الجن .. ولعل الحلف كان من هذه الحيل .. فقد جاء من قول ابي لهب : « يا بني فلان ان هذا يدعوكم الى ان تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن اقيش »[٩٣] وكانوا اذا قتلوا الثعبان كسروا على رأسه روثة أو القوا عليه شيئا من رماد[٩٤] . واستخدموا الوانا من التمائم لدفع اذى الجن كسن الثعلب ، وكعب الارنب ونحو ذلك كثير[٩٥] .

---

(٩٠) الروض الانف ٨١/١ ، الحيوان ١٩٧/٦ – ١٩٨ ، بلوغ الارب ٣٤٨/٢ .

(٩١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٥/٥ عن الازرقي .

(٩٢) الاغاني « دار الكتب » ٣٤١/٦ – ٣٤٣ ، الحيوان ٣٠٢/١ معاهد التنصيص ١٢/١ .

(٩٣) السيرة : الروض الانف ٢٦٣/١ .

(٩٤) المقتطف العدد ٢ سنة ١٩ ص ٥٨٦ ، من مقالة لمحمد المويلحي .

(٩٥) انظر امثال ذلك في نهاية الارب ١٢٣/٣ وبلوغ الارب ٣٢٤/٢ .

اما الاصنام والاوثان فيهمنا في دراستها ان نشير الى ان الكثير منها غير مقطوع الصلة بوثنية العراق والشام واليمن • فاللات والعزى وهبل ومناة وود وذو الشرى ونسر وغيرها وجدت في النقوش السبأية والمعينيــة والنبطيــة والصفوية واللحيانية والثمودية[٩٦] • وهذا يعني ان هناك صلة بين حنفاء الجاهلية وغيرهم من المشركين في الجاهلية القديمة •• وان صلة العرب بما حول الجزيرة لا تنحصر في نطاق التأثيرات الكتابية •• وهذا بدوره يؤكد وجود تأثيرات حضارية اجنبية قديمة الاصول •

وسبق ان ذكرت اختلاف نظرة العرب الى هذه الاصنام عن نظرة الامم المحيطة بهم والقبائل البائدة منهم •• فلعل هذه الاصنـــام كانت تنتقل اليهم منفردة بحيث ينسى اصلها وكذلك فانها لتعدد مصادرها لا تظل واضحة العلاقة بعضها ببعض •• وانا اتعرض هنـــا الى العرب النـــاطقين بعربية القرآن في الجاهلية •• وهم الذين اعنى بدراسة عقيدتهم •• تمهيدا لدراسة شعرهم الذى جاء بهذه اللغة • وهذه الملاحظة مقيدة بهذا الحد ولا تشمل العرب عامة •

وقد عبدت هذه الاصنام على مستويات مختلفة •• فقد كان من العرب من يعبدها لقدرة القوى التي تتصل بها على الشفاعة كما مر بنا • وكان فيهم من يعبدها لذاتها معتقدا ان لها قدرة خاصة بها • وهذا المستوى هو الذى يعبّر عنه القرآن الكريم في مثلقوله تعالى: « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه•» الحج ١٣ • وقوله تعالى : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقـــذوه منه ضـــعف الطالب والمطلوب • » الحج ٧٣ •

ويصور هذا المستوى ما روى البخارى عن ابي رجاء العطاردى قال : « كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا هو خير منه القيناه واخذنا الآخر فاذا لم

---

(٩٦) تاريخ العرب قبل الاسلام ٨٧/٥ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١٢٦ وانظره /٨١ حيث يؤكد هذه الحقيقة .

نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب جئنا بالشاة نحلبها عليه ثم طفنا به .»[٩٦أ] .
ومثله ما جاء عن عبدالرحمن بن جل النهدى قال : «كنا في الجاهلية اذا تحملنا حملنا حجرا على بعير فاذا رأينا احسن منه القيناه واخذنا الآخر فاذا سقط عن البعير قلنا سقط الهكم فالتمسوا غيره ... »[٩٧] .

وفي هذا الصدد يقول الآلوسي : « ومن اسبابه « اى الشرك » ان الشياطين تدخل الصنم فتحدثهم وهم لا يشاهدون الشياطين فجهلتهم وسقطتهم يظنون ان الصنم نفسه المخاطب وعقلاؤهم يقولون تلك روحانية الاصنام وبعضهم يقول انها الملائكة وبعضهم يقول انها العقول المجردة وبعضهم يقول هي روحانيات الاجرام العلوية وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل اذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه الها ولا يسأل عما وراء ذلك . » ويذكر المسعودي قريبا من ذلك[٩٨] .

وقد لا يكون هذا الكلام في العرب خاصة . الا انه يمثل تفاوت الجماعة الوثنية الواحدة في تصور قوى الاصنام وحقيقة الداعي الى عبادتها . يؤكد ذلك ان ابن الكلبي ينسب عبادة الجن الى بني مليح من خزاعة[٩٩] .

ومما يلحق بذلك تخصص الاصنام بتأثير معين لكل منها . ويروى من ذلك ان قريشا حملت اللات والعزى الى احد[١٠٠]. فكأنها الهة قوةوحماية. يؤكد ذلك ان نساء ثقيف قلن عندما هدمت اللات : لتبكين دفاع[١٠١] . وهبل وذو الخلصة كانا يستقسم عندهما بالازلام[١٠٢] .. فهما على صلة بالغيب والعدالة .

(٩٦أ) البخاري : فتح الباري ٨ / ٧٤ .
(٩٧) الاصابة ٥/٨٥ .
(٩٨) بلوغ الارب ٢١٦/٢ . وربما كان ينقل عن اغاثة اللهفان لابن القيم . مروج الذهب ٤٥/٢ .
(٩٩) الاصنام ص ٣٤ .
(١٠٠) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦٨/٥ .. وانظر في اماكن هذه الاصنام تفسير الطبري « بولاق » ٣٤/٢٧ .
(١٠١) السيرة : الروض الانف ٣٢٦/٢ .
(١٠٢) الاصنام ٢٤ ، ٢٧ .

اما مناة فهي متعلقة بالقدر . يقول ابن جني في ذلك : « مناة أسم صنم وهو فعله من مناه يمنيه اذا قدره وذلك لما كانوا يعتقدون فيها .. »[١٠٣] .

وجاء في اللسان ان المنى القدر وان المنى والمنية الموت لأنه قدر . وذكر جواد علي ان مناة جاءت مع جد في العهد القديم علمين لالهين ولما كان جد يعني ما يرغب فيه والحظ الحسن فمناة في مقابل ذلك لما يكره[١٠٤] .

وقد كانت هذه الاصنام توقع بمن يكفر بها عقوبات صارمة . فقد زعمت قريش ان زنيرة عميت لكفرها باللات والعزى حين أسلمت[١٠٥] . وشتم ضمام ابن ثعلبة اللات والعزى في دعوته لقومه لكي يسلموا فخوفوه من البرص والجذام والجنون[١٠٦] .

واهم العبادات عند حنفاء الجاهلية واخطرها الحج الى مكة وقد رأينا انه في نظر كثير من المفسرين واللغويين أهم ما كان يميز الحنيف .. أو انه هو الحنيفية . وقد ذكرت الاخبار بيوتا اخرى مثل بيت ذى الخلصة المسمى الكعبة اليمانية والكعبة الشامية[١٠٧] ورئام[١٠٨] وبوانه[١٠٩] وبيوت للعزى واللات ومناة وذى الكعبات وسنداد وغيرها[١١٠] . ومع ذكر هذه البيوت فان ما نعرفه عنها وعن طريقة التعبد فيها لا يكاد يذكر وهي لا تخرج عن ان تكون معابد اقيمت لصنم معين . في حين ان حج مكة موسم لعبادة الله عندهم ولنا على ذلك دلائل :

---

(١٠٣) المبهج ص ٢٧ .

(١٠٤) تاريخ العرب قبل الاسلام ٤١/٥ .

(١٠٥) الاستيعاب ٧٥٧/٢ .

(١٠٦) الاستيعاب ٤٠/١ .٣ السيرة : الروض الانف ٣٣٩/٢ .

(١٠٧) البخاري : فتح الباري ٥٧/٨ .

(١٠٨) السيرة : الروض الانف ٢٨/١ ، الاكليل ٨٢/١ .

(١٠٩) طبقات ابن سعد ١٠٣/١/١ .

(١١٠) انظر السيرة : الروض ٦٤/١ ، بلوغ الارب ٣٤٦/١ ، تاريخ العرب قبل الاسلام ١٧٤/٥ — ١٧٦ .

ومن ذلك ان المشركين حجوا البيت موسمين لسنتين بعد تطهير الكعبة من الاصنام عند الفتح ٠ ذلك ان الفتح كان في رمضان من سنة ثمان وحج بالناس تلك السنة عتاب بن اسيد(١١١) ٠

ثم حج بهم ابو بكر (رضي الله عنه) سنة تسع ونودى حينئذ : «لايحجن بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » ٠ وقرأ علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) بما ارسله به النبي عليه الصلاة والسلام من سورة براءة التي نبذ فيها الاسلام الى الشرك(١١٢) ٠ ولو كان لحج المشركين علاقة باصنام مكة لتركوا الحج اليها بعد زوال هذه الاصنام ٠ ومن البديهي ان عمرة المشركين بمكة لم تنقطع خلال هذه الفترة ٠

ومن هذه الدلائل ان المسلمين لم ينقطعوا عن الطواف بالكعبة والحج اليها في الفترة المكية بعد البعثة ٠ ثم انهم سعوا للعمرة بعد الهجرة وقضوا هذه العمرة التي منعوا من اتمامها بعد صلح الحديبية ٠٠ ومن المهم ان نلاحظ ان نص صلح الحديبية لا يتضمن أى شيء يتعلق بكيفية اعتمار المسلمين(١١٣)٠ ولو كان في شعائر الحج والعمرة ما يتعلق بالاصنام لما رضي المشركون ان يعرضوها للاهانة باعراض المسلمين عنها ٠

ومن ذلك ما ورد في الصحيح من حديث عمر (رضي الله عنه) انه نذر في الجاهلية ان يعتكف بالكعبة ليلة وقد أمره النبي عليه الصلاة وا لسلام ان يفي بنذره(١١٤) ٠ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتأكد من نذور الجاهلية ولا يقبل منها ما كان على صلة بالاصنام(١١٥) ٠

---

(١١١) المحبر ١١ وانظر تاريخ ابن الاثير ١٦١/٢ ، ١٩٩ . والسيرة : الروض الانف ٢/

(١١٢) البخاري : فتح الباري ٦٧/٨ ، مسلم : النووي ١١٦/٩ ، تفسير الطبري « بولاق » ٤٤/١٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٧٥ .

(١١٣) السيرة : الروض الانف ٢٣٠/٢ ، ٢٥٤ ، مغازى الواقدي ٣١٠ .

(١١٤) البخاري : فتح الباري ٢٢١/٤ ، ٢٢٨ . مسلم : النووي ١٢٤/١١ .

(١١٥) انظر سؤاله عليه السلام عن نذر كريم بن سفيان الثقفي في اسد ←

وهذا كله يجعلنا اقرب الى قبول ما ورى من تلبيات القبائل المختلفة في الجاهلية •• وهي وان كانت تلبيات يظهر فيها الشرك الا انها تلبيات موجهة الى الله تدعوه وتضرع اليه • ومنها تلبية قريش : « لبيك اللهم لبيك • لبيك لا شريك لك • الا شريك هو لك • تملكه وما ملك • » ومنها تلبية من نسك للعزى : « لبيك اللهم لبيك • لبيك وسعديك • ما احبنا اليك • »[116] • ويروى ابن حبيب اكثر من عشرين تلبية مشابهة •

ولا حاجة بنا الى تفصيل القول في الحج فهو عبادة معروفة •• غير اننا نشير الى الفروق القبلية التي ظهرت في ممارستها • فقد كانت قريش والحمس عامة لا يقفون بعرفة ولا يخرجون من الحرم[117] • وكانت الاوس والخزرج وغسان لا تطوف بالصفا والمروة ويبدو ان ذلك علاقة بمناة التي ينسكون اليها[118] • وهذا يعني ان قريشا لم تكن تفرض على العرب طريقة واحـــدة في الحج •

وعرفت قريش عبادة اخرى هي صوم يوم عاشوراء • وهو اليوم الذى كانت الكعبة تكسى فيه •• وقد روى ان النبي عليه الصلاة والســـلام كان يصومه مع قومه ثم صامه وأمر بصيامه في المدينة عندما رأى اليهود يصومونه• ويبدو ان هذه العبادة مما أخذ عن اليهود •• ولكننا لا نعلم شيئا عن انتشار هذه العبادة في غير قريش • وربما كانت معروفة عند الاوس والخزرج لانهم اقرب الى اليهود •• هذا اذا صح ان هذه العبادة يهودية المصدر[119] •

الغابة ٢٣٤/٤ والاصابة ٢٩٦/٥ وذكر ابن حجر ان احمد والبغـوى اخرجا حديث كريم .. وانظر : النهاية في غريب الحديث ٩٨/٢ . في رقية عرضها جابر عليه صلى الله عليه وسلم .

(١١٦) الاصنام ص ٧ . المحبر ص ٣١١ — ٣١٥ .

(١١٧) البداية والنهاية ٣٠٥/٢ ، بلوغ الارب ٢٨٩/٢ .. وسيأتي الحديث عن الحمس بالتفصيـــل .

(١١٨) تفسير الطبري « المعارف » ٢٣٠/٣ وما بعدها . مسلم : النووي ٢٣/٩ — ٣٤ .

(١١٩) انظر احاديث صيام عاشوراء في البخاري : فتح الباري ٣٥٦/٣ ، ١٩٨/٤ ، مسلم : النووي ٤/٨ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ . وفتح الباري ٢٠٠/٤، بلوغ الارب ٢٨٨/٢ .

وعرفت قريش التحنث بواسطة الخلوة •• والتحنث يعني التكفير عن الذنب والخروج من الاثم • وقد روى ان عبدالمطلب هو الـذي سن التحنث وان المتألهين أخذوا ذلك عنه وقد كان النبي يتحنث قبل البعثة بالخلوة في حراء[١٢٠] • ولا نعلم على وجه يقيني لون العبادة التي يمارسهـا المتحنث في خلوته •• ومن المحتمل ان يكون التحنث تقليدا لرهبانية النصارى •• ولعل ذلك هو الذي سبب اختلاف الروايات في طريقة تعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلوته بحراء قبل مبعثه : أكان يتعبد على شرع سابق أم بالهام على الوحي •

ومن طقوس العبادة المشركة وتقاليدهـا التي لا يشك فيها النـذور والقرابين •• واخطرها النذور والقرابين البشرية ••

والقرآن الكريم يرجع بعض قتل الاولاد الى الفقر والملق : فيقول تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق • » الاسراء ٣١ • ولكنه يشير في موضع آخر الى صلة هذا القتل بالدين والعبادة عندهم • يقول تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم •» الانعام ١٣٧ • وجاء تفسير ذلك بانه اشارة الى الوأد وان الشركاءهم الهـة الشرك أو رجال الدين والكهان أو الشياطين •• واعتبر اشارة الى مثل نذر عبدالمطلب في قصة فداء عبدالله أبي النبي عليه الصلاة والسلام ••[١٢١] فقتل الاولاد على هذا له علاقة بالدين عندهم يصورها القرآن الكريم بقوله تعالى زين • واقل ما يقال في فهم ذلك ان الدين ورجاله لم يحاربوا هذه العبادة بل وقفوا يشجعونها ويزينونها وجاءتنا من مصادر « كلاسيكية » اخبار في التقرب بالبشر من العزى خاصة •• فيذكر بركوبيوس « القرن السادس » ان ملك

---

(١٢٠) انظر في معنى التحنث النهاية في غريب الحديث ٢٦٤/١ ، الفائـق ٢٥٠/١ ، وانظر في تحنث النبي عليه الصلاة والسلام فتح الباري ٢٩٨/٢ ، السيرة : الروض الانف ١٥٣/١ .

(١٢١) تفسير الطبري « بولاق » ٣٢/٨ . تفسير القرطبي ٩١/٧ .

الحيرة تقرب بابن الملك الغساني الذى هزمه للعزى ويذكر نيلوس ان جماعة من البدو اخذوا ابنه ليذبحوه للزهرة ـ العزى ـ ولكنهم ناموا حتى طلعت الشمس وفات وقت تقريب القربان فاطلقوا الغلام •• وجاء في بعض تواريخ السريان ان ملك الحيرة تقرب الى العزى بجماعة من الراهبات •• ويرى نولدكه ان الغريين رمز للعزى وان ما تناقله الرواة عن يومي البؤس والنعيم هو في حقيقته من صور التقرب بالبشر الى هذا الاله[١٢٢] •• وهـذه الاخبـار لا تصور املاقا مباشرا •• واغلب الظن ان الفقراء والاغنياء كانوا يضحون بابنائهم لترضى عنهم آلهتهم فتمنحهم المال ان كانوا فقراء •• ولتبارك فيما يملكون وتزيد فيه ان كانوا أغنياء •• ومن الطبيعي ان يزيد الفقراء من هـذه النذور لانهم اكثر احساسا بالحاجة الى عطف الالهة •

والتضحية بالابناء لم تكن محصورة في قبائل قليلة • فقد ورد في الصحيح ان زيد بن عمر بن نفيل ـ وهو عدوى قرشـي كان يحيى المؤودة على النحو الذى اشتهر عن جد الفرزدق[١٢٣] • وهذا يدل على ان الوأد عرف في مكـة على الاغلب •• ويدل على انه ظل معروفا حتى جاء الاسلام •• لقرب عهد زيد من الاسلام • وكانت عادة الوأد معروفة كذلك عند الاوس والخزرج في يثرب لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بايعهم في العقبة الاولى على بيعة النساء ومنها الا يقتلوا اولادهم •• وهي بيعة النساء المذكورة في القرآن الكريم[١٢٤] • واستفتت امرأة ابن عمر وابن عباس ومروان بن الحكم في نذر لها من هذا النوع[١٢٥] ولعله كان منها في الجاهلية •• وقد يكون من آثار الجاهلية

---

(١٢٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ١٠٢/٥ . النصرانية وادابها ١٦/١ ، ١٠ ـ ١١ ، امراء غسان ص ١٨ .

(١٢٣) البخاري : فتح الباري ١١٤/٧ . ويذكر ابن حجر ان ابن اسـحق والفاكهي والنسائي وغيرهم رووا الحديث .

(١٢٤) الممتحنة ١٢ . وانظر فيها تفسير الطبري « بولاق » ٥/٢٨ : وانظر خبر البيعة في تاريخ الطبري ٣٥٦/٢ ، والبخاري : فتح الباري ١٧٦/٧ . ويرجح ابن حجر ان ذلك كان بعد الفتح وليس في العقبة .

(١٢٥) تاريخ الطبري ٢٣٩/٢ . ويذكر ان ابن عمر لم يفتها بشيء . وان ابن

التي تخلفت في البدو وبقيت في المناطق القاصية عن التأثير الاسلامي • ويذكر ابن حبيب ان الطلس كانوا لا يئدون وهو خبر يؤكد صلة الوأد بالدين • لأن الطلس عنده بين الحمس والحلة وهي كلها تقاسيم دينية والطلس عنده اهل اليمن بالدرجة الاولى[١٢٦] •• وقد يكون خبر ابن حبيب صحيحا اذ لم اجد ذكرا لهذا اللون من الضحايا عند من تعرضوا لنقوش اليمن وتاريخه •

وكانوا ينذرون أولادهم ويقفونهم على عبادة الاصنام •• فقد جاء ان أم المغيرة جدة النبي عليه الصلاة والسلام دفعت ابنها الى مناف الصنم فغلب عليه اسم عبد مناف[١٢٧] •• وجاء ان ام تميم بن مر نذرت ان تعلق صوفة برأس الابن الذى يعيش لها وان تجعله ربيطا للكعبة • وفي خبر انها ربطته بالكعبة بالفعل[١٢٨] • ولعل للاعلام المركبة من اسماء الآلهة علاقة بهذه النذور •

ومن النذور والقرابين الحيوانية ما ذكره القرآن الكريم والحديث الشريف من البحيرة والوصيلة والسائبة والحامي[١٢٩] والفرع والعتيرة[١٣٠] • فالبحيرة من الابل ما يمنع دره للطواغيت وتعلم بشق اذنها • والسائبة كما يبدو لون من وقف البهائم للآلهة والوصيلة من الشياه تترك وما يصحبها من ذكر يولد معها وذلك شكراً لعدد معين من الاناث ولدته امها • والحامي الفحل من الابل يعفى من الضراب بعد مدة معلومة يرضونها[١٣١] •

عباس افتاها بأن تفتدى ابنها بمائة بعير قياسا على فدية عبدالله بن عبدالمطلب . وافتاها مروان بأن نذرها باطل لا يجب به شيء . فأخذت بفتواه .

(١٢٦) المحبر ص ١٨١ .

(١٢٧) الروض الانف ٦/١ . تاريخ الطبري ٢٥٤/٢ .

(١٢٨) الروض الانف ٨٥/١ .

(١٢٩) المائدة ١٠٣ .

(١٣٠) البخاري ٩٠/٩ : قال عليه الصلاة والسلام : «لا فرع ولا عتيرة» .

(١٣١) انظر هذا التفسير وغيره في تفسير الطبري « بولاق » ٥٦/٧ . تفسير القرطبي ٣٣٦/١ .

والفرع اول النتاج يذبح للآلهة والعتيرة ذبيحـة رجب[١٣٢] • ويروى الطبري في كيفيـة التقرب بالحيوان انهم كانوا يضربونهـا حتى تموت أو يخنقونها •• وهي المنخنقة والموقوذة التي نهي عنها[١٣٣] • وكانوا يلطخون النصب حول الكعبة بالدم ويعلقون عليها اللحم وربما أراقوا الدماء على الصنم نفسه • يقول عمرو بن عبدالجن[١٣٤] :

اما ودمـاء مائرات تخالهـا على قلة العزى أو النسر عندما
لقد هزّ مني عامر يوم لعلع حساما اذا لاقى الضريبة صـمما

ويقول زهير يصف بازا اصطبغ بدم فريسته[١٣٥] :

فزل عنها واوفى رأس مرقبة كمنصب العتر دمّى رأسه النسك

وذكروا للعزى مذبحا اسموه غبغب العزى[١٣٦] وجاء في الحديث الشريف النهي عن ان يمس رأس الوليد بدم العقيقة[١٣٧] ولعل لذلك صلة بالقرابين وطريقة التقرب بها • كذلك جاء في الصحيح النهي عن صبر البهائم[١٣٨] •• وهذه اشارة الى طرقهم في القربان •

ويبدو انهم كانوا يحسبون ان الالهة تنتفع بالضحية ماديا •• فقد روى انهم لم يكونوا يأكلون من اضاحيهم ، وذلك في تفسير قولـه تعالى : « فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون • لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم •• » الحج ٣٦ ـ ٣٧ •

---

(١٣٢) فتح الباري ٩/٤٩٠ .
(١٣٣) تفسير الطبري « المعارف » ٦/٤٤ ـ ٤٥ . تفسير آية المائدة ٣ .
(١٣٤) الحماسة البصرية ١/٨٠ .
(١٣٥) مختار الشعر الجاهلي ص ٢٥٤ .
(١٣٦) الاصنـام ص ١٨ .
(١٣٧) اسد الغابة ٣/٣٦٣ .
(١٣٨) مسلم : النووي ١٣/١٠٧ ـ ١٠٩ .

ويروى الطبري عن ابن جريح ان الآية نزلت لأن المسلمين ارادوا ان يعظموا البيت كما كان يعظم في الجاهلية وذلك بدماء الاضاحي[١٣٩] ..

وجاء في القرآن الكريم انهم كانوا يحرمون بعض الحيوان على النساء خاصة ، قال تعالى : « وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء .. » الانعام ١٣٩ . وينقل الطبري أقوالا في ذلك ومنها انهم كانوا يحرمون اجنة السوائب ولبنها والوصائل وغيرها على النساء والرجال ان كانت اناثا . وعلى النساء وحدهن ان كانت ذكورا . ويشتركون في أكل الجنين الميت[١٤٠] .

وشملت النذور الزرع[١٤١] . ويروى ابن الكلبي ان بطنا من خولان هم الذين كانوا يقسمون لله تعالى وللشركاء نصيباً من حرثهم[١٤٢]. وقد سخر سبحانه وتعالى من تساهلهم في نصيبه وتشددهم في نصيب الشركاء .

والصلاة من عباداتهم التي عرفوها . قال تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » الانفال ٣٥ . وقال ابن عباس في تفسير الآية : « كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون فكان ذلك عبادة في ظنهم » . ويقول سعيد بن جبير انهم كانوا يمكون نحو أبي قبيس[١٤٣] . واشتهر قيس بن مخرمة بن المطلب بصفيره : « وكان شديد الصفير يصفر عند البيت فيسمع صوته من حراء »[١٤٤] ويمكن انيكون ذلك من صلاتهم . وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم امرأة من ثقيف اسلمت على غير علم من قومها فقال لها : « لا تعبدي طاغيتهم ولا تصلي اليها قالت اذن يقتلونني . فقال : اذا جاءوك فقولي ربي رب هذه الطاغية . ووليها ظهرك

---

(١٣٩) تفسير الطبري « بولاق » ٤٨/٦ ، ١١٩/١٧ .
(١٤٠) تفسير الطبري « بولاق » ٣٥/٨ .
(١٤١) الانعام ١٣٦ . وانظر تفسير الطبري « بولاق » ٣٠/٨ .
(١٤٢) الاصنام ص ٤٤ .
(١٤٣) تفسير القرطبي ٤٠/٧ والطبري « بولاق » ١٥٧/٩ .
(١٤٤) اسد الغابة ٢٢٦/٤ ، الاصابة ٢٦٥/٥ .

اذا صليت ..[١٤٥] . ومن غير المحتمل ان تقف الصـلاة عندهم على المعنى اللغوي .. وهو الدعاء . اذ نلاحظ أعمالا وطقوساً معينة كالصفير والتصفيق والتوجه نحو الصنم فيما سبق من أخبارها . ولكننا لا نملك وصفا حقيقياً لهذه العبادة عندهم .

٢ ــ المجوسية

لم تنتشر المجوسية بين العرب وبقيت آثارها في الحـدود الفردية .. والمؤرخون يذكرون انها عرفت في تميم على قلة .. ويذكرون ان زرارة وابنيه لقيطا وحاجبا والاقرع بن حابس تمجسوا .. ويذكرون ان حاجب بن زرارة تمجس فتزوج ابنته ثم ندم وارتد عن المجوسية[١٤٦] .

ويذكر المؤرخون جماعات مجوسية أخذ منها المسلمون الجزية في مناطق يظن ان الفرس وصلوها أما حكاماً أو جاليات .. ومن هـذه المنـاطق اليمن[١٤٧] والبحرين[١٤٨] . وهجر[١٤٩] وعمان[١٥٠] . ويرى جواد علي ان أكثر هؤلاء المجوس من الفرس .. نقلوا معهم دينهم وعباداتهم وعلل قـلة انتشار المجوسية في العرب بعدم رغبة الفرس في التبشير بدينهم ونشره[١٥١].

والمجوسية ذكرت في القرآن الكريم[١٥٢] .. كذلك أشـار القرآن الكريم الى التنويه بعامة .. قال تعـالى : « وقال الله لاتتّخـذوا إلهين اثنين إنّما هو إله واحد فأيّاي فارهبون » النحل ٥١ . وجاء في نفس السـورة

---

(١٤٥) ترجمة رقيقة الثقفية في اسد الغابة ٤٥٤/٥ والاصابة ٨٢/٨ .

(١٤٦) جمهرة انساب العرب ص ٤٩١ ، بلوغ الارب ٣٤٤/١ ــ ٣٤٥ . اسد الغابة ٢٢٣/٥ .

(١٤٧) الخراج لابن آدم القرشي ص ٧٢ .

(١٤٨) فتوح البلدان ص ٨٩ ، تاريخ ابن الاثير ١٥٥/٢ .

(١٤٩) فتوح البلدان ٩٠ ــ ٩١ . اسباب النزول ص ١٢٨ « الواحدى » .

(١٥٠) تاريخ ابن الاثير ١٥٧/٢ .

(١٥١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٨٤/٦ ــ ٢٨٩ .

(١٥٢) الحج ١٧ .

قوله تعالى : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم • انّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكّلون • إنّما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون » النحل ٩٨ • ولم يصرح الطبري في تفسير اشارة القرآن الكريم واعتبر القرطبي الاشارة نفياً للشرك عامة وقال انه جرى استعمال الاثنين لانهما أدنى العدد ولم يقصد اللفظ خاصة[١٥٣] • وكثرت أقوالهم في عود الضمير في قوله تعالى : « يتولونه »[١٥٤] •

ومع ذلك يروى الطبري والقرطبي ان من الجاهليين من كان يقول بأن الله سبحانه وابليس اخوان • فينقل القرطبي عن ابن الكلبي انه قال : نزلت في الزنادقة قالوا ان الله وابليس اخوان • فالله خالق الناس والدواب وابليس خالق الجان والسباع والعقارب ويقرب هذا من قول المجوس »[١٥٥] ولم يحددوا الاشخاص أو الجماعة العربية التي قالت هذا وان صح ان هذا القول جاهلي فهو يدل على لون من الثنوية والمعرفة بها • ويؤكد هذه المعرفة ما يذكر من حرص قريش على انتصار الفرس على الروم فقد شعروا انهم أقرب الى شركهم • ومن أعجب ما يذكر عن علاقة قريش الدينية بالفرس ان الفرس أرسلوا يعلمون المشركين كيف يجادلون المسلمين في الميتة[١٥٦] •• ويزيد الواحدي انهم كانوا أولياء للفرس وكانوا يكاتبونهم •• ولكن ذلك فيما يبدو لم يتجاوز تبادل الرأي الى اعتناق المجوسية •

٣ ـ الزندقة

يذكر ابن قتيبة وابن حبيب والمقدسي وابو العلاء المعري ان الزندقة كانت في قريش وانها شملت جماعة من أخطر رجالها المعاصرين

---

(١٥٣) تفسير الطبري « بولاق » ٨/١٤ . والقرطبي ١١٣/١٠ .
(١٥٤) تفسير الطبري « بولاق » ١١٦/١٤ ــ ١١٧ . والقرطبي ١٧٦/١٠ .
(١٥٥) تفسير الطبري « بولاق » ٦٦/٢٣ ، القرطبي ٥٢/٧ .
(١٥٦) اسباب النزول للواحدي ص ٧٩ .

للاسلام[١٥٧] •• وهم كما يقول ابن حبيب أبو سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط وابي بن خلف الجمحي والنضر بن الحارث ومنبه ونبيه ابنا الحجاج السهميان والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة • ويقـــول ابن حبيب انهم تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة ••

ويرى الآلوسي[١٥٨] ان الزندقة في استعمال ابن قتيبة ـ الذي نقـــل قوله ـ تعني الثنوية أو القول بالنور والظلمة •• واستدل بأن فكرة انكـار الربوبية والبعث كانت شائعة في العرب فهم لا يحتاجون الى تعلمها من الحيرة أو غيرها • وبعض ما يقوله الآلوسي صحيح •• ولكن ابن قتيبة لا يمكن ان يقصد بعبارته المجوسية والثنوية لأنه لو أراد ذلك لذكر مجوس قـريش مع مجوس تميم •• وكذلك الامر في حديث ابن حبيب والمقدسي •• يقـول الاخير : « وكانت الزندقة والتعطيل في قريش والمزدكية والمجوســـية في تميم •• الخ » يضاف الى ذلك غرابة أخذ المجوسية من نصارى الحـــيرة المذكورين في كلام ابن حبيب •

والذي أتصوره ان القول بزندقة موجودة في قريش جاء من ملاحظـة تشابه لبعض الاقوال المنسوبة الى رجال منهم في حرب الاسلام • تشـــابهها مع أفكار زنادقة العصور الاسلامية • والمرزباني يروي عن ابن طباطبا عـن مؤدبه ابي سعيد محمد بن هبيرة الاسدي في قول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطيء يعمر فيهـرم

« انه كان يسمع المشايخ يقولون : هذا بيت زندقة ، وبعيد من أبياتـه التي يقول في بعضها :

---

(١٥٧) نقل . الالوسي في بلوغ الارب قول ابن قتيبة ٣٤٤/١ ، ٢٨٨/٢ . المحبر ص ١٦١ ، البدء والتاريخ ٣١/٤ . رسالة الغفران ص ٣٥٣ . وذكر ذلك عن بعض العلماء ورجحه والنزاع والتخاصم ص ٢٤ اقتصر على زندقة ابي سفيان .

(١٥٨) قبل د . جواد علي راي الالوسي : تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٨٧/٦ ـ ٢٨٨ .

يؤخر فيوضع في كتـاب فيـدخـر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم »[١٥٩]

ومن الواضح ان الزندقة بالنسبة لزهير ليست خبرا روى عنه وانما هي نتيجة توصلوا اليها من رأى زهير في الموت وذهابه الى انه يجـري على غير منطق .. وهذه فكرة عرفوها لزنادقة عصرهم .

سبيلنا اذن الى معرفة زندقة الجاهلية هي هذه السبيل نفسها .. وذلك بأن ندرس الاقوال المنسوبة الى هؤلاء الزنادقة . والنضر بن الحارث أهـم هذه الجماعة لاتجاهه الى الجدل في حرب الاسلام .. ولكثرة ما وردنا مـن أخباره في ذلك .

رووا أنه تعلم القصص الفارسي وغيره في الحيرة[١٦٠] ـ وهي المصـدر الذي ذكره ابن حبيب لزندقة قريش ـ فكان يقص ويزعم انه أحسن قصصاً من القرآن الكريم .. وكان يقول : انما يأتيكم محمد بأساطير الأولين وانـه عليه الصلاة والسلام يستعين بجبر غلام الاسود بن المطلب وعداس غـلام شيبة بن ربيعة[١٦١] . وكان هو وعقبة بن أبي معيط اللذين ذهبـا الى يثرب ليأتيا بأسئلة يهودية يمتحن بها النبي عليه الصلاة والسلام[١٦٢] وذلك انكـار منه لامكان الايحاء الى البشر .. وعنده ان قصص القرآن الكريم والقصص الفارسي وقصص التوراة سواء ليس منه شيء أحسن من شيء .

وقالوا انه نزل فيه ما فيه ذكر الاساطير من الآيـات الكريمة[١٦٣] .. وقسم من هذه الآيات يتعلق بالآخرة[١٦٤] ... فالبعث والحساب عنـده من الاساطير .. وهو كما يظهر من هذه الآيات يستخف بحديث الاسلام عـن

---

(١٥٩) الموشح ص ٦١ ـ ٦٢ .

(١٦٠) تفسير الطبري ١٥١/٩ . الروض الانف ١٨٨/١ ، الواحدى ١٩٧ .

(١٦١) انساب الاشراف ١٤٠/١ .

(١٦٢) الروض الانف ١٩٠/١ ، ٢٢٥ . تفسير الطبري « بولاق » ١٢٧/١٥ .

(١٦٣) السيرة : الروض الانف ١٨٨/١ . تفسير الطبري « بولاق » ١٣٧/١٨ .

(١٦٤) سنتعرض لهذا في الحديث عن عقائدهم فيما بعد الموت .

الآخرة وبأساطير الاولين كذلك . فهو يربط بين الاثنين ليس على سبيل المدح كما هو واضح .. وفكرة انكار البعث من زندقته .. وقد كانت هذه الفكرة تدفعه الى مادية وتلذذ حسي يراه أهم من أي شيء .. فقد قالوا انه أنزل فيه قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل به عن سبيل الله » لقمان ٦ . فعن ابن عباس قال : « نزلت في النضر بن الحارث اشترى قينة وكان لا يسمع بأحد يريد الاسلام الا انطلق به الى قينته فيقول: اطعميه واسقيه وغنيه ، هذا خير مما يدعوك اليه محمد من الصلاة والصيام وان تقاتل بين يديه فنزلت .. »[١٦٥] وهذا الطابع المادي أيضاً من زندقته ..

ويحتمل ان النضر كان يشك في الالوهة ذاتها[١٦٦] . فقد رووا انه أنزل فيه قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم » لقمان ٢٥ . وقال النبي عليه السلام حين أمر بقتله ورفض الابقاء عليه : « انه كان يقول في الله ورسوله ما يقول »[١٦٧] .

ليس غريبا اذن ان يعتبر النضر وأمثاله زنادقة عند ابن قتيبة وابن حبيب وغيرهما وان يتصور ابن حبيب ان مصدر هذه الافكار هو الحيرة حيث الفرس والنصارى الذين يعتمدون على الفلسفة اليونانية ويدرسونها .. ومنهم النساطرة[١٦٨] .

ولا يمكن ان ندرس أفكار هذه الجماعة كلها لقلة ما ورد عنها ولم يتجه أفرادها الى الجدل اتجاه النضر[١٦٩] . ونحن نعتبرها مجموعة من الافراد

---

(١٦٥) لباب النقول ص ٦١٢ ؛ اسباب النزول ١٩٨ ، انساب الاشراف ١/ ١٤٠ .

(١٦٦) اسباب النزول ٥٥١ ، انساب الاشراف ١/١٤٠ .

(١٦٧) انساب الاشراف ١/١٤٣ . وجاء في نفس الصفحة .. يقول في كتاب الله ورسوله .

(١٦٨) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٧٤ .. ويذكر اهتمامهم بفلسفة ارسطو ونشرها .

(١٦٩) جاء في انساب الاشراف ١/١٤٢ انه كان خطيب القوم .. وجاء في تفسير القرطبي انه انزل فيه قوله تعالى : ١١/٥ : « وكان الانسان اكثر شيء جدلا . » الكهف .

لم يجمعها نظام أو اتفاق غير حرب الاسلام . ولكننا نستطيع ان نفهم على أساس ما قدمناه من أفكار أحدها ان بعض ما يرد في القرآن الكريم من أفكار الجاهلية انما هو من أفكار هذه الجماعة خاصة ، لا المشركين عامة . من ذلك قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم كما حكى القرآن عنهم في جملة ما طلبوه من الآيات ليؤمنوا : « أو تأتي بالله والملائكة قبيلا » الاسراء ٩٢ . فهذا قول ملحد وليس من قول شاك في الرسالة ، ومثل قولهم كما حكى القرآن الكريم : « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » الجاثية ٢٤ . والمفسرون يعتبرون هذا القول من أقوال الدهرية والزنادقة .. وهو فيما يتعلق بالدهر يعم أهل الجاهلية تقريباً . ولكنهم لم يذهبوا الى انكار الآخرة والتوقف عند الحياة الدنيا .. وكذلك فان الدهر عند الغالبية هو القدر ولكنه عندهم كما تمثله الآية الكريمة فكرة تعارض الاعتقاد بأن الله تعالى هو المهيمن على حياة الناس[١٧٠] .

والى هؤلاء فيما نظن ينسب القرآن الكريم القول بعبث الحياة وفوضى الكون . فما يلاحظ انه تعالى يضع في مقابل انكار البعث كونه خلق الخلق بالعدل والحق . ومن ذلك قوله تعالى :

« وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار »[١٧١] . وقوله عز وجل : « وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين لو اردنا ان تتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا انا كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون .»[١٧٢] وقوله تعالى : « أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثا وانكم الينا

---

(١٧٠) سياتي تفصيل ذلك : ويقول تعالى قبل هذه الاية : « افرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا تذكرون . » الجاثية ٢٣ .

(١٧١) سورة ص ٢٧ ، تفسير الطبري « بولاق » ٩٧/٢٣ .

(١٧٢) الانبياء ١٦ ، تفسير الطبري « بولاق » ٨/١٧ .

لا ترجعون • »[١٧٣] وقوله تعالى : « وما خلقنا السموات والارض ومـــا بينهما لاعبين • ما خلقناهما الا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون • »[١٧٤] وقوله تعالى : « او لم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون • » الروم ٨ •

فهذا كله لا يترك في النفس شكا في ان رفضهم للبعث اراهم الحياة بلا مبرر وبلا منطق مفهوم عندهم • وهي فكرة من اخطر افكارهم •• واكثرها انتشارا في الجماعة المفكرة منهم كما سنرى عند دراستنا للشعر ••

وقد حاول بعض الباحثين التماس ديانات اخرى عند العرب كالطوطمية وعبادة السلف وهي عقائد لم يعثروا منها الا على آثار لا تقبل على نحو يقيني• ولو صح أنها وجدت عندهم فهي من المندثر الذى لا يتعلق بالجاهليـــة التي ندرسها[١٧٥] ••

اهل الكتاب :

٤ ــ اليهودية

لم يجد المؤرخون لليهود في البلاد العربية في غير المصادر العربية الا قليلا من المعلومات التي تتعلق بالصراع بينهم وبين نصارى نجران • والمواطن التي ذكرتها المصادر العربية لليهود هي اليمن ويثرب وخيبر وفدك ووادى القرى وتيماء والطائف وتبوك ومقنا والبحرين وهجر[١٧٦] •

---

(١٧٣) المؤمنون ١١٥ ، تفسير الطبري « بولاق » ١٨/٥٠ .

(١٧٤) الدخان ٣٨ ، تفسير الطبري « بولاق » ٢٥/٧٦ ــ ٧٧ .

(١٧٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٣٢ ، ٣٦ .

(١٧٦) فتوح البلدان ص ٤٢ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٩٠ ــ ٩١ . تاريخ الطبري : ٣/٩ ، ١٥ ، ١٦ . تاريخ ابن الاثير ٢/١٤٧ ، ١٥٢ . وانظر تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/١٥٤ ، ١٦٠ وما بعدها .

ويروى ابو الفرج في كيفية دخول اليهود في الجزيرة العربية ان ذلك كان على عهد موسى عليه الصلاة والسلام .. فقد بعث جيشـــا منهم الى العماليق بيثرب وامر الا يستبقوا منهم احدا ولكنهم ابقوا على فتى اعجبهم وعادوا بعد وفاة موسى عليه السلام فرفض يهود الشام ان يقبلوهم لمعصيتهم أمر موسى عليه السلام . فعاد هذا الجيش واستوطن بيثرب .. ثم ان قريظة والنضـــير جاءوا الى يثرب بعد ان تغلبت الروم على اليهود في الشـــام .. والخبر يذكر هجرتين يهوديتين كما نرى[177] .

والهجرة الاولى مقبولة عند المستشرقين . ويرى دوزى انها تمت قبل عهد داود عليه السلام في الالف قبل الميلاد تقريبا . ويرى مرجليوث انها تمت في عهد حزقيال ٧١٧ ـ ٧٩٠ ق.م.

ويرى ولفنسون انها كانت قبل عصر التدوين العبري في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وهم يعتمدون على اشارات في العهد القـــديم تذكر خروج جماعات يهودية نحو الجنوب والغرب[178] . ويرفض جواد علي هذه الهجرة ويرى انها جاءت من ظن المؤرخين الاســـلاميين ان العماليق الذين ذكرتهم التوراة كانوا يسكنون يثرب .. اما الهجرة الثانية فهي مقبولة في الوقت الذى ذكره ابو الفرج[179] .

وتذكر المصادر الاسلامية ان اليهودية انتقلت الى اليمن من الحجـاز . وملخص الرواية في ذلك ان احد التبابعة ترك ابنا له في يثرب وهو في طريقه الى الغزو فقتل الولد . وعندما عاد التبع حاصر المدينة فامتنعت عليه .. وجاء حبران يهوديان اثناء الحصار فذكرا له ان يثرب هي مهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم .. ثم انه اغرى بمكة ولكنهما ذكرا له فضلها وانها مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام .. فكساها .. ثم انهما دخلا اليمن معه فتحديا الوثنية

---

(١٧٧) الاغاني « الساسي » ١٩/٩٤ .

(١٧٨) تاريخ اليهود ص ٣٠ وما بعدها .

(١٧٩) تاريخ العرب قبل الاسلام ٩/٦ ـ ١٠ .

ودخلا نارا مقدسة فلم تضرهما • واخرجا شيطانا من احد الاصنام •• فهودت اليمن أو حمير[١٨٠] • ويرى جواد علي ان دخول اليهودية كان عن طريق التجارة بين الشام واليمن ويعتبر ان هذه الروايات التاريخية تذكر الحجاز لانه يقع على طريق التجارة بين الشام واليمن[١٨١] •

ولا ندرى عن يقين شيئا يحدد لنا مدى انتشار اليهودية في اليمن •• أو مدى النفوذ الذي تمتعت به • ويرفض جواد علي رأي بعض المستشرقين الذي يذهب الى وجود دولة يهودية في اليمن يحددون لها زمنا يتفاوت بين القرن السابق للميلاد والقرن الخامس الميلادي •• لان هذا الرأى يعتمد على الاخبار الاسلاميا فحسب ولا تثبته النقوش أو المصادر الاجنبية •• ويرجح ان بعض الاقيال تهودوا دون ان يشمل ذلك اليمن كله أو غالبية حكامه وقبائله[١٨٢] •

ومع ذلك فان قصة الصراع بين اليهود والنصارى في نجران التي اشار اليها القرآن الكريم في سورة البروج تكشف عن نفوذ سياسي لا شك فيه لليهودية في اليمن • وقد سجل هذا الصراع مارشمعون اسقف بيت ارشم في رسالتين وكتاب[١٨٣] •• وقد ارسل الرسالتين الى رئيس دير الجبول في شمال سورية يصف فيها حوادث نجران ويطلب التدخل لانقاذ النصرانية في اليمن •

واما الكتاب فسجل فيه تفاصيل الحادثة وبطولة شهدائها واسماءهم • ومن اهم ما تفيده الرسالة الاولى تاريخ الحادثة فقد ارسلت الرسالة سنة ٥٢٤م على اثر وصول رسول من ملك اليمن الى ملك الحيرة يخبره بانه قضى

---

(١٨٠) السيرة : الروض الانف ٢٣/١ ـ ٢٨ . تاريخ الطبري ١٠٥/٢ تفسير الطبري « بولاق » ٩٨/٢٦ . تاريخ ابن الاثير ٢٤٤/١ . الاغاني « دار الكتب » ٣٨/١٥ . البداية والنهاية ١٦٥/٢ .

(١٨١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٤/٦ .

(١٨٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٧/٦ ـ ٣٠ .

(١٨٣) ترجمها ودرسها ونشرها مار اغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك انطاكية في المجلة البطريركية . السنة الرابعة . الاعداد من ٣١ ـ ٤٠ .

على نصارى بلاده ويحرضه على ان يفعل المثل في الحيرة .. ويطالب مارشمعون في هذه الرسالة بالضغط على يهود طبرية الذين كانوا يرسلون وفودهم الى ملك حمير في كل سنة لتحريضه على الايقاع بالنصارى مع انهم يعيشون في بلد خاضع للنصرانية . والرسالة تكشف كذلك عن احتلال حبشي سابق فهي تذكر ان الاضطهاد وجه قبل نجران الى كنيسة حبشية في ظفار والى حامية وحاكم حبشي كانوا مكلفين بحماية هذه الكنيسة[١٨٤] . وقد استقى كاتب الرسالة هذه المعلومات من رسالة الملك الحميرى الى الحيرة .. وزاد من التفصيل في رسالته الثانية[١٨٥] ورجح ناشر الوثائق ان الحملة الحبشية السابقة لمحنة نجران كانت سنة ٥١٩م لاسباب ذكرها[١٨٦] . وقد دلت النقوش الحبشية واليمانية على وجود احتلال حبشي اسبق من هذا وكان بين منتصف القرن الرابع الميلادي الى سنة ٣٧٥م تقريبا . وهو احتلال حبشي مسيحي ارتبط بظهور التوحيد في نقوش الحبشة واليمن . ولم يذكر هومل - الذى اورد هذا - ما يدل على صلة هذا الاحتلال الحبشي باليهودية . وهذا كله يظهر حدة الصراع الذى عانته اليهودية في اليمن مما اضعفها هناك فلم يكن لها من القوة عند ظهور الاسلام ما تحاربه به كما فعل يهود يثرب وهو مالاحظه جواد علي[١٨٧] . وهذه الرسائل تظهر العلاقة الطيبة بين يهود اليمن وحكام الحيرة . وتظهر كذلك صلة محتملة بالفرس .. وهي الصلة التي ظهرت بعد ذلك في احتلال الفرس لليمن بطلب من سيف بن ذى يزن مما هو شهير في التاريخ[١٨٨] . وتوضح اخيرا اتصال العلاقة بين يهود اليمن العرب وبين بني دينهم في الشام ..

---

(١٨٤) المجلة البطريركية : العدد ٢٣ ص ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٢ .

(١٨٥) المجلة البطريركية : العدد ٢٤ ص ١٨٤ ، العدد : ٢٥ ص ٢٥٦ العدد : ٣٦ ص ٣٠١ .

(١٨٦) المجلة البطريركية : العدد ٢٥ ص ٢٥٨ .

(١٨٧) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٦/٦ .

(١٨٨) السيرة : الروض الانف ٥١/١ .

واذا كنا مهتمين ابتداء بأثر اليهود في العرب المشركين فان علينـــا ان ندرس ميزّاتهم الدينية اولا ثم المظاهر التي اتخذتها صلاتهم بالعرب بعد ذلك ومصدرنا الرئيسي في معرفة عقائدهم القرآن الكريم .. اذ هو يكشف عن فروق جوهرية بين اليهود عامة ويهود العرب بوجه خاص .

ومن اهم ذلك ما نفهم منه ضحالة ايمانهم بدينهم حتى ليشبهون غيرهم من العرب في شكهم في النبوات وفيما جاءت به مما يتبع الكفر بها .. قال تعالى : « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا . وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . » الانعام ٩١ . وقد نسب هـــــذا القول الى مالك بن الصيف القرظي أو فناص أو جماعة من اليهود ولم يصدق الطبري ان يقول اليهود ذلك فنسب القول الى المشركين[١٨٩] . ولكن من الغريب ان يحتـــج القرآن الكريم بنبوة موسى وعلم رسالته على قوم لا يؤمنون بها . ومثل ذلك ما يرويه أبو العلاء من شعر قاله يهودي من خيبر حين اجلاهم عمر رضي الله عنه .. وهو صريح في التكذيب بالنبوة البشرية عامة [١٩٠] :

فلو كان موسى صـــادقا ما ظهرتم ... علينا ولكن دولـــة ثم تذهب
ونحن سبقناكم الى المين فاعرفوا ... لنا رتبة البارى الذى هو اكـــذب

ومن ذلك شكهم في البعث : يقول تعالى : « والذين ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. » النساء ٣٨ .

ويذكر الطبري ان مجاهدا يراها في اليهود ولم يوافقه ونقل الواحدي قول مجاهد وذكر انه جاء عن ابن عباس وابن زيد والكلبي[١٩١] . ويقول تعالى عن

---

(١٨٩) تفسير الطبري « المعارف » ١٦٧/٧ . اسباب النزول ص ١٢٥ .

(١٩٠) رسالة الغفران ص ٣٧٧ . وذكرت د . بنت الشاطيء انكار ياقوت لهذا الشعر وظنه انه من قول ابي العلاء نحله اليهودي .

(١٩١) تفسير الطبري « بولاق » ٥٦/٥ . اسباب النزول ص ٨٧ .

رأيهم في البعث : « يا ايها الناس لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور » . الممتحنة ١٣ . وقد ذهب المفسرون الى ان هذه الآية في اليهود .. ولكنهم وجهوا يأسهم من الآخرة الى يقينهم من العذاب بما اذنبوا وكفروا بالاسلام[١٩٢] . والحقيقة ان اليهود لم تكن عندهم صورة واضحة عن الآخرة كما هي في الاسلام . ولقد روى ابن حجر عن الزبير بن بكار في الموفقيات انهم كانوا يقولون باسطورة الهامة مثل غيرهم من المشركين ..« وكانت اليهود تزعم انها تدور حول قبره سبعة ايام ثم تذهب » وذلك فيمن كان يقول ان الهامة دودة[١٩٣] .

ومن ميزاتهم ما يتعلق باصل عبادتهم .. فقد دخل عليها من وثنية جيرانهم الكثير .. يقول تعالى : « ألم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا » النساء ٥١ .

ويقول المفسرون ان ايمانهم بالجبت والطاغوت كان في اثناء تحريضهم لقريش على حرب الاسلام في اعقاب احد . وذكروا ان كعب بن الاشرف سجد لصنمين اثباتا لما ذكره من فضل الشرك على الاسلام[١٩٤] . وقد اختلفوا في معنى الجبت والطاغوت[١٩٥] .. بين كونهما صنمين او الساحر والكاهن ولكننا نعلم ان اللات وذا الخلصة وغيرهما من الاصنام سميت طاغية[١٩٦] . كذلك ورد اسم « ذوغبت » علما لصنم معبود لحياني[١٩٧] . كما ان سجود ابن الاشرف للاصنام يحدد معنى الكلمتين في الآية الكريمة . ويؤكد هذه

---

(١٩٢) تفسير الطبري « بولاق » ٥٣/٢٨ ، والقرطبي ٣٤/٢ .
(١٩٣) فتح الباري ١٩٧/١٠ .
(١٩٤) السيرة : الروض الانف ٤١/٢ . تفسير الطبري « بولاق » ٨٣/٥ .
(١٩٥) البخاري : فتح الباري ٢٠٢/٨ ، السيرة : الروض الانف ٤١/٢ ، الفائق ٩٤/٢ النهاية في غريب القرآن ٣٩/٣ ، مفردات الراغب ٨٥ ، ٣١٤ .
(١٩٦) البخاري : فتح الباري ٦٤/٣ ، اسد الغابة ٢٦٥/٥ ، الاصابة ٨٢/٨ .
(١٩٧) التاريخ العربي القديم ١٨٤ .

الشبهة الوثنية عند اليهود انهم كانوا يحتكمون الى كاهن عربي هو ابو بردة الاسلمي[198] ويؤيد ذلك ما جاء في السيرة عن ابن اسحق : « واتى رسول الله صلى الله عليه وسلم النمام بن زيد وكردم بن كعب وبحرى بن عمرو فقالوا له : يا محمد أما تعلم مع الله الها آخر غيره • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله لا اله الا ّ هو بذلك بعثت والى ذلك ادعو فأنزل فيه وفيهم قوله : « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم واوحى الي ّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ أإنكم لتشهدون مع الله الهة اخرى قل لا اشهد قل إنما هو إله واحد وانني بريء مما تشركون • ان الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم الذين خسروا انفسهم منهم لا يؤمنون » الانعام ١٩[199] •

ويلحق بذلك تجسيدهم وتشبيههم • فقد جاء انهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن نسب الله سبحانه وعن صفته وخلقه « وكيف خلقه وكيف عضده وكيف ذراعه » • فانزلت في اجابتهم سورة الاخلاص وكذلك قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه • » الزمر ٦٧[200] •

وذكر القرآن الكريم جهل قسم منهم بحقيقة التوراة • قال تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا ّ اماني • » البقرة ٧٨ •

ولا يستغرب بعد ذلك اهتمامهم بالسحر واعتمادهم عليه •• فقد صح انهم سحروا النبي عليه الصلاة والسلام[201] •• وسحروا المسلمين في اول الهجرة لئلا يولد لهم[202] • واشار القرآن الكريم من قصص السحر عندهم الى ما كانوا يقولون في هاروت وماروت • وقد حقق ابن كثير ان ماروى في

---

(١٩٨) اسباب النزول ص ٩٢ .

(١٩٩) السيرة : الروض الانف ٢/ ٤٣ .

(٢٠٠) تفسير الطبري « بولاق » ٣٠/ ٢٢١ ، اسباب النزول ٢٦٢ ، السيرة : الروض الانف ٢/ ٤٤ . وانظر تخريج الحديث في لباب النقول ص ٨١٦.

(٢٠١) البخاري : فتح الباري ١٠/ ١٨٥ – ١٩١ . مسلم : النووي ١٤/ ١١٤ .

(٢٠٢) ترجمة ابن الزبير في اسد الغابة ٣/ ١٦٣ ، والاصابة ٤/ ٦٩ .

تفسير اشارة القرآن كله من الاسرائيليات ولم يثبت عنده اى حديث مرفوع صحيح في الملكين[٢٠٣] •

والقصة ليست من كتبهم المقدسة فهي مما استجد لهم في البلاد العربية[٢٠٤] وجاء من سحرهم انهم قالوا : « انظروا الى محمد يخلط الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الانبياء افما كان ساحرا يركب الريح »[٢٠٥] ••

وهذا كله مما دفع الى ارتياب اليهود في يهود العرب • وينقل ولفنسون ان يهوديا من حلب انكر ان يكون الذين يعتبرون انفسهم من اليهود في خيبر يهودا حقا لانهم لم يحافظوا على الدين اليهودي ولم يخضعوا لقوانين التلمود[٢٠٦] ••

والمصادر الاسلامية تعتبر عامة يهود اليمن عربا متهودين • انسابهم هي انساب اهل اليمن نفسها • ومن القبائل التي ذكروا ان اليهودية انتشرت فيها حمير وكندة وبنو الحارث بن كعب[٢٠٧] •• وذلك مفسر بقصة الحبرين • ويرى المستشرقون لهذا التهود سببا سياسيا يتمثل في مقاومة اليمن للنصرانية التي يتذرع بها الاحباش للاحتلال •• وذلك بعقيدة موحدة يمكن ان تصمد للنصرانية •• وقد اختاروا اليهودية لانها ليست لها سلطة سياسية ممثلة في دولة اجنبية قوية[٢٠٨] •• فهم يتفقون مع المصادر الاسلامية في ان يهود اليمن عرب ولكنهم يختلفون معها في تعليل تهود بعض اهل اليمن •

---

(٢٠٣) تفسير ابن كثير ٢٤٧/١ ، ٢٦٠ .

(٢٠٤) انظر تفصيل آيات الذكر الحكيم حيث ذكرت القصة فيما ليس من الكتاب المقدس واشار المعلق على تفسير ابن كثير « الهامش السابق » الى ان القصة ليست من كتب اليهود المقدسة .

(٢٠٥) السيرة : الروض الانف ٣٥/٢ ، لباب النقول ص ٣٨ .

(٢٠٦) تاريخ اليهود ص ١٣ .

(٢٠٧) جمهرة انساب العرب ٤٩١ ، بلوغ الارب ٣٤٤/١ .

(٢٠٨) تاريخ اليهود ص ٣٥ .. ويستعرض ولفنسون اقوال المستشرقين في سبب تهود اهل اليمن .

ولم يجد يهود الحجاز من حولهم نشاطا سياسيا .. ولكنهم واجهوا حياة قبلية فاضطروا الى قبولها والخضوع لمتطلباتها . فانقسموا مثل جيرانهم الى قبائل .. وانضموا الى القبائل العربية في الوان من الحلف والولاء مما عرفته الجاهلية .. ولكن ذلك لم يؤد الى دمجهم بالعرب . فوحداتهم القبلية بقيت مميزة واضحة عند النسّابين مما يدل على اصل هذه القبائل العبرى ويقول ابو الفرج الاصبهاني في ذلك : « فمن هؤلاء اليهود قريظة والنضير وقينقاع وغيرهم . ولم اجد لهم نسبا لأذكره لانهم ليسوا من العرب فتدون العرب انسابهم .. انما هم حلفاؤهم »[٢٠٩] .

ومع وجود هؤلاء اليهود العبريين في الحجاز فان حركة التهود وجدت في الحجاز ايضا .. وكأن السماح بالتهود وقبول الاجانب من خصائص اليهودية في بلاد العرب . فقد عدّ ابن اسحق احبار اليهود الذين كانوا يسألون النبي عليه الصلاة والسلام .. وعد فيهم نفرا من الاوس والخزرج وغيرهم .. فكعب بن الاشرف طائي امه من النضير[٢١٠] . ولبيد بن الاعصم الساحر من يهود بني زريق[٢١١] ويقول السهيلي معلقا على ذلك : قوله من يهود بني زريق ومن يهود بني حارثة وذكر قبائل من الانصار . وانما اليهود بنو اسرائيل وجملة من كان منهم بالمدينة وخيبر انما هم بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع غير ان من الأوس والخزرج من قد تهود وكان من نسائهم من تنذر ان عاش ولدها ان تهوده .. »[٢١٢] واشار بعد ذلك الى ان قوله تعالى : « لا اكراه في الدين . » ٢٥٦ البقرة . نزل في هؤلاء الاوسيين والخزرجيين اليهود الذين احبوا الخروج مع ابناء دينهم حين اجلاهم النبي عليه الصلاة والسلام فشق على اسرهم وقبائلهم وارادوا منعهم[٢١٣] . وجاء في كتاب النبي

---

(٢٠٩) الاغاني « دار الكتب » ١١٦/٣ .
(٢١٠) الاغاني « الساسي » ١٠٦/١٩ .
(٢١١) فتح الباري ١٨٥/١٠ .
(٢١٢) الروض الانف ٢٤/٢ .
(٢١٣) المصدر السابق . وانظر اسباب النزول ٤٥ ـ ٤٦ .

صلى الله عليه وسلم بين اليهود والمسلمين في أول الهجرة : « وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف وان ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف • وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف وان ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته • وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وان لبني الشطنة مثل ما ليهود بني عوف وان البردون الاثم وان موالي ثعلبة كأنفسهم وان بطانة يهود كأنفسهم »[٢١٤] •• فالقبائل المذكورة هنا من الانصار نص الكتاب على انها كانت تضم يهودا من انفسها ومن مواليها • ويقول حسان بن ثابت رضي الله عنه يهجو الضحاك بن خليفة الاشهلي[٢١٥] :

ابلغ ابا الضحاك ان عروقه اعيت على الاسلام أن تتمجدا
اتحب يهدان الحجاز ودينهم كبد الحمار ولا تحب محمدا
واذا نشا لك ناشيء ذو غرة فه الفؤاد امرته فتهودا

وذكروا في الصحابة نفرا من العرب المتهودين قبل اسلامهم • ومنهم جبل ابن جوال الثعلبي الذبياني وكان مع بني قريظة وقد رثاهم[٢١٦] • ومنهم ثعلبة ابن ابي مالك القرظي الذى يذكرون أنه كندى يماني تزوج وانتسب في قريظة[٢١٧] •

ومما قالوه في نسب السموأل انه غساني •• ومثله الغطيون الذى زعموا انه كان ملكا على الحجاز[٢١٨] • ويذكر ابن قتيبة ان اليهودية انتشرت

---

(٢١٤) السيرة : الروض الانف ٢/١٦ .
(٢١٥) شرح ديوان حسان ص ٩٣ .
(٢١٦) اسد الغابة ١/٢٤٥ .
(٢١٧) الاصابة ١/١٤١ ، شرح ديوان حسان ص ١٩٣
(٢١٨) الاشتقاق ص ٤٣٦ . وانظر في نسب السموال ، الاغاني «الساسي» ١٩/٩٨ .

في كنانة وهو شيء غريب علله الآلوسي بمجاورتهم يهود يثرب وخيبر[٢١٩] • ولا اجد ما يؤيد خبر ابن قتيبة • ويغلو اليعقوبي فيزعم ان قريظة والنضير قبائل من جذام[٢٢٠] •

والتفسير الذي أذهب اليه في تهود بعض عرب الحجاز هو أنه كان ظاهرة قبلية قبل ان تكون دينية •• فهذا التهود هو من قبيل الحلف والجوار والولاء اكثر منه رغبة في الدين اليهودي • والمشكلة ان لفظ اليهودي ديني عنصري في الوقت نفسه •• ومن هنا فمن المحتمل ان يدل في حالات مختلفة على اعتناق الدين وعلى الالتحاق القبلي ••

وقد كان اليهود يشعرون بقلتهم وضعفهم بين القبائل القوية المتعودة على القتال • وبقي لنا مما يصور هذا الشعور بالضعف ما يقصونه من فعل مالك بن العجلان بهم[٢٢١] فقد ساءته قوتهم وتنفذهم بيثرب فاستنجد بالملك الغساني أبي جبيلة الذي فتك باشراف اليهود وسادتهم •ثم انمالك بن العجلان خدع اليهود وفتك بمائة من سادتهم • فصوروه في معابدهم وكانوا يلعنونه • وذلوا من بعد ذلك وصاروا يلجأون الى بطون الاوس والخزرج يتعززون بهم •• وتفسر حرب تبع لأهل يثرب بانه اراد بها اليهود خاصة ولكن الاوس والخزرج دافعوا عنهم وحموهم[٢٢٢] •

وقد أدت احلاف اليهود المختلفة مع الاوس والخزرج الى اشتراك القبائل اليهودية في حروب يثرب الجاهلية : سمير وبعاث[٢٢٣] وأدى ذلك الى ان تقاتل كل قبيلة مع حليفتها من العرب فربما التقى اليهود واقتتلوا • قال

---

(٢١٩) بلوغ الارب ٣٤٤/١ ، ٢٤٠/٢ .

(٢٢٠) تاريخ اليعقوبي ٣٦/٢ ، ٣٩ .

(٢٢١) الاغاني « الساسي » ٩٦/١٩ . ايام العرب في الجاهلية ص ٦٢ . ومالك ابن العجلان ليس بعيد العهد عن الاسلام . . فابنه ممن حضر العقبة الاولى .. الروض الانف ٢٦٨/١ .

(٢٢٢) الروض الانف ٢٣/١ ــ ٢٦ ، الاغاني « دار الكتب » ٣٨/١٥ .

(٢٢٣) ايام العرب في الجاهلية ص ٦٥ ، ٧٣ .

تعالى : « واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون . ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم اسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض »[٢٢٤] .. البقرة ٨٤ ـ ٨٥ . وقد اشتهر ذلك عند العرب ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام للانصار حين لقيهم اول مرة بمكة وانتسبوا له : «امن موالي اليهود »[٢٢٥] وبهذه الاحلاف شفع المنافق عبدالله بن أبيّ في بني قينقاع وقال انهم مواليه وانهم منعوه في الجاهلية . وطالبت الاوس بمثل ذلك النبي في قريظة لأنهم احلافهم[٢٢٦] ..

ولم يذكر في الاخبار حلف بين غطفان واليهود ولكننا نلمح شيئا من ذلك في حروب الاسلام فقد كانت غطفان واليهود ممن شارك في الاحزاب[٢٢٧] ونزل المسلمون بين خيبر وغطفان فرجعت غطفان عن مناصرة خيبر وخافوا ان يخالفهم المسلمون الى ديارهم[٢٢٨] والواقدي يذكر اسدا ايضا ويقول انها شاركت في الاحزاب[٢٢٩] ويقول ان غطفان واسدا دافعوا عن خيبر ودخلوا مع اليهود شهرا ثم انصرفوا[٢٣٠] .

وقد ذكر ابو الفرج قبائل عربية كانت تنزل مع اليهود .. فيقول ابو الفرج : « كان معهم من غير بني اسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حي من اليس وبنو مرثد حي من بلي وبنو نيف حي من بلي ايضا وبنو معاوية حي من بني سليم ثم من الحارث بن بهثة وبنو الشطية حي من غسان »[٢٣١] .

---

(٢٢٤) تفسير الطبري « المعارف » ٣٠٥/٢ .
(٢٢٥) السيرة : الروض الانف ٢٦٦/١ . البداية والنهاية ١٤٨/٣ .
(٢٢٦) السيرة : الروض الانف ١٢١/٢ ، ١٩٧ .
(٢٢٧) السيرة : الروض الانف ١٨٧/٢ .
(٢٢٨) السيرة : الروض الانف ٢٣٧/٢ .
(٢٢٩) المغازي : ٢٩٠ .
(٢٣٠) المغازي : ص ٣١٠ . تاريخ ابن الاثير ١٤٧/٢ .
(٢٣١) الاغاني « الساسي » ٩٥/١٩ .

فهذه العلاقات اكثرها قبلي لا يشبه التبشير او ترغيب العرب في الدين اليهودي ولكن مثل هذه الصلات جعلت اليهودية في الحجاز وحيث امتد أثرها في البدو عاملا مؤثراً يجب أن يحسب حسابه في عقائد الجاهلية ٠

النصرانية

على غير ما رأينا في تاريخ اليهودية ٠ انتشرت المسيحية بالتبشير بالدرجة الاولى ٠ وقد اتسمت حركة التبشير النصرانية بالنشاط والفعالية بما تملك من مال ونفوذ تستمده من دولة الروم الكبرى التي هي القاعدة الامينة لهذا الدين ٠ ويصور ذلك الاستاذ جواد علي فيقول : « وقد كانت هذه الاديرة وهي بيوت خلوة وعبادة وانقطاع الى عبادة الله والتفكير فيه مواطن تبشير ونشر دعوة وقد انتشرت حتى في المواضع القصية من البوادي٠ حتى تمكنت من التبشير بين اكثر القبائل ٠ ولولا ظهور الاسلام ونزول الوحي على الرسول في الحرمين لكان وجه العالم العربي ولا شك غير ما نراه الآن ٠ كان العرب على دين النصرانية وتحت مؤثرات ثقافية اجنبية هي الثقافة التي اتسمت بها هذه الشيع النصرانية المعروفة حتى اليوم »[٢٣٢] وقد استخرج نحوا من عشرين ديرا في الحيرة وحدها[٢٣٣] ٠

وأكثر أخبار التبشير جاءتنا من مصادر نصرانية وهذه الحقيقة تضع أمامنا صعوبات معينة ٠٠ منها فرق مابين التبشير والانتشار الفعلي للدين ٠ وهو ما لم يلاحظه لويس شيخو ٠٠ اذ يكفي ان يثبت عنده ان التبشير شمل منطقة أو قبيلة ليقول بأن النصرانية وجدت فيها أو شملتها ٠

---

(٢٣٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥٨/٦ ٠

(٢٣٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ٧٧/٦ ٠

والصعوبة الاخرى هي في تقرير مدى صحة الاخبار وامكان الثقة بها • وهي قد تأثرت ـ بلا شك ـ بمنافسة الشيع النصرانية المختلفة من نسطورية ويعقوبية وارثوذكسية ومزايدتها • ويدور حتى اليوم جدال متصل حول مذهب نصارى نجران • كل كنيسة تجعل شهداء هذه المدينة من ابطالها وقديسيها[٢٣٤] • فاذا أضفنا تزيد النصارى بعامة والمستشرقين منهم بخاصة في انتشار النصرانية فنحن امام صعوبة مزدوجة • ولتصوير هذا اللون من الاخبار المتهافتة نذكر ما نقله لويس شيخو من تقويم كنسي كلداني •• ومفاد الخبر ان يثرب كان فيها ثلاث كنائس باسم ابراهيم وموسى وأيوب عليهم السلام[٢٣٥] وهو أمر نقطع بانه لم يكن••فالمصادر الاسلامية لا يمكن ان تغفل مثل هذا في مدينة الاسلام وهي قد ذكرت في اليمن •• وأرخت لليهود بيثرب ولو سكتت عنهم ما عرف العالم عنهم شيئا ••• وذكرت الافراد من نصارى الحجاز وغيرهم في كثير من المديح والاعجاب •

ويبدو ان الشام هو اول الاقطار التي عرفت العرب فيها النصرانية بحكم كون الشام موطن النصرانية الاول • ولان الدين هناك كانت له السلطة السياسية التي يخضع لها العرب[٢٣٦] • فأما الحكام الموالون للروم فقد كانوا نصارى بدون شك ••• واكثر من ذلك ان الروم كانوا حريصين على ان يكون مذهب الغساسنة في النصرانية هو مذهب الدولة • ويرد نولدكه اضطهاد الروم للغساسنة الى انهم كانوا يعاقبة يحرصون على مذهبهم ويدافعون عن أبنائه[٢٣٧] •• وتذكر المصادر الاجنبية انهم شاركوا في عدة اجتماعات دينية وسياسية ارادوا بها الدفاع عن مذهبهم[٢٣٨] •

---

(٢٣٤) انظر ما كتبه بطريرك انطاكية في ذلك في المجلة البطريركية ، السنة الرابعة عدد ٣٥ ص ٢٦٠ .

(٢٣٥) النصرانية وادابها ١/١١٤ .

(٢٣٦) تاريخ العرب قبل الاسلام : ٥٨/٦ .

(٢٣٧) امراء غسان ص ٢١ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٣ .

(٢٣٨) تاريخ العرب قبل الاسلام ٨٣/٦ .

واما القبائل العربية التي شاعت فيها النصرانية فقد ذكرت المصـــادر العربية منها قبائل لخم وجذام وكلب وغسان ومن سكن الشام من أياد وطيء وغيرهم[٢٣٩] • ويفهم شيخو ان هذه القبائل شملتها النصرانية تماما • وهو أمر لا نوافق عليه • فكل هذه القبائل جاءتنا عنها اخبار وثنية من ذلك ماجاء في الصحيح من ان غسان كانت لا تطوف بالصفا والمروة لانها ممن ينسـك لمناة وهي بالمشلل عند قديد[٢٤٠] وعلاقة غسان بهذا المكان قديمة فقد جـاء في السيرة ان غسان ماء بالمشلل شرب منه بنو مازن بن الأزد فسـموا به وموضعه هو موضع مناة[٢٤١] •

وذكروا ان ودا كان لكلب بدومة الجندل[٢٤٢] • وان الاقيصر كـان صنماً لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان •• وكان عند مشارف الشـام فكانت هذه القبائل تحجبه وتحلف عنده وتلقي مع الشعر بالطعام[٢٤٣] • وقد ظلت هذه القبائل خاضعة للتقسـيم الوثني الديني •• فكان منهم الحمس كقضاعة وجذام وكلب والطلس كأياد[٢٤٤] •

ونخلص من ذلك كله الى ان تنصر هذه القبائل لم يكن خالصا ••وربما كان يسير مع توطن هذه القبائل أو بقائها على بداوتها • ويتبع انصـياعهـا للسلطات في المدن وهي سلطات نصرانية •

اما الحدود الزمنية لتنصر عرب الشام فمن الصعب تحديدها •• فـان تاريخ الغساسنة المحقق لا يرتفع الى أبعد من المائة الخامسة للمسـيح عنـد نولدكه[٢٤٥] ويذكر شيخو ان الضجاعمة وهم الحكام العرب قبل الغساسـنة

---

(٢٣٩) جمهرة انساب العرب ٤٩١ .

(٢٤٠) مسلم : النووي ٢٣/٩ ، ٥٣ . السيرة : الروض الانف ١٤/١ . المحبر ٣١٦ ، اخبار مكة ٧٨/١ .

(٢٤١) السيرة : الروض الانف ١٤/١ .

(٢٤٢) الاصنام ص ١٠ ، جمهرة انساب العرب ص ٢٩٢ ، المحبر ص ٣١٦ .

(٢٤٣) معجم البلدان ٢١٤/١ ، الحيوان ٣٧٧/٥ ، الاصنام ص ٣٨ ، ٤٨ .

(٢٤٤) المحبر ١٧٨ ـ ١٧٩ ، اخبار مكة ١٣٢/١ .

(٢٤٥) امراء غسان ص ٥٧ .

تنصروا في أواخر القرن الثاني للمسيح[٢٤٦] . والفرق ـ وهو ثلاثة قرون ـ لا يمكن ان يملأه ما يعرفه التاريخ عن الضجاعمة من أخبار قليلة غامضة .

أما تنصر القبائل فتاريخه أصعب .. وقد اعتمد شيخو في الغالب على تاريخ التبشير فذكر من ذلك ان المسيح عليه الصلاة والسلام دخل مناطق عربية وان بعض العرب حضروا حلول الروح القدس مع تلاميذ المسيح وتكلموا بالعربية (١٤١/٢ أعمال الرسل) . وان بولص الرسول ذكر انه دخل جزيرة العرب وان بعض الرسل ومنهم متى وتوما ومتيا وبرثلماوس وتداوس بشروا في الشام وسيناء[٢٤٧] . أما عرب البلقاء والغور والسلط فتنصرهم يرجع الى مثل هذا الزمن المتقدم[٢٤٨] . وهذا كله لا يمكن ان يقبل دون تحفظ . واقل ذلك انه قد يصح مثل هذا الزمن المبكر كبداية لانتشار المسيحية لم تشمل الا أفرادا قلائل من العرب .

وتذكر المصادر الاسلامية جماعة من قبائل مختلفة اعتنقت النصرانية في الحيرة ومنهم عدي بن زيد[٢٤٩] .. وتذكر كذلك ملكا من المناذرة تنصر حين سمع موعظة مؤثرة وترك الحيرة مترهبا[٢٥٠] . وتسكت المصادر عن بقية المناذرة .. وتذكر ان النعمان آخر ملوكهم حج مكة حيث أسيء اليه فتنصر[٢٥١] .. ويمكن ان نفسر وثنية ملوك الحيرة بتبعيتهم للفرس أعداء الروم النصارى .. وقد مر بنا ان ملك الحيرة كان وثنيا سنة ٥٢٤م أيام محنة نجران ، وقد استدل شيخو بتنصر بعض أبناء الاسرة الحاكمة ونسائها على نصرانية بعض ملوك الحيرة ونحن لا نجد ذلك لازما[٢٥٢] .

---

(٢٤٦) النصرانية وادابها ٤٠/١ .
(٢٤٧) النصرانية وادابها ٢٠/١ ـ ٢٣ .
(٢٤٨) النصرانية وادابها ٤٠/١ ـ ٤٤ .
(٢٤٩) النصرانية وادابها ٩٠/١ ، تاريخ العرب قبل الاسلام ٧٦/٦ . سمط اللالي ٢٢٢/١ .
(٢٥٠) النصرانية وادابها ٨٢/١ .
(٢٥١) الحيوان ٣٧٥/٤ ، سمط اللالي ٥٥٢/١ . ويقتصر الجاحظ على ذكر حجه دون تنصره .
(٢٥٢) النصرانية وادابها ٨٧/١ وما بعدها .

وخطر الحيرة لا يقف عند الذين سكنوها فهي من أخطر المواقع التي انتقلت منها آثار حضارية الى داخل الجزيرة العربية[٢٥٣] . وقد كانت النسطورية مذهب الاكثرية في الحيرة[٢٥٤] . وهي من أكثر الشيع النصرانية اهتماماً وتأثراً بالفلسفة اليونانية . ويرجع المؤرخون اهتمام أهل العراق بترجمة الفلسفة اليونانية بعد الاسلام الى هؤلاء النساطرة[٢٥٥] ومن الراجح أنهم هم الذين نشروا المسيحية بين القبائل العربية التي سكنت شرق الجزيرة وكانت لها صلات بالعراق مثل طيء وتغلب وأياد . يقول ابن حزم : « فيقال إن أياداً كلها وربيعة كلها وبكراً وتغلب والنمر وعبدالقيس كلهم نصارى وكذلك غسان وبنو الحارث بن كعب بنجران وطيء وتنوخ وكثير من كلب وكل من سكن الحيرة من تميم ولخم وغيرهم »[٢٥٦] . ومع اننا لا نقبل هذه الرواية على اطلاقها فانها تصور لنا تأثير الحيرة في القبائل التي تجاورها وتأتيها ..

ويذكر شيخو ان الوثائق تشير الى جماعات من رجال الدين النساطرة كانت تعمل في قطر والبحرين وهجر ودارين والخط وعمان[٢٥٧] . وان مجمع النساطرة الاول ، (٥٨٥م) طلب الى أهل قطر ترك الاعمال يوم الاحد[٢٥٨] . ويظن ان النساطرة كانوا من بين من بشر في اليمن كما سيأتي . ومن انتشار النسطورية في هذه المناطق نعرف انها كانت تحظى بتشجيع الفرس وتسامحهم ، ويعود هذا الى ان النسطورية كانت محاربة من الروم محسوبة في الفرق الخارجة على الكنيسة الرسمية[٢٥٩] . ولذلك تغلغلت في مناطق النفوذ الفارسي من البلاد العربية . ومع ذلك فهذه المناطق لم تكن

---

(٢٥٣) تاريخ الادب العربي . بلاشير ص ٦٢ .
(٢٥٤) فجر الاسلام ص ٢٥ .
(٢٥٥) فجر الاسلام ص ٢٨ وانظر تاريخ العرب قبل الاسلام ٧٤/٦ .
(٢٥٦) جمهرة انساب العرب ص ٤٩٢ .
(٢٥٧) النصرانية وادابها ٧١/١ .
(٢٥٨) النصرانية وادابها ٧١/١ .
(٢٥٩) تاريخ العرب قبل الاسلام ٧٣/٦ وما بعدها .

مقصورة على النصرانية .. فعندما كانت الفتوحات الاسلامية وجد الفاتحون فيها جماعات وثنية ويهودية ومجوسية ونصرانية .. وكان النصارى يسلمون في الغالب ، وكان اليهود والمجوس يفضلون دفع الجزية[٢٦٠] .

وتفسر المصادر العربية دخول النصرانية الى اليمن بأن ذلك كان بتبشير راهب اسمه فيميون .. ويروى ان جماعة من العرب اسرته وباعته بنجران وهناك اكتشفت حقيقة صلاحه ومكانه من رضى الله . وساعده شاب عربي اسمه صالح فأثبت الاثنان بطلان الوثنية . ودعا فيميون على نخلة معبودة فسقطت فتنصر أهل نجران[٢٦١] . وترتبط هذه النخلة بنخلة يذكرها الهمداني وكانت الى جوار غمدان . يقول الهمداني : « وكان الى جانب القصر نخلة تسمى اليانعة سحوق تطرح بعسبانها الى بعض ابهائه»[٢٦٢] فالرواية الاسلامية قد تكون صحيحة اذا صح ان النخلة من رموزهم الدينية . وهي بعد ذلك احدى قصص التبشير الذي لم يقف على الارجح عند هذه الحالة .. بل انه يمكن ان نفسر التضارب الواضح في الاخبار الكنسية حول أولية النصرانية في اليمن بتعدد حركات التبشير . ففي وثيقة حبشية ان مبشرا اسمه ازقير بنى كنيسة في اليمن بموافقة التبع شرحبيل يكف ولكن قيلين من نجران هدماها . وجاء ان قسطنطين الثاني (٣٣٧ ـ ٣٦١م) كلف تاوفيل « ثيوفيلوس » الهندي بالذهاب الى اليمن فأقنع هذا المبشر التبع وأقام كنيسة في ظفار واخرى في عدن . وقبل ذلك اشترك اسقف من اليمن في أعمال مجمع نيقية سنة ٣٢٥م[٢٦٣] وفي اخبار فطاركة المشرق جاء ان أهل نجران انما تنصروا على أيام نسطوريوس المتوفى سنة

---

(٢٦٠) فتوح البلدان ص ٩٠ ــ ٩١ ، ٨٨ ، ٨٩ . تاريخ ابن الاثير ١٥٥/٢ ، ١٥٧/٢ .

(٢٦١) انظر مصادر هذه القصة في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦٣/٦ ، ويضاف اليها تاريخ ابن الاثير ٢٥٠/١ والسيرة : الروض الانف ٣٠/١ .

(٢٦٢) الاكليل ١٧/٨ ، ٢٦ .

(٢٦٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦٤/٦ وما بعدها . بلاشير : تاريخ الادب العربي ٦٤ ــ ٦٥ . النصرانية وادابها ٥٣/١ .

٤٥٠م[٢٦٤] وأما شيخو فهو يرد التبشير في اليمن الى أول أيام النصرانية ‥ ويذكر ان بعض الآباء يرى ان المجوس الثلاثة المذكورين في ولاد المسيح عليه السلام كانوا من اليمن • وان متى الرسول بشر في اليمن كما يظن وكذلك برثلماوس • وان بنتنانوس الفيلسوف بشر في اليمن سنة ١٨٣م بدون شك[٢٦٥] •

أما مذهب نصارى اليمن ونجران فيقال انهم كانوا يعاقبة أو نساطرة أو ارثوذوكس[٢٦٦] ولا نجد مانعا حقيقيا من ان تتصور ان مذهبين أو أكثر من النصرانية تجاورا في اليمن كما حدث في كثير من الاقطار الاخرى •

ولم يكن صراع النصرانية والوثنية في اليمن سلميا كما كان في الاقطار العربية الاخرى ويرجع ذلك الى خطورة اليمن من الناحية التجارية ‥ وتمثلت النصرانية لأهل اليمن في صورة الدين الدخيل الذي يفرضه عليهم جيش الاحتلال • ومن هنا اتخذوا موقفا معاديا عنيفا من النصرانية ‥ وقد مر بنا ان الارشمي يذكر احتلالين حبشيين نصرانيين قبل محنة نجران وبعدها • وان النقوش ذكرت احتلالا حبشيا نصرانيا سابقا كان في منتصف القرن الرابع الميلادي[٢٦٧] ‥ فاذا اضفنا الى ذلك طرد الحبشة بمساعدة الفرس وما تبعه من احتلال فارسي استمر حتى الاسلام[٢٦٨] فان ذلك يصور لنا أهمية أديان اليمن كسلاح من أسلحة هذه الحروب وذريعة لها في الوقت نفسه • وعلينا ان تتصور ما كانت تسببه هذه الحروب الدينية من رجة في عقائد الناس في اليمن وفي العرب بعامة • فهناك من يقاوم بالسلاح ومن يعتنق الدين الوافد ومن يحارب العقيدة بالعقيدة بما يلزم من التعرف على

---

(٢٦٤) اخبار فطاركة كرسي المشرق ص ٢٧ .

(٢٦٥) النصرانية وادابها ١/٥٣ .

(٢٦٦) بلاشير : تاريخ الادب العربي ص ٦٤ . تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٧٩ ـ ٨٠ . فجر الاسلام ص ٢٥ المجلة البطريركية عدد ٣٥ سنة ٤ ص ٢٦٠ .

(٢٦٧) ص ٣٨ الهوامش ١٨٣ ـ ١٨٥ من هذا الفصل .

(٢٦٨) السيرة : الروض الانف ١/٥١ .

عقيدة الاعداء ونقاط الضعف فيها •• وأهداف هـذه الحروب لم تكن تقف عند اليمن •• ولدينا مما يصور سعة المطامع الاجنبية خبر حملة الفيل الشهيرة التي وصل فيها ابرهة الى مكة •

ولقد تولت التبشير في اليمن دولتان هما الحبشة والامبراطورية الرومانية • وهذا أدى الى تأسيس التبشير على نظم وقواعد تفتقر اليها المبادرة الفردية المتحمسة • ويبدو أثر ذلك في نجران خاصة •• فقد كانت قاعدة مهيأة لنشر النصرانية وانطلاقها •• وقد استطاعت ان ترد جيش مسروق حين حاصرها مرتين فاضطر الى اطالة حصارها ثم انه خدع أهلها بأن أمنهم واغتال ألفا من أشرافها ليستطيع دخولها • وجاء في رسالة الارشمي الثانية قوله : « وفي اليوم نفسه بعد احراق الكنيسة وكل من فيها جاء الملك بجميع الاعيان والاشراف الذين وقفوا امامه مكبلين فسألهم : لماذا قصدتم ان تتمردوا عليّ ولم تسلّموا لي المدينة • ولكنكم اتكلتم على ذلك الساحر المضلل ابن الفجور وعلى هذا الشيخ الاخرق الحارث بن كعب الذي صيّر لكم رئيسا » • وقال مسروق للاخير : « تطلع •• ها انك واقف عريان امام هؤلاء الذين كانوا يعتبرونك رئيسا »[٢٦٩] •

ولقد بقي لهذه المدينة نظام كشف عنه وفدها الذي جاء الى المدينة وكان يضم ثلاثة رؤساء ، هم العاقب والسيد والاسقف • وجاء في السيرة ان: «العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم لا يصدرون الا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الايهم وأسقفهم وحبرهم وامامهم وصاحب مدراسهم[٢٧٠] » • وذكر لهذا الاخير صلة وثيقة بالروم • ومن الواضح ان هذه الرئاسات ليست مما يعهد العرب من ألوان السيادة القبلية • وهي لا تحتوي على مثل هذا التوزيع للسلطة • أما الاسقف فمصطلح ديني مفهوم •• واما العاقب فيذكر جواد

---

(٢٦٩) المجلة البطريركية سنة ٤ عدد ٣٤ ص ١٨٩ •

(٢٧٠) الروض الانف ٢/٤٥ •

على انه المتولي ، أو الناظر في نقوش الجنوب ولكننا نجد العاقب الذي رافق الوفد كان رجلا حكيما يرجعون الى رأيه كما يبدو • واما السيد فهـــو الذي يمثل السلطة الدنيوية •• وقد حافظوا على المصطلح العربي في تلقيبه كما هو واضح(٢٧١) • وتفيد رسالة الارشمي الثانية ان حملة مســروق على النصرانية استهدفت حضرموت أولا وقتل هناك أربعة من رجال الدين أحدهم مار وائل(٢٧٢) الذي يبدو من اسمه انه عربي • ويؤخذ من قلة عدد الشهداء من حضرموت ان النصرانية لم تكن منتشرة فيها •

ولم تتعد النصرانية في الحجاز الحالات الفـــردية(٢٧٣) • وكان معظم النصارى هناك من غير العرب ومن نصارى مكة ورقة بن نوفـل وعثمان بن الحويرث(٢٧٤) • وعداس مولى شيبة وعتبة ابني ربيعة(٢٧٥) • وباقوم القبطي الذي شارك في بناء الكعبة(٢٧٦) •• وعبد أعجمي وردت الاشارة اليـــه في القرآن الكريم وذكر المشركون ان النبي عليه الصلاة والسلام كـان يتعـلم منه • وتختلف فيه الروايات •• فهو جبر أو يسار أو بعيش أو بلعام أو أبـو

---

(٢٧١) يقول احمد امين ان العاقب كان يتولى الشؤون الداخلية وكان السيد يتولى الشؤون الخارجية . فجر الاسلام ص ٢٦ ، تاريخ العرب قبـل الاسلام ١٨/٨ .

(٢٧٢) المجلة البطريركية سنة ٤ عدد ٢٤ ص ١٨٥ .

(٢٧٣) وهم الباحث الفاضل د . جواد علي ـ وفضله على بحثي هذا كبير ـ فظن ان الاحابيش هم جماعة كبيرة من العبيد تضم كثيراً من النصارى. تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٠٢/٦ . والاحابيش هم بطون من كنانـة وخزاعة تحالفوا مع بطون من قريش . انظر الاشتقاق ص ١٩٣ المحبر ٢٤٦ ، ٢٦٧ ، انساب الاشراف ٥٢/١ ، تاريخ الطبرى ٦٢٨/٢ ، تاريخ اليعقوبي ١٤٩/١ .

(٢٧٤) السيرة : الروض الانف ١٤٥/١ ، المحبر ١٧١ ، جمهرة انساب العرب ص ٢٩١ ، نسب قريش ٤١١/١ .

(٢٧٥) السيرة : الروض الانف ٢٦٢/١ .

(٢٧٦) الاصابة ١٤١/١ ، الروض الانف ١٣٠/١ ، طبقات ابن سعد ٩٤/١/١.

ميسرة الرومي أو عابس[٢٧٧] . وقد يكون أكثر هذه الاسماء وهما في رجل واحد . وقد تكون أسماء حقيقية ولكن كل ذلك لا يصور نصرانية ذات شخصية بمكة .

وكان أهل المدينة أقل اهتماما بالنصرانية . اذ لا تتفق الاخبار على نصرانية أحد من الأوس والخزرج[٢٧٨] . ويقتصر الأمر على الضافطة وهم الذين كانوا يجلبون الميرة كالحبوب والزيت الى المدينة .. وهم من انباط الشام[٢٧٩] .. ويبدو انهم اتخذوا لهم سوقاً معينة بالمدينة .

ويذكرون أن ايله كان يحكمها عند ظهور الاسلام يحنس بن رؤبة ويظن من اسمه انه نصراني وان أكيدر دومة الجندل كان نصرانيا . ولا تذكر المصادر الاسلامية شيئاً عن سكان هذين الموضعين . وقد مر بنا ان ودا الصنم كان لكلب بدومة الجندل .

والحجاز هو مهد الاسلام .. ولذلك أصبح من هدف بعض النصارى المحدثين ان يثبتوا أن النصرانية أو اليهودية كانت شائعة في الحجاز الى درجة تمكنهم من نسبة ما جاء في القرآن الكريم من قصص الى الكتب المقدسة . وهم يسلكون الى هدفهم هذا كل سبيل .

يقول شيخو ان الكعبة كانت لأسقف عليها . نقلا عن الاغاني . واصل هذا الزعم ما يذكرونه من ان الكعبة كانت بدون سقف « لا سقف عليها » قبل ان تعيد قريش بناءها وان ذلك سهل على اللصوص سرقة كنز الكعبة .. فهو يحول السقف الى أسقف[٢٨٠] . ويقول ان ملكاً من ملوك جرهم كان

---

(٢٧٧) انظر الاقوال فيه في تفسير القرطبي ١٠\١٧٧ والاصابة ١\١٣١ .

(٢٧٨) ذكروا ان ابا عامر الراهب ادعى عند النبي عليه السلام انه حنيف . السيرة : الروض الانف ٢/٥١ . وان صرمة بن ابي انس هم بالنصرانية ثم امسك . الاصابة ٣\٢٤٥ .

(٢٧٩) السيرة : الروض الانف ٢\٣٢٤ ، انساب الاشراف ١\٢٧٨ ، اسباب النزول ص ٤٥ .

(٢٨٠) النصرانية وآدابها ١/١١٢ . وانظر السيرة : الروض الانف ١/١٢٧ ، مكة ١١\٤٩ .

يدعى عبدالمسيح[٢٨١] .. وجرهم قبيلة بائدة لا ندري كيف تتحقق من أسم هذا الملك من ملوكها .. ومثل هذا كثير[٢٨٢] .

واما المدينة فقد زعم شيخو ان الأوس والخزرج كانوا نصارى كلهم . لأن الشهرستاني ذكر ان أهل الكتاب كانوا بالمدينة[٢٨٣] . وأصل كلام الشهرستاني هو : « الغرفتان المتقابلتان قبل المبعث هم أهل الكتاب والاميون والامي من لا يعرف الكتابة وكانت اليهود والنصاري بالمدينة والاميون بمكة »[٢٨٤] . وشيخو كما يبدو لم يقبل كلام الشهرستاني بالنسبة لمكة فهي عنده مدينة نصرانية قبل الاسلام ، هذا ومن الواضح ان عبارة الشهرستاني لا تفيد تعميم اليهودية والنصرانية في أهل المدينة كلهم جميعا كما فهم شيخو مجازفا . واحتج كذلك بأن الأوس والخزرج ينتسبون الى غسان وهي عنده قبيلة مسيحية بأجمعها وقد تعرضنا لنصرانية غسان فلا نعيد الكلام هنا . هذا ووثنية الأوس والخزرج قبل اسلامهم فوق أي شك ويكفي ان نذكر هنا ان كل قبيلة من قبائلهم كانت لها أصنام خاصة كسرها المسلمون قبل الهجرة وبعدها[٢٨٥] .

على ان النصرانية لم تكن مجهولة في الحجاز .. فقد كان فيه أفراد من النصارى كما ذكرنا .. وكان فيه مناطق سكنتها جماعات نصرانية كوادي القرى وايلة وتبوك . وقد صح ان صورة مريم كانت في الكعبة . ذكر ذلك

---

(٢٨١) النصرانية وآدابها ١ / ١١٦ .

(٢٨٢) انظر ما قبله د . جواد علي في طرق المستشرقين وروى انهم يدرسون جاهلية العرب في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦\٣– ٤ .

(٢٨٣) النصرانية وآدابها ١١١/١ .

(٢٨٤) الملل والنحل ٢٠٨/١ .

(٢٨٥) انظر في ذلك اسد الغابة ٢٤٥/١ ، ١١٤/٢ ، ٩٢/٤ ، انساب الاشراف ٢٦٥/١ . تاريخ الطبري ٣٨٢/٢ ، السيرة : الروض الانف ١١/٢ .

البخاري[٢٨٦]. وأضاف الازرقي ان الصورة كانت لمريم وعيسى عليهما السلام • وان النبي عليه الصلاة والسلام أبقى هذه الصورة ومحا الصورة الاخرى وانها بقيت حتى طمست في حريق الكعبة في أيام ابن الزبير[٢٨٧] • ويرى شيخو ان هذه الصورة تدل على أثر بعيد للنصرانية في مكة • ويظن جواد علي انها صورة لم يكن المشركون يدركون حقيقتها وانهم اعتبروها كآلهتهم وأوثانهم التي كانوا يعبدون، وقديكونون جاءوا بهامن خارج الجزيرة أو صنعها بعض الاجانب لهم[٢٨٨] • على ان ما ثبت من الحديث من معرفة لاصحاب هذه الصور وتحديدهم لا يجعل فرض الاستاذ جواد علي راجحا •• وهذه الصورة تثير تساؤلا لا سبيل الى الاجابة عنه بالقطع •• فنحن لا ندري على التحقيق من وضع هذه الصورة •• أهم المشركون أم النصارى •• والغرض الاول يدل على ان المشركين نقلوا الى وثنيتهم آثارا نصرانية •• ويقضي الفرض الآخر بأن يكون النصارى استمروا في حج البيت ووضعوا في مكة هذا الرمز من رموزهم الدينية •

وتذكر المصادر الاسلامية محاولة من محاولات التبشير في مكة •• فتذكر ان رجلا من قريش سمي شماسا لأن شماسا نصرانيا دخل مكة فأعجبت به قريش[٢٨٩] •

وأما متانة عقيدة العرب في النصرانية ومدى معرفتهم بأمور دينهم فالغالب ان البدو منهم كانوا يمارسون عباداتهم وشعائر دينهم • ولم يكونوا يعلمون الكثير عن عقائد الدين ودقائق الفروق المذهبية فيه • ويدلل بلاشير على ضحالة ايمان القبائل العربية بالنصرانية باسلامها السريع[٢٩٠] • وكان

---

(٢٨٦) البخاري : فتح الباري ٢٩٩/٦ ، وانظر تخريج ابن حجر له في ١٤/٨ عن النسائي واحد .

(٢٨٧) تاريخ مكة ١١٠/١ — ١١٣ .

(٢٨٨) تاريخ العرب قبل الاسلام ٨٢/٥ ، ٢٠٥/٦ — ٢٠٦ .

(٢٨٩) اسد الغابة ٣٧٥/٣ . ويحتمل ان يكون هذا الاسم صيغة المبالغة من شمس وتكون هذه الرواية تفسيرا لاسمه .

(٢٩٠) تاريخ الادب العربي : بلاشير ص ٦٨ وانظر تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٢٣\٦ .

المسلمون يرون ايمان النصارى العرب سطحياً وقد رووا ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه نهى عن أكل ذبائح تغلب ونصارى العرب لانهم لم يتمسكوا من دينهم الا بالخمر[٢٩١] • غير ان هذا لا يمنع من تعمق بعض الافراد المتخصصين في فهم دين القبيلة •• ولابد ان يكون نصارى العرب من سكان الحضر أكثر فهما لدينهم •

الصابئة وعبدة الرحمن :

وردت الاشارة في القرآن الكريم الى جماعة اخرى هي الصابئة • قال تعالى : ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم » • البقرة ٦٢ • وقال تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون • » المائدة ٦٩ • وقال تعالى « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة • » الحج ١٧ • وآية الحج خاصة تقطع بان الصابئين غير المشركين والمجوس •• والآيات الكريمة كلها تميزهم عن اليهودية والنصرانية •• وقد تضاربت فيهم آراء المفسرين وغيرهم تضاربا شديدا ولكنها كلها تلاحظ ما افادته الآيات الكريمة •

نقل الطبري وابن كثير من الاقوال فيهم انهم اهل كتاب أو انهم يعبدون الملائكة أو النجوم او انهم على الفطرة او انهم يتلون الزبور او انهم خرجوا من الاديان كلها أو انهم بين اليهود والمجوس أو انهم ليس لهم عمل الا قول لا إله الا الله أو انهم اختاروا ما استحسنوه من الأديان[٢٩٢] •

وقال فيهم الزمخشري : « وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة • » ذكر ذلك في تفسير آية البقرة • وقال في تفسير آية

---

(٢٩١) تفسير الطبري : « بولاق » ٦/٦٥ .

(٢٩٢) تفسير الطبري « المعارف » ١٤٦/٢ . وتفسير ابن كثير ١٨٩/١ .

المائدة في قراءة التسهيل : « وهو من صبوت لأنهم صبوا الى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يقبلوا ادلة السمع والعقل . » فهو هنا يتفق مع الشهرستاني في ان الصابئة ممن أنكر النبوات[٢٩٣] .

واورد الرازي فيهم ما نقله الطبري ورجح انهم قوم يعبدون الكواكب وان لهم فيها قولين . الاول ان الله تعالى امرهم بتعظيمها واتخاذها قبلة ، والآخر انها من خلق الله وقد جعلها المدبرة لما في العالم من خير وشر وقد نسب هذا القول الى الكلدانيين الذين ارسل اليهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام[٢٩٤] .

ومثل هذه الاقوال جعلت الآلوسي يقول : « والمقصود ان الصابئة فرق فصابئة حنفاء وصابئة مشركون وصابئة فلاسفة وصابئة يأخذون محاسن ما عليه أهل الملل من غير تقيد بملة .. ثم منهم من يقر بالنبوات جملة ويتوقف في التفصيل ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلا .. »[٢٩٥] .

ولم يعرفهم دارسو الفرق .. فالشهرستاني يعرفهم ويحددهم بقوله : « ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول والاحكام ولا يقول بالشريعة والاسلام .. وهم الصابئة . »[٢٩٦] وقد عقد بينهم وبين الحنفاء مناظرة تدور حول الايمان بالنبوات وانكارها[٢٩٧] وذكر بعد ذلك هياكلهم وهي هيكل العلةالاولى ثمهيكل العقلوالسياسة والصورةوالنفس وهيدون هيكلالعلة الأولى وهي مدورة ثم هيكل زحل والمشتري وهي بأشكال مختلفة[٢٩٨].وهذه الهياكل كما يذكر كانت موزعة في العالم بين اليمن واصفهان والهند وفرغانة

---

(٢٩٣) الكشاف ٢١٨/١ ، ٤٢٧ .

(٢٩٤) تفسير الرازي ١٠٥/٣ . والقرطبي يكتفي بالمعنى اللغوي وهو الخروج من دين الى دين . انظر الجامع ٤٣٤/١ .

(٢٩٥) بلوغ الارب ٢٢٥/١ .

(٢٩٦) الملل والنحل : ٤٢/٢ .

(٢٩٧) المصدر السابق ٩/٢ ــ ٤٤ .

(٢٩٨) المصدر السابق ٥٧/٢ .

وغيرها[٢٩٩] • ويعتبر ابن حزم الصابئة قوم ابراهيم عليه السلام وكانوا قبله • وهم عنده اقدم الملل • ويذكر ان ابراهيم عليه السلام جاءهم بالحنفية بعدما غيروا دينهم وكانوا يسمون الحنفاء[٣٠٠] • والصابئة عند البيروني هم الذين تخلفوا من سبي بابل ودينهم بين المجوسية واليهودية[٣٠١] •

وقد استعرض مثل هذه الاقوال السيد عبدالرزاق الحسني في كتابه عن الصابئة[٣٠٢] وليس في الذي مر بنا ما يمكن الأخذ به أو ترجيحه لأنه اشبه باحتمالات ليس لها سند غير تمييز القرآن الكريم بين الصابئة والاديان الاخرى •• ويقول جواد علي ان هذه الاقوال في الصابئة مستمدة من معلومات القدماء عن صابئة العراق[٣٠٣] • ويقصد المندائيين ونصارى حران الذين سموا دينهم بهذا الاسم على عهد المأمون حين أراد ان يجبرهم على الاسلام لأنهم من غير أهل الكتب السماوية[٣٠٤] ••

وقد كان من المحتمل ان تترك الكلام على الصابئة • فليس ثمة ما يوجب ان يكون كل ما ذكر في القرآن من اديان هو من اديان عرب الجاهلية •• والقرآن الكريم تحدث عن ديانات بابل والفراعنة مما لا صلة له بالعرب • ولكن ما ورد في الحديث الشريف من أن المشركين كانوا يسمون المسلمين صباة والمسلم صابئاً قد يوحي بأنهم عرفوا هذا الدين عن قرب[٣٠٥] ••

---

(٢٩٩) نهاية الارب ٦١/١ ، الملل والنحل ٢٣٤/٢ .

(٣٠٠) الفصل ٣٥/١ . وانظر بلوغ الارب ٢٢٨/٢ .

(٣٠١) الاثار الباقية ص ٣١٨ .

(٣٠٢) الصابئون في حاضرهم وماضيهم ص ١٤ ــ ٣٥ .

(٣٠٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ٣١/٦ ، ٣١٣ .

(٣٠٤) الفهرست ٤٥٩ ، الاثار الباقية ٣٠٨ . وانظر في الفرق بين الفرقتين : الصابئون في حاضرهم وماضيهم ص ٣٦ ــ ٤٠ . وابو يوسف يذكرهم في زمن الرشيد : الخراج ١٢٢ ــ ١٢٤ .

(٣٠٥) يقول هستنجز : ان من اغمض اسرار تاريخ الاسلام اصرار النبي عليه الصلاة والسلام على انه حنيف جاء الحنيفية واصرار المشركين على انه صابئي : ويقول ان رواية ابن حزم التي اوردناها قبل قليل قد تفسر هذا اللغز : دائره معارف الاديان والعقائد ٥١٩\٦ . طبع نيويورك ١٩٣٧

يقول الرازي : « وكذلك كانوا يسمون النبي صابئا لانه اظهر دينا بخلاف أديانهم »[٣٠٦] وجاء ان بني جذيمة حين غزاهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد الفتح « لم يحسنوا ان يقولوا اسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا فجعل خالد يقتل منهم ويأسر . »[٣٠٧] ولكن هذه الظاهرة ليست واضحة الدلالة .. فقد يكونون في استعمالهم للفظ يقصدون معنى لغويا مجرداً هو الخروج من الدين والارتداد عنه[٣٠٨] ..

ومن الجانب الآخر تشير آثار الجنوب العربي الى فرقة موحدة اصطلح جواد علي على تسميتها بعباد الرحمن . وهي فرقة موحدة ليست نصرانية ولا يهودية تعبد الها واحدا هو رحمن السماء والارض .. وقد لوحظ ان التوحيد تدرج عندها .. يقول جواد علي : وورد في نص آخر ، الرحمن رب السماء « بعل سمين » أي انه اله السماء فحل محل « ذو سموى » إله السماء المذكور ثم صار إله السماء والأرض رحمنن بعل سمين وأرضنن » فأخذ بذلك مكان ذلك الاله . »[٣٠٩]

وليس لهذه الجماعة ذكر في المصادر الاسلامية .. فهل يرجع ذلك الى انها انقرضت قبل الاسلام بحيث لم تبق في ذاكرة المؤرخين والرواة ؟

---

(٣٠٦) تفسير الرازي ١٠٥/٣ ، اللسان (صبأ) . وانظر في تسميتهم المسلم صابئا : اسد الغابة ٢٧٤/١ . ثمامة بن اثال ، ١\٣٨١ الحجاج بن علاط ، ٣\٢٢٧ ابن عمر ٣٤٠/٤ مدرك بن الحارث . وانساب الاشراف ١٢١\١ ، ١٣٣ .

(٣٠٧) البخاري فتح الباري ٤٦/٨ .

(٣٠٨) انظر معناه اللغوي في مجاز القرآن ٤٣/١ . ١٧٢ ، مفردات القرآن ص ٢٧٤ . ويذكر انهم كانوا على دين نوح والنهاية في غريب الحديث ٢٤٨/٢ .

(٣٠٩) تاريخ العرب قبل الاسلام ١٤٤/٥ – ١٤٥ وانظر في هذه الجماعة اليمانية التاريخ العربي القديم : هومل ص ١٠٨ ، دتلف نلسن ٢٤٣ ، فؤاد حسنين ص ٣٠٢ .

اننا نجد اسم الرحمن بين اسماء الله تعالى كلها غير مقبول عند المشركين.
قال تعالى : « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا . » الفرقان (٦٠) . وقال تعالى : « وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » الرعد ٣٠ .
وقال تعالى : « وهم بذكر الرحمن هم كافرون . » الانبياء ٣٦ .

ويفسر الطبري هذا الكفر بالرحمن ـ سبحانه ـ عند المشركين بانه اقترن عندهم بمسيلمة الذي تسمى رحمن اليمامة[٣١٠] ويفسره بأنه رفض المفاوض عن قريش ان يكتب في نص صلح الحديبية اسم الرحمن الرحيم واصراره على ان يكتب باسمك اللهم[٣١١] وجاء في الصحيح ان سهيلا قال في ذلك : « ما نعرف الرحمن اكتب ما نعرف . » أو قريب من هذا اللفظ[٣١٢] .

ويتبع ذلك اختلاف القدماء في الاسم : أكان معروفا في الجاهلية أم لا؟ والطبري يقول ان القول بجهلهم له هو قول « بعض أهل الغباء »[٣١٣] .

وفي سيرة عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه انه كان اسمه الجاهلي عبد عمرو او عبد الكعبة وكان صديق أبي بن خلف .. فكان يدعوه باسمه الجاهلي دون الاسلامي فلا يجيبه ثم اتفقا على ان يسميه عبدالاله .. ودار ذلك بينهما حين التقيا ببدر حين حاول ابي ان يحتمي بعبدالرحمن رضي الله عنه فقد ناداه باسمه الجاهلي فلم يجبه فسماه عبدالاله[٣١٤] ..

---

(٣١٠) تفسير الطبري « معارف » ١٣٢/١ بولاق ١٩/١٩

(٣١١) تفسير الطبري « بولاق » ١٠١/١٣ .

(٣١٢) البخاري : فتح الباري ٤٠٤/٧ ، مسلم : النووي ١٣٩/١٢ ، السيرة : الروض الانف ٢٣٠/٢ ، طبقات ابن سعد ق١ /حـ ٢ / ٧٣ .

(٣١٣) الطبري « المعارف » ١٣١/١ . وانظر اقوالهم في ذلك في الاشتقاق ص ٥٨ تفسير ابن كثير ١\٤٠ .

(٣١٤) الروض الانف ٧٠/٢ ، الاغاني « الدار » ١٩٦/٤ ، انساب الاشراف ١٩١/١ ، الاشتقاق ١٢٩ .

يمكن ان نستدل من هذا على ان المشركين كانوا يعرفون شيئا عن عبادة الرحمن وكانوا يرفضونها •• اما ما يذكرونه عن مسيلمة وانه تسمى رحمن اليمامة وان الاسود العنسي تسمى رحمن اليمن وان المشركين قالوا للنبيعليه الصلاة والسلام : « بلغنا انك انما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وانّا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا »[(٣١٥)] أما ذلك كله فيبدو بقايا مضطربة من هذا الدين •• ويحتمل ان يكون الكذاب قد حاول استغلال الدين اليماني الموحد في ادعائه النبوة •• فالتبست أخباره على المؤرخين ويرجح ذلك انه ادعى النبوة ولم يقل انه اله ••

وبعد فقد مرت بنا فرقة لم نعرف عن حقيقة عقائدها شيئا من المؤرخين وهم الصابئة • ومر بنا دين موحد لا نعرف اسمه الجاهلي •• وقد يكون الدينان دينا واحدا في الحقيقة جاءنا اسمهفي القرآن الكريموجاءتنا عقيدتهفي النقوش•• وبهذانفهم اقوالبعض المفسرينالذين يذهبونالى انالصابئة قوم بين المجوس واليهود • فهذان دينان عرفا في اليمن ، والمفسرين الذين يذهبون الى ان الصابئة قوم موحدون ليس لهم عمل •• وجاء في الحديث ان الحجاج ابن علاط السلمي ذكر لقريش انه سمع قائلا يقول : « يا معشر الجن والأنس ان استطعتم ان تنفذوا •• الآية » الرحمن ٣٣ • فقالوا له : صبأت يا ابا كلاب[(٣١٦)] •• وهذه آية من سورة الرحمن • وقد يكون ذلك هو الذي دفعهم الى القول بانه صبأ •• وقد يكونون ـ مع ذلك ـ قد لاحظوا كونها آية من القرآن الكريم فحسب • فنحن لا نستطيع ان نخرج من نطاق الحدس ••• وقد لا تكون ثمة علاقة بين الصابئة وعباد الرحمن •

---

(٣١٥) السيرة : الروض الانف ١/١٨٧ •

(٣١٦) اسد الغابة ١/٣٨١ •

الفصل الثاني

اثر العقائد الدينيّة في القيم الأجتماعية والخلقية

وصلتنا عن العرب اقاصيص متفرقة يمكن ان تكون متعلّقة بالخلق الاول في تصورهم • ذلك ان قسما منها يصور للاشياء طبائع غير طبائعها الواقعية • ومن هذا اللون ما يتعلق بزمن الفطحل • وهو زمن كانت فيه السلام رطابا وكانت الاشياء جميعا تنطق •• ولم يكن للنخل والشجر شوك • وهو زمن ذكره امية بن ابي الصلت في قصصه •• يقول امية :

واذ هم لا لبوس لهم تقيهم واذ صمّ السلام لهم رطاب

وجاء في الاسلام في رجز لرؤبة يقول فيه :

لو أنني عمّرت سنّ الحسل أو عمر نوح زمن الفطحل

والصخر مبتل كطين الوحل

وفي تلك الايام قال الضبّ للحسل :

أهدموا بيتك لا أبا لكا وأنا امشي الدألى حوالكا

وقال للثعلب والأرنب حين احتكما اليه : « في بيته يؤتى الحكم » في حوار ظريف• وتتضح في قسم آخر من هذا القصص محاولة تفسير لبعض ما استوقف البدوىّ من مظاهر الطبيعة •• فقد تراهن الضب والضفدع على

احتمال العطش فغلب الضب واخذ ذنب الضفدع . وحمل الهدهد أمه على رأسه حين ماتت يطلب لها قبراً فمن ثم قنزعته ونتنه ، والغراب خدع الديك ورهنه من الخمّار فاتخذه هذا حارسا[1] .

ومنـــــه ما يتعلق بالفلك : قالوا ان الدبران خطب الثريا وكان فقيرا فقالت : ما أصنع بسبروت ؟ فساق اليها الكواكب المسمّاة بالقلاص مهرا .. فهربت منه فهو يطلبها ابدا .. وقالوا ان سهيلا انحدر فصار يمانيا وتبعته الشعريان فعبرت العبور المجرّة وعجزت الغميصـــاء فغمصت من بكائهـــا . وجعلوا للثريا كفين خضيب وجذماء . وللاسد ذراعين مبسوطة ومقبوضة .. وهناك سماكان رامح واعزل .. ونسران واقع وطائر ...وهناك سعد بلع وهما نجمان بلع أحدهما الآخر . وسعد الذابح وهما نجمان أحدهما صغير لاحق بالآخر فهو شاته التي يذبحها[2] ولاكثر هذه الاجرام علاقة بالانواء . وقد يكون هذا القصص مفسرا لذلك . ومن هذا القصص قسـم يتعلق بحيـــاة الآلهة .وهو قصص لم يصلنا الا محرّفا يحمل سخرية المسلمين بالوثنية . فأساف ونائلة فجرا بالكعبة فمسخا حجرين[3] ولابد أن الاصل في هذه القصة حكاية من الحب الالهي ولو كان المسخ جاهليا لمنع منعبادة هذين الالهين. وكان على الصفا صنم يدعى مجاود الريح وآخر على المروة يســـــمّى مطعم

---

(1) انظر هذا القصص في الحيوان ٣/٣٢٠ ، ٤/١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ . والكامل للمبرد ٢/٥٤٨ باب من تكاذيب الاعراب . والشعر والشعراء في ترجمة امية بن ابي الصلت ١/٣٦٩ . ومجمع الامثال . وهـــي الامثال : في بيته يؤتى الحكم ٢/١٩ ، ارسح من ضفدع ١/٣٢٨ ، كيف اعاودك وهذا اثر فاسك ٢/٩١ ، احمق من الضبع ١/٢٣٤ ، خيره بين خصلتي الضبع ١/٤٧٥ ؛ ٢/١١٧ .

(2) صبح الاعشى ٢/١٥٧ ، تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/١٩ . ويذكران بعض المستشرقين يزعم بان العرب ليست لهم اساطير فيورد شيئا من اساطير الفلك .

(3) الاصنام ص ٩ ؛ تواريخ مكة ١/٤٩ ، المحبر ص ٣١١ . وذكروا انهما من جرهم ولعل لذلك علاقة بما مر من أن جرهما نسل هجين مـــن الملائكة والبشر . انظر الروض الانف ١/٨١ والحيوان ٦/١٩٧ .

الطير[٤] • وقد يكون لهذا الكرم الالهي قصة تفسّره •• لان الصفا والمروة هما مكان أساف ونائلة[٥] وقد يكون اللقبان لهما ••

ولقصة الطوفان علاقة بقصة الخلق العربيـــة • فرجز رؤبة يصرّح بأن زمن الفطحل كان على أيام نوح عليه السلام • وهو شيءيناسب كون الحجارة رطبة حينئذ • ويذكر ابن سعد ان العرب كانت تسمي ابن نوح المفقود (يام): «•• وذلك قول العرب انما هام عمنا يام •»[٦] وهو قول يشعر بأن قصـــة الطوفان معدلة عند العرب • فهي ترسم لابن نوح عليه السلام نهاية صحراوية تذكر بالقارظ العنزي •• وبسنان بن أبي حارثة الذي لامه قومه على الكرم فركب « الجهول » ورمى بها الفـــلاة : ••• « وزعمت أعراب بني مرة أن سنانا لمّا « هام » استفحلته الجن تطلب كرم نجله • »[٧] وجاء في شـــعر النابغة في النعمان :

فألفيت الامانة لـــم تخنهـــا كذلك كـــان نوح لا يخون

واعتبر الجاحظ هذا الشعر من المنحول •• لأن نوحا عليه السلام ليس مثلا في الامانة[٨] ولعل النابغة يشير الى غير القصة القرآنية • وهو احتمال يؤكد الطابع العربي الذي اتخذته قصة الطوفان • ونحن لا نغلو حين نقول بان العرب عرفوا قصصا خاصا بهم عن نوح عليه السلام • فقد ذكر القرآن الكريم خمسة من آلهة العرب على انهـــا من آلهة قوم نوح وهي آلهة عرف

---

(٤) تاريخ مكة ٧٨/١ .

(٥) المحبر ٣١١ . جمهرة انساب العرب ٣٩٢ ، معجم البلدان ٢١٨/١ .

(٦) الطبقات الكبرى : ١٧/١/١ .

(٧) مجمع الامثال ٧٨/١ ، ٤٣٩ ، وضرب المثل في الاسلام بفقيد ثقيب انظر : ١٥٥/١ .

(٨) الحيوان ٢٤٦/٢ ، ولم يرد هذا الشعر في اختيار الاعلم . وهو في ديوان النابغة « بيروت » من رواية ابن السكيت ص ٧٨ .

الرواة أماكنها وعبدتها من العرب ومنهـا اثنان همـا ود ويغوث جاءا في أعلامهم ايام البعثة [٩] .

وكل هذا القصص لا يكوّن تخيلا مكتملا للخلق الاول ولذلك اسباب . فهو لم يصلنا كاملا مترابطا كما وجد عندهم . بل جاء متفرقا يصعب الربط بينه . ناقصا اختيرت منه الطرائف التي لا تحمل روحا مشركا يتعارض مع عقيدة المسـلمين وقصص القرآن الكريم .. وهو قصص لم يحظ باحترام الرواة حتى انهم سمّوه « اكاذيب الاعراب » ولذلك اهملوا رواية الكثير منه واكتفوا بأمثلة متفرقة .

أما خلق الانسان خاصة فلا نعرف عن تفسيرهم له شيئا . وقد جاء ذكر آدم عليه السلام في شعر لأفنون التغلبي[١٠] ويحتمل ان تكون هذه الاشارة كتابية المصدر كما يحتمل ان تكون عربية تسمي الانسان الاول عندهم . فقد استعمل لفظ آدم في الجنوب بمعنى العبد واستعمل في عقود تأجـير املاك المعابد بمعنى العبودية الدينية للآلهة[١١] .. وقد بقي للفظ من هذا الاصل

---

(٩) قال تعالى على لسان قوم نوح : « ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغـوث ويعوق ونسرا . . . » نوح ٧٣ . وانظر في اماكنها وعبدتها تفسـير الطبري « بولاق » ٦٢/٢٩٧ والبخاري : فتح الباري ٥٤٨/٨ . والاصنام ص ٩ ؛ ٥٥ وفي معجم البلدان ١٩٣/١ ارض نوح من قرى البحرين . ولا يذكر متى اطلق الاسم على هذه القرية .

(١٠) المفضليات رقم (٦٦) ص ٢٦٢ وهو قوله :

قد كنت أسبق من جاروا على مهـل
من ولد آدم مالم يخلعوا رسـني

وجاء في قول لبيد وقد يكون ذلك من شعره الاسلامي :

لحا الله هذا الدهر انـي رايتـه
بصيرا بما سـاء ابن آدم مولعـا

شرح ديوانه ص ١٧٣ رقم (٢٥) .

(١١) تاريخ العرب قبل الاسلام : جاء اللفظ في المعينية والسبئية والقتبانية ، ٤٢/٨ ، ٢٣٦ .

دلالته على السواد لان العبيد غالبا ما يكونون من الزنج . ولكننا لانستطيع أن نخرج بذلك من نطاق الاحتمال الى التقرير . وهذه خسارة حقيقية فمن الجائز ان هذه القصة الضائعة عن خلق الانسان تفسر نظرة الجاهلي الىمركزه من الكون وتحكم على نوازعه وفطرته وغير ذلك .

واوضح ما يصوره القرآن من عقائد العرب عمّا بعد الموت انكارهم الحياة الاخرى وما يأتي فيها من حساب وجنة ونار .. والقرآن الكريم يصوّر انكارا لا جهلا بالبعث . يقول تعالى : « أإذا متنا وكنّا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون . أو آباؤنا الاولون » الواقعة ٤٧ . ويقول تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . » يس ٧٨ . ويقول تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين . » المطففين ١٠ . ويقول تعالى : « كلا بل تكذبون بالدين » الانفطار ٩ ويقول تعالى : « هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون . » الصافات ٢١ وامثال هذا كثير في القرآن الكريم . ولقد نحسب ان هذا التكذيب كان لاخبار القرآن الكريم عن البعث والحساب وهو أمر صحيح لا يمكن نكرانه . فقد كان من اهم ما استعصى عليهم قبوله من الاسلام عقيدته في البعث والجزاء . ولكن هذا لا يمنع من انهم عرفوا قصصا عمّا بعد الموت قرنوه بالعقيدة الاسلامية وانكروهما جميعا .

فالقرآن الكريم يحدثنا انهم سمّوا حديثه عن الآخرة اساطير الاولين وزعموا أنهم وعدوا الوعود نفسها من قبل هم وآباؤهم . يقول تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الاولون . قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا ّ اساطير الاولين . » المؤمنون ٨١ ويقول تعالى : « وقال الذين كفروا أإذا متنا وكنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا ّ اساطير الاولين. » النمل ٦٧ ويقول تعالى : « والذى قال لوالديه اف لكما أتعدانني ان اخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن انّ وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير الاولين . » الاحقاف ١٧ .

وقال تعالى : « الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لاجرم انّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . انه لا يحب المستكبرين . واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا اساطير الاولين . » النحل ٢٢ . ويقول الطبري انه قول من لا يؤمنون بالآخرة .(١٢)

وقال تعالى : « الذين يكذّبون بيوم الدين . وما يكذّب به الاّ كلّ معتد أثيم . اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين » حتى يقول تعالى : « ثم انهم لصالو الجحيم . ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون » . المطففين ١١ . وهذا صريح في انهم كانوا يسمعون قبل الاسلام حديثا وقصصا عن حياة اخرى وكانوا يأثرون ذلك عن آبائهم الذين وعدوا الوعد نفسه من قبل . وأصل الاساطير عند المفسرين اما من السطر بمعنى الكتابة معنى قديم جاء اللفظ دالا عليه في نقوش الجنوب واما من التسطير بمعنى الاختراع والخرافة والتزيين .(١٣)

وهما معنيان لا يخرجان بقولهم ان حديث البعث اساطير قديمة عن الدلالة التي استفدناها من هذه الآيات . وهي ان حديث البعث قديم . وانهم لا يصدّقونه لأنه لم يتحقق على قدمه .

ومن غير المحتمل ان توجه أشارتهم الى الكتب المقدسة .. لاننا لا نعلم انهم اعتبروا التوراة او الانجيل اساطير .. فضلا عن ان آباءهم لم يكونوا يهودا او نصارى ليوعدوا بما في الدينين من عقيدة البعث .

ولقد بقي لنا من قصصهم المتعلّق بالحياة الاخرى ما يذكره الرواة عن البلية .. وهي ناقة تعقل معكوسة الرأس الى مؤخرها عند قبر الميت . وتترك حتى تموت جوعا وعطشا .. يرون أن الميت يحشر راكبا عليها . فاذا لم تكن له

---

(١٢) تفسير الطبري « بولاق » ٦٥/١٤ .

(١٣) تفسير الطبري « بولاق » ١٠٨/٧ ، ١٥١/٩ . تاريخ العرب قبل الاسلام وفيه ان سطر : تعني الكتابة والتدوين ٢٣٤/٨ .

بلية حشر راجلا .[١٤] وهذا اعتقاد منهم بأن المحشر مكان بعيد . ويحتمل ان يكون لهذه الناقة فائدة تتعلق بحياة المبعوث على نحو ما عهد العرب في الصحراء من اعتمادهم على الابل في المأكل والملبس والسفر . كذلك وجدت في مقابر الجنوب أشياء مما يستعمله الانسان في حياته ومن ذلك الحليّ مما يدل على اعتقادهم بامتداد الحياة بعد الموت[١٥] .

وهذا لا ينبغي ان يدفعنا الى المجازفة في تصوّر مدى انتشار عقيدة البعث بين اهل الجاهلية .. وابن‌حبيب[١٦] يذهب الى ان اكثر العرب كانوا مؤمنين بالبعث والحساب . ويروى لاثبات زعمه هذا قول الاعشى :

بأعظم منك تقى في الحساب   اذا القسمات يفضن الغبارا

وقول الاخنس بن شهاب :

وعلمت ان الله جاز عبده   يوم الحساب بأحسن الاعمال

ونضيف قول زهير في المعلّقة :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر   ليوم الحساب أو يعجّل فينقم

ولكن ذلك لا يكفي لتدعيم قول ابن حبيب .. فالقرآن الكريم يفيض بالجدل الذي يديره مع منكرى البعث والحساب. والشاكّين فيه.. كالذين يقول فيهم تعالى : « واذا قيل انّ وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة ان نظن الا ظنّا وما نحن بمستيقنين.» الجاثية[١٧] ٣٢. كذلك يلاحظ الدكتور جواد علي ان مجموعة من الالفاظ المتعلقة بالحساب عربية اصيلة كالجنة والنار والحشر والبعث وغيرها[١٨] .. وهي ملاحظة مهمة

---

(١٤) الروض الانف ٩٦/١ ، المعاني الكبير ١٠٢٩/٣ . شرح ديوان كعب بن زهير ص ١٨٨ . نهاية الارب ١١٧/٣ ، الملل والنحل ٢٤٤/٢ المحبر ٣٢٣ .

(١٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٩١/٥ .

(١٦) المحبر ص ٣٢٢ .

(١٧) تفسير الطبري « بولاق » ٩٥/٢٥ .

(١٨) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٩١/٥ .

ولكنها لا تقطع بشيء .. لان استعمال هذه الالفاظ بدلالتها الاسلامية لم يثبت انه عرف في الجاهلية .. وقد تكون هذه الاصطلاحات منقولة من أصول لغوية لا تحمل الدلالة الاسلامية . فهي مثل الفاظ الزكاة والاسلام ونحوها .

واقرب الى الحق من غلو ابن حبيب ان الجاهلية عرفت في عقائدها البعث .. ولكنها عرفته على نحو يختلف عما جاء في عقيدة الاسلام .. ويحتمل ان أهل الجاهلية ورثوا عقيدة البعث فيما توارثوا من ملّة ابراهيم عليه السلام .. ولكنهم خلطوها بكثير من العناصر الغريبة ومن التحريف مما أبعدها عن اصلها الاول .. وصيرها خليطا من الاساطير .. والخيال الساذج . مثل اقاويلهم في الهامة والصدى .. فقد كانوا يخالون أن الميت يخرج من رأسه طائر من طير الليل .. فاذا كان موته قتلا طلب صداه أو هامته له من قاتله بقوله اسقوني .. وربما جاء الميت بأخبار الثار له والتدابير التي يتخذها وليّ الثأر لذلك[19] . وقد جاء نفي هذه الاسطورة في قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «لاعدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»[20]. ولا ندرى على التحقيق علاقة الصدى والهامة بصورة الروح عندهم .. مع ان اثباتهم للروح .. على اى صورة تصوّروه ـ مما يثبت ايمانهم باستمرار وجود الانسان بعد موته .. اما الحساب فلا نستطيع أن نقول في مدى انتشار الاعتقاد به بينهم شيئا .. مع علمنا بانه من عقائد اهل الكتاب من العرب وغيرهم .. وربما تأثر بهم من خالطهم واتصل بهم من اهل الشرك .

وقد ادى اختلاط الاقاويل في البعث والحساب الى انه لم يكن مقنعا لقسم من اهل الجاهلية من الطبقة المفكرة الواعية منهم .. وهم الذين اطمأنوا

---

(١٩) امالي القالي ١٢٩/١ ، مروج الذهب ٦٨/٢ ، النقائض ٨٢/١ . بلوغ الارب ٣١١/٢ . وانظر الملل والنحل ٢٣٧/٢ . والشهرستاني يعتبر الهامة صورة من التناسخ قالوا بها .

(٢٠) البخاري : فتح الباري ١٢٩/١٠ ، ١٣٩ ، ١٧٦ ، ١٩٨ . مسلم : النووى ٢١٣/١٤ ــ ٢١٥ .

الى فكرة الدهر على خلاف واضح بينهم في فهمها •• فهي عند الزنادقة الذين بحثنا بعض اقاويلهم في الفصل السابق فكرة ملحـــدة •• تناسب افكارهم الاخرى وهي تؤدى الى رفض البعث رفضا قاطعا •• وتكل تدبير الحيـــاة والموت للدهر • ويصور ذلك قوله تعالى : « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا • نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنّون• » الجاثية ٢٤ • ويقول الطبري في تفسير الآية الكريمة : « وما يهلكنا الا مرّ الليالي والايام وطول العمر انكارا منهم ان يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم• » ويقول النيسابورى انهم لم ينكروا المعاد فقط ولكنهم انكروا المبدأ[٢١] • ويقول الشهرستاني في تصنيفه لمعطلة العرب : « فصنف منهم انكروا الخالق والبعث والاعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني وهم الذين اخبر عنهم القرآن المجيد : وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا[٢٢] •• والآية الكريمة بعـد ذلك جازمة في ان هؤلاء أنكروا البعث ونسبوا الامانة الى الدهر وليس الى الله •• أما الخلق فالآية لا تحدّد رأيهم فيه على وضـــوح •• وليس ذلك غريبا •• فالملحــــدون بعامــة يجزمون بنفي البعث ويتخبطون في الخلق وتفسيره •

والدهر عند القسم الاكبر ممن كان يقول به من العرب هو القدر •• وهو لا يتعارض مع ايمان هذه الجماعة بالله سواء كانوا من اهل الكتاب أو المشركين •• وفهم الدهر على هذا النحو شائع في الشعر الجاهلي ولذلك كان من المتيسر دراسته دراسة وافية •• فالدهر هو الزمان المعروف ••• يكاد امرؤ القيس يعرّفه تعريفا فيقول[٢٣] :

الا انما الدهر ليال وأعصـــر وليس على شيء قويم بمستمر

---

(٢١) تفسير الطبري « بولاق » ٩١/٢٥ وبهامشه تفسير النيســـابوري ٩٣/٢٥ .

(٢٢) الملل والنحل ٢٣١/٢ .

(٢٣) ديوانه رقم (١٤) ص ١٠٩ .

ومثله فيَ التعريف بالدهر قول ابي ذؤيب الهذلي[٢٤] :

هل الدهر الا ّ ليلة ونهارهـــا   والا ّ طلوع الشمس ثم غيارها

ويخلط فروة بن مسيك المرادى بين الدهر والزمان لانهما مترادفان في ذهنة فيقول[٢٥] :

ومن يغرر بريب الدهر يومـا   يجد ريب الزمـان له خؤونا

ولهذا الترادف بين اللفظين اعتبروا الوحدات الزمنية وحدات دهرية ايضا كما في قول اعشى أسد[٢٦] :

فلا يغر ّنك من دهر تقلّبه   ان ّ المنيـــة بالفتيـــان تنقلب

وقول ذى الاصبع[٢٧] :

اهلكنا الليل والنهار معـــــا   والدهـــر يعـــدو مصممّا جذعا

وقوله ايضا[٢٨] :

ويا بؤس للايامِ والدهر هالكا   وصرف الليالي يختلفن كذلكـا

ولترادفَ اللفظين نسبوا الى الزمان ما نسبوه الى الدهر • يقول ابو الطمحان القيني[٢٩] :

ان الزمان وما تفنى عجائبـــه   فيه تقطـــع ألآ ّفٍ واقرانِ

---

(٢٤) ديوان الهذليين ٢١/١ .

(٢٥) البيت من قطعة في الحماسة البصرية ٤١٦/٢ والوحشيات ص ٢٧ .

(٢٦) الصبح المنير ص ٦٥ .

(٢٧) الاغاني « الدار » ٩٦/٣ ، منتهى الطلب ١٩٥ . شعراء النصرانية ٦٢٩/٥ والبيت من قصيدة مفصلية رقم ٢٩ وليس البيت مرويا فيها .

(٢٨) الاغاني « الدار » ١٠٤/٣ ، شعراء النصرانية ٦٣٥/٥ .

(٢٩) البيان والتبيين ١٨٧/١ . وابو الطمحان حنظلة بن الشرفي مخضرم او جاهلي ذكر ذلك في الاصابة ٦٦/٢ ، ويقول في الشـعر والشـعراء ٣٠٤/١ انه كان ينزل على الزبير بن عبد المطلب ، وروى في الحيوان مدحه لمالك بن حمار الشخمي الذي قتله خفاف بن ندبه يوم قتـل معاوية اخو الخنساء .

وتقول الخنساء[٣٠] :

ان الزمان وما تفنى عجائبه أبقى لنا ذنبا واستؤصل الراس

وهم ينسبون الى الدهر عامة ما يكرهون من فرقة أو فقر أو موت ونحو ذلك يقول عبيد بن الأبرص[٣١] :

دار حيّ اصابهم سالف الدهر فأضحت ديارهم كالخلال

ويقول بشر بن أبي خازم[٣٢] :

اصبح الدهر قد مضى بسمير بسعور الوغى وبالمفضال

ويقول دريد بن الصمّة[٣٣] :

أسرّك أن يكون الدهر سدّى عليّ بشرّه يغدو ويسرى

ويقول جندل بن اشمط العنزى[٣٤] :

أأمام ان الدهر أهلك صرفه ارما وعادا

ويقول المرقش الاصغر[٣٥] :

تبكي على الدهر والدهر الذى أبكاك فالدمع كالشن هزيم

ويقول ابو دواد الأيادي[٣٦] :

عطف الدهر بالغداء وبالمو ت عليهم يدور كالمنجنون

---

(٣٠) انيس الجلساء ص ٥١ .
(٣١) ديوان عبيد رقم (٤١) ص ١٠٥ .
(٣٢) ديوان بشر رقم (٣٦) ص ١٧٠ .
(٣٣) الاغاني « الدار » ٩٧/١٥ . شعراء النصرانية ٧٧٠/٥ .
(٣٤) الوحشيات ص ١٦٢ حماسة البحتري ص ١٢٩ .
(٣٥) المفضليات رقم (٥٧) ص ٢٤٩ .
(٣٦) دراسات في الادب العربي ص ٣٤٥.

واوجزوا فعل الدهر بتعابير شتى كصرف الدهر وبناته وحادثه ..

يقول قيس بن الخطيم[٣٧] :

تناوله بنـــــات الدهر حتى تثلّمه كمـــا انثلم الانـــــاء

ويقول عمرو بن قميئة[٣٨] :

رمتني بنات الدهر من حيث لا ارى فكيف بمن يرمى وليس برامي

ويقول عمرو بن ملقط الطائي[٣٩] :

وحوادث الأيام لا يبقى لها الا الحجارة

ويقول ابو الطمحان القيني[٤٠] :

رمتني حادثات الدهـــر حتى كأني خـــاتل يدنو لصـــيد

ويقول حاتم الطائي[٤١] :

لبسنا صروف الدهر لينا وغلظة وكلا سقـــاناه بكأسهما الدهر

ويقول سويد بن خذاق[٤٢] :

لعل لبون الملك تمنع درهـــا ويبعث صرف الدهر قوما نياما

---

(٣٧) ديوان قيس رقم (٢٢) ص ٧١ .

(٣٨) ديوان عمرو رقم (٣) ص ٢٢ .

(٣٩) النقائض ٦٥٣/٢ ، الاشتقاق ص ٣٨٥ ، معجم الشعراء ص ٣٥ ويسميه عمرو بن ثعلبة او ابن نعامة .

(٤٠) الاغاني « الدار » ٣٥٢/٢ وهو ينسبه للمسجاح بن سباع الضبي وهو جاهلي في معجم الشعراء ص ٤٦٩ وهو لابي الطمحان في المعمرين ٦٢ ـ ٦٣ ، والاصابة ٦٦/٢ وتفسير الطبري « المعارف » ١١٤/٧ .

(٤١) ديوان حاتم ص ٣٩ .

(٤٢) الشعر والشعراء ٣٠٣/١ .

ويقول عدى بن زيد[٤٣] :

وخطوب الدهر لا يبقى لهـا ولمـا تـأتي بـه كالجبـال

والدهر هو القدر ولكنه غير عادل وقــد عبّروا عن ذلك حين وصفوا الدهر بالخيانة والختر والغدر والعدوان والخداع ونحوه .. يقول النابغة الجعدى[٤٤] :

ولا تأمنوا الدهـر الخؤون فانه على كـل حال بالفتى يتقلب

ويقول أبو زبيد الطائي[٤٥] :

خان دهر بهم وكانوا هم أهـ ـل عظيم الفعـال والتمجيد

ويقول عبيد بن الابرص[٤٦] :

ديار بني سـعد بن ثعلبة الالى أذاع بهم دهر على الناس رائب

ويقول احيحه بن الجلاح في نفوس الناس[٤٧] :

تظن ان لن يصيبهـا عنت الدهر وريب المنون صائبها

ويقول امية بن ابي الصلت[٤٨] :

اجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر ان للدهر غـولا

---

(٤٣) ديوان عدى رقم (١٥) ص ٨٢ .

(٤٤) شعر النابغة رقم (١) ص ١٠ .

(٤٥) شعر ابي زبيد رقم (٩) ص ٤٥ .

(٤٦) ديوان عبيد رقم (٤) ص ٨ .

(٤٧) يتنازعها احيحة وعدي بن زيد . . انظر ديوان عدى ص١٩٤ رقم(١٤٦).

(٤٨) ديوان امية ص ٢٥ .

ويقول احيحة بن الجلاح[٤٩] :

صحوت من الصبا والدهر غول ونفس المرء آونة قتول

ويقول عنترة[٥٠] :

لاشك للمرء ان الدهر ذو خلف فيه تفرّق ذى الف ومألوف

ويقول سويد بن خذّاق[٥١] :

والا تغاديني المنية أغشكم على عدواء الدهر جيشا لهاما

ويقول الحارث بن ظالم[٥٢] :

أصابهم الدهر الختور بختره ومن لايق الله الحوادث يعثر

ويقول أبو قيس بن الاسلت[٥٣] :

أقضي بها الحاجات ان الفتى رهن بذي لونين خدّاع

ويقول الأعشى[٥٤] :

أأن رأت رجلا أعشى أضرّ به ريب المنون ودهر مفند خبل

وهم يرون أن هذه القوة الهائلة للدهر آتية من امتداده واستمراره فهم لا يرون له حدودا ولا يتصورون مثل هذه الحدود . يعبّر لبيد عن هذا بقوله[٥٤أ] :

---

(٤٩) جمهرة اشعار العرب . (٢٣١)
(٥٠) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٩٥ .
(٥١) الشعر والشعراء ٣٠٣/١
(٥٢) الاغاني « الدار » ٢٥١/١ .
(٥٣) المفضليات رقم (٥٧) ص ٢٨٦ .
(٥٤) ديوان الاعشى رقم (٦) ص ٥٥ .
(٥٤)أ شرح ديوانه رقم (٥) ص ص ٣٦ .

غلب العزاء وكنت غير مغلّب دهر طويل قائم ممدود
يوم اذا يأتي عليّ وليلة وكلاهما بعد المضاء يعود
وأراه يأتي مثل يوم لقيته لم ينصرم وضعفت وهو شديد

ويقول في ذلك المسجاح بن سباع الضبّي[٥٤ب] :

وأفناني وما يفنى نهار وليل كلّما يمضي يعود
وشهر مستهل بعد شهر وحول بعده حول جديد
ومفقود عزيز الفقد تأتي منيته ومأمول وليد

ويقول حاتم الطائي[٥٥] :

وما هي الاّ ليلة تمّ يومها وحول الى حول وشهر الى شهر
مطايا يقرّبن الصحيح الى البلى ويدنين أشلاء الهمام من القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره ويقسمن ما يحوي الغنيّ من الوفر

ويقول عمرو بن الاهتم[٥٦] :

يطاوحني يوم جديد وليلة هما أبليا جسمي وكل فتى بالي
اذا ما سلخت الشهر أهللت بعده كفى قاتلا سلخي الشهور واهلالي

وهم يذهبون الى معنى امتداد الدهر الى غير نهاية حين يذكرون تقسيمات الزمن .. كما في قول الاضبط بن قريع[٥٧] :

لكل همّ من الهموم سعه والمسى والصبح لا فلاح معه

---

(٥٤)ب شرح الحماسة .. المرزوقي ١٠٠٩/٢ ، ١٧٣٧/٤

(٥٥) ديوان حاتم الطائي ص ٣٩ .

(٥٦) الحماسة البصرية ٤١٦/٢ .

(٥٧) المعمرين ص ٧ ، البيان والتبيين ٣٤١/٣ ؛ الشعر والشعراء ٢٩٩/١ ، امالي القالي ١٠٧/١ .

وقول زرعة بن عمرو[٥٨] :

وأفنتني الليـــالي أم عمرو   وتأميلي هـلالا عن هـــلال

وقول عمرو بن قميئة[٥٩] :

يا ابنة الخيـــر انـا نحـن رهـن   لصروف الايـام بعـــد الليـالي

وقد يعبرون عن ذلك باشارات موجزة كقول الخنساء[٦٠] :

ان (الجديدين) فيطول اختلافهما   لا يفسدان ولكن يفسـد الناس

وقول أبي قلابة الهذلي[٦١] :

فالخير والشـــر مقرونان في قرن   بكلّ ذلك يأتيـك (الجديدان)

وهو تعبير شائع .. وكقول الاسود بن يعفر[٦٢] :

غدا (فتيا) دهـر ومر عليهـــم   نهار وليل يلحقـــان القـرائبا

ولهذا الرأي في الدهر تظلّموا منــه وشـــكوه . يقـــول عمرو بن قميئـة[٦٣] :

فيـا دهر قـدك فأسجح بنـا   فلســنا سـلاما ولسنا حـديـدا

---

(٥٨) شرح الحماسة للمرزوقي ١٧٣٧/٤ .

(٥٩) ديوان عمرو بن قميئة ص ٣١ رقم (٦) .

(٦٠) انيس الجلساء ص ٥١ .

(٦١) ديوان الهذليين ٣٩/٣ .

(٦٢) الصبح المنير ص ٢٩٣ . وجاء في شعر النابغة الجعدي : ص ١٦٩ .

غدا فتيـا دهر فمرا عليهـــم   نهـار وليــل يلحقان التواليـــا

(٦٣) ديوان عمرو بن قميئة ص ٦٣

ويقول الحارث بن حلّزة[٦٤] :

من حاكم بيني وبين الدهـر مال عليّ عمـــدا

وتقول الخنساء[٦٥] :

تعرّقني الدهـر نهســـا وحزّا   وأوجعني الدهـــر قرعـا وغمزا

وتوجعهم من الدهر شائع في الشعر وأندر منه شتمهم اياه . يقـــول لبيـــد[٦٦] :

لحا الله هذا الدهر اني رأيتـــه   بصــيرا بما ساء ابن آدم مولعـا

وتقـول الخنساء[٦٧] :

قد راعني الدهر فبؤســـا لــه   بفـارس الفرسـان والخنشليل

وذكروا شاعرا اكتفوا بلقبه ولم يذكروا زمنه وهـــو شـــاتم الدهر العبدي ورووا له قوله[٦٨] :

ولمّـا رأيت الدهر وعرا سـبيله   وأبدى لنـا ظهرا أجبّ مسـلّعا

ومعـرفـة حصّـاء غير مفاضة   عليه ولونا ذا عثانين أجـــدعـــا

وجبهــة قـرد كالشراك ضئيلة   وصـعـّر خديـه وأنفـا مجدّعا

هناك ذكرت الذاهبين أولي النهى   وقلت لعمرو والحســـام الادعـا

فإني أرى الحيّين كعبـا ودارمـا   أصابهم دهـر وكـــان مفجّعـا

---

(٦٤) الوحشيات ص ١٦٣ .

(٦٥) انيس الجلساء ص ٤٧ .

(٦٦) شرح ديوانه رقم (٢٥) ص ١٧٣ .

(٦٧) الوحشيات ص ٢٢٠ ، الوساطة ص ٤٣٠ . ويذهب الجرجاني الى انهم شخصوا الدهر لطول شكواهم منه ، ورسالة الغفران ص ٣٦١ ، والصناعتين ص ٣٠٣ .

(٦٨) الوحشيات رقم (٣٦٢) ص ٢٢٠ .

وفي ذلك جاء نهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن شتم الدهر فقال .

« لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » .

الدهر والقدر

نخلص مما استعرضناه من شعر الجاهلية في الدهر الى ان الدهرية تخالف دهرية الزنادقة فهي ليست ملحدة . ويدل على ذلك وجودها عند عدي ابن زيد وهو نصراني ويدلّ عليها ذلك أيضا انها لا تحول دون الايمان .. كما جاء في قول الحارث بن ظالم الذي رويناه :

أصابهم الدهر الختور بختره   ومن لايق الله الحوادث يعثر

وهي دهرية متشائمة لا تخطر الاّ في ساعة الألم والحزن .. ويكثر ورودها في شعر الشيوخ والمصابين . ومن هنا فهي في حقيقتها تدور حول القدر الظالم الذي لا ينجو منه أحد .. والحديث الشريف الذي رويناه جاء بلفظ اصرح في الربط بين قولهم في الدهر وبين القدر .. وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار »[٦٩] .

وقد عرف عن أهل الجاهلية منذ القديم ايمانهم العميق بالقدر .. يقول قتادة[٧٠] : « فانه لم يكن أحد من العرب الاّ وهو يثبت القدر وأنشد :

ما كان قطعي هول كل تنوفة   الاّ كتابا قد خلا مسطورا »

---

(٦٩) البخاري : فتح الباري ٤٦٦/٨ ، ٤٦٥/١٠ . مسلم النووى ٢/١٥-٣

(٧٠) العقد الفريد ٣٨٠/٢ .

وقال الاصمعي[٧١] للمازني وقد رمي عنده بالاعتزال : « والعـــرب تقول : لو خيّرت لأخترت تحيل على القدر • وينشدون :

هي المقـــادير فلمني أو فـــذر ان كنت أخطأت فما أخطا القدر»

ويقول السهيلي[٧٢] معلـّقا على قول ابن الزبعرى :

يا غراب البين أســمعت فقــل انما تنطق شــيئا قــد فعــل

« قوله قد فعل أي قد فرغ منه وقد كانوا في الجاهلية يقرّون بالقدر •

قال لبيد :

ان تقـوى ربنـــا خير نفـــل وبأذن الله ريثي وعجــــل
من هداه ســبل الخير اهتــدى ناعـم البـــال ومن شـاء أضـل

وقال راجزهم :

أيهـا اللائـم لمني أو فـــــذر ان كنت أخطأت فما أخطا القدر»

واللفظ لا شك في جاهليته : يقول لبيد[٧٣] :

ولا أقـــول اذا ما أزمة أزمت يا ويح نفسي مما أحدث القـدر

وهو يقول في هذه القصيدة[٧٤] :

فقلت ليس بياض الرأس من كبر لوتعلمين وعند العـــالم الخبــر

فهذه قصيدة جاهلية قالها قبل ان يسنّ ويشكو طول عمره ، ويقـول في رثاء عمه ملاعب الاسنة[٧٥] :

تركتـــه للقــــدر المتـــاح

---

(٧١) مجالس العلماء ص ٢٩٥ .
(٧٢) الروض الانف ١٥٧/٢ .
(٧٣) شرح ديوان لبيد رقم (٩) ص ٦٤ .
(٧٤) المصدر السابق ص (٦٢)
(٧٥) المصدر السابق رقم (٥٣) ص ٣٣٢ .

ويقول أوس بن حجر[٧٦] :

لعمر ما قدر أجدى بمصرعه　　لقد أخلّ بعرشي أيّ اخلال

ويقول الاسود بن يعفر[٧٧] :

فيا لهف نفسي على مالك　　وهل ينفع اللهف زوّ القدر

ويحتمل ان اثبات القدر كان نتيجة تفكيرهم في الموت بالدرجة الاولى .. فمما نلاحظه في ألفاظ الموت عندهم أن كثيرا منها هو اشارة الى الشيء الواجب كالحتم والمنية والحمام أو الى الوقت المحدّد كالأجل واليوم .. ولكن هذا لم يمنعهم من أن يعلّقوا بالقدر أشياء أخرى .. وهم غالبا يذكرون القدر والدهر في حالات اليأس والقنوط ويذكرون ارادة الله في حالات التأمل الهادىء كما رأينا في قول لبيد : وباذن الله ريثي وعجل . وفي مثل قول ثعلبة بن عمرو العبدي في مواطن الفخر والتهديد[٧٨]:

عتاد امرىء في الحرب لا واهن القوى

ولا هو عما يقدر الله صارف

ويبدو ذلك جليا في فعل عدي بن زيد فقد جرى على هذه القاعدة رغم نصرانيته .. وهو يعلق تفاؤله بمشيئة الله كقوله في سجنه[٧٩] :

ولنا مجد ورب مفضل　　بيديه الخير ما شاء أمر

منه فضل ولديه سعة　　انما يرجى لما فات الغير

وشفيع منجح ينظرنا　　بيديه اليوم تيسير العسر

---

(٧٦) ديوان اوس ص ١٠٦ .

(٧٧) الصبح المنير ص ٢٩٨ . ولعله يدفع اللهف زو القدر .

(٧٨) المفضليات رقم (٧٢) ص ٢٨٢ .

(٧٩) ديوان عدى رقم (٨) ص ٦٢ .

ويقول في أخرى وهو يبدو فيها يائسا متحققا من مصيره[٨٠] :

أيها الشامت المعيّر بالدهر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الايام أم أنت جاهل مغرور

وهو يعلق في قصيدة أخرى آماله بمشيئة الله .. أما مخاوفه فهي حتم أو قدر مجهول يقول عدي[٨١] :

واذهبي يا اميم ان يشأ الله ينفّس من أزم هذا الخناق
أو تكن وجهة فتلك سبيل الناس لا تمنع الحتوف الرواقي

والذي يستنتج من ذلك أن القدر عندهم مسؤول عن الخير والشر ولكنهم لا يصرّحون بذكر مقدره في حالة حزنهم وثورتهم .. وقد رأينا انهم قد يصلون حينئذ الى درجة الشتم والسباب في خطاب الدهر .. وهم بهذا الصنيع يتفادون المساس بالمقدسات الدينية ويطلقون لأنفسهم حرية التعبير عن مشاعرهم في الوقت نفسه .

واذا كانت غالبية الجاهليين يقولون بالجبر فان قسما منهم كانوا قدريّة يرون ان الانسان حر مختار .. فقد جاء في الحديث[٨٢] ان المشركين خاصموا النبي عليه الصلاة والسلام في القدر فأنزل في هذه الخصومة قوله تعالى : « إنّا كل شيء خلقناه بقدر » القمر ٤٨ . فهؤلاء الذين خاصموا في القدر لم يكونوا يثبتونه على الاكثر ولذلك أكد لهم في الآية الكريمة . ونفهم من القرآن الكريم أن هؤلاء كانوا على الغالب من الأثرياء والسادة الذين كان نجاحهم في حياتهم يبطرهم ويجعلهم ينصورون

---

(٨٠) المصدر نفسه رقم (١٦) ص ٨٧ .

(٨١) ديوان عدى بن زيد رقم (٩٢) ص ١٥١ .

(٨٢) مسلم النووى ٢٠٥/١٦ ؛ الطبري « بولاق » ٦٥/٢٧ اسباب النزول للواحدى ص ٢٢٨ . ويروى الطبري ان ابن عباس كان يقول بان الآية في قوم ينكرون القدر دون ان يعرف زمن المنكرين .

أنفسهم متحكمين في مصائرهم وفي ثرواتهم يقول تعالى : « ويل لكل همزة لمزة • الذي جمع مالا وعدده • يحسب ان ماله أخلده » الهمزة ١ • ويقول تعالى : « لقد خلقنا الانسان في كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد » البلد ٦• ويقول تعالى : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا » الكهف ٣٥ •

وجاء في الحديث أن ذا اللحية الكلابي سأل النبي صلى الله عليه وسلم : « أنعمل في أمر مستأنف أو أمر قد فرغ منه قال : في أمر قد فرغ منه ، قال : ففيم نعمل اذن ؟ قال : اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له »[٨٣] • والحديث يصور تفكيرا في القدر لا يمكن وصفه بالسذاجة • فهو يمثل احساس هذا الرجل بانتفاء الغاية من العمل اذا كان لا يغيّر من القدر •• ومن ذلك نرى أن القدر كان من أهم مواضيع التفكير الجاهلي اثباتا ونفيا • وسنجد ذلك ظاهرا في الشعر ظهورا جليا •

وللجدّ أو الحظ مكان مهم في حياة الجاهليين • فقد كان بعض الناس مشهورين بينهم باليمن وكان آخرون منهم محدودين لا يلقون خيرا • وممن اشتهر بحسن حظه وظفره دريد بن الصمّة الذي حمله قومه الى حنين حين كان شيخا عاجزا يتيمّنون به[٨٤] • وكان الاحيمر بن عبدالله فارسا من أمثل فرسان تميم •• ولكنه كان محدودا حتى أنه لم يكن يطعن برمح الا انكسر في يده[٨٥] • ويتعلق بالحظ على الاكثر تطيرهم من بعض الاشياء وتفاؤلهم باخرى وقد كان لمعرفة دلالة هذه الاشياء « علم » خاص اشتهر به بنو لهب[٨٦] وهي شهرة تقوم على فهم دلالة الاشياء غير المقررة • أما الغراب

---

(٨٣) اسد الغابة ١٤٤/٢ . الاصابة ١٧٨/٢ ويذكر ابن حجر ان البغوى والطبراني وغيرهما اخرجوه .

(٨٤) الاغاني « الدار » ٣٠/١٠ .

(٨٥) في اللسان ان المحدود هو الذي لا يصادف خيرا .. وانظر النقائض ٣١٥/١ ، ٥٨٣/٢ .

(٨٦) جمهرة انساب العرب ص ٨٧ واللسان مادة لهب .

والسانح والبارح والحيوان الاعضب وما اليه فقد كان واضح الدلالة عند الناس[٨٧] .

الخير والشر

ونحن نجد في الشعر الجاهلي مذاهب مختلفة في الخير والشر بمعناها المادي الذي يعني ما يرغب فيه وما يكره .. وهي مذاهب متأثرة بوساوس الطيرة والفأل أحيانا اذ يشعر الانسان ان له نصيبا معينا من الخير والشر .. وانه يختلف في ذلك عن بقية الناس .. فالمثقب مثلا يحس ان الشر يطارده أينما توجه .. ولا يمنعه هذا الاحساس من أن يتبين استحالة معرفة المستقبل يقول المثقّب[٨٨] :

وما أدري اذا يممت أمــرا	أريــد الخـير أيهما يليني
أ الخـير الـذي أنـا أبتغيـه	أم الشـر الذي هـو يبتغيني

ويعبّر عبيد عن احساس مقارب حين يقول[٨٩] :

والخير لا يـأتي عـلى عجـل	والشـر يسـبق سـيله مطره

ويقول كعب بن زهير[٩٠] :

لعمــرك لولا رحمـة الله انني	لأمطـو بجـد ما يريـد ليرفعـا
فلو كنت حوتا ركّض الماء فوقه	ولو كنت يربوعا سرى ثم قصّعا
اذا ما نتجنا أربعـا عـام كفـأة	بغـاها خناسـير فأهلك أربعـا
اذا قلت اني في بـلاد مضـلة	أبى أن ممسانا ومصـبحنا معـا

---

(٨٧) انظر في موضوع الطيرة تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٣٢٤ وما بعدها .

(٨٨) ديوان المثقب ص ٤٢ .

(٨٩) الوحشيات ص ١٣٦ . ولم يرد في ديوانه .

(٩٠) شرح ديوان كعب ص ٢٢٧ .

ومن مذاهبهم في الخير والشر ما يتأثر بنظرتهم في القدر • يقول ابن الزبعرى[٩١] :

يا غراب البين أسمعت فقل انما تنطق شيئا قد فعل
ان للخير وللشر مدى وكلا ذينك وقت وأجن
كل بؤس ونعيم زائل وبنات الدهر يلعبن بكل

فالشاعر يرى الخير والشر كليهما من لعب الدهر بالناس • وعكسه أبو قلابة الهذلي الذي يقول[٩٢] :

لا تأمنن وان أمسيت في حرم ان المنايا بجنبي كل انسان
واسلك طريقك تمشي غير مختشع حتى تلاقي ما يمني لك الماني
فالخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان

فأبو قلابة ينسب الخير والشر الى القدر •• ويسوق ذلك تشجيعا للانسان على التماس الخير بالرغم من المنايا التي ينطوي عليها •

على ان الغالب عليهم اعتبار الفرح بالخير والركون اليه عجزا وغفلة واعتبار الجزع من الشر والاستسلام عند وقوعه ضعفا وخورا •• ويبدو ان هذا التصور هو الذي تواضع عليه مجتمعهم حتى مدحوا وافتخروا على أساس منه ، يقول النابغة[٩٣] :

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

ويقول طرفة[٩٤] :

ان نصادف منفسا لاتلفنا فرح الخير ولا نكبو لضر

---

(٩١) السيرة : الروض الانف ١٥٧/٢ . طبقات ابن سلام ص ١٩٨ .
(٩٢) ديوان الهذليين ٣٩/٣ ، السيرة : الروض الانف ٧٨/١ والنص منه .
(٩٣) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٢ .
(٩٤) ديوان طرفة ص ٧٧ رقم (٥) .

وقد جاء الخير والشر بمعناهما الاخلاقي في الشعر الجاهلي • وهـذا المعنى تابع للمعنى المادي •• فالخير بالمعنى الخلقي هو صنع ما ينفع الناس ويسعدهم •• والشر يقابله ويمكن أن يكون استعمال اللفظين كأسمي تفضيل هو الاصل في هذا المعنى المثالي فالقول بأن شيئا خير من آخر يعني وجود مقياس أو مثل أعلى رجع اليه القائل •• ومن استخدام اللفظين بهـذا المعنى الاخلاقي قول عبيد(٩٥) :

الخير يبقى وان طال الزمان بـه والشـر أخبث ما أوعيت من زاد

وقال زهير(٩٦) :

فما يك من خـير أتـوه فانما توارثـه آبـاء آبائهم قبـل

وقول عبد قيس بن خفاف البرجمي في وصيته لأبنه(٩٧) :

واذا هممت بأمر شـر فاتئـد واذا هممت بأمر خير فافعـل

وقول عمرو بن الاهتم(٩٨) :

وكـل كريم يتقي الذم بالقرى وللخير بين الصـالحين طريق

ومن الجلي في هذه النصوص أن أهل الجاهلية قرروا للخير معـاني مثالية واضحة منها بقاء الخير ورسوخه •• وهو المعنى الذي يلمّ به عبيد •• ومنها ان الخير لا يزال موجودا بين الصالحين كما يقول عمرو بن الاهتم •• وتحتمل وصية خفاف معاني كثيرة منها ان الخير واضح لا يحتاج الى تبصّر وامعان نظر • وان فعل الخير لا ينتهي بما يندم عليه فاعله فليس للخوف من فعل الخير وجه •

---

(٩٥) ديوان عبيد رقم (١٦) ص ٤٩ .

(٩٦) شرح ديوان زهير ص (٩٦) .

(٩٧) المفضليات رقم (١١٦) ص ٣٨٥ .

(٩٨) المفضليات رقم (٢٣) ص ١٢٧ .

لا نجد مدخلا الى حياة الجاهلية من الناحية الدينية أفضل من الحلال والحرام عندهم • وهو اعتبار شمل الاماكن والازمنة والناس والمال والاعمال وغيرها ومن الحق ان نلاحظ أن كثيرا من الحرمات هي حرمات تابعة بمعنى انها ليست محرّمة في ذاتها ولكنها اكتسبت حرمتها من شيء آخر •• ومن ذلك مجموعة من الحرمات المتعلقة بمكة وبالحج •

ولسنا في حاجة الى اثبات أن مكة كانت مكانا محرّما فيه القتال • ولكنّ من المفيد أن نتبين مدى التزام العرب بهذه الحرمة وشمول هذا الالتزام لهم •• وقد جاءنا في الاخبار ذكر مناسبتين خرج فيهما العرب على هذه الحرمة •• واحدى هاتين المناسبتين ما سمّوه حرب الفجار وهي حرب وصمت بالفجور لأنها دارت في الحرم[٩٩] والمناسبة الاخرى عام الغدر الذي يذكره ابن حبيب •• وهو يروي ان رجلين من تميم قتلا ملكا في الحرم وأخذا كسوة للكعبة كان يحملها وقد علم أهل الموسم بما حدث بعد انتهاء الحج فغدروا بتميم ، فسمي ذلك العام بعام الغدر وصار من تواريخهم في الجاهلية[١٠٠] • واذا صدّقنا هذا الخبر فنحن نميل الى أن الغدر أطلق على فعلة تميم وليس على ما عوقبوا به بعد ذلك • وتميم اتهمت بالغدر في الجاهلية وهجاها بذلك امرؤ القيس فقال[١٠١] :

ألا ان قوما كنتم أمس دونهم ... هم منعوا جاراتكم آل غدران

---

(٩٩) السيرة : الروض الانف ١٢٠/١ . الكامل للمبرد ١١٧٨/٣ . ويذكر في ايام العرب في الجاهلية انها سميت لانها دارت في الشهر الحرام . ص ٣٢٢ .

(١٠٠) المحبر ص ٧ .

(١٠١) ديوان امرىء القيس رقم (٧) ص ٨٣ . ومثلها رقم (١٩ ، ٢٠) فهي في هجاء تميم بالغدر .

وهجا النمر بن تولب بني سعد من تميم بقوله[١٠٢] :

اذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم الى الغدر ادنى من شبابهم المرد

وقال فيهم قتيبة بن مسلم في الاسلام : « كنتم تسمون الغدر في الجاهلية كيسان »[١٠٣] .

ويمكن ان تكون هذه الشهرة بالغدر راجعة الى ذلك العام . وهذا يصور انكار الجاهلية القاطع على من يتعدى على حرمة مكة .. ويحدثنا اليعقوبي أن هذه الحرمة امتدت الى عكاظ والاسواق الاخرى القريبة ، ويقول ان بعض العرب مثل أسد وطيء كانوا يستحلّون المظالم في هذه الاسواق فكانوا يسمّون المحلّين ، وكانت قبائل من تميم وشيبان وكلب يحملون السلاح فيمنعون من الظلم وسفك الدماء وارتكاب المنكر . وكانوا يسمّون الذادة المحرمين .[١٠٤] ويؤيد ما يذكره اليعقوبي ان هذه الاسواق كان لها حكام من تميم يقومون بفض ما يحصل فيها من نزاع[١٠٥] .

اثر الدين في تركيب المجتمع

وقد امتدت حركة مكة الى من يقطنها من القبائل وهم قريش ومن معها من كنانة وخزاعة وهم الذين سمّوهم الحمس . في حين سموا من سكن خارج الحرم حلّة[١٠٦] .

---

(١٠٢) الحماسة البصرية ٢٨٧/٢ .

(١٠٣) النقائض ٣٥٤/١ .

(١٠٤) تاريخ اليعقوبي ٢٢٧/١

(١٠٥) النقائض ٤٣٨/١ ، المحبر ١٨٢ .

(١٠٦) انظر في الحمس والحلة : فتح الباري ٤٠٦/٣ ، تفسير الطبري «بولاق» ١٠٨/٨ — ١٢٠ . الطبقات الكبرى ٤١/١/١ تاريخ مكة ١٣٢/١ . السيرة : الروض الانف ١٣٢/١ . وكلهم يذكرون ان الحمسة هي التشدد في الدين . ويعينون قبائل الحمس والحلة .. ويذكرون الفروق الدينية في العبادات . وسنذكر مصادر اخرى عند الحاجة .

والحقيقة أن ما جاءنا عن الحمس والحلّة مختلط أشـد الاختلاط . فاسم الحمس عند الرواة يعني التشدد في الدين .. وهم يرون أن قريشـا تشدّدت في دينها فحرمت على نفسها طائفة من المآكل والاعمال .. فكانوا في الموسم لا يسلأون السمن ولا يأتقطون ولا يرتبطـون عنزا ولا يغـزلون الصوف والوبر ولا يستظلّون الا بقباب الادم(١٠٧) .. وكانوا لا يقفون مع الناس بعرفة ويبدأون الحج من مزدلفة لئلا يخرجوا من الحرم .. وكانوا يدخلون البيوت من ابوابها ويطوفون بالبيت في ثيابهم . أما الحلّة الذين لم يحرموا شيئا مما حرمه الحمس فكانوا يقفون بعرفة ويطوفون بالبيت عراة الا اذا حصلوا على ثياب الحمس أمّا بالاعـارة أو الكراء .. وكان لبعضهم صديق من الحمس ينزلون عليه ويطوفون في ثيابه وهو الحرمي(١٠٨) وكانوا يأتون بيوتهم من ظهورها او من فتحة يحدثونهـا فيها .. والرواة يذكرون كذلك ان الحمس هم قريش ومن ارتبط معها بالصهر من العرب كبني عامر وخزاعة وغيرها .

ونحن نجد تناقضا كبيرا في هذا الذي ذكروه .. فمن الواضح ان التشدد في الدين أمر مرهون بالارادة ، فكل انسان يستطيع ان يتشدّد في دينـه ويكون بالتالي من الحمس . ولكن ذلك كان ممتنعا لان الحمس محدّدون قبليا .. وكذلك جاءنا في الاخبار انهم لم يكونوا يسمحون لاحد من الحلّة بتقليد الحمس ويعتبرون ذلك خروجا على الدين .

جاء في الحديث الشريف : « كانت قريش تدعى الحمس وكانوا يدخلون من الابواب في الاحرام وكانت الانصار وسائر العرب لا يدخلون من الابواب فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بستان فخرج من بابه فخرج معه قطبة ابن عامر الانصاري فقالوا : يا رسول الله ان قطبة رجل فاجر فانه خرج معك

---

(١٠٧) بلوغ الارب ٢٤٤/١ .

(١٠٨) المحبر ص ١٨١ ، جمهرة انساب العرب ص ٢٣١ .

من الباب فقال : ما حملك على ذلك ؟ فقال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، فقال انني أحمس . قال : فان ديني دينك ... »[109] .

ومن هذا التناقض في اخبار الحمس ما ذكروه عن تشددهم في دينهم .. فنحن نجد فيما كلّف به الحلّة من الشدة اكثر مما كلّف به الحمس .. ومن ذلك تكليفهم بأن يطوفوا عراة نساء ورجالا او في ثياب الحمس . وهم يعلّلون ذلك بأنهم كرهوا الطواف في ثياب دنسوها بارتكاب المآثم ، وهو تعليل ينم عن ضمير ديني يقظ . ويمكن ان نتصور الحرج الذى كان يعانيه الحلّة من هذا التقليد من حالة عرضت لاحد الحمس . فقد رووا أن عبدالله بن جدعان اشترط على ضباطة بنت عامر ليطلّقها الاّ تتزوج من هشام بن المغيرة ، فان اخلت بالشرط فان عليها ان تطوف بالبيت عريانة وان تغزل الصوف بمكة وان تنحر عددا من الابل ذكروه .. وقد أخلت قريش لها البيت لتطوف به عارية[110] واشتراط هذا الشرط وتحايلهم للوفاء به دليل على مبلغ تحرجهم من عرى النساء وهو يدل على مبلغ تمسك الحلّة بدينهم وطاعتهم لفروضه .

أما هذه الاشياء التي حرموها على انفسهم في الاحرام فهي تحمل من الترفع والكبرياء اكثر مما تحمل من التديّن ، وقد مدح الشعراء وافتخروا بعدم ادّخار الشحم واطعامه عبيطا وجعله قرى للضيف : يقول زهير في هرم[111] :

من لا يذاب له شحم النصيب اذا زار الشتاء وعزّت اثمن البدن

ويقول الشارح : « يريد نصيبه من الشحم لانه لا يدّخره ، يطعمه للناس عبيطا .. » ويقول عروة بن الورد[112] :

فان حميتنا أبدا حرام وليس لجارنا أبدا حميت

---

(109) اسباب النزول للواحدى ص ٢٨ ، لباب النقول ص ١١٨ . تفسير الطبري «معارف» ٣/٣٥٥ في تفسير الآية ١٨٩ البقرة والحديث مختصر في البخاري : فتح الباري ٣/٤٩٠ .

(110) انساب الاشراف ١/٤١٦ .

(111) شرح ديوان زهير ص ١٢٢ .

(112) ديوان عروة ص ٢٢ .

ويلفت النظر في قول عروة « حرام » فهو ذو دلالة صريحة على ما نذهب اليه من أن هذا التحريم لم يكن دينيا بقدر ما كان ترفعا وفخـــارا . ويقول الممزّق[١١٣] :

وانّ لكيزا لم تكن رب عكة   لدن صرحت حجـاجهم فتفرقوا

والشاعر يفخر بان لكيزا لم تكن تعود معها من الحج بالســـمن .. ونذكر هنا رأى القدماء في ابيات امرىء القيس التي يقول فيها في المعزى :

فتملأ بيتنا اقطـــا وسمنـــا   وحسبك من غنى شبع ورىّ

فقد رووا انها تنم عن ضعة لا تليق بملك مثله[١١٤] .. ثم ان ابن حبيب يبين حقيقة الامر فيذهب الى انه من البر بالفقراء فيقول : « ... ويتواصلون في النسك يمنح الغني مالـــه أو كثره في نســـكه فيســـلأ فقراؤهم السمن ويجتزون من الاصواف والاوبار ما يكتفون به ... »[١١٥] كيف اذن نفهم ظاهرة تقسيم قبائل العرب الى حمس وحلّة ؟

ان تاريخ هذا التقسيم غير معروف ، فابن اسحق يصرّح بأنه يجهل وقته ولا يدرى أكانت بدايته قبل الفيل أم بعده[١١٦] وقد يكون هـــذا التقسيم قديما جدا .

والحمس قريش ومن ولدت من العرب ومن ساكنها في الحرم .. وهذا شيء يتفق عليه الرواة .. وهو يربط بين الحمس وحرمة مكة برباط واضح . ويدل على هذا الارتباط جملة من القرائن . منها اعتزاز قريش بسكنى الحرم حتى انهم كانوا يقولون : « نحن اهل الله »[١١٧] . ويقولون : « نحن بنو

---

(١١٣) المفضليات رقم (٨١) ص ٣٠١ .

(١١٤) الموشح ص ٢٦ ، ديوانه رقم (٢٢) ص ١٣٧ .

(١١٥) المحبر ص ١٨١ .

(١١٦) السيرة : الروض الانف ١٣٢/١ .

(١١٧) المحبر : ص ١٨٠ . الفائق ٢٩٣ وجاء في تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٠/٨ ــ ٢١ ان هذا التعبير معروف في النقوش اذ تنتسب القبائل الى الهها مثل اولاد عم ، اهل عشتر .

ابراهيم واهل الحرمة وولاة البيت وقطّان مكة وسكّانها فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئا من الحلّ كما تعظّمون الحرم ... »(١١٨) وقد كانوا بالفعل لايخرجون في الحج من الحرم وقد امرهم الله تعالى بأن يفيضوا من حيث افاض الناس(١١٩) . وشاع ذلك عنهم كما يدل قول المعطّل السلمي(١٢٠) :

أظنكم من اسرة قمعية اذا نسكوا لا يشهدون المعرّفا

ولعل ذلك يرجع الى احساسهم بأن حرمتهم متعلّقة بالحرم فأرادوا ان يحفظوها ويؤكدوها . وجاء في الحديث أن مطعم بن عدى رأى النبي عليه الصلاة والسلام بعرفة واقفا مع الناس فقال : « هذا من الحمس ما له هاهنا . »(١٢١) والحديث يصور هذا الاعتزاز بسكنى الحرم . ويدل التقسيم نفسه على أصل الحميس . فان المقابلة بينهم وبين الحلّة تدل على انهم جماعة لهم حرمة وهو معنى لم يفت الزمخشري .. ولكنه ظن ان معنى الحرمة تابع وليس اصلا في اللفظ(١٢٢) .. ويقول نولدكه ان الاحمس كلمة تفيد معنى المقدّس وذلك بدلالة المقابلة بين كلمتي حمس وحلّة(١٢٣) . وهو رأى يؤكده ما يذكره جواد علي .. فهو يذكر أن كلمة أحمس في اصلها متعلقة بالآلهة(١٢٤) .

---

(١١٨) الروض الانف ١/١٣٢ .

(١١٩) قال تعالى : «ثم افيضوا من حيث افاض الناس .» البقرة : ١٩٩ .

(١٢٠) ديوان الهذليين ٣/٥٢ .

(١٢١) اسباب النزول ص ٣٣ . وذكر انه في صحيح مسلم ، النهاية في غريب الحديث ٣/٢٥٨ ، الفائق ١/٢٩٣ .

(١٢٢) الفائق ١/٢٩٣ . « الحمسة الحرمة مشتقة من اسم الحمس لحرمتهم بنزولهم الحرم » .

(١٢٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة الحمس ٨/١٠٤ .

(١٢٤) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٢٢٨ .

وهذه الحرمة الخاصة التي اكتسبتها قريش من سكنى مكة افادتها في عملها التجاري فائدة كبيرة •• فقد كانت لهم ثمانية اشهر حرم من بين العرب يسيرون فيها الى اى البلاد ارادوا •• وتحديد البسل بثمانية أشهر يذكره ابن اسحق(١٢٥) •• اما ابن حبيب فيقول ان قريشا لم تكن تهاج طول السنة •• ذلك أن مضر كانت تراهم يستحقون هذا الامان بما قضوا من حق ارثهم الديني من اسماعيل وما أقاموه من فروضه • وكانت احلاف مضر لاتهاجم قوافل قريش •• فطي لحلفها مع أسد وكلب لحلفها مع تميم(١٢٦) • والحق ان الاخبار لا تذكر أية حالة هوجمت فيها تجارة قريش مع انهم ذكروا ان ملوك الحيرة كانوا يضطرون الى حماية قوافلهم ويكلفون من الاشخاص والقبائل القوية من يجيرها أو يبذرقها لهم • ومع ذلك كانت هذه القوافل تهاجم وتنتهب(١٢٧) • وقد انفرد الحمس تقريبا بادارة شؤون الحج • • ووزعوا ذلك على بطون قريش ، فكانت مآثر الجاهلية متسمة بين أكبر هذه البطون • ولما تمنحه هذه المآثر من ميزات معنوية وشرف فقد كانت مصدر نزاع ومنافسة شديدة(١٢٨) •• فقد كانت لخزاعة حتى اخذها قصي منها بزق خمر فيما يقولون وبالقوة والحرب كذلك ثم تنازعت قريش هذه المآثر مما أدى الى انقسامهم الى حلفين أو حزبين هما حلف المطيبين وحلف الاحلاف أو لعقة الدم(١٢٩) •• وفي الاخبار ان دغفلا النسابة غضّ من تيم قبيلة أبي بكر رضي الله عنه لانهم ليسوا من اهل المآثر(١٣٠) •• مما يوضح القيمة الجاهلية التي تعنيها هذه المناصب الدينية •

---

(١٢٥) الروض الانف ٧٥/١ .

(١٢٦) المحبر ص ٢٦٤ .

(١٢٧) ايام العرب في الجاهلية : يوم السلان ١٠٧ ، الصفقة ص ٢، نخلة من ايام الفجار ص ٣٢٦ والمحبر ص ١٩٥ حيث يذكر ابن حبيب ان بلعاء ابن قيس الكناني انتهب قافلتين للنعمان .

(١٢٨) السيرة : الروض الانف ٨٠/١ ـ ٨٣ ، تاريخ مكة ٤٤/١ ، ٥٩

(١٢٩) المحبر ص ١٦٦ .

(١٣٠) مجمع الامثال ١٩/١ .

ونحن نجد على الناحية المقـــابلة ان بعض الناس كانوا يعتبرون تحت المستوى المطلوب لكي يكونوا متبولين دينيا ومستحقين لشرف دخول الكعبة. جاء في الحديث أن قريشا رفعت البيت واتخذت له سلما لئلا يدخله الا من يرضونه . وكانوا ربما يتركون الرجل يرتقي السلّم حتى يكاد يدخل البيت ثم يدفعونه فيسقط وربما يعطب(١٣١) .. وقد يكون هؤلاء هم الذين روى الطبري انهم كانوا مسخوطين في اهل الجاهلية ، فقد روى عن ابن زيد قال: « كان قوم مسخوطين في اهل الجاهلية فلما بعث الله نبيه قالوا لو أتينا محمدا صلى الله عليه وسلم فآمنا به واتّبعناه فقال بعضهم لبعض : كيف يقبلكم الله ورسوله في دينه ، فقالوا : ألا نبعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فلما بعثوا نزل القرآن : « قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله .. »(١٣٢) واصل هذا الحديث ما ورد في الصحيـــح عن ابن عباس : « أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا واكثروا وزنوا واكثروا فاتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذى تقول وتدعو اليه حسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفّارة ..»(١٣٣) والحديث ـ ان كان يتحـدث عن نفس الظاهرة ـ يرد السخط الى كثرة الآثام التي كان بعض الناس يرتكبها .. وهو سبب نضيف اليه ما وصلنا في تاريخ الدعوة الاسلامية من سخرية المشركين بالدين الجديد الذى يتكون اتباعه من الطبقات الدنيا في المجتمع كالرقيق والفقراء والضعاف وهي سخرية نجد صـــداها في القرآن الكريم . يقول تعالى : « وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعـــذبين . قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن اكثر الناس لا يعلمون . وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى .. » سبأ ٣٥ـ٣٧ .

---

(١٣١) تفسير ابن كثير ٣٣٠/١ ، الطبقات الكبرى ٩٥/١/١ . النهاية في غريب الحديث ٩١/٣ .

(١٣٢) الزمر ٥٣ ، تفسير الطبري « بولاق » ١١/٢٤

(١٣٣) البخاري : فتح الباري ٤٤٦/٨ .

ويقول تعالى : « ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون • وإذا مرّوا بهم يتغامزون ، واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فكهين • » المطففين ٢٩ – ٣١ •

ويقول تعالى « ونادى اصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما اغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون • أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة • ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون • » الاعراف • ٤٨ – ٤٩ •

ويقول تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم • » الاحقاف ١١ •

ويقول قتادة فيما نقله الطبري عنه في سبب نزول هذه الآية : «قد قالذلك قائلون من الناس كانوا اعسر منهم في الجاهلية قالوا والله لو كان هذا خيرا ما سبقنا اليه بنو فلان••»(١٣٤)ومن الواضح فيهذه النظرة انهمكانوا يقيسون رضا الله عن الانسان بما يحوزه من النعمة ومظاهر القوة والثراء •• ويرون الفقر والضعف علامة سخط من آلهتهم •• وهم على هذا يعتبرون المستوى الاجتماعي للانسان هو مستواه الديني نفسه •

وكانت ميزة الحمس تنتقل بالزواج الى القبائل الاخرى خارج مكة وتوجد فروقا بين القبائل البدوية •• ويشهد على ذلك بعض اشارات الشعراء كقول عمرو بن معد يكرب مخاطبا العباس بن مرداس السلمي(١٣٥)•

أعباس لو كانت شيارا جيادنا   بتثليث ما ناصيت بعدي‌الاحامسا

---

(١٣٤) تفسير الطبري « بولاق » ٩/٢٦ .

(١٣٥) الاغاني « الدار » ٣١٥/١٤ ، بلوغ الارب ٢٨٩ ، ومنصفة العباس هي الاصمعية رقم (٧٠) .

وكان العباس قد غزا زبيدا وقال في ذلك قصيدته المنصفة •• وكأن ذلك جعله يظن سليما كعامر بن صعصعة أبناء عمومتها مع انهم ليسوا من الحمس كعامر • ويقول حسّان بن ثابت(١٣٦) :

فــلا والله ما تدرى هــذيل امحض ماء زمزم أم مشــوب
وما لهم ان اعتمــروا وحجوا من الحجرين والمسعى نصيب

فحسان يهجو هذيلا بأنهم لم يكن لهم أن يشربوا من زمزم وانهم ليس لهم نصيب من المسعى والحجرين وكل ذلك يصور مرتبة دينية وهو ما يلاحظ في قول الاعشى(١٣٧) :

وما جعل الرحمن بيتك في العــلى بأجياد غربي الصــفا والمحرّم
فما أنت منأهل الحجون ولا الصفا ولا لك حق الشرب من ماء زمزم

ويقول الراجز يوم جبلة(١٣٨) :

اقدم قطيفانهــا بنو عبس المعشر الحلّة في القوم الحمس

وهو يصور حدوداً واضحة بين القسمين وهما في يوم جبلة عبس وعامر وتوضح ذلك دختنوس حين ترى ان دم ابيها ينبغي ان تسأل به عامر وهي من الحمس ولا تسأل به عبس « غالب » فذلك عار •• تقول دختنوس يوم جبلــة(١٣٩) :

فان تعقب الايام من عــامر يكن عليه حريقا لايرام اذا ســما
ليجزينهم بالقتل قتلا مضّعفا وما في دماء الحمس يا مال من بوا
ولو قتلتنا غالب كان قتلهــا علينا من العار المجــدّع للعلى

ومن هذا نرى ان تقسيم القبائل الى حمس وحلّة لم يكن متعلقا بالحج فقط •• ولم ينحصر في الحجاز وقبائله •• وانه تقسيم ديني في اصله ولكنه ساهم في تكوين حدود اجتماعية مختلفة •

---

(١٣٦) شرح ديوانه ص ٥٦ .
(١٣٧) ديوان الاعشى رقم (١٥) ص ١٢٣ .
(١٣٨) النقائض ٦٦٦/٢ .
(١٣٩) النقائض ٦٦٥/٢ .

ومن الحرمات المهمة الاخرى ، الاشهر الحرم التي كان التزامهم بحرمتها صارما دقيقا يصوره ذلك الجدل الذى قام حول سرية عبدالله بن جحش أكان استيلاؤها على قافلة ابن الحضرمي في شهر الحرام أم قبله بيوم . وقد أدى ذلك الى أن يرسل المشركون يسألون النبي صلى الله عليه وسلّم عما اذا كان يحل القتال في الشهر الحرام .. وتوقف النبي عليه الصلاة والسلام عن تسلم القافلة لانه لم يأمر بالقتال ولم يرض به في الشهر الحرام .. وتفاءلت اليهود بذلك كلّه[١٤٠] . كأنهم توقعوا انه سيجمع المشركين ويقضي على تردّدهم في حرب الاسلام .

وكان التزام العرب بحرمة هذه الاشهر في المناطق البعيدة عن مكة على نفس المستوى من الدقة والصرامة ، يقول ابو رجاء العطاردى في حديثه : « .. فاذا دخل رجب قلنا منصل الاسنة فلا ندع رمحا فيه حديدة ولاسهما فيه حديد الا نزعناه والقيناه شهر رجب .. »[١٤١] وقال وفد عبد القيس للنبي صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله انا لا نستطيع ان نأتيك الا في شهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفّار مضر فمرنا بأمر فصل .. »[١٤٢] ونحن نجد في اخبار الجاهلية انهم كانوا يفادون اسراهم ويفاوضون قتلة ذويهم في الاشهر الحرم[١٤٣] .. وذكر في التواريخ غير العربية ان عرب الشمال كان لهم اشهر يحرّمون فيها الغزو والقتال[١٤٤] .

---

(١٤٠) السيرة : الروض الانف ٥٩/٢ ، اسباب النزول للواحدى ص ٣٥ ــ ٣٨ . تاريخ الطبري ٤١٠/٢ .

(١٤١) البخاري : فتح الباري ٧٤/٨ . وابو رجاء تميمي . اسد الغابة ١٣٦/٣ . وله هنا حديث مماثل ..

(١٤٢) البخاري / فتح الباري ١٠٨/١ .

(١٤٣) في الشهر الحرام جاء صخر يسأل غطفان عن قاتل اخيه معاوية الاغاني « الدار » ٩١/١٥ . ووفد لقيط بن زرارة على عامر في فداء اخيه معبد النقائض ١٠٦٣/٢ .

(١٤٤) تاريخ العرب قبل الاسلام ٢١٥/٥ ، ٣٧٧/٨ .

والاشهر الحلال لا تقل اهمية في فهم الحياة الجاهلية عن الاشهر الحرم. فالحلال كالحرام من حيث صلتها بالدين .. ونحن من الواقع العملي نجد ان الناس لا يتسامحون مع من يحرّم امرا احله الدين ولا يعتبرونه أقل جرما ممن يحلّ الحرام . وهذه الحقيقة يمكن ان تلقي ضوءا جديدا على جانب خطير من حياة الجاهلية .. ذلك هو جانب الغزو والحروب الطاحنة التي كانت تقوم بين القبائل المختلفة وتحيل حياتها الى صراع دائم من اجل البقاء . ان الدين لم يكن بمعزل عن هذه الحياة الحربية فقد كان يعتبرها أمرا حلالا بما فيها من قتل ونهب وقسوة بالغة ومثل اخلاقية تمجّد القوة والاقدام وتحتقر الضعف ولا تمنحه أية فرصة للبقاء[١٤٥] . ان الدين الذي حرّم القتال في اشهر معينة احلّه في اشهر اخرى .. وكان رجال الدين وحدهم هم الذين يستطيعون في الجاهلية ان يحلّوا حراما فيحلّون القتال فيه في الحقيقة. وقد يكون النسيء طريقة من طرق الكبس او تثبيت المواقيت . ولكنه كان يؤدى الى تجويز القتال في بعض الاشهر الحرم ويحرّمه في بعض اشهر الحلّ بصورة تابعة وذلك قوله تعالى : « انما النسيء زيادة في الكفر يُضَلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما ويحرّمونه عاما » التوبة ٣٧ . وقد كان النسيء محصورا في جماعة من كنانة هم القلامسة .. وكان النسيء يتم في الحج مما

(١٤٥) بحث هذا الجانب ووفاه حقه من الدراسة د . محمد حسين في : « الهجاء والهجاؤون » وهو يذهب الى ان حياة الصحراء جعلت الصراع من اجل البقاء صريحا مكشوفا .. وجعلت القوة هي المثل الاعلى للجاهلية الذي يمكن ان ترد اليه مقاييسهم ومثلهم الاخرى .. فالرجل الامثل هو القوى القادر على احتمال المشقة ، المتحكم في عاطفته المالك لزمام نفسه فلا تستعبده اللذة . والمراة المثالية هي المنعمة التي يحوطها رجل قوي .. وادى ذلك الى أن يكون الحق للقوى والمجد للغالب .. ولا اجد حاجة لزيادة بحث هذا الجانب من حياة الجاهلية ولا مجالا لذلك .. الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ٦٦/١ وما بعدها .

يؤكد مسؤولية الدين في الجاهلية عن حياة الحرب والغزو[١٤٦] وذلك باضفاء الشرعية الدينية عليها . وذلك يوضح كيفية اكتساب الحقوق المشروعة بوسائل الغصب والاكراه والقوة .. ويوضح بالتالي أن الجاهلي لم يكن متناقضا مع نفسه حين يدعو الى السلم احيانا وحين يتحدث عن مفاهيم عالية كالحق والعدل والبّر ثم يفخر في لحظة تالية بانه غزا وقتل وسبا واستلب ، فقد كانت قاعدته العامة أن القتال حلال في غير الاشهر الحرم .

وثمة اعتبار آخر شارك الدين في فرضه .. وهو كراهية الحرب بين ابناء القبيلة الواحدة فقد كانت صلة الرحم من احسن اعمالهم التي يرجون عليها حسن الجزاء من الله . وقطع الرحم عندهم يؤدى الى الخذلان وانزال العقوبات . جاء ان ابا جهل استفتح يوم بدر فدعا بهذا الدعاء : « اللهم اقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة .. »[١٤٧] وطمأنت السيدة خديجة رضي الله عنها النبي عليه الصلاة والسلام حين شك في حقيقة الوحي بأنه يصل الرحم في جملة من حسن عمله ــ فلن يخزيه الله ابدا[١٤٨] ويقول الحارث بن يزيد السعدي[١٤٩] :

لا لا أعــــق ولا أحو ب ولا أغير على مضــــــر
لكنمــــا غــــزوى اذا ضبح المطي من الـــدبر

ويقول النابغة[١٥٠] :

مهــلا بغيض بن لأى انها رحم حبتم بها فأناضتكم بجعجــاع

---

(١٤٦) تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٨٣/٨ ــ ٣٩٨ . وانظر في الغاية مــن النسيء وكيفيته والقائمين به وزمنه تفسير الطبري « بولاق » ٩١/١٠ ، المحبر ص ١٥٦ جمهرة انساب العرب ١٨٩ طبقات ابن سلام ص ٦١ ، بلوغ الارب ٢٨٩/٢ .

(١٤٧) السيرة : الروض الانف ٦٩/٢ ، تفسير الطبري « بولاق » ١٣٨/٩ .

(١٤٨) تاريخ الطبري ٢٩٨/٢ .

(١٤٩) البيان والتبيين ٢٠٠/٣ . وهو جد الاحيمر السعدي اللص .

(١٥٠) مجمع الامثال ٦٤/٢ ، ديوان النابغة « بيروت » ص ١٢٢ من روايــة ابن السكيت .

ويقول الحارث بن ظالم[١٥١] :

فيالله لم اكسب اثاما ولم اهتك لذى رحم حجابا

والذين رووا اخبار حرب البسوس الطاحنة رووا ان مهلهلا قال لقومه : « وقد رأيت ان تبقوا على قومكم فانهم يحبون صلاحكم ... وان القوم سيرجعون اليكم غدا بمودتهم ومواصلتهم وتتعطف الارحام حتى تتواصلوا »[١٥٢] وجاء في خبر يوم بعاث ان الخزرج قرروا ان يبيدوا الاوس فقال لهم عبدالله بن أبي : « ان هذا بغي منكم على قومكم وعقوق .. واني لأخاف أن ينصروا عليكم ببغيكم عليهم »[١٥٣] وهذا لا يعني اننا نقول بأن الدين هو الذى حرّم الحروب في داخل القبيلة فقد كان ذلك حكما صارما أوجبه الحرص على قوة القبيلة والحفاظ على كيانها بين القبائل الاخرى ولكن الدين لم يكن بمعزل عن ذلك ، وقد رأينا ان قطع الرحم عندهم حوب ومأثم وبغي وعقوق وهو ذنب يستحق الخذلان والهزيمة .

ان هذا ينتهي بنا الى ان الجاهلية عرفت قانونين يتعامل بأحدهما ابناء القبيلة الواحدة وبالاخر القبائل المتباعدة .. وهذا ينسجم مع ما اشار اليه د. محمد حسين من أن الجاهلي لم يكن مواطنا في وطن بل كان مواطنا في قبيلة[١٥٤] واذا جاز لنا استعمال مصطلحات حديثة في الحديث عن الجاهلية ، فان الجاهلي عرف قانونا عاما وآخر محليا . وكان يجد انه عادل حين يطبّق القانونين المختلفين دون ان يكون في ذهنه اى شك في الحق والعدل والظلم وما الى ذلك من مفاهيم ، يقول زهير لبني حصن وهم من كلب وكانوا استولوا على مال رجل من عبدالله بن غطفان قبيلة زهير في القمار[١٥٥] .

---

(١٥١) المفضليات رقم (٨٩) ص ٣١٥ .

(١٥٢) ايام العرب في الجاهلية ص ١٦٥ .

(١٥٣) ايام العرب في الجاهلية ص ٧٣ ـ ٧٨ اخبار يوم بعاث وفيه من مثل ما نلقاه الكثير . وانظر النقائض ٣٥٨/١ في صلح الرباب وتميم .

(١٥٤) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص ١٦٤ . في حديثه عن الهجاء السياسي .

(١٥٥) شرح ديوان زهير ص ٥٦ .

وان الحق مقطعــــه ثلاث يمين او نفار أو جـــلاء

فذلكم مقاطع كــــل حق ثلاث كلهن لكم شــــفاء

وهو شعر أعجب القدماء لانــه اســتوعب كل طرق الحكم بالحق[١٥٦] ولكن هذه المعرفة باصول القضاء في هذه القصيدة انما يراد بها الوصول الى ان بني حصن اجاروا الرجل الذى اخذوا ماله وهو ما لا يحق لهم • •يقول زهير :

بأى الجيرتـــين اجرتموه فلم يصلح لكم الا" الوفاء

واذن فمال هذا الرجل يكفله الجوار •• ولو استطاع بنو حصن ان يثبتوا انهم لم يجيروه لاعتبرهم زهير على حق فى اخذ ماله • ويقول زهير ايضــا[١٥٧] :

تقي نقي لم يكثّر غنيمــــة بنهكة ذى قربى ولا بحقلّد

سوى ربع لم يأت فيها مخانة ولا رهقا من عائذ متهو"د

والشاعر يمدح صاحبه بأن غنائمـــه ليست من ذوى قرباه ولا جيرانه العائذين به وانه لا يأخذ سوى مرباعه •• وذلك كلّه يبيح له ان يصفــه بالتقوى والنقاء •

وجاء أن قيس بن زهير غزا بني تميم فسبا فتاتين واستاق ابلا لقرواش ابن عوف وافلت داحس الذي اعجبه فاتفق مع الفتاتين ان يطلقهما وير"دالابل بالفرس • ولكن قرواشا الذى كان غائبا لم يرض ان يؤخذ فرسه فنافر قيس ابن زهير •• وحكــم بينهما ان تــرد الفتــاتان والابــل لقيس والفــرس لقرواش[١٥٨] •• ومعنى هذا القضاء ان ما غنمه قيس هــو له في شــرعهم

---

(١٥٦) اعجب عمر رضي‌الله عنه بما قسم زهير واهتدى اليه من‌اصول‌القضاء، البيان والتبيين ٢٤٠/١ ، الشعر والشعراء ٨٥/١ ، عيون الاخبار ٦٧/١ .

(١٥٧) شرح ديوان زهير ص ٢٣٤ .

(١٥٨) النقائض ٨٥/١ .

واعرافهم . وكل هذا يوضح ان « القانون العام » كان صريحا في اعطـــاء الحقوق للمنتصر فهو يمتلك ما يسلبه ملكيّة شرعية لا ينازع فيها .

اننا امام قانون مهما يكن غريبا في حدوده وتطبيقاته ولسنا امام فوضى مطلقة لا يسود فيها اى قانون . واذا كان لهذا القانون جانب انســاني نافع فهو كراهيتهم الظاهرة للسرف في الدماء ، وتبدو هذه الكراهية فيما نقله اهل الاخبار عن ايام الفجار وبعاث وذأت الجراجر من ايام داحس والغبراء(١٥٩). وغيرها من ايامهم . وقد كانوا يفضّلون الاسر على القتل في الغالب .. ونحن نعرف مبلغ الدية عندهم بالنسبة للملك والصريح والحليف(١٦٠) . وامــا في حالة الثأر فيكون قبول الدية ضعفا غير مستحب(١٦١) ويكون قتل القاتل عملا مقبولا عند قبيلتي القاتل والمقتول .. فمع ان قبيلة القاتل تحاول ان تحميه من اولياء الثأر فهي لا تتبعهم اذا اخذوا بثأرهم . فاذا كثرت الدماء بين قبيلتين دفعت القبيلة الاقل خسارة في الدماء دية الفرق كما حدث في حرب داحس والغبراء(١٦٢) .

---

(١٥٩) ايام العرب في الجاهلية ص ٣٣٥ ؛ ٧٦ ــ ٧٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ .

(١٦٠) انظر الاغاني «الدار» ٢٦/٣/ ، ٢٨٧/٦ في ان دية الحليف نصف دية الصريح . وانظر في كون دية الملك الف بعير النقائض ٢٢٧/١ في فداء معبد بن زرارة ، ٤٠٧/١ في دية عمرو بن الجون ، الاغاني ١١١/١١ في دية ابن الاسود بن المنذر .

(١٦١) تقول كبشة اخت عمرو بن معد يكرب : « نوادر القالي ص ١٩٠ »

ارسل عبد الله اذ حــــان يومـــــه

الى قومـــه لاتعقلوا لهـــم دمـــــي

ويقول جابر بن حني التغلبي .. المفضليات رقم (٤٢) ص ٢١١

انفت لهم من عقــــــل قيـــــس

اذا وردوا مـــــاء ورحـــم ابن هرثـم

وانظر الاصمعية ٤٤ للاسعر الجعفي

(١٦٢) ايام العرب في الجاهلية ص ٢٧٠ .

ولم يكن القتال مباحا بين ابناء القبيلة الواحدة كما ذكرنا •• ولذلك فان حقوق الفرد لا يمكن ان تنتقل بالقوة الى فرد آخر •• ولا يمكن قبول العنف والتعسف في نطاق القبيلة يصوّر ذلك طرفة حين يقول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة　　على المرء من وقع الحسام المهند

ويقول الحصين بن الحمام المرّى[١٦٣] :

الا تقبلون النصف منّا وانتم　　بنو عمنّا لا بلّ هامكم القطر

ومن هنا كان اهل الجاهلية يحرصون على البراءة من بعث الحرب بين ابناء قبيلتهم ولا يبدأونها ظالمين • يقول الحارث بن عباد في البسوس[١٦٤] :

لم اكن من جناتها علم الله　　واني بمرّها اليوم صالي

ويقول قيس بن زهير[١٦٥] :

فان تك حربكم أمست عوانا　　فاني لم اكن فيمن جناها

ويقول أيضا[١٦٦] :

فان تك حرب فلم اجنها　　جنتها صبارتهم أوهم

ويقول العباس بن مرداس في حرب اثارها هو وخفاف بن ندبة بين بني سليم وهو يصوّر في شعره مدى ما يحس به من الم الندم والشعور بالذنب[١٦٧] :

ألم تر اني كرهت الحروب　　واني ندمت على ما مضى
ندامة زار على نفسه　　لتلك التي عادها يتقى

---

(١٦٣)　الاغاني « الدار » ١٤/٥

(١٦٤)　الاصمعيات رقم (٤٠) ص ١٤٣ .

(١٦٥)　النقائض ٦٢/١ .

(١٦٦)　مجمع الامثال ٥٩/٢ .

(١٦٧)　الشعر والشعراء ٦٣٢/٢ .

وأيقنت أني لما صبتـــه من الامر لابس ثوب خزى
حيـــاء ومثلي حقيق به ولم يلبس القوم مثل الحيا

ويقول الحصين بن الحمام ملقيا تبعة الحرب على بني عمه[١٦٨] :

جزى الله افناء العشيرة كلهـــا بدارة موضوع عقوقا ومأثمـا
بني عمنا الادنين منهم ورهطنـا فزارة اذ رامت بنا الحرب معظما

مفاهيم العدل وتأثرها بالدين

وصلتنا وفرة من الاخبار عن القضاء في الجاهليـــة •• واول ما يلفت الانتباه هو وجود قضاء ديني وآخر عرفي او مدني ان صح التعبير • روى البخاري عن جابر : « وكانت الطواغيت التي يتحاكمون اليها في جهينة واحد وفي أسلم واحد وفي كلّ حي واحد •• كهّان ينزل عليهم الشيطان »[١٦٩] • ولو اننا اخذنا بلفظ الحديث لكان معنى هذا ان الكاهن لازم في حياة كل قبيلة كالسيد تماما •• وكانوا فضلا عن ذلك يتحاكمون الى كهنـــة القبائل الاخرى لأنهم كانوا يشتهرون من بين الكهنة بصدق النبوءة او الاهتداء الى دقائق الخلافات او لاسباب اخرى فقـــد تنافر هاشـــم وامية الى الكاهن الخزاعي[١٧٠] وتنافر عبدالمطلب وقريش الى كاهنة بني سعد بن هذيم في زمزم واحتكم الى الكاهنة سجاح في فداء ابنه عبدالله •• وفي منافرة بينـــه وبين جندب بن الحارث قصد الكاهن القضاعي بالشام فهذه ظاهرة يصعب تفسيرها فقد كان هؤلاء بمكة حيث هبل الذى كانوا يحتكمون اليه ويضربون بقداح كانت عنده[١٧١] •

---

(١٦٨) المفضليات رقم (٤٠) ص ١٤٣ .

(١٦٩) البخاري : فتح الباري ٢٠٨/٨ .

(١٧٠) انساب الاشراف ٦١/١ ، ٧٤ تاريخ الطبري ٢٤٢/٢ ، تاريخ ابـن الاثير ٢٤٨/٢ ، تاريخ مكة ٢٨٥/١ .

(١٧١) الاصنام ص ٢٨ ، المحبر ٣٣٢ ، تفسير الطبري « بولاق » ٤٩/٦ ؛ الروض الانف ١٠٣/١ .

فتفصل لهم في قضايا النسب والارث وغيرها •• ولا يمكن تفسير ذلك الا بشهرة هؤلاء الكهنة وامتيازهم •

وكانوا يستقسمون عند ذي الخلصة ايضا حتى اخفره رجل موتور أمرته القداح بألاّ يثأر لأبيه فضرب وجه الصنم بالقداح •• ولم يستقسموا عنده بعدها[172] • وكان المحتكمون الى الاصنام يعملون اجرا لسدنته يسمونه حلوان الكاهن فيضرب لهم بالقداح عند الصنم وقد بلغ الحلوان في حالة الاحتكام الى هبل مائة درهم ••[173] والكاهن قد ينسب الحكم الى الاله فهو الذي عبر عما يريد بالازلام • والكاهن في هذه الحالة شخص مرضى تفصح له الآلهة عمّا تريد ويستطيع هو ان يسائلها •• وقد يدعى الكاهن ان له تابعا من الجن او الشياطين يخبره بحقيقة الامر الذى يستشار فيه •• وقد يدعى انه يفهم الامور بالهام خاص ومقدرة على النفاذ والفهم •

والكاهن شخص غير طبيعي وهو ذو صلة بالالهة والجن •• فليس معقولا ان يتكلم كلاما طبيعيا وكان اسلوب الكهنة المعتاد الذى ينطقون به احكامهم هو السجع ومع ان اكثر السجع الذى يروى لهم مشكوك في صحة نصوصه •• فلا سبيل الى الشك في انه كان اسلوبهم الخاص باجماع اهل الاخبار •• واصح مثال من هذا السجع تعليق حمل بن النابغة الهذلى على حكم النبي عليه الصلاة والسلام في الجنين فقد رووا انه قال : كيف اغرم من لا شرب ولا اكل ، ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطل • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما هذا من اخوان الكهّان[174] • ونحن لا نجد في كلام حمل تلك الجمل من القسم المسجوع ولا التلميح الغامض •• ومع ذلك احس النبي صلى الله عليه وسلم انه كلام يشبه كلام الكهان •• وربما كان حمل يردد حكما من احكام كهان الجاهلية ولا يستبعد ان يكون لهم في الجاهلية

---

(١٧٢) الاصنام ص ٣٥ ، ٤٧ الروض الانف ٦٥/١ .

(١٧٣) جاء في الحديث النبوي عن حلوان الكاهن . مسلم : النووى ٢٣١/١٠

(١٧٤) مسلم : النووى ١٧٧/١١ — ١٧٩ .

حكم معين في الجنين •• فالغموض اذا ليس شرطا في كلام الكاهن •• وان كان مما يلجأ اليه حين ينبيء عن الغيب احتيالا وتهربا •

ويذكر أهل الاخبار كثيرا من الحكام الذين ليست لهم صفة دينية مما يدل على انهم احتكموا الى ادراكهم وتعمقهم في فهم العرف المعمول به بينهم والى رجاحة العقل وصدق الحدس الذى يشتهرون به • يبدو انه للتعويض عن المكانة الدينية والسلطة الروحية للكاهن كان هـــذا النوع من الحكام يختار من يعين الرؤساء والسادة المطاعين في قومهم ومن هنا وجدنا في اسماء الحكام عبدالمطلب بن هاشم وابا سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل من سادة قريش • والاقرع بن حابس وحاجب بن زرارة من تميـــم وامثالهم من باقي القبائل[١٧٥] •وكان الحاكم الذي لا يضمن انقياد المختصمين يرفض الحكم بينهم او يتقدم بأخذ مواثيق الطاعة لما يصدره من حكم على نحو ما يذكرون عن جد حسان بن ثابت او ابيـــه حين حكم في قضيـــة ســـمير[١٧٦] •

واذا كان الكاهن غير مطالب بان يبرر احكامه لانها غيبية مقدسة عندهم فأن الحكم مضطر الى ان يكون منطقيا في احكامه متمشيا فيها مع القواعد والاعراف التي تواضـــع عليهـــا المجتمـــع الجـــاهلي • وكان بعض هـــؤلاء الحكام « يشرح » قواعد جديدة حين يبلغ المرتبة التي تخوله من هيبة وشهرة بالحكمة والسداد بين الناس •• فعامر بن الظرب العدواني هو الذى جعل الدية مائة من الأبل وكان لقمان جعلها مائة جدي ولعامر حكم معروف في الخنثى والافعى الجرهمي ينسب اليـــــه انه هو الذى حكم بأن الشـــــرط املك[١٧٧] •

---

(١٧٥) المحبر ١٣٢ ، بلوغ الارب ٣٠٨/١ ، مجمع الامثال ٤١٨/١ .

(١٧٦) ايام العرب في الجاهلية ص ٦٦ ، تاريخ ابن الاثير ٤٠٢/١ ، الاغاني « الدار » ٢٦/٣ .

(١٧٧) جمهرة انساب العرب ٢٦٤ ، انساب الاشراف ٩/١ ، المعمرين ص٤٧.

ويذكر ابن حبيب والقلقشندي من ذلك احكاما اسلامية ينسبانها الى رجال جاهليين فقريش كانت تقطع السارق ولصوص الابل •• وقطعت سارقي كنز الكعبة •• وهما ينسبان الحكم بالقطع الى الوليد بن المغيرة والرجم في الزنا الى ربيع بن حدّان والصلب في قطع الطريق الى المناذرة • والى اكثم بن صيفي الحكم بالولد للفراش ، والى ذى المجاسد توريث البنات ارث البنين[178] •• ولا يذكر من رجعت اليهم من أهل الاخبار معدد هذه الاحكام الجاهلية التي ابقاها الاسلام •• وقد تكون بقية ما ورثوه من ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام •• وذلك يفسر ابقاء الاسلام عليها •• ووجود هذه الاحكام ليس غريبا فالبيئات التجارية كمكة واليمن كانت تحتاج الى عقوبة صارمة في السرقة •• والبيئات الحضرية الخاضعة لنفوذ دول عريقة في التمدن كالحيرة والشام والبحرين كانت تحتاج الى قانون ونظام مهما تكن حقيقة مستواه او مدى تطبيقه واحترامه ويتساوى البدو والحضر في الحاجة الى نظام للتوريث •• ويبدو ان توريث المرأة لم يكن يسير على نظام ثابت •• والاغلب ان العرب لم يكونوا يورثونهن • وتقول الاخبار انهم كانوا لا يورثون الا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل[179] •

وكان الحكام احيانا يعملون في نطاق القبيلة ولا يعرفون خارجها •• وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا عن كنيته وكانت ابا الحكم فقال انه كان يحكم بين قومه حين يختصمون فيرضى بحكمه كلا الفريقين فكنوه بهذه الكنية ••[180] وكان قسم آخر منهم تتعدى شهرته قبيلته فيحكم بين القبائل الاخرى • وربما كانت الاسواق والمجتمعات البدوية احوج الاماكن الى القضاة بما يحصل فيها من نزاع بين التجار واحتكاك بين القبائل المختلفة • ولما كانت هذه الاسواق تعقد في الاشهر الحرم فقد اضطروا الى الالتجاء الى

---

(١٧٨) المحبر ٣٢٧ ، صبح الاعشى ٢٣٥/١ •

(١٧٩) المصدران السابقان ، وتاريخ الطبري ٢٨٦/٢ •

(١٨٠) اسد الغابة ٢٢٦/٥ ، والاصابة ٢٧٨/٦ •

الحكام .. وكان حكّام عكاظ من تميم الى ان جاء الاسلام(١٨١) .. وكان غيلان بن سلمة الثقفي كما يروون يجلس للحكم في الموسم يوماً من ثلاثة ايام(١٨٢) .

ولا ندري حقيقة الصلة بين القضاء الديني والقضاء الاعتيادي .. ويمكن ان نفترض انهما انفصلا في عهد متأخر .. ففي اليمن جمع المكرّبون المعينيون بين السلطة الدينية والدنيوية .. ثم انفصلت السلطتان فيما بعد(١٨٣) .. ولا يمكن الجزم بالنسبة للبدو والحجاز ويمكن ان يكون النوعان من القضاء قد وجدا منفصلين . والامر في تخصص كلّ نوع من القضاء اكثر تعقيدا .. فنحن نجد قضايا من اللون نفسه تعرض على كاهن أو حكم .. وربما كان الامر يخضع لدرجة اهتمام الخصوم بالدين وربما كانوا يلجأون الى الكاهن بعد ان يعجزوا عن تبين الحقائق بالطرق المعتادة .

وارفع ما وصلنا عن احساس الجاهلية بقيم العدالة جاءنا في اخبار حلف الفضول(١٨٤) وتاريخه مرتبط بحرب الفجار فقد جاء في اعقابها(١٨٥) .. وربما كانت هذه الحرب التي تعدت على الحرمات هي سبب عقد هذا الحلف بما ايقظت من ضمير ديني لدى الذين شاركوا فيها او تجنبوها .. والحقيقة أن حلف الفضول هو امتداد اسمى لحلف سابق قبلي هو حلف المطّيبين الذى تكوّن نتيجة الخلاف حول اقتسام مآثر الجاهلية . وقبائل هذا الحلف كما

---

(١٨١) المحبر ٨١ ــ ٨٣ ، النقائض ٤٣٨/١ .

(١٨٢) المحبر ص ١٣٥ ، مجمع الامثال ٤١٨/١ .

(١٨٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ١٠/٨ ، ١٣ ، ٢٣ .

(١٨٤) يقال انه كان بعثا لحلف جرهمي تعاقد عليه الفضل بن فضالة وافضل ابن وداعة وفضيل بن الحارث وبذلك سمي حلف الفضول .. ويرى السهيلي ان التسمية جاءت من لفظة وردت في نص الحلف وهو محق في ذلك .. تاريخ ابن الاثير ٢٥/٢ ، الروض الانف ٩١/١ دائرة المعارف الاسلامية ٥٠/٨ ولم يذكر كاتب المادة « ارندك » الاختلاف في سبب التسمية .

(١٨٥) الطبقات الكبرى ٨٢/١/١ كان الحلف بعد الفجار . . وكان الفجار في شوال والحلف في ذى القعدة .

ذكرها ابن حبيب هي بنو عبدمناف وبنو اسد وبنو زهـرة وبنو الحـارث ابن فهر وبنو تميم وهي القبائل التي تكوّن منها حلف الفضول تقريبا[١٨٦] •• ولم يخرج منهم الاّ بنو امية من عبد مناف • أما السبب المباشر للحلف فيروى ان العاص بن وائل السهمي اغتصب بضاعة رجل من زبيد ورفض الاحلاف أن يأخذوا له بحقّه وهم الحلف المقابل للمطيبين • فجاء الكعبة وانشد :

يا آل فهـــر لمظلوم بضاعتـــه ... ببطن مكة نائي الـــدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمــرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
انّ الحرام لمن تمّت كرامتـــه ... ولا حرام لثوب الفاجر الغـــدر

فسعى الزبير بن عبدالمطلب في نصرة الرجل •• واجتمعت قبائل حلف الفضول وعقدوا حلفهم في دار عبدالله بن جدعان واخذوا للرجل بحقه •

أما نص الحلف فقد رواه النبي صلى الله عليـــه وسلم ، فقال : « • • تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها والاّ يعز ظالم مظلوما •• » ورواه ايضا بلفظ : « •• فتعاقدوا وتعاهدوا بالله القائل لنكونن مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه ما بلّ بحر صوفة وفي التأسّي في المعاش »[١٨٧] •

والحلف بهذا النص ذو شقين واضحين •

واولهما ينص على تكوين قوة من القبائل الداخلة فيه تنفّذ ما تراه عدلا وحقا •• ولا يتحدث الرواة عن الطريقة التي يعتمدها الحلف في التعرف على صاحب الحق وصدق دعواه واكبر الظن أنهـم تركوا ذلك للطرق المعروفـة عندهم في التقاضي •

---

(١٨٦) المحبر ص ١٦٦ – ١٦٧ . وهو يذكر اسد بن عبد العزي في المطيبين دون الفضول ولكن عبد الله بن الزبير وهو اسدى هدد بأن ينصر الحسين ابن علي اذا دعا بحلف الفضول وهذا يدل على ان أسدا داخلة في الحلف. انظر الروض الانف ١/٩٣ .

(١٨٧) المصادر السابقة وتاريخ ابن الاثير ٢/٢٥ ؛ بلوغ الارب ١/٢٥٧ .

والقسم الثاني من الحلف له خطر واضح • اذ هو يمثل نوعا من التكافل الاجتماعي والالتزام بمساعدة المحتاج من المتحالفين • واقتران ذلك بالعمل على نصرة الحق هو تطوّر كبير في فهم العدالة والنظر اليها من زاوية جديدة • ويمثل هذا الحلف طفرة في فهمه الواسع لقضية العدالة من ناحية ثانية • فهو قد تجاوز الحاجز القبلي وعمّ بضمان الحق لكل من يطلب ذلك وان كان هذا من الناحية العملية داخل مكة •

ولم يكن هذا العهد الذى قطعه حلف الفضول فورة عاطفية لم تجد السبيل الى التطبيق •• فقد رووا ان النبي عليه الصلاة والسلام اخذ بحق رجل اراشي من ابي جهل •• وكان غصبه ابله وماطله بالثمن[١٨٨] ، واشترى صلى الله عليه وسلم ابلا من رجل زبيدي وكان ابو جهل يريد شراءها بالوكس وكان المشركون قد امتنعوا من الزيادة على السعر الذي اعطاه[١٨٩] • واخذ العباس بحق رجل من سليم[١٩٠]• واما بالنسبة للتأسّي في المعاش فنذكر كفالة النبي عليه الصلاة والسلام والعباس لعلي وجعفر ابني ابي طالب وذلك للتخفيف من عياله وكان أبو طالب فقيرا[١٩١] •

ومن الطريف أنهم عرفوا ادواء القضاء في الجاهلية •• فقد رووا أن ضمرة بن ضمرة النهشلي ارتشى فنفرّ عبّاد بن انف الكلب الصيداويّ على سبرة بن عمرو الفقعسي[١٩٢] • ورووا ان الاقرع بن حابس هو اول من داهن في الحكومة ••• وذلك حين تنافر اليه جرير بن عبدالله البجلي وخالد ابن ارطاة الكلبي[١٩٣] •

---

(١٨٨) الروض الانف ٢٣٨/١ ، الاصابة ٢٦٨/٦ ترجمة النواح بن سلمة الاصغر حفيد هذا الاراشي •

(١٨٩) انساب الاشراف ١٣٠/١ •

(١٩٠) الاصابة ٢٦٦/٥ •

(١٩١) تاريخ الطبري ٣١٢/٢ •

(١٩٢) الحيوان ٣١٩/١ ؛ مجمع الامثال ٤١٨/١ •

(١٩٣) النقائض ٣٦٥/١ •

وروح العدل عندهم هو النصف أو السوية[١٩٤] وكأن ذلك جاء من القسمة فأن قسمة الشيء نصفين لا تتيح مجالا للجور أو المغالطة وكذلك التسوية .. هذا والقبول بالحق واعطاؤه للمظلوم مثل من مثلهم التي فخروا بها كما هجوا برفض الحق .. وان كان ذلك يأتي في العادة مقترنا بعدم قبول الظلم والقدرة على أزالته .. يقول الاسود بن يعفر[١٩٥] :

فلا انا معطيكم عليّ ظلامة ... ولا الحق معروفا لكم انا مانع

ويقول لبيد[١٩٦] :

وكثيرة غرباؤها مجهولة ... ترجى نوافلها ويخشى ذامها

غلب تشذر بالفحول كأنها ... جنّ البدىّ رواسيا اقدامها

انكرت باطلها وبؤت بحقها ... عندى ولم تفخر عليّ كرامها

ويقول جثامة بن قيس الكناني في لينه لقومه[١٩٧] :

واغرض عن اصول الحق فيهم ... اذا التبست واقتطع الصدورا

---

(١٩٤) يقول درهم بن يزيد او عمرو بن امرىء القيس (الاغاني « الدار » ٢١/٣ ؛ جمهرة اشعار العرب ٢٣٧) .

باءال والحق ان قنعت به ... فيه وفينا لامرنا نصف

ويقول المعين بن الحمام (الاغاني « الدار » ١٢/٥)

الا تقبلون النصف منا وانتم ... بنوعمنا لا بل هامكم القطر

ويقول زهير : شرح ديوانه ص ٣٥٦

ارونا خطة لاعيب فيه ... يسوى بيننا فيها السواء

(١٩٥) الصبح المنير ص ٣٠٢ .

(١٩٦) شرح ديوان لبيد رقم (٤٨) ص ٣١٧ .

(١٩٧) المؤتلف والمختلف ص ١٠٦ .

ويقول أخو السوأل سعية بن الغريض مضيفاً انه لا يغالط في الحق ولا يتلاعب به[198] :

انا اذا مالت دواعي الهوى　　وأنصت السامع للقائل
لا نجعل الباطل حقا ولا　　نلطّ دون الحق بالباطل
نخاف ان تسفه احلامنا　　فنخمل الدهر مع الخامل

ونحن نجد في شعر هذا الشاعر اليهودي وضوحا وانقيادا للحق .. فهو لم يقيّد كلامه بأي قيد ولم يعلّق اعطاءه الحق بشيء .. ومعنى الانقياد للحق والاخلاص له وعدم تشويهه معنى معروف عندهم ، يقول عوف بن الاحوص[199] :

أقر بحكمكم ما دمت حيا　　وألزمه وان بلغ الفناء
فلا تتعوجوا في الحكم عمدا　　كما يتعوّج العود السراء
ولا آتي لكم من دون حق　　فأبطله كما بطل الحجاء

فالحق عند عوف قيمة لا ينبغي التلاعب بها بأن يشتط صاحبه ويغالي . وان يحتال الذى عليه الحق ليبطله ويلغيه كما يبطل اللغز اذا كشف عن غموضه . وقد جاء في كلامهم استعمال الحق بمعنى الواجب من حيث ان الواجب حقّ على الانسان لغيره .. وهو بهذا الاستعمال في قول المثقّب[200] .

اكرم الجار وأرعى حقّه　　ان عرفان الفتى الحقّ كرم

---

(198) طبقات ابن سلام ص ٢٣٨ ؛ وهو يرويها لسلام بن ابي الحقيق . وفي الاغاني « الساسي » ١٩/١٠٠ لنعيه .

(199) المفضليات رقم (٤٨) ص ١٧٤ .

(200) ديوان المثقب ص ٤٦ .

والحق بهذا المعنى يتسع حتى يشمل مثلهم التي مجدوها من كرم وقرى ووفاء وحمل للمغارم وغيرها .. يقول أحيحة بن الجلاح[٢٠١] :

يلوون مالهـــم عن حق أقربهم   وعن عشـيرتهم والحق للوالي

ويقول لبيد[٢٠٢] :

فتى عارف للحق لا ينكر القرى   ترى رفده للضيف ملآن مترعا

ويقول معوّد الحكماء[٢٠٣] :

حملت حمالة القرشـــي عنهم   ولا ظلما اردت ولا اختـــلابا
أعوّد بعدها الحكماء بعـــدى   اذا ما الحق في الاشياع نابا

ويقول ربيعة بن مقروم الضبي[٢٠٤] :

يهينـــون في الحـــق اموالهـــم   اذا اللزبات التحين المسيما

ويقول العباس بن مرداس مستعمـــلا الحق في معنى ايجاب الشيء وتأكيـــده[٢٠٥] :

اذ ما اتيت على الرسول فقل له   حقا عليـــك اذا اطمأن المجلس

وهو معنى تابع للحق بمعنى الواجب .. ومن هـــذا المعنى جاء تعبير حماية الحقيقة .. وهي ما يستحق الحماية .. يقول عنترة[٢٠٦] :

ومشك سابغة هتكت فروجهـــا   بالسيف عن حامي الحقيقـــة معلم

---

(٢٠١) الاغاني « الدار » ٣٧/١٥ .
(٢٠٢) شرح ديوان لبيد رقم ٢٥ ص ١٧٣ .
(٢٠٣) المفضليات رقم ١٠٥ ص ٣٥٨ .
(٢٠٤) المفضليات رقم ٣٨ ص ١٨٣ .
(٢٠٥) الحماسة البصرية ١١٩/١
(٢٠٦) مختار الشعر الجاهلي ص ٢٧٧ .

ويقول العباس بن مرداس[٢٠٧] :

فلم ار مثل الحي حيا مصبّحا ولا مثلنا لما التقينا فوارسا
اكر واحمى للحقيقة منهم واضرب منّا بالسيوف القوانسا

ومن معاني الحق الاخرى عندهم الصدق كما في قول النابغة[٢٠٨] :

اتاك بقول هلهل النسج كاذب ولم يأت بالحق الذي هو ناصع

وقول المثقب[٢٠٩] :

فأما ان تكون اخي بحق فأعرف غثّي من سميني
والا ّ فاطّرحنى واتخذني عدوّا أتقيك وتتقيني

والحق المقابل للصدق يقترب من المعنى المجرد .. وهو معنى ورد في الشعر الجاهلي ايضا . قول طرفه[٢١٠] :

دببت بسرّى بعد ماقد علمته وانت باسرار الكرام نسول
وكيف تضل القصد والحق واضح وللحق بين الصالحين سبيل

ويقول قيس بن الخطيم[٢١١] :

متى ماتقد بالباطل الحق يأبه وان قدت بالحق الرواسي تنقد

ويقول العباس بن مرداس[٢١٢] :

وكيف اعادى معشرا يأدبونكم على الحق الا ّ يأشبوه بباطل
أبت كبدى لا اكذبنك قتالهم وكفّي وتأباه عليّ أناملي

---

(٢٠٧) الاصمعيات ٧. ص ٢٣٨ .
(٢٠٨) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٧ .
(٢٠٩) ديوان المثقب ص ٤٢ .
(٢١٠) ديوان طرفة رقم ١٢ ص ١١٦ .
(٢١١) ديوان قيس بن الخطيم ص ٤٦ .
(٢١٢) الوحشيات ص ٨٥ .

ويقول المتلمّس[٢١٣] :

واعلم علم حـــق غير ظنّ   وتقوى الله من خير العتاد
لحفظ المال ايســـر من بغاه   وضرب في البلاد بغير زاد

فالحق في هذه الاقوال ان لم يكن معنى فلسفيا خالصا فانه يستوعب بشموله جميع المعاني التي ذكرناها سابقا .. وينبغي ان نقف عند التفاتهم الى معان مقررة للحق ثابتة له .. ومن ذلك وضوحه وجلاؤه والى ذلك اشار طرفة .. ومنه انتصار الحق وغلبته والى ذلك يشير قيس بن الخطيم .. بل ان نقطة التقابل بين الباطل تكمن في وجود الحق وجودا ثابتا وزوال الباطل وانعدامه . يقول لبيد[٢١٤] :

الا كل شيء ما خلا الله باطـل   وكلّ نعيم لا محالـــة زائل

ويقول ايضا :

الا تســـألان المرء ماذا يحاول   أنحب فيقضى أم ضـــلال وباطل

وابطال الشيء الغاؤه وازالته .. وقد مرّ بنا قول عوف بن الاحوص بهذا المعنى :

ولا آتي لـــكم من دون حق   فأبطله كمـــا بطل الحجـــاء

ومعاني مادة بطل هي البطولة والبطالة المقابلة للجد والعمل والبطلان بمعنى الزوال والتلف والضياع . وهو المعنى الذى يهمنا .. اما البطولـــة فبعيدة عن ان تقابل الحق . واما البطالة فمن الواضح من استعمالهم اللفظ بمعناها انهم يقصدون اللهو والهزل والتعطّل . يقول المثقب[٢١٥] :

فابقــى باطلي والجــد منها   كــذا كــان الدرابنة المطـين

---

(٢١٣) الحماسة البصرية ٢/٦٨ .

(٢١٤) شرح ديوان لبيد رقم ٣٦ . ص ٢٥٤ .

(٢١٥) ديوان المثقب ص ٤٠ .

ويقول دريد بن الصمة[٢١٦] :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه   فلمّا علاه قال للباطل ابعد

وهذا المعنى ظاهر متميز لا شبهة في انه لا يقابل الحق . ولا يبقى بعد ذلك غير انهم ارادوا بالباطل الزائل الزائف .. وبالحق الثابت الباقي .. ونحن لا نستغرب أن يوجد عندهم هذا المثل الاعلى .. وذلك على ضوء معرفتهم لله كما أوضحناها في دراسة أديانهم .. لأن هذه المعرفة تعني قدرا كبيرا من القدرة على النظر الشامل .. والاعتقاد بالله جدير بان يهدى الى شيء من المثل والا يكون عقيما ليس له اثر على فكر الانسان وسلوكه ..

اثر الدين في طبيعة علاقة الرجل بالمراة :

ويشمل اعتبار التحريم والتحليل علاقة الرجل الجاهلي بالنساء .. فالرواة[٢١٧] يذكرون ان بعض بني تميم تزوج ابنته بعد ان دخل المجوسية وهذا يشعرنا بأن امتناع العرب من زواج البنات والاخوات ونحوهن انما كان بسبب ديني .. وروى الطبري في جملة اخباره في تفسير قوله تعالى : «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. » الانعام ١٥١ انهم كانوا يرون الزنا حلالا في السر حراما في العلن[٢١٨] . ونحن على أي حال نجدهم يميزون بين الصلة المشروعة وغيرها .. يقول الاعشى[٢١٩] :

واقرت عيني من الغانيات   فأما نكاحا واما أزن

ويقول عبيد[٢٢٠] :

وبيت يفوح المسك من حجراته   تسديته من بين سر ومخطوب

---

(٢١٦) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١٤ .

(٢١٧) بلوغ الارب ٣٤٤/١ .

(٢١٨) تفسير الطبري « بولاق » ٦٠/٨ .

(٢١٩) ديوان الاعشى رقم ٢ ص ١٧ .

(٢٢٠) ديوان عبيد رقم ٨ . ص ٢٥ .. وذهب د . حسين نصار الى ان سر ومخطوب اماكن وذكر انه لم يجد لمخطوب ذكرا في كتب المواضع والبلدان واللغة

وذهب قسم من اللغويين الى ان الحليلة بمعنى الزوجة هو من الجوار لانها تحلّ مع زوجها في المكان •• او من المحلّ الخاص الذى تحتله في نفس زوجها[٢٢١] •• والذي دفعهم الى هـذا التأويل قدم اللفظ بمعنى الزوج وجاهليته فهو ليس من الاسماء الشرعية الاسلامية •• ولكن هذه الملاحظة غير دقيقة •• لأن الحرام والحلال وجدا في الجاهلية ولا سبيل الى الشك في ذلك •• ولعلّهم تأثروا باستعمال الشعراء للجارة بمعنى الزوجة فقاسـوا عليـه[٢٢٢] •

والصورة اللاهية من علاقة الرجل بالمرأة تتناقض مع القيم الدينية •• ومن هنا يقول النابغة ان من المحرم على الحاج ان يلهو بالمرأة •• وذلك معنى قوله[٢٢٣] :

قالت اراك اخـا رحـل وراحلة	تغشى متالف لن ينظرنك الهرمـا
حيّاك ودّ فأنّا لا يحـل لنا	لهو النساء وان الدين قد عزمـا
مشمرين عـلى خـوص مزّممة	نرجو الالـه ونرجـو البر والطعما

وهناك الفاظ اخرى تحمل طابع الاصـطلاح الديني يمكن عن طريق دراستها التعرف على آثار الدين في الجاهلية • ومنهـا البرّ والتقى والجزاء والتأله والفجور والاثم ونحوها • واهمال هذه الالفاظ في الاسلام او غموض معناها لا يمنع من انها كانت ذات خطر واهمية عندهم •

البـر :

والبر مرتبط بالحج ويعني القبول •• فهم يقولون للحاج ! حج مبرور ومن[٢٢٤] ذلك قول النابغة[٢٢٥] :

مشـمرين علـى خـوص مزممة   نرجو الالـه ونرجـو البر والطعما

---

(٢٢١) اللسـان « حلل » من الحلول مع الزوج .. المصباح المنير « حلل » من المحل الخاص في نفس الزوج .

(٢٢٢) كقول الاعشى : أيا جارتا بيني فانك طالقة .

(٢٢٣) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٩ .

(٢٢٤) اللسـان « برر » .

(٢٢٥) سبق قبل قليل .

والبر كذلك متصل بالقسم ويعني تصديق القسم وفعل ما يقسم على فعله .. ولعله من هنا جاء معنى الانقياد في استعمالات الكلمة .. انشد في اللسان بدون عزو «يبرك الناس ويفجرونكا» .ويقول لبيد وهو يكاد يعرف البرّ(٢٢٦) :

وما البر الا مضمرات من التقى وما المال الا معمرات ودائع

ومكان البر القلب .. فهو مضمر كما يقول لبيد وكما يقول زهير(٢٢٧):

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه الى مطمئن البر لا يتجمجم

ولعله من هنا جاء استعمال البر بمعنى القلب .. فهو مكانه .

التقى : والتقى معروف عندهم وهو أمر طبيعي ما داموا يرون ان الالهة تعقب بالخير والشر على الاعمال .. وهو أمر بديهي في أية عباده .. فلولا أن الاله يرجى ويخشى ما عبد والاشارة الى جزاء الله وردت في شعرهم ... يقول النابغة(٢٢٨) :

اذن فعاقبني ربي معاقبة قرّت بها عين من يأتيك بالفند

ويقول زهير(٢٢٩) :

رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير الجزاء الذى يبلو

ويقول الحصين بن الحمام(٢٣٠) :

جزى الله افناء العشيرة كلها بدارة موضوع عقوقا ومأثما

---

(٢٢٦) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ . ص ١٦٨ .

(٢٢٧) شرح ديوان زهير ص ٢٩ ، وفي مختار الشعر الجاهلي ص ٢٣٤ ومن يفض .

(٢٢٨) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٤ .

(٢٢٩) شرح ديوان زهير ص ٩٦ .

(٢٣٠) المفضليات رقم ١٢ ص ٦٥ .

ويقول النابغة[٢٣١] :

جزى الله عبسا عبس آل بغيّض   جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

ويقول الاعشى[٢٣٢] :

وادفع عن أعراضكم واعيركم   لسانا كمقراض الخفاجي ملحبا
هنالك لا تجزوني عند ذاكم   ولكن سيجزيني الاله فيعقبا

ويبدو الفرق بين المشرك والكتابي في هذه الناحية في تصورهما لما يرضي الله من الاعمال .. يقول الاعشى في مدح هوذة الحنفي النصراني الذي اطلق اسراه لله[٢٣٣] :

بهم تقرّب يوم الفصح ضاحية   يرجو الاله بما سدّى وما صنعا

فهذه نظرة كتابية لا شك فيها .. ولم نجدها فيما استعرضنا من اثر الدين في الحياة الحربية الجاهلية ..

ومن استعمالهم للتقى قول زهير[٢٣٤] :

ومن ضريبته التقوى ويعصمه   من سيىء العثرات الله والرحم

ويقول المتلمّس[٢٣٥] :

واعلم علم حق غير ظنّ   وتقوى الله من خير العتاد

التاله :

والتأله مرتبة اعلى في حيوية الضمير الديني .. وهو لفظ وصلنا في الاخبار ولم استطع أن أعثر عليه في الشعر . جاء في حديث صلح الحديبية

---

(٢٣١) الخزانة ١٣٩/١ .. ويقال انه لعبد الله بن همارق .
(٢٣٢) ديوان الاعشى رقم ١٤ ص ١١٧ .
(٢٣٣) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١١ .
(٢٣٤) شرح ديوان زهير ص ١٤٥ .
(٢٣٥) الحماسة البصرية ٦٨/٢ .

ان قريشا ارسلت في جملة من اوفدتهم لمفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم الحليس سيد الاحابيش فقال حين رآه : « هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ؛ فلما رأى الهدي يسيل عليه من زخر الوادى في قلائده قد أكل اوباره من طول الحبس عن محلّه رجع الى قريش ولم يصل الى النبي صلى الله عليه وسلم اعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا .. له احلس ، فانما انت اعرابي لا علم لك »(٢٣٦) وقد غضب الحليس وهدد بأن ينقلب على قريش بقومه .. والحليس هو الذى أنكر على ابي سفيان العبث بجثمان حمزة رضي الله عنه في احد(٢٣٧) ونفهم من هذا ان الحليس كان معروفا بالتأله هو وقومه وقد اشتهر ذلك عنهم حتى علمه النبي صلى الله عليه وسلم ، ونفهم كذلك ان هذا التأله يدفع صاحبه الى انصاف خصومه واعدائه في كل الاحوال حتى الحرب . ويذكر ابن حبيب انهم كانوا يشترطون في الحرضة الذى يضرب بالقداح في الميسر ان يكون معروفا بالتأله كأن ذلك يمنعه من محاباة بعض الايسار(٢٣٨) .. ويذكرون ان زهير بن ابي سلمى كان يتأله ويقارن ابن سلاّم الجمحي بين المتألهين من الشعراء والمتعهّرين(٢٣٩) .. ومن هذه المقارنة نشعر ان التأله يعني صيانة اعراض الناس بعدم ذكر نسائهم او الافحاش في هجائهم ... ويروون ان زهيرا ندم بعد هجاء آل حصن وكان يقول : « ما خرجت بليل قط الاّ خشيت ان يصيبني عذاب من السماء بظلم اهل بيت من العرب كرام . »(٢٤٠) والتأله على هذا يمثل حدا عاليا من التقوى .. لأنه لا يقف عند حدود العبادات والطقوس بل يتعداها الى الاحسان في التعامل مع الناس وانصافهم .

---

(٢٣٦) السيرة : الروض الانف ٢/٢٢٧ ، تاريخ الطبري ٢/٦٢٨ ، الطبقات الكبرى ١/٢/٧٠ . وجاء هنا : « فبعثوا الحليس بن علقمة وهو يومئذ سيد الاحابيش وكان يتأله »

(٢٣٧) السيرة : الروض الانف ٢/١٤٠ .

(٢٣٨) المحبر ص ٣٣٣ .

(٢٣٩) الشعر والشعراء ١/٧٨ ؛ طبقات ابن سلام ص ٣٤ .

(٢٤٠) شرح ديوان زهير ص ٦٥ ، ٨٦ .

الفجـور :

ومن أهم الكلمات ذات المدلول الديني عندهم الفجور وهو يقابل البـّر احيانا ، يقول النابغة(٢٤١) :

إنّا اقتسـمنا خطّتينـا بيننا   فحملت برّة واحتملت فجارا

وجاء في الحديث ما يربط هذا المصطلح بالدين ويعطيه معنى الفسق أو الخروج على تعاليم الدين . فعن ابن عباس انهم كانوا يعتبرون العمرة في اشهر الحج « من افجر الفجور في الأرض »(٢٤٢) ومرّ بنـا في حديث اخر انهـم سمّوا رجلا من الحلة فاجرا لأنه خرج من باب بسـتان وهو محظور على الحلّة . وأنهم سمّوا حرب الفجار كذلك لأنها تعدّت على حرمة مكة .

الاثــم :

والاثم هو الذنب وعلاقته واضحة بالدين ، يقول الحارث بن ظالم(٢٤٣):

ما أبالي أراشـدا فأصبحاني   حسـبتني عواذلي أم غويّـا

بعـد الا أصـر لله اثما   في حياتي ولا أخـون صـفيا

ويقول امرؤ القيس في تحلّله من نذره(٢٤٤) :

فاليوم أشرب غير مسـتحقب   اثما من الله ولا واغـل

ويقول يزيد بن خذاق(٢٤٥) :

تحلّل أبيت اللعن من قول آثم   على ما لنـا ليقسـمّن خموسا

وبعد ، فان هذه الالفاظ وغيرها ينبغي ان تكون دليـلا نهتدى به في التعرف على الآثار الدينية في اخلاق الجاهلية وسلوكها وبالتالي في آدابها . وانه لمن الطبيعي ان لا تظهر هذه الآثار عند جميع الشعراء بنفس الوضوح لان الناس ما يزالون يختلفون في مبلغ تدينهم .. كذلك لا تظهر المشاعر الدينية

(٢٤١) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٦ .
(٢٤٢) البخاري : فتح الباري ٣٣٢/٣ .
(٢٤٣) الاغاني « الدار » ١٢٢/١١ .
(٢٤٤) ديوان امرىء القيس رقم ١٦ ص ١٢٢ .
(٢٤٥) المفضليات رقم ٧٩ ص ٢٩٨

بنفس الدرجة من العمق في فترات حياة الشاعر المختلفة .. فهي خاضعة لنضج الانسان وتقدّمه في السنّ وهي خاضعة ايضا لظروف حياته فهي تتنبه عند المصاعب والكوارث وتبدو خاملة في احيان اخرى .. وقد ادى تتبع اسماء الآلهة وملاحظة ندرتها في الشعر وكذلك الشك في اصالة كثير من الشعر الجاهلي الى القول بضعف الروح الديني عند الجاهلي وقصورها وضحالة الدين الجاهلي نفسه(٢٤٦) وربما كان ذلك صحيحا اذا كان حديثنا عن البدوى البسيط .. وهو اقل صحة اذا كان الحديث يدور حول العرب جميعا .. عقلائهم وشعرائهم واهل الحضر منهم .. والحق ان هذه النتيجة التي يقال أن دراسة الشعر الجاهلي هدت اليها فرضت فيما بعد على الشعر الجاهلي فصار الباحثون يحكمون على الشعر الذي تبدو فيه أية فكرة دينية متقدمة واضحة بأنه منحول .. فنحن في الحقيقة نفتش عن الشيء ثم ننكره حين نجده ثم نعجب لعدم وجوده وهو موقف لا شك في غرابته .. والذى أطمع فيه ان يكون ما تقدّم من هذا البحث قد كسر هذه الحلقة المفرغة وجعلنا اكثر استعدادا لقبول افكار ناضجة على انها جاهلية لا داعي للشك في اصالتها ما دامت قد وصلتنا عن الرواة الموثوق بهم .

---

(٢٤٦) يقول بلاشير في تاريخ الادب العربي ص ٤٦ : « وهذا الحس الايجابي يدفع ثمنه قصور فاضح ، فنفس البدوي ـ كذلك الحضري ولكن بدرجة أقل ـ لا تتفتح للشعور الديني فان عاطفته الدينية من التفاهة بحيث تدهشنا عند مخلوق على اتصال دائم بالطبيعة .. »

ويقول نيكلسون في ص ١٣٥ من كتابه في التاريخ الادبي للعرب لندن ١٩١٤

بأن الدين كان قليل التأثير في حياة اهل الجاهلية ولذلك لا نتوقع ان نجد له آثارا في شعرهم . ويضيف بعد استعراض سريع لعقائد الجاهلية ، ان البدوي لا يعرف شيئا عن العاطفة الدينية الحقيقية . ولا يشعر بالحاجة الى الدعاء او الصلاة لآلهته وان كان يقسم بهم احيانا شاعرا بانهم مؤثرون . وقد يتذكر الله عند حاجته كما يتمسك الغريق بالقشة .. ولكن ايمانه بالطقوس أكثر وذلك لفائدتها .. فهو ينال الامن والراحة في الاشهر الحرم بصرف النظر عن قيمتها الدينية .

وانظر مثل هذه الآراء في العرب في فجر الاسلام ص ٣٠ .



الباب الثاني

الحياة والموت في أغراض الشعر الجاهلي



الفصل الأول

في الرثاء وبكاء الديار

لم يصلنا من رثاء الجاهلية شيء كثير • واكثر ما وصلنا منه هو لشعراء مخضرمين كلبيد ومتمم بن نويرة والخنساء أو لشعراء تتفاوت الرواية في تقدير عصرهم بين الجاهلية والاسلام كبعض شعراء هذيل • ومن هنا اجد من الصعب دراسة الرثاء وتتبع معانيه الجاهلية دون أن استعين بشعر المخضرمين ويشجعني على هذا الصنيع أنّ الشخصية الادبية لبعض المخضرمين جاهلية اكتملت قبل الاسلام ، وان قسماً من رثاء المخضرمين ـ وان كان اسلامي الزمن ـ قيل في شخصيات جاهلية لم تعرف الاسلام ممّا جعل رثاءهم يحمل من الافكار والمثل الجاهلية ما يجعله صورة قريبة للرثاء الجاهلي •

وكذلك وصلنا عن الجاهلية رثاء اختلط بالوقوف على الاطلال واعتبر من النسيب وهو رثاء يبكي به الشعراء قبائل معيّنة ؛ او رثاء يعبّر به الشاعر عن احزان نفسية • وان مصطلح القدماء الذى اطلق على هذا اللون من الشعر ـ وهو بكاء الديار أو الاطلال ـ لهو مصطلح لا غموض في دلالته ، ونحن نجد في هذا الشعر المعاني والمشاعر التي نجدها في الرثاء •• فقد كانوا يعبّرون عن جزعهم عند الديار والقبور ، ويدعون لهما بالسقيا ، ويقفون بهما ، ويزورونهما ، ويحيّونهما •• وكانوا يردّون بلى الاطلال الى الدهر أو الزمان •• وقد مرّ بنا ان الدهر هو سبب الموت في الشعر الجاهلي •• يقول النابغة[1] :

---

(١) مختار الشعر الجاهلي ص ١٩٩ .

غشـيت منـازلا بعريتنات فأعـلى الجزع للحيّ المبنّ
تعاورهنّ صـرف الدهر حتى عفون وكـلّ منهمر مرنّ

ويقول زهير[٢] :

لمن الديار بقنّـة الحجـر أقوين من حجج ومـن دهر
لعب الزمـان بهـا وغيّرها بعـدى سـوافي المور والقطر

ويقول طرفة[٣] :

فغيّرن آثار الديار مع البـلى وليس على ريب الزمان كفيـل

ويقول امرؤ القيس[٤] :

الا عم صباحا أيها الطلـل البالي وهل يعمن من كان في العصرالخالي
وهـل يعمن الا ّ سعيد مخلّد قليل الهموم ما يبيت بأوجـال

ويقول النابغة[٥] :

يا دار ميـة بالعليـاء فالسند اقوت وطال عليها سالف الأبد

ومن اهم معاني الوقوف بالاطلال مساءلتهم لها وصمتهـا وهو معنى نجده في رثائهم بكثرة ، يقول دريد بن الصمّة[٦] :

فان الرزء يوم وقفت أدعـو فلم أسـمع معاوية بن عمرو
ولو أسمعته لأتاك يسـعى حثيث السعي أو لأتـاك يجرى

---

(٢) شرح ديوان زهير ص ٨٦ .
(٣) ديوان طرفة رقم ١٢ . ص ١١٧ .
(٤) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٢٧ .
(٥) مختار الشعر الجاهلي ص ١٤٩ .
(٦) الاغاني « الدار » ١٥/٩٧ .

ويقول كعب بن سعد الغنوي[٧] :

وداع دعا يا من يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت ادع اخرى وارفع الصوت ثانيا لعلّ ابا المغوار منك قريب
يجبك كما قد كان يفعل إنّه بأمثالها رحب الذراع أريب
اتاك سريعا واستجاب الى الندى كذلك قبل اليوم كان يجيب

ويقول متمّم[٨] :

وليأتين عليك يوم مرّة يبكى عليك مقنعا لا تسمع

ويقول [٩] :

أبى الصبر آيات" أراها وانّني ارى كلّ حبل بعد حبلك اقطعا
واني متى ما أدع باسمك لا تجب وكنت جديرا ان تجيب وتسمعا

ويقول عبدة بن الطبيب[١٠] :

حتّى اذا وافى الحمام لوقته ولكل جنب لا محالة مصرع
نبذوا اليه بالسلام فلم يجب أحدا وصمّ عن الدعاء الأسمع

وتقول قتيلة اخت النضر بن الحارث[١١] :

هل يسمعنّ النضر ان ناديته إن كان يسمع ميّت لا ينطق

---

(٧) الاصمعيات رقم ٢٥ ص ٩٨ . وجمهرة اشعار العرب ص ٢٤٩ . وينقل الميمني في سمط اللآلىء ٧٧١/٢ عن ابن هشام في التيجان ان ابا المغوار المرثي بالقصيدة قتل في ذي‌قار الآخر .. وهذا يحقق جاهلية القصيدة .

(٨) المفضليات رقم ٩ ص ٥٤ .

(٩) المفضليات رقم ٦٧ ص ٢٦٧ .

(١٠) المفضليات رقم ٢٨ ص ١٤٩ .

(١١) انيس الجلساء ص ١٧٨ .

والرياح التي يصفون ما تفعله بالديار هي مما يذكرونه في الرثاء ، وهم يتألمون من فعلها في الميت وفي قبره ، يقول دريد بن الصمّة أو الخنساء[١٢]:

فأما يمس في جـدث مقيمـا   بمسـهلة من الارواح قفـر
فعزّ عليّ هلكك يا ابن عمرو   ومالي عنك من عـزم وصبر

وتقول الخنساء [١٣] :

فلم يُنْجِ صخرا ما حذرت وغاله   مواقع غاد للمنـون ورائـح
رهينةُ رمس قد تجرّ ذيولهـا   عليه سوافي الرامسـات البوارح

وتقول[١٤] :

وابكـى لصـخر إذ ثوى   بين الضـريحة والصـفائح
رمسـا لـدى جـدث تـذيـع بتربـه هـوج النوافـح

وتقول[١٥] :

ان يك هذا الدهـر أودى به   وصار مَسْحا لمجارى القطار
فكـل حي صائر للبـلى   وكلّ حبـل مرّة لانـدثار

وتقول سارة القرظية[١٦] :

بأهلي أمة لـم تغن شـيئا   بذى حُرُض تعفّيهـا الرياح

---

(١٢) انيس الجلساء ص ١٦ من المقدمة . وفي ص ٢٤ من الديوان للخنساء « بمعترك من الارواح » .
(١٣) انيس الجلساء ص ١٣ .
(١٤) انيس الجلساء ص ١٠ .
(١٥) انيس الجلساء ص ٤٠ .
(١٦) انيس الجلساء ص ١٥٨ . وباهلي امة رواية جاءت في الهامش وفي الاصل رمة . ورواية الهامش اصح اذ البيت من رثاء الشاعرة لقومها الذين اوقع بهم

ويقول عمـرو بن ملقط الطائي يحض عمـرو بن هنـد على الثـأر لأخيه[١٧] :

هـا إن عِجْزَةَ أمـه بالسـفح أسفلَ من أُواره
تسفي الرياح خـلال كَشـحيه وقـد سلبوا إزاره

ونجد عناية الشاعر بذكر مكان قبر المرثي ، وهي العناية التي تلاحظ في تحديد اماكن الديار ، يقول النابغة[١٨] :

لئن كان للقبرين قبر بجلّق وقبر بصيداء التي عند حارب

ويقول قيس بن زهير[١٩] :

تعلّم أنّ خير النـاس ميت على جَفْرِ الهَبَـاءَةَ لا يريم

وهو يذكرنا بقول زهير : لمن طلل برامة لا يريم ، ويقـول طفيـل الغنوى[٢٠] :

وكان هريم من سِنان خليفـة وحصن ومن أسماء لما تغيّبوا
ومن قيس الثاوى بِرَمّانَ بيتُه ويوم حقيل فاد آخر مُعْجِب
وبالسهب ميمون الخليقة قولـه لملتمس المعروف أهـل ومرحب

ويقول أبو زبيد[٢١] :

غير ان اللجلاج قد هدّ ركني يوم فارقته بأعـلى الصـعيد
في ضريح عليـه عبء ثقيل من تراب وجنـدل منضـود

---

(١٧) النقائض ٦٥٣/٢ ، الاشتقاق ص ٣٨٥ ، واسمه في معجم الشعراء ص ٢٣٥ عمرو بن نعامة او عمرو بن ثعلبة .
(١٨) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٠ .
(١٩) النقائض ٩٦/١ .
(٢٠) ديوان طفيل ص ١٨ .
(٢١) شعر ابي زبيد رقم ٩ ص ٤٣ – ٤٤ .

عن يمين الطريق عنـــد صـــدىً حرّانَ يدعو بالويـــل غير معود

ويقول المرقش الاكبر[٢٢] :

لم يشج قلبي ملحـــوادث الا ّ صاحبي المتروك في تَغْـــلم

ويقول صخر بن عمرو في أخيه معاوية[٢٣] :

اذا ذكر الاخوان رقرقت عبرة وحيّيت رمسا عند لِيَّة ثاويا

ونجدهم أحيانا يصرّحون بأنهم يريدون من بكـــاء الديار رثاء قبيلة معيّنة ، يقول عبيد بن الابرص[٢٤] :

لمن طلل لم تعف منـــه المذانب فجنبا حِبِرّ قد تعفّى فواهب
ديار بني سعد بن ثعلبـــةَ الألى أذاع بهم دهر عـــلى الناس رائب
فأذهبهم مـــا اذهب الناس قبلهم ضراس الحروب والمنايـــا العواقب

ويقول[٢٥] :

تذكرت أهلي الصـــالحين بمحلوب فقلبي عليهم هالـــك جدُّ مغلـــوب
تذكرت أهل الخير والباع والندى واهل عتاق الجرد والبرّ والطيـــب
تذكـــرتهم مـــا ان تجـــفّ مدامعي كأن جدول يسقي مزارع مخروب

ويقول[٢٦] :

ليس رسم عـــلى الدفـــين بـــالي فلوى ذروة فجنبـــي أُثـــال
فالمَـــرَوْراة فالصفيحـــة قفر كلّ وادٍ وروضةٍ محـــلالِ
دار حيّ اصابهم ســـالف الدهـــر فأضحت ديـــارهم كالخـــلال
مقفرات الا ّ رمـــاداً غبيّـــا وبقايا من دمنـــة الاطـــلال

---

(٢٢) المفضليات رقم ٢٣٨ ص ٢٣٨ .
(٢٣) الاغاني « الدار » ١٥/١٠ وانظر له مثل ذلك في ١٥/١٠٢ .
(٢٤) ديوان عبيد رقم ٤ ص ٨ .
(٢٥) ديوان عبيد رقم ٨ ص ٢٤ .
(٢٦) ديوان عبيد رقم ٤١ ص ١٠٥ .

ويقول جابر بن حنيّ التغلبي بعد ان يصف رحيل الظعن[٢٧] .

تصعّدُ في بطحاء عِرق كأنها ترقّى الى اعلى أرَيك بسلّم
لتغلبَ أبكي اذ أثارت رماحها غوائل شرّ بينها متفاقم

ويقول المرقش الاصغر[٢٨] :

لابنة عجلانَ بالجوّ رسومْ لم يتعفّين والعهد قديمْ
لابنة عجلان اذ نحن معا وأيّ حال من الدهر تدوم
أمن ديار تعفّى رسمها عينك من رسمها بسجوم
أضحت قفارا وقد كان بها في سالف الدهر ارباب الهجوم
بادوا واصبحت من بعدهم احسبني خالداً ولا أريم

وقد وقف الشعراء بديار قومهم وبكوها حين هاجرت قبائلهم الى الاقطار المفتوحة في الاسلام وشعرهم هذا لا يختلف في شيء عن المألوف من الوقوف بالاطلال .. يقول النابغة الجعدي[٢٩] :

أقفرت منهم الأجارب فالنّهْـ ـي وحوضى فروضةُ الأدحال
فحَبِرِيّ فالثغر فالصفح فالاجـ ـدادُ قفر فالكورُ كورُ أثال
هاجروا يطلبون ما وعد الله فبانوا وجارهم غيرُ قال

ويقول تميم بن ابيّ بن مقبل[٣٠] :

صحا القلب عن اهل الرّكاء وفاته على مأسل خلاّنه وحلائله
أخو عبرات سيق للشام أهله فلا اليأس يسليه ولا الحزن قاتله
تناسأ عن شرب القَرِينةِ أهلها وعاد بها شاء العدوّ وجامله

---

(٢٧) المفضليات رقم ٤٢ ص ٢١٠ .
(٢٨) المفضليات رقم ٥٧ ص ٢٤٧ .
(٢٩) شعر النابغة الجعدي ص ٢٣٠ .
(٣٠) ديوان تميم رقم ٣٢ ص ٢٤٠ .

تمشّى بهـا شوْل الظبـاء كأنهـا جنى مهرقـان فاض بالنيل سـاحله
وبدّل حالا بعـد حـال وعيشةً بعيشتنا ضَيْقُ الركاء فعاقلــه
سَخاخا يُزَجِّي الذئبُ بين سهوبها وفحلُ النعــام رزئه وأزاملــه
الا ربّ عيش صالح قـد لقيته بضيق الركاء اذ به من نواصله
اذ الدهر محمودالسجيات تُجْتَنَى ثمار الهوى منه ويؤمن غائلــه
وحيٍّ حلال قد رأينـا ومجلسٍ تعادى بجنّان الدحول قنابلـه
هم التابعون الحق من عنـد اصله بأحلامهم حتى تصاب مفاصلـه
هم الضاربون اليَقْدُميةَ تَعتري بما في الجفــون اخلصته صياقله

فهذا الشاعر يرثي ديار قومه ويأسى لفراقهم ، ويجعل ذكرى هواه من بعض ما يبكي به الماضي ، وذلك لا ينقل هذا الشعر من الرثاء الى النسيب كما هو واضح ، ويقول لبيد(٣١) :

هلكت عامر فلم يبق منهـا برياض الأعـراف الا الديار
غيـرُ آلٍ وعَنّـةٍ وعريش ذعذتهـا الريـاح والامطـار
وأرى آل عامــر ودّعــوني غيــر قــوم افراسهم امهـار
واقفيها بكــل ثغــر مخوف هم عليهـا لعمر جدى نضـار
لـم يهينوا المولى على حــدث الدهــر ولا تجتويهم الاصــهار

وسنجد فيما بعد ان لهذا الرثاء من حيث هو خواطر في الفناء الملازم للحياة علاقة مهمة بالحماسة والفتوة ، ونكتفي هنا بتحقيق الصلة بين الرثاء وبكاء الديار ونهتدى اخيرا بقول لبيد(٣٢) :

وما الناس الا كالديار واهلهـا بها يوم حلّوها وغدوا بلاقــع

---

(٣١) شرح ديوان لبيد رقم ٧ ص ٤٤ ويقول الطوسي شارح الديوان ان القصيدة جاهلية قالها لبيد في رحيل بني جعفر قومه ومجاورتهم بني الحارث بن كعب ، ويرى د. احسان عباس انها في سكنى عامر للامصار في الاسلام . انظر : ص ١٩ من مقدمة الديوان .

(٣٢) المصدر السابق رقم ٢٤ ص ١٦٩ .

فهذه شهادة شاعر معاصر لظاهرة رثاء الديار ابان اصالتها .. وهو يرى أن الانسان مثل الديار من حيث فناؤهما .

وقد ينظر الشاعر الى فراق أحبته او تغيّر عهودهم على انه من الوان الفناء والتحول الذى لا يبقى عليه شيء ، وهو حينئذ قريب من معاني الرثاء. ومن مظاهر هذا القرب أن يردّ النوى أو تحوّل الحبيب الى الدهر والايام. يقول عروة بن الورد(٣٣) :

ألـم تعرف منـازل أم عمرو ... بمنعرَج النواصف من أبان
وقفت بها ففاض الدمع منّي ... كمنحدر من النظم الجمـان
ولكن لا يلبّث وصـل حيّ ... وجدّة وجهـه مرّ الزمان

ويقول الاعشى(٣٤) :

وقد أرانا طلابا همّ صاحبـه ... لو أن شيئا إذا ما فاتنا رجعـا
تعصي الوشاةَ وكان الحب آونة ... ممّا يزيّن للمشغوف ما صنعـا
وكان شيء الى شيء ففرّقـه ... دهر يعود على تفريق ما جمعـا

ويقول ذو الاصبع العدواني(٣٥) :

أمسى تذكرها من بعدما شحطت ... والدهر ذو غلظة حينا وذو لين
فان يكن حبهـا امسى لنا شجنا ... وأصبح الوأيُ منها لا يواتيني
فقد غنينا وشمل الدهر يجمعنا ... أطيع ريا وريّـا لا تعاصيني

ومن مظاهر هذا الاقتراب من معاني الرثاء ان يعتبر الشاعر انفصاله عن حبيبه حتما لا مفرّ منه ولا مهرب .. يقول بشر بن ابي خازم(٣٦) :

فان تـك قـد نأتك اليـوم سـلمى ... فكلّ قوى قرين لانقطـاع

---

(٣٣) منتهى الطلب : ٢٤٩/١ . وليست في ديوانه الذي ينتهي بقافيةاللام .
(٣٤) ديوان الاعشى : رقم ١٣ ص ١٠١ .
(٣٥) المفضليات رقم ٣١ ص ١٦١ .
(٣٦) ديوان بشر رقم ٢٣ ص ١٠٧ .. وفي القصيدة اقواء .

ويقول في هذه القصيدة :

وكل غضارة لك من حبيب　　لها بك أو لهوت به متاع
قليلا والشباب سحاب ريح　　اذا ولّى فليس له ارتجاع

ويقول حسان[٣٧] :

فابك ما شئت على ما مضى　　كلّ وصل منقض ذاهب
لو يردّ الدمع شيئا لقد　　ردّ شيئا دمعك الساكب

ويلاحظ ذلك ايضا في مقارنة الشاعر احيانا بين انقطاع ما بينه وبين حبيبه وبين من يرثيهم بشعره .. يقول ابو ذؤيب[٣٨] :

فان تصرمي حبلي وان تتبدلي　　خليلا ومنهم صالح وسميج
فاني صبرت النفس بعد ابن عَنْبس　　وقد لجّ من ماء الشؤون لَجوج
لأَحْسَب جلداً أو لينبأ شامت　　وللشرّ بعد القارعات فروج
فذلك أعلى منك فقدا لأنه　　كريم وبطني بالكرام بعيج

ويقول ساعدة بن جؤية مستخدما اسلوبا قصصيا معروفا للرثاء[٣٩] :

فاليوم امّا تمس فات مزارها　　منّا وتصبح ليس فيها مأرب
فالدهر لا يبقى على حدثانه　　أنس لفيف ذو طوائف حوشب

وهذه القصيدة اقرب الى الرثاء منها الى النسيب .. وهي لا تختلف عن قول أبي ذؤيب في عينيته المعروفة في رثاء أبنائه[٤٠] :

فلئن بهم فجع الزمان وريبه　　إني بأهل مودتي لمفجّع
والدهر لا يبقى على حدثانه　　في رأس شاهقة أعزّ ممنّع
والدهر لا يبقى على حدثانه　　جون السراة له جدائد أربع

---

(٣٧) شرح ديوان حسان ص ٣٦ .
(٣٨) ديوان الهذليين ٦٠/١ .
(٣٩) ديوان الهذليين ١٨٣/١ .
(٤٠) ديوان الهذليين ٤/١

وسنفصل القول في هذا الاسلوب القصصي فيما بعد .

وما وصلنا من رثاء الجاهلية يمثل اتجاهين رئيسيين ، اولهمـــا تهويل الشاعر في تصوير احزانه وعظم رزيته وتفرّدها . والآخر محاولته أن يتأسى بأن من فقده واحد من البشر أو الاحياء الذين كتب عليهم هذا المصير .

ويدفع الشاعر الى المبالغة في تأبين الميت واظهار الجزع عليه بالاضافة الى حزنه وألمه شعوره بان ذلك واجبه المتوقع منه .. يقول جبار بن سلمى[٤١]:

وما للعـــين لا تبكي بجيرا ولو أني نعيت لـــه بكاني

وتقول الخنساء[٤٢] :

ومالي لا ابكي على من لو انه تقدمَ يومي قبله لبكى ليـــا

ويقول كعب الغنوى[٤٣] :

فأبليت خيرا في الحياة وانمـــا ثوابك عندى اليوم أن ينطق الشعر

والناس من حول الشاعر يطالبونه بهذا الواجب ، يقول أبو ســمّال الاسدى[٤٤] :

يعيّرني الاقوام بالصبر بعـــده وليس لصدع في فؤادى شـــاعب

ويقول أبو خراش الهذلي[٤٥] :

ولا تحسبي اني تناسيت عهده ولكن صبرى يا أميم جميـــل

---

(٤١) المؤتلف والمختلف ص ٩٩ . وهو صحابي وهو قاتل عامر بن فهيرة يوم بئر معونة . رضي‌الله عنهما : اسد الغابة ٢٦٥/١ .

(٤٢) انيس الجلساء ص ٨٩ .

(٤٣) شعراء النصرانية ٧٥٠/٥ .

(٤٤) المؤتلف والمختلف ص ١٣٧ ، ونقل كرنكو عن التاج انه كان في الردة مع طليحة .

(٤٥) ديوان الهذليين ١١٦/٢ . يرثي اخاه عروة ، وفي الاصابة انه قتل في الجاهلية : ١٥٢/٢ .

ويقول دريد بن الصمة[٤٦] :

تقول الا تبكي أخاك وقد أرى   سكان البكا لكن بنيت على الصبر

ويقول سلمة بن يزيد الحارثي[٤٧] :

أقول لنفسي في الخلاء ألومها   لك الويل ما هذا التجمّل والصبر
الا تفهمين الخير أن لست لاقيا   أخي اذ اتى من دون أكفانه ار .
وكنت اذا ينأى به بين ليلة   يظل على الاحشاء من بينه الجمر
فهذا لبين قد علمنا أيابه   فكيف لبين كان موعده الحشر

ويقول ابو عداس النميرى مبّررا ما يظهر من جلد وصبر[٤٨] :

أعدّاس هل يأتيك عنّي أنه   تغيّر خِلاّن فطال شحوب
أعدّاس ما أدراك أن ربّ هالك   تقطّعُ من وجد عليه قلوب
تخطيته من أن ارى باكيا له   فيشمت عاد أو يساء حبيب

ومثله قول أبي ذؤيب[٤٩] :

وتجلّدى للشامتين أريهم   أني لريب الدهر لا أتضعضع

---

(٤٦) الاغاني « الدار » : ١٠/٥ . شرح الحماسة للتبريزي ٨٥٩/٢ .

(٤٧) امالي القالي ٧٣/٢ ، التنبيه ص ٩٧ ، اللآليء ٧٠٧/٢ . ويذكر البكرى ان الخنساء كانت تنشد هذا الشعر في الاسلام كأنه يشير الى انه شعر جاهلي . ويؤيد ذلك ان الميمني يذكر ان اسلام اخي الشاعر ليس ثابتا .. وفي حماسة البحتري ص ٤٣١ ان الشعر لليلى بنت سلمة ترثي اخاها : وانظر شرح الحماسة للمرزوقي ١٠٨٠/٣ .

(٤٨) المؤتلف والمختلف ص ١٦٢ وكان كسرى حبس ابنه فظن انه قتل .

(٤٩) ديوان الهذليين ٣/١ .

ومعاني التأبين معروفة ، وهي نفسها معاني الفخر والمدح وتؤول الى المثل الاعلى الجاهلي للرجل ، ويندر ان يذكر الشاعر أخطاء المرثي أو ينتقده ... ومن ذلك قول قيس بن زهير[٥٠] :

تعلّم أن خير الناس ميت ... على جفر الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكي ... عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتي حملَ بن بدر ... بغى والبغي مرتعه وخيم

ويقول ذو الاصبع في رثاء عدوان[٥١] :

ويا بؤس للايام والدهر هالكا ... وصرفُ الليالي يختلفن كذلكا
أبعد بني ناج وسعيك فيهم ... فلا تتبعن عينيك ما كان هالكا
اذا قلت معروفا لأصلح بينهم ... يقول مرير لا احاول ذلكا
فأضحوا كظهر العود جُبّ سنامه ... يدب الى الاعداء أحدب باركا
فان تك عَدوان بنُ عمرو تفرقت ... فقد غنيت دهرا ملوكا هنالكا

ويقول ايضا[٥٢] :

عذير الحي من عَدوا ... نَ كانوا حيّة الأرض
بغى بعضهم بعضا ... فلم يُرعوا على بعض
ومنهم كانت السادا ... ت والموفون بالقرض

ويهوّل الشاعر في الذي اصابه فيقول انه لا يكترث لما يحدث بعد ذلك ، يقول أوس بن حجر[٥٣] :

أيتها النفس أَجملي جزعا ... إنّ الذى تحذرين قد وقعا

---

(٥٠) النقائض ٩٦/١ . وتخريجها في اللآلىء ٥٨١/١ .
(٥١) الاغاني « الدار » ١٠٤/٢ . وانظر في عدد عدوان ثم تفانيها . الاغاني : ٩١/٣ ، ١٠٣ .
(٥٢) الاغاني « الدار » ١٠٦/٣ ، الاصمعيات رقم ١٨ ص ٦٨ .
(٥٣) ديوان اوس رقم ٢٦ ص ٥٣ .

ويقول تأبط شرا[٥٤] :

أبعد قتيل العوص آسى على فتى وصاحبه أو يأملُ الزاد طارق

وتقول الخرنق[٥٥] :

الا آليت آسى بعد بشر على حيّ يموت ولا صديق

وتقول الخنساء[٥٦] :

فشأنَ المنايا إذ اصابك ريبها لتغد على الفتيان بعدك او تسر

وتقول :

فشأنَ المنايا بالاقارب بعده لتعلل عليهم علّة بعد ناهل

ويقول غوية بن سلمي[٥٨] :

كلٌ ميت قد اغتفرت فلا أجـ ـزع والد ولا مولود
غير أنّ اللجلاج هدّ جناحي يوم فارقته بأعلى الصعيد

ويقول غوية بن سلمّي[٥٨] :

ألا نادت أميمة باحتمال لتـحْزنني فلا بك ما أبالي
فسيرى ما بدالك أو أقيمي فأيا ما أتيت فعن تقالي
وكيف تروعني امرأة ببين حياتي بعد فارس ذى طِلال

---

(٥٤) الاغاني « الساسي » : ٢١٤/١٨ .
(٥٥) ديوان الخرنق ص ٨ .
(٥٦) انيس الجلساء ص ٢٩ ، ٦٩ .
(٥٧) شعر ابي زبيد رقم ٢٩ ص ٤٣ .
(٥٨) شرح الحماسة « التبريزي » ٣/٣٠ .

وينحدر من هذه الفكرة القول بأن الزمن ليس عــادلا ، فهو يذهب بأحاسن الناس وافاضلهم تاركا شرارهم •• وقد يتأذى الشاعر بالعيش مـع هؤلاء الباقين أو ينصــرف الى ذمهم وتصوير ســوء أخــلاقهم • تقــول الخنساء(٥٩) :

ان الزمان ومـــا يفنى له عجب   أبقى لنا ذنبا واستؤصل الراسُ

ويقول الاسود بن زمعة(٦٠) :

الا قد ســاد بعدهم رجال   ولولا يومُ بدر لم يسودوا

ويقول عبّاد بن عبد عمرو الذهلي(٦١) :

أخليد اني قد فقدت معاشــرى   وبقيت في خلــف مــن الجنّاب
لا ينفعــون ولا تزال غريبــة   شنعاء بينهــم من الالقــاب
واذا لقيتهـــم فشرّ معاشـــر   واذا قعدت رميت بالأَذراب

ويقول احيحة بن الجلاح(٦٢) :

مضوا قصد السبيل وخلفوني   الى خَلَف مـــن الابرام خلفي
ســـدى لا يكتفون ولا أراهم   يصونون امرءا ان كان يكفي

ويقول لبيد(٦٣) :

قضّ اللبانة لا أبالك واذهب   والحق بأسرتك الكرام الغيّب
ذهب الذين يعاش في اكنافهم   وبقيت في خلف كجلد الاجرب

---

(٥٩) انيس الجلساء ص ٥١ .
(٦٠) اللآلي ١/٦٠٢ .
(٦١) المؤتلف والمختلف ص ٩٠ . ولم يذكر الامدى زمنه ، ولكن اسم ابيه الذي بقي على صيغته الجاهلية يدل على ان الشاعر ادرك الجاهلية .
(٦٢) الاغاني « الدار » ١٥/٤٣ .
(٦٣) شرح ديوان لبيد رقم ١٧ ص ١٥٣ .

يتآكلون مغـــالـة وخيـانـة ويعاب قائلُهم وان لم يَشْغَب
يا أربـدَ الخيرِ الكريمَ جدوده خلّيتني أمشي بقرن أعضـــب

ويقول الحارث بن حلّزة(٦٤) :

من حاكم بيني وبين الدهر مال عليّ عمـــدا
أودى بسادتنا وقـــد تركوا لنا حلقـــا وجردا
خيلي وفارسُها وحقٌ ابيك كان أعزٌ فقـــدا
فلو ان ما يأوي ِ اليّ أصـاب مـن شـهلان هـدّا
فضعي قناعك انّ ريب الدهر قد افنى معدّا
فلكم رأيت معاشرا قد جمّعوا مالا ووُلـــدا
وهم رَباب حـــائر لا تســـمع الآذان رعـــدا
فعش بجدّك لا يضرك النوك ما لاقيت جدّا
والعيش خير في ظـــلال النوك ممن عاش كدّا

وتقول شاعرة الحماسة(٦٥) :

وقـــالوا ماجداً منكم قتلنـــا كذاك الرمح يكلَف بالكريم
بعين أُباغَ قاســـمنا المنـــايا فكان قسيمها خير القســـيم

(٦٤) الاغاني « الدار » ٤٩/١١ عن النظر بن شميل ، الوحشيات ص ١٦٢ .

(٦٥) شرح الحماسة « التبريزي » : ١٧٩/٢ . وعـين اباغ موضـع يـوم للغساسنة والمناذرة انظر ايام العرب في الجاهلية ص ٥١ ، وقائـل البيتين في قول البكري رجل شيباني وحقق الميمني انهما لفروة بنت مسعود ، اللآليء ٧٦٢/٢ . وانشد التبريزي بعد البيتين بدون عزو:

اذا ما المنايـا قاسـمت يا ابـن مســـحل
اخا واحدا لـم يعط نصفا قسيمهـــا
فآب بلا قســـم وآبت بقســـــمه
الى قســـمها لاقت قسيما يضيمهـــا

وتقول الخنساء[٦٦] :

ما لذا الموت ما يزال مخيفا | كلّ يوم ينال منّا شريفا
مولعا بالسَّراة منّا فما يـأ | خذ الا" المهذّب الغطريفا
فلو ان المنون تعدِل فينا | فتنال الشريف والمشروفا
كان في الحق أن يعود لنا المو | ت والا" نسومه تسويفا
أيها الموت لو تجافيت عن صخـ | ـر لألفيته نقيّا عفيفا

ويدير زهير هذا الجدل نفسه مع الدهر ، فيقول[٦٧] :

فاستأثر الدهر الغداة بهم | والدهر يرميني ولا أرمي
لو كان لي قرنا أنازله | ما طاش عند حفيظة سهمي
أو كان يعطي النَّصف قلت له | أحرزت قِسمك فاله عن قِسمي
يا دهر قد أكثرت فجعتنا | بسراتنا وقرعت في العظم
وسلبتنا ما لست معقبه | يا دهر ما انصفت في الحكم

ويصبح طعم الحياة مر"ا عند الشاعر .. ويحس أن من العدل ان يحرم نفسه من المتع التي حرم منها الميت ، ولعل نذرهم أن لا يشربوا ولا يغتسلوا ولا يدّهنوا ولا يقربوا نساءهم على صلة بهذا المعنى .... يقول طفيل الغنوى[٦٨] :

ندامای قد اضحوا تخلّيت منهم | فكيف الذ الخمر أم كيف أشرب

ويقول عدى بن ربيعة[٦٩] :

ما أرجّي في العيش بعد ندامى | تد أراهم سقوا بكأس حَلاق

---

(٦٦) انيس الجلساء : ص ٥٨ .
(٦٧) شرح ديوان زهير ص ٣٨٢ .
(٦٨) ديوان طفيل ص ١٨ .
(٦٩) معجم الشعراء ص ٢٤٨ ؛ اخبار المراقسة واشعارهم ص ١٠ .

وتقول الخنساء[٧٠] :

أقول أبا حسانَ لا العيشُ طيب   وكيف وقــد أفردت منـك بطيب

وتقـــول :

فاصبحت لا التـذ بعــدك نعمة   حياتي ولا ابكي لدعوة ثاكـــل

ويقول كعب الغنوى[٧١] :

أتى دون حلو العيش حتى أمّره   نكـــوب على آثارهنّ نكوب

ويقول أبو خراش الهذلي[٧٢] :

فلست بناسيه وان طــال عهــده   وما بعده للعيش عندى من طعم

وقريب من ذلك دعاء النابغة على الناس بأن لا يهنأوا بما يملكون من النعم .. يقول النابغة[٧٣] :

لا يهنىء الناس ما يرعون من كـلا   وما يسوقون من اهــل ومن مال

بعد ابن عاتكةَ الثاوى عــلى أبوى   أمســـى ببلدةِ لاعمَّ ولا خال

وثمة معنى يكثر ايرادهم له ، ولكنني لم استطع أن اضعه في موضـع واضح بين معاني الرثاء .. وذلك هو مقارنتهم بين ما فقدوه من الاحبة وبين الخسارة المالية ممثلة في الابل ، يقول دريد بن الصمة[٧٤] :

أعاذل ان الرزء امثـالُ خـــالد   ولا رزءَ ممّا أهلك المرء عن يد

---

(٧٠) انيس الجلساء ص ٥ ، ٦٩ .

(٧١) الاصمعيات رقم ٢٦ ص ١٠١ .

(٧٢) ديوان الهذليين ١٥٣/٢ .

(٧٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٩٠١/٢ ، الحماسة البصرية ٢٣٠/١ وهي في ديوانه طبعة بيروت ص ١١٤ . عن ابن الاعرابي وأبي عبيدة .

(٧٤) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١١ .

ويقول الاسود بن زمعة[٧٥] :

أتبكي أن يضـــل لهـــا بعير ... ويمنعهـــا من النوم السهود

فـــلا تبكي على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجـــدود

ويقول الاجدع الهمداني[٧٦] :

أسالتني بنجائب ورحالهـــــا ... ونسيت قتل فوارس الأرباع

وبني الحصين ألم يرعك نعيّهم ... أهلِ اللواء وســـادةِ المرباع

تلك الرزيةُ لا قلائص أسـلمت ... برحالهـا مشـدودةَ الانساع

ويقول النابغة الجعدى[٧٧] :

تلوم على هـُلك البعـــير ظعينتي ... وكنت على لوم العواذل زاريـا

ألم تعلمي أنـي رزئت محاربا ... فمالك منه اليوم شيء ولا ليا

ويقول أبو دواد الايادى[٧٨] :

لا اعد الأقتار عـــدما ولكن ... فقد من قد رزئتـــه الاعـــدام

ويقول ابو زبيد[٧٩] :

ان الرزية لاناب مصرّمة ... قرمٌ تنضّله من حاصن عمر

---

(٧٥) اللآلىء ٦٠٣/١ ـ ٦٠٤ .

(٧٦) الاصمعيات رقم ١٦ ص ٦٤ .

(٧٧) شعر النابغة الجعدي ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٧٨) دراسات في الادب العربي رقم ٦٠ ص ٣٣٦

(٧٩) شعر ابي زبيد رقم ١٥ ص ٦٨ يرثي عبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

وتفهم من ابيات لحزّاز بن عمرو أنه شرب خمرا ببعير فليم على ذلك •• فقال[٨٠] :

تبكي على بكر شربت به	سفها تبكّيها على بكر
هلاّ على زيد الفوارس زيـ	ـد اللات أو هلاّ على عمرو
تبكين لارقأت دموعك أو	هلاّ على سلَفي بني نصر
خلّوا عليّ الدهر بعدهم	فبقيت كالمنصوب للدهر
ان الرزيةَ ما أولاك اذا	هرّ المخالع أقدحَ اليَسْر

ولا يمكن ان نطمئن الى ان هذا المعنى ـ أي انفاق المال على الخمر حزنا على الميت ـ هو المقصود فيما قدّمنا من شعر •• وكذلك لا نستطيع ان نقول ان المال يرتفع في قيمته عندهم حتى يقارنوا بين انفاقه وموت أحبّائهم •• وربما كانوا يعبّرون عن قلة اهتمامهم بعد المرثي بالمال •• ويكون هذا البعير الواحد الذى يكثرون من ذكره رمزا للمال •

والجاهلي مطالب بأن يكون قويا جلدا •• وكذلك فان الحياة لا يمكن أن تتف لموت احد •• ومهما يكن من عظم الفقد فان على الشاعر أن يمضي في حياته ؛ وهي في ذلك كالموت قدر مرسوم للانسان •• وهذا يدفع الشاعر الى تلمس ما يعزّيه ويخفف عنه آلامه واحزانه •• وفكرته الاساسية هنا ان الموت حتم لابد منه ولا جدوى من أية محاولة للتغلب عليه •• وقد عبّروا عن هذه الفكرة باشكال مختلفة •• منها قولهم في رثاء اخوانهم أنّ كلّ الاخوان سيتفرقون يوما من الايام •• يقول متمّم[٨١] :

أقول لها لما نهتني عن البكا	أفي مالك تنهينني أم خالد
فان كان أخواني اصيبوا أو اخطأت	بني امك اليوم الحتوف الرواصد
فكلّ بني أم سيمسون ليلة	ولم يبق من أعيانهم غير واحد

---

(٨٠) شرح الحماسة للتبريزي ٣/٣٣ وهي في رثاء زيد الفوارس الضبي .

(٨١) الاغاني « الدار » ١٥/٣١١ .

ويقول عمرو بن معد يكرب[٨٢] :

وكـــل أخ مفارقه أخـــوه   لعمرُ أبيـك الاّ الفرقدان

ويقول لبيد[٨٣] :

فهل نبئت عن اخوين دامـــا   على الايام الاّ ابني شمّام

والاّ الفرقدين وآل نَعشٍ   خوالدَ ما تحدَّث بانهـدام

ويقول أبو خراش[٨٤] :

ألم تعلمي أن قد تفرّق قبلنـــا   خليلا صفاء مالك وعقيـــــل

ويقول لبيد[٨٥] :

كـــل بني حـــرّة مصـــيرهم   قلّ وان أكثرت من العـــــدد

ان يُغبَطوا يُهْبَطوا وان أُمِرُوا   يوما يصيروا للهلك والنكـــد

ويقول كعب بن زهير[٨٦] :

فلا تسأل ستثكـــل كلّ أم   اذا ما اخوة كثـــرُوا وطابوا

وقد يتأسى الشـــاعر بأنه هو نفسه ســيلحق بالمرثي يقول دريد بن الصمة[٨٧] :

وهوّن وجدى أنّما هو فارط   أمامي وأني وارد اليومِ أوغدِ

---

(٨٢) الكامل للمبرد ١٢٤٠/٣ . وقد شرح الفكرة وانشد امثلة اخرى . وهو يذكر ان عمرا قال هذا الشعر قبل ان يسلم .

(٨٣) شرح ديوان لبيد رقم ٢٧ ص ٢٠٨ .

(٨٤) ديوان الهذليين ١١٦/٢ .

(٨٥) شرح ديوان لبيد ١٨ ص ١٦٠ .

(٨٦) شرح ديوان كعب ص ٢٤٩ .

(٨٧) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١٥ .

ويقول سلمة بن يزيد[88] :

وهونّ وجدى أنني سوف اغتدى ... على إثره حقا وان نفّس العمر

ويقول كعب الغنوى[89] :

غنينا بخير حقبة ثـــم جلّحت ... علينا التي كلٌ الرجـــال تصيب
فابقت قليلا ذاهبـــا وتجهّـــزت ... لآخر والراجي الحياة كـــذوب
وأعلم أن الباقي الحيّ منهمــــا ... الى أجل اقصى مــــداه قريب

وقد تكون الاسوة بالجماعة .. وهنا يفترق الطريق بالشاعر ؛ فهو اما أن يختار السادة والعظماء الماضين والملوك المعمّرين المشاهير ليعتذربعجزهم أمام القدر عن عجزه .. وأما ان يطلق لفكره العنان ليعي حقيقة الفنـــاء المطلقة .. يقول متمم ـ وهو يختار جماعة من قومه يتأسى بهم[90] :

لعمرى وما دهرى بتأبين هالك ... ولا جزعٍ والمـوت يذهب بالفتى
لئن مـــالك خلّـــى عليّ مكانه ... ففي اسوة ان كنت باغية الاســى
كهولٌ ومرد من بني عمّ مـــالك ... وأيفاع صدق قد تمليّتهم رضى
سقوا بالعقار الصرف حتى تتابعوا ... كدأب ثمود اذ رغا سقبهم ضحى

ويقول لبيد معددا سادة قومه[91] :

فاما تريني اليوم عندك سـالما ... فلست باحيا من كلاب وجعفر
ولا من ابي جَزء وجارى حَمُومَةٍ ... قتيلهمـــا والشـــارب المتقطّـــر
ولا الاحوصين في ليال تتابعـــا ... ولا صاحب البرّاض غيرِ المغسّر
ولا من ربيع المقترين رزيتـــه ... بذى عَلَق فاقني حياءك واصبرى

---

(88) امالي القالي ٧٣/٢ . وانظر الهامش ٤٧ من هذا الفصل .
(89) الاصمعيات رقم ٢٦ ص ١٠٢ .
(90) الكامل للمبرد ١٢٤٣/٣ .
(91) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٤٧ .

ومثله قول الاسود بن يعفر[٩٢] :

فان يك يومي قد دنا وإخالــه — كواردة يوما على غير منهــل
طباها الخلاء والضحّاء واقبلت — الى مستتبٍّ كالمجرّة مُعْمَــل
فقبلي مات الخالدان كلاهمــا — عميدُ بني جحوانَ وابنُ المضلــل
وعمروُ بن مسعود وقيسُ بن خالد — وفارسُ رأس العين سلمى بنُ جندلِ

ومن الاسوة بالناس جميعا قول لبيد[٩٣] :

ما ان تعرّى المنون من احــد — لا والدٍ مشفقٍ ولا ولـــد

وقول بشر بن أبي خازم[٩٤] :

هل لعيش اذا مضـــى لزوال — من رجوع أم هــل مثمّرٍ مال
ما رأيت المنون عرّين حيّـا — لا لعـــدم ولا لكثرة مال

ويقول اعشى تميم[٩٥] :

أرى الايــام لا تبقي عـــزيزا — لعزّتــه ولا تبقي ذليـــلا
ولا تبقي مـــن الثقلين طرا — ولا تبقى الحزون ولا السهولا

وبهذا الشمول في الفكر سمّوا الموت بالحق .. يقول النمر بن تولب :

ألم تر أن جمرة جاء منهـــا — بيان الحق لو نفع الكـــلام

---

(٩٢) الصبح المنير ص ٣٠٦ .

(٩٣) شرح ديوان لبيد رقم ١٨ ص ١٥٨ .

(٩٤) ديوان بشر رقم ٣٦ ص ١٧٠ .

(٩٥) الصبح المنير ص ٢٧٣ . وله في المؤتلف والمختلف شعر يقوله في رثاء بعض قتلى بدر ص ٢٠

ويقول الافوه الاودى[٩٦] :

فرمّوا لــه أثوابَــه وتفجّعوا ورنّ مرنّــات وثــار به النفر
الى حفرة يأوي اليها بسعيــه فذلك بيت الحق لا الصوف والشعر

وتقول الخنساء[٩٧] :

كذّبت بالحــق وقــد رابني حتى علت أبياتَنا الواعيــه

وبهذا الشمول اعتبروا الموت سبيلا قاصدا وتأسوا بان المرثي كان سالك هذا السبيل لا محالة .. وانه سلك سبيلا يسلكه كل الناس ، يقول أحيحة ابن الجلاح[٩٨] :

مضوا قصدَ السبيل وخلّفـوني الى خلف من الابــرام خلفي

ويقول طفيل الغنوى[٩٩] :

مضوا سلفا قصــدُ السبيلِ عليهم وصرف المنايا بالرجـــال تقلّب

ويقول لبيد[١٠٠] :

مضوا سلفا قصدُ السبيلِ عليهم بَهِيٌّ من السلاّفِ ليس بحَيْدَرِ

ويقول الاسود بن يعفر[١٠١] :

مضــوا لسبيلهم وبقيت وحدى وقــد يغني رَباعَتَه الوليــد

---

(٩٦) الطرائف الادبية ص ١٥ . الاغاني « الساسي » ١٦٠/١٩ في امرأتــه السبية الاسدية .

(٩٧) انيس الجلساء ص ٩٠ .

(٩٨) الاغاني « الدار » ٤٣/١٥ .

(٩٩) ديوان طفيل ص ١٧ .

(١٠٠) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٥٤ .

(١٠١) الصبح المنير ٢٩٥ .

ويقول[١٠٢] :

ولقد علمت سوى الذى نبأتني   أن السبيلَ سبيلُ ذي الاعواد

ويقول اعشى باهلة[١٠٣] :

إمّا سلكت سبيلا كنت سالكهـــا   فاذهب فلا يبعدنك الله منتشـــر

ويقول متمم[١٠٤] :

ذهبوا فلـــم ادركهـــم ودعتهم   غُول أتوها والطريق المِهْيَـــع

وقد يقلّب الشاعر نظره في الحياة من حوله فيجد صورة من الفناء في كل شيء • يقول عبيد بن الابرص[١٠٥] :

ان يك حوّل عنهـــا أهلهـا   فـــلا بـــدىء ولا عجيب

أويك أقفر منها جوّهـــــا   وعادها المحـل والجـدوب

فكلّ ذى نعمة مخلوسهـــا   وكلّ ذى أمـــل مكذوب

وكلّ ذى ابل موروثهــــا   وكلّ ذى ســـلب مسلوب

وكـــلّ ذى غيبـــة يؤوب   وغـــائب الموت لا يؤوب

وتقول الخنساء[١٠٦] :

كل امرىء بأثافي الشـــر مرجـوم   وكل بيت طويل السمك مهـــدوم

لا سوقة منهم يبقى ولا ملك   ممن تَمَلّكـــه الاحرارُ والروم

ان الحوادث لا يبقـــى لنائبهـــا   الا الالهُ وراسي الأصل معلوم

---

(١٠٢) المفضليات رقم ٤٤ ص ٢١٦ .

(١٠٣) الاصمعيات رقم ٢٤ ص ٩٣ .

(١٠٤) المفضليات رقم ٩ ص ٥٤ .

(١٠٥) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١٣ .

(١٠٦) انيس الجلساء ص ٧٩ .

ويقف الشاعر متأملا محاولة الانسان أن يفسّر الموت وان يتصرّف كما لو كان يفهم حقيقته •• فيسخر من ذلك كله ••

سخر الشعراء من قول اهل الجاهلية للميت : لا تبعد •• وذلك بأن يوردوا العبارة ثم ينقضوها •• أو بأن يشيروا الى بعد الميت، ونأيه •• ويذكر صنيعهم هذا يقول مالك بن الريب(١٠٧) :

يقولون لا تبعـــد وهـم يدفنونني   وأين مكان البعد الا ّ مكانيا ••

ويقول في ذلك النمر بن تولب من رثائه لزوجه(١٠٨) :

فلا تبعُد ـ وقد بعُدت ـ واجرى   عـــلى جـــدث تضمنهـــا الغمام

وتقول فاطمة بنت الاحجم الخزاعية(١٠٩) :

إخوتي لا تبعـُـــدوا ابدا   وبـــــلى ـ والله ـ قــد بعـُدوا

ويقول قيس بن الخطيم(١١٠) :

فلا يبعدنك الله عبدَ بن ناقـذ   ومن يعله ركن من الترب يبعـُدِ

ويقول غويّة الضبّي(١١١) :

أأبي لا تبعـُد وليس بخالـــد   حيّ ومن تصب المنون بعيد

---

(١٠٧) ذيل أمالي القالي ص ١٣٧ .

(١٠٨) الاغاني « الساسي » ١٦٠/١٩ .

(١٠٩) شرح الحماسة « للمرزوقي » ٩١٢/٢ ، الاغاني « الدار » ٣١٦/١٠ .

(١١٠) ديوان قيس بن الخطيم رقم ٦ ص ٤٧ .

(١١١) معجم الشعراء ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

ومن اشارتهم الى بعد الميت على سبيل الرفض غير المباشر لعبارة لا تبعد قول النابغة(١١٢) :

حسب الخليلين نأي الارض بينهما هذا عليها وهذا تحتها بالي

وقول بشر بن أبي خازم في رثاء نفسه(١١٣) :

ثوى في ملحد لابدّ منه كفى بالموت نأيا واغترابا

وقول النمر بن تولب(١١٤) :

اعاذل ان يصبح صداى بقفرة بعيدا نأى بي صاحبي وقريبي
تري أنّ ما أبقيت لم أك ربّه وان الذى انفقت كان نصيبي

ويقول متمم(١١٥) :

تحيته منّي وان كان نائيا وأمسى ترابا فوقه الارض بلقعا

وسخروا مما يؤبنون به ومما يصطنع لهم من جهاز وغسل ودفن ونحوه .. ومن أروع ما قالوا من ذلك قول الافوه الاودى(١١٦) :

الا علّلاني واعلما أنّني غرر وما خلت يشفيني الشّناق ولاالحذر
وما خلت يجديني أ ساتي وقد بدت مفاصل أوصالي وقد شخص البصر
وجاء نساء الحي من غير إمرة زفيفا كما زَفّت الى العطن البقر
وجاءوا بماء بارد وبغسلة فيالك من غُسل سيتبعه عبر
فنائحة" تبكي وللنوح درسة وأمر لها يبدو وأمر لها يسر

---

(١١٢) شرح الحماسة للمرزوقي ٩٠١/٢ . وانظر الهامش ٧٣ من هذا الفصل
(١١٣) ديوان بشر رقم ٥ ص ٢٤ .
(١١٤) طبقات ابن سلام ص ١٣٥ ، الاغاني « الساسي »١٩/١٦١ .
(١١٥) المفضليات رقم ٦٧ ص ٢٦٨ .
(١١٦) الطرائف الادبية ص ١٥ .

ومنهن من قد شقّق الخمش وجهها مسلّبة قد مسّ احشاءها العبر
فرمّوا له أثوابــه وتفجّعــوا ورن مرنّات وثار بــه النفر
الى حفرة يأوي اليهــا بسعيــه فذلك بيت الحق لا الصوف والشعر
وهالوا عليه الترب رطبــا ويابسا الا كلّ شيء ما سـوى ذاك يجتبر
وقال الذين قد شجوت وسـاءهم مكاني ومـا يغني التأمل والنظر
قفوا ساعة فاستمتعوا من اخيكم بقرب وذكر صـالح حين يدّكر

والشاعر لا يكاد يغادر شيئا مما يودع به الميت دون أن يشكك فيه .. فلا الشفاق ولا الحذر ولا الاسى بنافع شيئا .. والغسل ليس له مبرر حين يذكر ما سيصير اليه من بعده .. وحزن نسائه عليه مدخول يخفى امرا .. وهو دارس مع ذلك لا محالة .. وذكر الصـديق الذى ساءه أن يموت الشاعر لا يغني شيئا ولا يردّ ذاهبا .. والحقيقة في الامر كله انه سيأوى الى حفرته بسعيه وحده .. وانه سيهال عليه التراب .. وهو أمر لا يخفف ولا يجتبر .

ويقول الاسود بن يعفر ساخرا مما سيؤبّن به(١١٧) :

نفع قليل اذا نادى الصدى أصلا وحان منـــه لبرد المـاء تغريد
وودّعوني وقالوا ساعـة انطلقوا أودى فأودى الندى والحزم والجود
فما أبالي اذا ما مت مـــا صنعوا كلّ امرىء بسبيل الموت مرصـود

ويقول يزيد بن خذاق في مثل ذلك(١١٨) :

هل للفتى من بنات الدهر من واق أم هل له من حمام الموت من راق
قد رجلّوني وما رجلت من شعث وألبسوني ثيابا غيـر اخـلاق
ورفّعوني وقـالوا أيمّـا رجل وأدرجوني كأني طـيّ مِخْراق

(١١٧) الصبح المنير ص ٢٩٥ .

(١١٨) المفضليات رقم ٨٠ ص ٢٩٩ وهي هنا للمزق العبدي . وفي الشعر والشعراء ٣٠٢/١ ذكر انها لابن خذاق وروى البيت الخامس فيها .

وأرسلوا فتيةً من خيرهم حسبا ليسندوا في صريح الترب أطباقي
وقسموا المال وارفضت عوائدهم وقال قائلهم مات ابن خذاق
هوّن عليك ولا تولع باشفاق فانما مالنا للوارث الباقي

ومن الملاحظ أن مثل هذه الافكار يكثر ورودها في رثاء النفس وتمازجها كما هو واضح مخاوف الانسانية الخالدة من الموت ومما يأتي بعده .. ومثال ذلك الخوف من الدفن ومن الوحدة والظلام .. ومن السباع والذئاب والضباع التي تعبث بقبر الميت وجثمانه .. يقول عبيد(١١٩) :

أشرى التلاد بحمد المال أبذله حتى أصير رميما تحت الواح
بعد انتقال اذا وسّدت حَنْحَنَةً في قعر مظلمة الارجاء مكلاح
أو صرت ذا بومة في رأس رابية أو في قرار من الأَرْضِين قِرواح

ويقول افنون التغلبي(١٢٠) :

كفى حزنا ان يرحل الحي غدوة وأصبح في اعلى إلاهة ثاويا

ويقول أبو الطمحان القيني(١٢١) :

ألا علّلاني قبل نوح النوائح وقبل ارتقاء النفس بين الجوانح
وبعد غد يالهف نفسي على غد اذا راح اصحابي ولست برائح
اذا راح أصحابي تفيض دموعهم وغودرت في لحد عليّ صفائحي
يقولون هل اصلحتم لأخيكم وما اللحد في الارض الفضاءبصالح

---

(١١٩) ديوان عبيد رقم ١٢ ص ٤٠ .

(١٢٠) المفضليات رقم ٦٥ ص ٢٦١ .

(١٢١) الحماسة البصرية ٢٨١/١ .. والشاعر اما جاهلي او مخضرم الاصابة ٦٦/٢ . الشعر والشعراء ٣٠٤/١ . ومما يؤكد جاهليته ما رواه ابو الفرج في الاغاني « الدار » ١٥١/١١ من أن قيس بن زهير تمثل ببعض شعره يوم جبلة . وفي الحيوان ٣٨٠/١ انه مدح مالك بن حمار الشمخي وهو الذيقتله خفاف بن ندبة يوم قتلمعاوية اخي الخنساء.

ويقول قران الضبّي[122] :

الا ليت شعرى ما يقول مخارق   اذا جاوب الهام المصيّح حامتي
ودلّيت في غبراء يسفي ترابها   عليّ طويلا في ثراها اقامتي

ويقول أبو ذؤيب الهذلي[123] :

أعاذل أبقى للملامة حظّها   اذا راح عنّي بالجلية عائدى
فقالوا تركناه تزلزل نفسه   اذا أسندوني أو كذا غير مسند
وقام بناتي بالنعال حواسرا   وألصقن ضرب السبت تحت القلائد
يودّون لو يفدونني بنفوسهم   ومثنى الأواقي والقيان النواهد
وقد ارسلوا فرّاطهم فتأثلوا   قليبا سفاها كالاماء القواعد
مطأطأةً لم ينبطوها وانها   ليرضى بها فرّاطها أمّ واحد
قضوا ما قضوا من رمها ثم اقبلوا   اليّ بطاء المشي غبر السواعد
يقولون لمّا جشّت البئر أوردوا   وليس بها ادنى ذفاف لوارد
فكنت ذنوب البئر لمّا تبسّلت   وسربلت أكفاني ووسّدت ساعدى
أعاذل لا اهلاكُ مالي ضرّني   ولا وارثي ان ثُمّر المال حامدى

والشاعر ـ كما نرى ـ لا يكاد يترك من تفاصيل موته شيئا مما ينم عن اطالة الفكرة وحضور الصورة في ذهنه . اما تشبيهه القبر بالقليب فهو من تشبيهاتهم المعروفة في شعرهم ، يقول النمر بن تولب[124] :

وذى ابل يسعى ويحسبها له   أخي نصب في رعيها ودؤوب
غدت وغدا ربّ سواه يسوقها   وبدّل أحجارا وجال قليب

---

(١٢٢) معجم الشعراء ص ٣٢٧ .
(١٢٣) ديوان الهذليين ١٢١/١ .
(١٢٤) الحماسة البصرية ٦٥/٢ .

وتقول ضباعة بنت قرط في رثاء هشام بن المغيرة المخزومي(١٢٥) :

تفـــاقدوا من معشـــــر مالهم ... أيّ ذَنوب صوّبوا في القليب

ويقول حاتم الطائي(١٢٦) :

أما ويّ ما يغني الثراء عن الفتى ... اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
اذا انـــا دلاّني الذين احبهم ... لملحودة زلج جوانبهـــا غبـــر
وراحوا عجالا ينفضـون اكفهم ... يقولون قـد دمّى أناملنا الحفر

ومن خوفهم من عبث الحيوان باجسادهم قول المشعّث العامرى(١٢٧):
وينسب في اللسان لمثقب •

باصر يتُركني الحـــيّ يومـــا ... رهينةَ دارهـــم وهم ســـراع
تمتّع يا مشعّث إنّ شـــيئا ... سبقت به الوفاة هـو المتـــاع
وجاءت جيأل وأبـــو بنيهـــا ... أحمّ المأقيين بـــه خُمـــاع
فظلاّ ينبشـــان التـــرب عنّي ... ومـا أنا ويب غيرك والسباع

ويقول متمم(١٢٨) :

يالهفَ من عرفاءَ ذاتِ فليلـةٍ ... جاءت اليّ على ثلاث تخمـــع
ظلّت تراصدني وتنظر حولهـــا ... ويريبهـــا رمق وأني مطمـــع
وتظلّ تَنْشِطني وتلْحِم أجريا ... وسط العرين وليس حيّ يدفـع
لو كان سيفي باليمين ضربتهـــا ... عنى ولم أوكل وجنبي الاضـيع
ولقد ضربت به فتسقط ضـربتي ... أيدي الكماة كـأنهن الخِرْوَع
ذاك الضـياع فان حززت بمديـة ... كفّى فقـولي محسن ما يصـــنع

---

(١٢٥) العمدة ٢٧٨/١ . وهشام هو ابو ابي جهل .

(١٢٦) ديوان حاتم الطائي ص ٣٩ .

(١٢٧) الاصمعيات رقم ٤٨ ص ١٦٥ . وفي تفسير الطبري « بولاق » ٩٢/١٣، جاء في البيت الثاني سبقت به الممات . واظنه أصح .

(١٢٨) المفضليات رقم ٩ ص ٥٢ .

ويقول ساعدة بن جؤيه[129] :

وما يغني امرءا ولـــد أحمت منيّته ولا مــال أثيــل
ولو أمست له أُدْمٌ صــفايا تُقَرقِرُ فــي طوائنها النحول
مصعّدةٌ حواركَهــا تراهــا اذا تمشي يضيق بها المسيــل
اذا ما زار مجْنــأةً عليهــا تقال الصخر والخشب القطيــل
وغــودر ثاويــا وتأوّبتــه مذّرعةٌ أميــم لهــا فليــل
لهــا خُفــان قــد ثلبا ورأس كرأس العَوْد شــهبرة نئول
تبيت الليــل لا يخفى عليهــا حمار حيث جُرّ ولا قتيــل
كمشي الاقبل الساري عليهــا عِفــاء كالعبــاءة عَفشَليل
فذاحت بالوتــائر ثــم بدّت يديهــا عند جانبــه تهيــل
هنالك حين يتركــه ويغــدو سليبــا ليس في يده فتيــل

وللمرقّش الاكبر شعر يعبّر عن المخاوف نفسها ، وقد اعتبره القدماء وافعيا ، واخذوا منه نهاية قصة حياته وحبّه ، فقالوا : ان عسيفا له تركــه مريضا في غار وانه كتب أبياتا على رحله فعرفت أســرته او اسماء حبيبته الحقيقة وضربوا العبد حتى دلّهم عليه ، فاحتملوه وقد أكلت السباع انفه ،

يقول مرقّش[130] :

يا صاحبيّ تلوّما لا تعجــلا ان الرحيلَ رهينُ الاّ تَعذُلا
فلعلّ بطأكما يفرّط ســيئا أو يسبق الاسراع سيبا مقبلا
يا راكبــا امّا عرضــت فبلغن أنس بن سعد ان لقيت وحرملا
لله درّكمــا ودرّ أبيكمــا ان افلت الغفليَّ حتى يقتــلا
من مبلغ الاقوام ان مرقشــا أمسى على الاصحاب عبئا مثقلا
ذهب السباع بأنفه فتركنــه أعثى عليه بالجبــال وجيْئلا
وكأنمــا ترد السباع بشلوه اذ غاب جمع بني ضبيعة منهلا

---

(129) ديوان الهذليين ٢١٣/١ .

(130) المفضليات رقم ٤٥ ص ٢٢٢ .

ويقول حبيب الاعلم[131] :

وخشيت وقع ضريبة قد جرّبت كلّ التجارب
فأكون صيدهم بها وأصير للضبْع السواغب
جزرا وللطير المُربّة والذئاب والثعالب
وتجرّ مجرية لها لحمي الى أجرٍ حواشب
سود سحاليل كأن جلودَهن ثياب راهب
آذانهن اذا احتضرن فريةٌ مثلُ المذانب
ينزعن جلدَ المرء نزع العيْن أخلاقَ المذاهب

ويقول جريبة بن الاشيم الفقعسي[132] :

فلا يأكلنّي الذئب فيما دفنتني ولا فرْعل مثلُ الصريمة خاربُ
أزلّ هليب لا يزال مآبطا اذا ذربت أنيابه والمخالب

ويمكن ان يكون هذا الخوف من الحيوان وعبثه بالميت اعتقادا منهم بأن البعث يتوقف على سلامة جسد الميت ، يقول الشنفرى[133] :

فلا تقبروني انّ قبرى محرّم عليكم ولكن خامرى أم عامر
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس اكثرى وغودر عند الملتقى ثم سائرى
هنالك لا أرجو حياة تسرني سجيس الليالي مبسلا بالجرائر

فالشنفرى لا يهمه أن يدفن لأنه لا يرجو من بعد الموت حياة كما يقول ..

---

(131) ديوان الهذليين ٧٩/٢ .
(132) الحيوان ٤٥٢/٦ .
(133) الطرائف الادبية ص ٣٦

وصف الماء وصلته بمعاني الحياة :

من الملاحظ ان القرآن الكريم ضرب المثل للحياة الزائلة ومتعها الزائفة بالماء أو الغيث الذى ينبت زرعا رائعا لا يلبث ان يتحول الى حطام متبدّد • فالماء في هذا مثال الحياة الدنيا التي تحمل في طياتها عوامل فنائها ، يقول تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا •» الكهف آية ١٤٥(١٣٤) :

ويضرب القرآن الكريم المثل للبعث بالماء الذى يحيي الارض الميتة ، يقول تعالى : « ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت انّ الذى أحياها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير • » فصلت ٣٩ •

والشاعر الجاهلي يستخدم عنصر الماء استخداما يظهر فيه تناقض عنصر الماء فهو مادة للحياة والموت معا • ويتجلى ذلك في زعم الشاعر الجاهلي أن الامطار والانواء هي سبب تخريب الديار وامحائها •• ثم في استطراده الى وصف الحياة التي بعثتها الامطار نفسها في الديار •• فهي تؤدى الى امراع وخصب يجتذب الوانا من الحيوان الذى يألف هذه الديار ويتناسل بها • والامطار على هذا تزيل حياة وتبعث حياة اخرى •• والشاعر يتناسى الصورة القائمة التي يرسمها للديار المهجورة الآبدة بصورة الحياة التي تبعثها الامطار فيها •• يقول لبيد(١٣٥) :

عفت الديار محلّها فمُقامها بمِنى تأبد غولها فرِجامها
فمَدافع الريّانِ عرّي رسمها خلَقا كما ضمن الوُحيّ سلامها
دمن تجرّم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها

---

(١٣٤) ومثل الآية الكريمة يونس ٢٤ والحديد ٢٠ .

(١٣٥) شرح ديوان لبيد رقم ٤٨ ص ٢٩٧ .

رزقت مرابيع النجوم وصابها ودق الرواعد جَوْدها فرِهامها
من كل سارية وغــاد مدجن وعشــية متجاوب إرزامهــا
فعلا فروع الايهُقان وأطفلت بالجلهتين ظباؤهــا ونعامهــا
والوحش ساكنة على اطلائهــا عوذا تأجّلُ بالفضاء بِهامهــا
وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زبر تجدّ متونهــا اقلامهــا
أو رجع واشمة أسفّ نؤورها كففا تعرّض فوقهن وشامها
فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صمّا خوالد ما يبين كلامها

ولقد بلغ من تلذذ الشاعر بوصف ما بعث المطر من حياة في الديار أنّ المفسرين اختلفوا في قوله : رزقت مرابيع النجوم .. أهو يدعو بالسقيا أم يخبر(١٣٦) . ويقول سلامة بن جندل(١٣٧) :

هاج المنــازل رحــلة المشتاق دمن وآيــات لبثــن بــواق
لِبْسُ الروامسِ والجديدُ بلاهما فتَرَكْن مثــلَ المهرق الاخلاق
للحارثية قبــل أن تنأى النوى بهم واذ هي لا تريــد فراقي
ومجرّ ســارية تجرّ ذيولهــا نوسَ النعام تنــاط بالاعنــاق
مصرية" نكباءُ أعرض شيمُهــا بأشــابة فزرودَ فالافــلاق
هتكت على عوذ النعاج بيوتهــا فيقعــن للركبــات ... والارواق
فترى مذانب كلّ مدفع تلعــة عَجِلت ســواقيها من الاتآق
فكأن مدفع سيل كلّ دميثــة يعلى بذى هَــدَب من الاعلاق
من نسج بصرى والمدائن نشرّت للبيع يوم تحضّر الاســواق
فوقفت فيهــا ناقتي فتحنّنت لهوى الرواح تتوق كــل متاق

---

(١٣٦) شرح الطرائف السبع ص ٥٢١ ، ٥٢٣ . ويقول ابن الانباري انه دعاء وان بعض اهل اللغة قال انه خبر .

(١٣٧) ديوان سلامة بن جندل ص ١٣ .

ويقول النابغة الذبياني[138] :

أمن ظلاّمة الدمــن البــوالي ... بمرفضّ الحبَيّ الى وُعــال
فأمواهِ الدّنــا فعويرضــات ... دوارسَ بعد احياء حِــلال
تأبّـد لا ترى الا صُــوارا ... بمرقوم عليه العهـد خـال
تعاورَها الســواري والغوادي ... ومـا تذرى الرياح من الرمال
أثيثٌ نبتـه جعـدٌ تراه ... به عوذ المطـافل والمتـالي

وهي صورة شائعة في الشعر الجاهلي .. وهي قريبة من الاستسقاء للميت ، لأنه دعاء بأن تذهب الوحشـة عن قبره وتحيط به الخضرة يقول النابغة في رثاء النعمان الغساني[139] :

سقى الغيثُ قبرا بين بصرىوجاسم ... بغيث من الوسـميّ قطر ووابل
ولا زال ريحان ومسـك وعنبر ... على منتهـاه ديمة ثم هاطـلُ
وينبت حوذانا وعوفـا منوّرا ... سأتبعه من خير ما قال قـائل

ويقول أوس بن حجر[140] :

لا زال مسـك وريحـان له أرج ... على صداك بصافي اللون سلسال
يسقى صداك ومُمساه ومُصبَحَه ... رفها ورمسك محفوف بأظـلال

ويقول البريق الهذلي في رثاء أخيه[141] :

ســقى الرحمن جزع نبايعـات ... مــن الجـوزاء أنواءا غزارا
بمرتجـز كـأن عـلى ذراه ... ركاب الشـامِ يحملن البهـارا
فحطّ العصم من اكناف شِعْر ... فلم يترك بذى سَـلع حمارا
ومرّ على القرائن من نُمـار ... وكاد الوبل لا يمضي نمـارا

---

(١٣٨) مختار الشعر الجاهلي ص ٣١٢ . وانظر في معناها له ص ٢٠٨ .

(١٣٩) المصدر السابق ص ١٩٨ .

(١٤٠) ديوان اوس رقم ٤٠ ص ١٠٥ .

(١٤١) ديوان الهذليين ٦١/٣ . والبريق كان شيخا على عهد عمر رضي الله عنه انظر ٥٨/٣ من الديوان .

ويبدو احساس الشاعر الجاهلي بتناقض عنصر الماء في انه يدعو للديار بالسقيا وهو الذى يزعم ان المطر يمحوها ويعفو على آثارها . ولا شك انه حين يستسقي لها يتمنى لها الحياة .. وأنه حين يصف فعل الامطار بها يتألم من اندثارها وزوالها .. وهو يحس أن للماء القدرة على الفعلين معا .. ومن دعائهم بالسقيا للديار المهجورة قول المثقب[١٤٢] :

الا حيّيا الدار المحيل رسومها ... تهيج علينا ما يهيج قسيمها
سقى تلك من دار ومن حلّ ربعها ... ذهابُ الغوادى وبلها ومُديمها

وقول زهير بن جناب الكلبي[١٤٣] :

فيا رسم ليلى هجت للعين عبرة ... وحزنا سقاك الوابل المتبعّق

وقول الحطيئة[١٤٤] :

أرَى عليها وليّ ما يغيّرها ... وديمة ملّيت منها عزاليها

ومن النماذج النادرة التي يتجاوز فيها حديث الشاعر عن الامطار التي تندرس بها الديار ودعاؤه لها بالسقيا قول النابغة الجعدي[١٤٥] :

ألم تسأل الدار الغداة متى هيا ... عددت لها من السنين ثمانيا
أربت عليها كلّ وطفاءَ جونةٍ ... وأسحمَ هطّالٍ يسوق القواريا
بوادي الظباء فالسليل تبدّلت ... من الحيّ قطرا ما يفيق وسافيا
فلا زال يسقيها ويسقي بلادها ... من المزن رجّاف يسوق السواريا
يسقّي شرير البحر جَودا تردّه ... حلائب قُرح ثم أصبح غاديا

(١٤٢) شعر المثقب ص ٤٧ .
(١٤٣) منتهى الطلب ١٠٢/١ .
(١٤٤) ديوان الحطيئة رقم ٤٤ ص ٢٠١ .
(١٤٥) شعر النابغة الجعدي ص ١٦٦ .

وليس النابغة مضطرب الشعور متناقضا مع نفسه في شعره هذا ..
فهو يتألم لما أصاب الدار .. وهو يدعو لها بالسقيا والحياة .. وانما التناقض
في الماء القادر على محو معالم الدار وبعث الحياة فيها .

ووصف السحاب والمطر والماء يكثر وروده مع المعاني التي تعوّد
الشاعر الجاهلي ان يخصص لها صدر شعره .. ويأتي ذلك وصفا للسحاب
الذي يستسقيه الشاعر للدار أو المرأة التي يذكرها .. أو هو مما يأرق له
الشاعر ويطول به ليله وتستثار به ذكرياته .. ونستطيع أن نميّز
أسلوبين .. اتخذهما وصف الامطار والمياه .. أولهما أن يأتي هذا
الوصف على سبيل التسلي وذلك بعد ان يذكر الشاعر أمرا أحزنه وآلمه ..
والاسلوب الآخر أن يؤتى بهذا الوصف أولا ثم يتلوه ذكر ما يتألم له
الشعراء . فكأن البرق والمطر هو الذي أعاد على الشاعر هذه الذكرى
المؤلمة ..

ومن التسلي بوصف المياه عن معاني الفناء قول الاعشى في وصف
ريمان وخرابة وما مرّ به من فتح الحبشة وفارس[١٤٦] :

ولقد أراه بغبطة	في العيش مخضرا جنابه
فخوى وما من ذى شبا	ب دائم" أبدا شبابه
بل هل ترى برقا على الـ	ـجبلين يعجبني انجيابه
من ساقط الاكناف ذى	زجل أربّ به سحابه
مثل النعام معلّقا	لمّا دنا قَرِدا ربابه

فكأن الاعشى يزيح عنه تلك الصورة القاتمة للفناء بصورة أخرى
تنبض بالحياة ومثل ذلك نجده في القصيدة المنسوبة الى عبيد أو أوس بن
حجر ، تقول القصيدة[١٤٧] :

---

(١٤٦) ديوان الاعشى رقم ٥٤ ص ٢٨٩ .

(١٤٧) ديوان اوس رقم ٥ ص ١٤ ، ديوان عبيد رقم ١١ ص ٣٤ والنص من
ديوان عبيد ..

هبت تلوم وليست ساعة اللاحي ... هلّا انتظرت بهذا اللوم أصباحي
قاتلها الله تلحاني وقد علمت ... أنّ لنفسي افسادي واصلاحي
كان الشباب يلهّينا فيعجبنا ... فما وهبنا ولا بعنا بأرباح
ان اشرب الراح أو أرزأ لها ثمنا ... فلا محالة يوما انني صاحي
ولا محالة من قبر بمحنية ... وكفن كسراة الثور وضّاح
يا من لبرق أبيت الليل أرقبه ... من عارض كبياض الصبح لمّاح

ومثل ذلك قول قيس بن عيزارة في أسره حين رامت فهم قتله •• وفي قصيدته هذه يقول الشاعر(١٤٨) :

وقال نساء لو قتلت لساءنا ... سواكن ذو الشجو الذي أنا فاجع
رجال ونسوان بأكناف راية ... الى حُثُن ثمّ العيون الدوامع
سقى الله ذات الغمر وبلا وديمة ... وجادت عليها البارقات اللوامع
بما هي مِقناة أنيق" نباتها ... مِرَبّ" فترعاها المخاض النوازع
وان سال ذو ماوَيْن أمستقِلاته ... لها هَدَب تستنّ فيه الضفادع
اذا أصدرت عنه تمشت مخاضها ... الى السرّ تدعوها اليه الشفائع
لها هجلات سهلة ونجادة ... دكادك لا توبي بهن المراتع
كأن يلنجوجا ومسكا وعنبرا ... بأشرافه طلّت عليه المرابع

ويقدم الشعر الجاهلي صورة اخرى لوصف الماء متصلة اتصالا وثيقا ببكاء الديار وارتحال الحبيبة عنها •• وقد رأينا ان ذلك مرتبط عنده بمعاني التحوّل والزوال وفوت ما لا سبيل الى استرداده •• وهذه الصورة هي صورة الشاعر باكيا في أثر الراحلين أو صورته باكيا من ذكرى الحبيبة أو مما صارت اليه ديارها •• والشاعر يختار أن يشبّه دموعه بالمياهالمتدفقة من الدلاء العظيمة أو المياه التي تجري في الانهار والجداول أو الماء الذي يتسرب من مزادة يصفها •• وقد ينساق في هذا الوصف فيصف الدلاء

(١٤٨) ديوان الهذليين ٧٦/٣ .. وفي‌القصيدة انتابط شراالخذسلاح الشاعر.

والنواضح والجداول والزروع حتى يشعرنا بأنه انصرف عن أحزانه ونسي ما بدأ به من وصف الدموع والاحزان ؛ يقول عبيد[١٤٩] :

أرض توارثها شَـعوب ... فكلّ من حلّهـا محروب
أمـا قتيـلا وامّا هالكا ... والشيب شين لمن يشـيب
عينـاك دمعهما سَـروب ... كـأن شأنيهما شَـعيب
واهيـة أو معين ممعن ... من هضـبة دونهـا لهـوب
أو فَلَج ما ببطـن واد ... للماء من تحتـه قَسـيب
أو جدول في ظلال نخـل ... للماء من تحتـه سُـكوب

ويقـول[١٥٠] :

تذكرتهـم ما ان تجفّ مدامعي ... كأن جدول يسقي مزارع مخروب

ويقول علقمة بن عبدة[١٥١] :

فالعـين مني كـأن غـرب تمـطّ بـه
دهماء حاركها بالقِتْب مَحْـزُوم
قـد عرّيت حقبة حتى استطف لهـا
كِتَر كحافـة كِير القين ملمـوم
كـأن غِسلة خِطْمي بمشـفرها
في الخـدّ منهـا وفي اللَّحيين تلغيم
قـد أدبـر العـرّ عنهـا وهي شـاملُها
من ناصـع القَطِران الصرف تدسـيم
تسـقي مذانب قـد زالت عصـيفتها
حدورها من أتيّ المـاء مطمـوم

---

(١٤٩) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١١ ، شرح القصائد العشر ص ٥٣٧ .
(١٥٠) ديوان عبيد رقم ٨ ص ٢٥ .
(١٥١) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٥ ، المفضليات رقم ١٢٠ ص ٣٩٨ .

من ذكر سلمى وما ذكرى الاوان لها
الا ّ السفاه وظن ّ الغيب ترجيم

ويقول الأعشى[١٥٢] :

وبانت بها غربات النوى | وبدّلت شوقا بها وادّكارا
ففاضت دموعي كفيض الغرو | ب امّا وكيفا وامّا انحدارا

ويقول امرؤ القيس[١٥٣] :

أمن ذكر نبهانية حل أهلها | بجزع الملا عيناك نبتدران
فدمعهما سكب وسحّ وديمة | ورش وتوكاف وتنهملان
كأنهما مزادتا متعجّل | فريّان لمّا تسلقا بدهان

ويقول لبيد[١٥٤] :

وقفت بهن حتى قال صحبي | جزعت وليس ذلك بالنوال
كأن دموعه غربا سُناة | يحيلون السجال على السجال
اذا أرووا بها قصبا وزرعا | أمالوها على خور طوال

ويقول بشامة بن الغدير[١٥٥] :

فوقفت في دار الجميع وقد | جالت شؤون الرأس بالدمع
كغُروض فيّاض على فَلَج | تجري جداوله على الزرع

---

(١٥٢) ديوان الاعشى رقم ٥ ص ٤٥ .
(١٥٣) ديوان امرىء القيس رقم ٨ ص ٨٨ .
(١٥٤) شرح ديوان لبيد رقم ١١ ص ٧٢ .
(١٥٥) المفضليات رقم ٢٢ ص ٤٠٧

ومن أجمل ما قالوا في وصف الدموع وأكثره تفصيلا قول زهير[١٥٦] :

ما زلت أرمقهم حتى اذا هبطت
أيدي الركاب بهم من راكس فلَلَقا

دانيةً لشرورى أوقفا أدم
يسعى الجداة على آثارها حزَقا

كأن عيني في غربي مقتّلة
من النواضح تسقي جنة سُحُقا

تمطو الرشاء فتجري في ثِنَايتها
من المحالة ثقبا رائدا قلِقا

لها متاع وأعوان غدون به
قِتْب وغَرب اذا ما أفرغ انسحقا

وخلفها سائق يحدو اذا خشيت
منه اللحاق تمدّ الصُلب والعُنُقا

وقابلٌ يتغنّى كلّما قدرت
على العَرَاقي يداه قائما دَفَقا

يحيل في جدول تحبو ضفادعه
حبو الجواري ترى في مائه نطقا

يخرجن من شَرَبات ماؤها طَحِل
على الجذوع يخفن الغمّ والغرقا

---

(١٥٦) شرح ديوان زهير ص٣٧ ومختار الشعر الجاهلي ص٢٤٧ والنص منه. وانظر في تشبيه الدمع بالدلو والمزادة ونحوها : ديوان الاعشى رقم ٦٨ ص ٣٣٣ شرح ديوان زهير ص ١٤٧ ديوان امرىء القيس رقم ٣ ص ٤٤ ، رقم ٩ ص ٩٠ ، المفضليات رقم ٩٦ ص ٣٣٠ لبشر بن ابي خازم .

وتصوير الدمع على هذا النحو يورده متمّم في بعض مراثي أخيـه فيقول[١٥٧] :

اذا عبرة ورّعتها بعـد عبـرة
أبت واستهلت عبـرة ودمـوع
كما فاض غـرب بين أقـرنٍ قامـةٍ
يروّى دَبـارا مـاؤه .... وزروع
جديـد الكلى واهي الأديـم تبينـه
عن العبـر زوراء المقـام نـزوع

ولا يمكننا أن نعتبر هذا الوصف مبالغة في تصوير الحزن ، لأن المبالغة ليست من سمات الشعر الجاهلي . ويمكن ان نهتدي باختيار الشـاعر أن يشبّه دموعه بالماء الذي ينساب من أدوات السقي ، فنفهم أنه يجتلب صورة من صور الاستسقاء تعبيراً عن الحرص على الحياة واشتهائها .وهو يطمئن الى هذه الصورة وأمثالها بعد ان يتعبه تفكيره في الفناء .وهو يستخدم اسلوب الاستطراد الشائع في الشعر الجاهلي ، فينتقل بعفوية لا يكبح جماحها العقل من آلامه الى آماله .

وقد ذكرنا سياقا آخر لوصف المطر وشيم السحاب ، وذلك أن يتقدم ذكر المطر ويتخذ ذريعة للذكرى أو يعتبر سببا للأرق والهموم .. ومن أمثلة ذلك قصيدة لعدي بن زيد يمزج أحزانه بوصفه للمطر ، فهـو يتخيـل في السحاب والبرق مأتماً يبكي فيه عليه ، ثم يمضي في وصف المطر ممهدا بذلك لحديثه الصريح عن خوفه من أن ينجح أعداؤه في كيدهم له فيقتل أو يسجن، يقول عديّ في هذه القصيدة[١٥٨] :

أرقت لمكفهرّ بـات فيـه بوارق يرتقين رؤوس شـيب

(١٥٧) المفضليات رقم ٦٨ ص ٢٧١ .

(١٥٨) ديوان عدى رقم ٣ ص ٣٧ . دخدار : الثوب . معرب من الفارسية .

تلوح المشرفيّة في ذراه ويجلو صفح دَخْدار قشيب

كأن مآتما باتت عليه خضَبن مآليا بدم صبيب

يلالئن الأكفّ على عديّ ويُعْطَف رجعهن الى الجيوب

سقى بطن العقيق الى أُفاق ففا ثورٍ الى لبَب الكثيب

فروّى قلّة الأدحال وبل فملجا فالنبيَّ فذا كريب

فمنه ديمة وطفاء سكب وذو نَزَل تَفرَّعُ في السيوب

كأن دفوق جُونٍ تعتريه تُجَانِب قاصبا فحنينَ نيب

يجيء بما أمدّته الثريا معيرا أمره درَرَ الجنوب

سعى الاعداء لا يألون شرا عليّ وربّ مكة والصليب

أرادوا كي تمهل عن عديّ فيسجن أو يدهدى في قليب

ويقول خفاف بن ندبة[159] :

يا هل ترى البرق بت أرقبه في مكفهر نشاصه قرد

مال على قبة البثاء فعزّال فمرّ على الرجلاء فالجمد

اذا مرته ريح يمانية يرد ريعانه الى نضد

يترك منها النهاء مفرطة مثل الرياط المنشورة الجدد

ان أمسي رمسا تحت التراب فهل تصرف بعدي المنون عن أحد

كل امرىء فاقد أحبته ومسلم وجهه الى البلد

ويقول تميم بن أبي بن مقبل[160] :

تأمل خليلي هل ترى ضوء بارق

يمان مرته ريح نجد ففترّا

---

(١٥٩) منتهى الطلب ١٥/١ .. والبيت الثاني جاء هكذا في المخطوطة ، وفيه خروج على الوزن .

(١٦٠) ديوان تميم رقم ١٧ ص ١٢٩ .

مرتـه الصــبا بالغــور غور تهـامــة
فلمّــا ونت عنــه بشَـعْفَين أمطــرا
يمانيَـةٌ تمري الربـــــاب كـأنـه
رئـال نعــام بيضـــه قد تكسرا
وطبّــق لَوْذانَ القبـائل بعــد ما
سقى الجزع من لوذان صــفوا واكدرا
فأمسى يحطّ المُعْصِـمات حَبِيّه
وأصـبح زَيّـافَ الغمامـة أقمــرا
كـأن بـه بين الطّرّاةِ ورهـــوة
وناصــفةِ الضّبعين غابـا مسـعّرا
فغـادر ملحوبـا تمشّـــي ضــبابه
عبـاهيلَ لم يترك لهـا المـاءُ مجحــرا
أقـام بشـطّانِ الركــاء وراكس
اذا عــرق ابن المـــاء في الوبــل بربرا
أصـاخت لـه فُـدر اليمامـة بعدما
تدثّرهـــا من وبـله ما تدثــرا
أنـاخ برمـــل الكَوْمَحين إناخة الـ
ـيماني قلاصــا حطّ عنهن أكورا
أجدِّي أرى هــذا الزمـان تغيّرا
وبطـنَ الركـاء من مواليَّ أقفــرا
وكـائن ترى من منهــل باد أهـــله
وعيــد على معـــــروفـه فتنــكرا
أتـاه قطـا الاجبـــاب من كـل جـانب
فنقّــر في أعطـــانــه ثم طـيّرا

فأما تريني قد أطاعت جنيبتي
وخيّط رأسي بعد ما كان أوفرا
وأصبحت شيخا أقصر اليوم باطلي
وأديت ريعان الصبا المتعوّرا
وقدّمت قدّامي العصا أهتدي بها
وأصبح كرّي للصبابة أعسرا
فقد كنت أحذي الناب بالسيف ضربة
فأبقي ثلاثا والوظيف المكعبرا

والشاعر هنا يفصّل في وصف المطر ، ويسرف في وصف غزارته ، ويحرص على أن يذكر الاماكن التي أصابها .. ثم ينتقل من ذلك الى تذكر أهله الذين كانوا يسكنون ببعض هذه المواضع « الركاء » ويرسل حسرة في أثر البائدين من أصحاب المناهل ثم ينصرف بعد ذلك الى شبابه يبكيه ويسترجع ذكرياته .

ومثل شعر تميم هذا قصيدة امريء القيس التي يبدأها مثله بوصف المطر متخذاً ذلك وسيلة ليتذكر أختاً له ضعيفة بعيدة عنه لا يستطيع ان يعينها بغير شعره ..

وربما كان هذا الشعور رثاء لأن بعد هذه الاخت عن الشاعر قد يكون بعد الحيّ عن الميت ، يقول امرؤ القيس[١٦١] :

أعنّي على برق أراه وميض ... يضيء حَبَيّا في شماريخَ بيض
ويهدأ تاراتٍ سناه وتارة ... ينوء كتَعْتاب الكسير المهيض
وتخرج منه لامعات كأنها ... أكف" تَلَقّى الفوزَ عند المفيض
قعدت له وصحبتي بين ضارج ... وبين تلاع يَثْلَثٍ فالعريض

(١٦١) ديوان امرىء القيس رقم ٥ ص ٧٢ ، وانظر ص ٣٤ من هذا الفصل .

أصـاب قطاتين فسـال لواهما فوادي البديّ فانتحى للأريض
بلاد عريضة وأرض أريضـة مدافع غيث في فضـاء عريض
فأضحى يسح الماء عن كـل فيقة يحوز الضباب في صفاصف بيض
فأسقي به أختي ضعيفة اذ نـأت واذ بعـد المزار غيـر القريض

ويقول عروة بن الورد في امرأته الكنانية التي خدع عنها مبتدأ قصيدته بوصف السحاب والبرق[١٦٣] :

أرقت وصحبتي بمضيق عمق لبرق في تهامـة مسـتطير
اذا قلت استـهلّ على قديـد يحـور ربـابه حَوْر الكسير
تَكَشَّف عـائذٍ بلقـاء تنفي ذكورَ الخيـل عن ولـد شـفور
سـقى سـلمى وأين ديـار سلمى اذا حلّت مجـاورةَ السرير
اذا حلـت بـأرض بنـي عليّ وأهـلي بين زامـرة وكير
ذكرت منـازلا من أم وهـب محلّ الحيّ أسـفل ذي النقير
وآخر معهـدا من أم وهـب معرّسـنا بدار بني النضير

نخلص من هذا الاستعراض لبعض نماذج وصف الماء في الشـعر الجاهلي الى انه مما يستعين به الشاعر على اشاعة جوّ من الفرح أو الحزن .. ولذلك فهو يتداعى مع معاني الحياة والموت في حالات كثيرة ..

وللحيوان كذلك قيمة رمزية في تحسس الشاعر بمعـاني الحيـاة والموت ، وقد انتبه الجاحظ لهذه القيمة فقال فيها : « ومن عادة الشـعراء اذا كان الشعر مرثيّة أو موعظة أن تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش واذا كان الشعر مديحا وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب

---

(١٦٢) ديوان عروة ص ١٠ .

هي المقتولة : ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها ، أما في أكثر ذلك فانها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم .. »[١٦٣] وكلام الجاحظ واضح ينقل قصص الحيوان في الشعر الجاهلي من الواقع الى صعيد الرمز الذي يؤدي وظيفة محدّدة تتسق مع غرض الشاعر في القصيدة ، ومن هذا الحيوان الذي استخدم رمزا في الحياة والموت الناقة والفرس وبقر الوحش وحمار الوحش والوعل والنسر والثعلب والكلاب ، وقد مرّ بنا استخدامهم للضبع وما في معناها من الذئاب والكواسر ، وسنتحدث عن هذه الرموز في فصل قادم ، لأن استخدامها في الشعر الجاهلي جرى على أسلوب قصصي له ميزاته وخواصه ، ولأن استخدام هذه الرموز ليس وقفا في شعرهم على الرثاء الذي فرغنا له في هذا القسم من البحث .

---

(١٦٣) الحيوان ٢/٢٠

الفصل الثاني

في الحماسة

رأينا في دراسة عقائد الجاهلية أن من أكثر جوانبها غموضا واختلاطا أقوالها وقصصها في البعث ، وهو أمر خطير في مجتمع مرهف الاحساس بمشكلة الفناء ، لان الطبيعة من حوله لا تريه خصبا مسدودا بل تعاقبا سريعا من الخصب والجدب وهو كذلك يواجه الفناء في حروب طاحنة لا تكاد تهدأ ولقد وقفنا عند فكرة الدهر أو الزمن عندهم .. وقلنا انها من أكثر الافكار شيوعاً بينهم .. ولكنّ فكرة الدهر كانت قاصرة عن حل كل ألغاز الفناء ، فهي تمثل القدر دون أن تصور فيه قوةعادلة تطمئن اليها النفس ، وانما الدهر قدر ظالم ، ومن هنا تسبب في فقدان التوازن النفسي للقائلين به ، اما تمردا وعنفا ، واما استسلاما عاجزا . على ان أخطر قصور في فكرة الدهر هو عجزها عن أن تقول شيئا في البعث عند الاكثرية ، وانكارها له عند قلة من زنادقة الجاهلية . فان هذا القصور عن تصوّر امتداد لحياة الانسان بعد موته لم يترك في يد القائل بالدهر غير حياته يحاول ان يغنيها بما يناسب مثله الاخلاقية .

شعر الفتيان

ومن ابرز الصور التي يقدمها الشعر الجاهلي للحياة في ظل أفكار الجاهلية عن الفناء تلك الصور التي سمّاها أهل الجاهلية بطالة الصبا أو

باطله ، وهي تصوّر الحياة مترعة بأنواع اللذاذة كالمرأة والخمر والصيد والغناء والميسر وما الى ذلك ، يقول عبيد بن الابرص[1] :

هبّت تلوم وليست ساعةَ اللاحي
هلّا انتظرت بهذا اللوم أصباحي

قاتلها الله تلحاني وقد علمت
أنّ لنفسي افسادي واصلاحي

كان الشباب يلهّينا ويعجبنا
فما وهبنا ولا بعنا بأرباح

ان أشرب الراح أو أرزأ لها ثمنا
فلا محالة يوما أنني صاحي

ولا محالة من قبر بمحنية
وكفن كسراة الثور وضّاح

ويقول امرؤ القيس[2] :

تمتّع من الدنيا فانك فاني
من النشوات والنساء الحسان

من البيض كالآرام والأدم كالدمى
حواصنها والمُبْرقاتِ الرواني

ويقول عمرو بن كلثوم منهيا أبياته في الخمر من معلّقته[3] :

وأنا سوف تدركنا المنايا
مقدّرة لنا ومقدّرينا

---

(١) ديوان عبيد رقم ١١ ص ٣٤ . ديوان اوس بن حجر رقم ٥ ص ١٤ .
(٢) ديوان امرىء القيس رقم ٨ ص ٨٧ .
(٣) شرح القصائد السبع لابن الانباري ص ٣٧٤ .

ويقول حسان[٤] :

وممسك بصداع الرأس من سكر
ناديته وهو مغلوب ففداني

لما صحا وتراخى العيش قلت له
ان الحياة وان الموت مثلان

فاشرب من الراح ما آتاك مشربه
واعلم بأن كل عيش صالح فاني

ويقول أبو الذيال البلوي[٥] :

هبت بليل تلوم في شرب الخمر وذكر الكواعب الخرد
فقلت مهلا فلا عليك إن امسيت غويا غيي ولا رشدي
اني لمستيقن لئن لم امت م اليوم اني إذن رهين غد
هل نحن الا كمن تقدمنا منا ومن تم ظمؤه يرد
نحن كمن قد مضى ما إن أرى شحا يزيد الحريص من عدد
فلا تلومنني على خلقي واقني حياء الكريم واقتصدي

ويقول سلمي بن ربيعة[٦] :

إن شواء ونشوة وخبب البازل الامون
يجشمها المرء في الهوى مسافة الغائط البطين
والبيض يرفلن كالدمى في الريط والمذهب المصون
والكثر والخفض آمنا وشرع المزهر الحنون
من لذة العيش والفتى للدهر والدهر ذو فنون
والعسر كاليسر والغنى كالفقر والحي للمنون

(٤) شرح ديوان حسان ص ٤١٢ . وانظر فيه وفي الشاهد قبله : اساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة ص ٨ ، ١٥ .

(٥) طبقات ابن سلام ص ٢٤٦ .

(٦) البيان والتبيين ١/١٩٠ . شرح الحماسة للمرزوقي ٣/١٢٣٧ . والتبريزي ٣/٨٣ .

ويقول الأعشى[٧] :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني
شاو مشلّ شلول شلشل شول

في فتية كسيوف الهند قد علموا
أن ليس يدفع عن ذى الحيلة الحيل

ويقول بعد ان يذكر بعض ألوان فتوّته[٨] :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أني امرؤ ... أتيت المعيشة من بابها

ويقول عدي بن يزيد[٩] :

وندامى لا يفرحون بما نا ... لوا ولا يرهبون صرف المنون
قد سقيت الشمول في دار بشر ... قهوةً مزّةً بماء سخين

ويبدو الحارث بن ظالم فتى حريصا على اللذة على تدينه وايمانه حين يقول[١٠] :

إعزفا لي بلذة قينتيا ... قبل أن يبكر المنون عليّا
قبل أن يبكر العواذل إني ... كنت قدما لأمرهن عصيّا
ما أبالي أراشدا فأصبحاني ... حسبتني عواذلي أم غويّا
بعد الاّ أَصِرَّ لله إثما ... في حياتي ولا أخون صفيا
من سلاف كأنها دم ظبي ... في زجاج تخاله رازقيّا

---

(٧) ديوان الاعشى رقم ٦ ص ٥٩ .
(٨) ديوان الاعشى رقم ٢٢ ص ١٧٣ .
(٩) ديوان عدى بن زيد رقم ١٤١ ص ١٨٦ .
(١٠) الاغاني « الدار »١١: ١٢٢/ وقد ذكران فيها غناء لابن محرزومالك وان في نقيضتها لابن الاطنابة غناء لعزة الميلاء سمعه معبد .

والشاعر في هذه النماذج كلها شاب مندفع بعنفوان صباه الى حياة لاهية وفي ذهنه عن الفناء فكرتان ملحّتان ، أولاهما أن الموت لا مفر منه . وهذا يلغي كلّ اعتبارات الحذر والحيطة لما تأتي به الايام من حاجة ، فالنهاية لا يسكن ان يتلافاها غني بغناه أو راشد بما يصطنع من الرشاد ، والغنى كالفقر والراشد كالغاوي والحياة والموت مثلان . وفي هذا يقول طرفة[11] :

أرى قبر نحّام بخيل بما له
كقبر غوى في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما
صفائحُ صمٌ من صفيح منضّد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدّد

والفكرة الاخرى هي أن الموت قد يكون قريبا .. بل قد يكون غدا .. وهذا يدفع الى اغتنام غفلات الدهر والمبادرة الى التمتع بالحياة وفي ذلك يقول طرفة :

لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى
لكا لطول المرخى وثنياه باليد

ويقول :

اذا كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ويقول حسان فيما رويناه له :

فاشرب من الخمر ما آتاك مشربه
واعلم بأن كل عيش صالح فاني

---

(11) ديوان طرفة رقم ٤ ص ٥٢ .

وفي هذا السباق بين الانسان والموت، يقول الحارث بن ظالم :

أعزفالي بلذة قينتيا قبل أن يبكر المنون عليا

وحقيقة الامر في هذا السباق أن الشاعر لا يستطيع أن يصرف ذهنه عن التفكير في الموت كما هو واضح •

وتختلف الحالة اختلافا بيناً حين تكون حقيقة الفناء في مواجهة الشاعر اذ أنه يورد ما يحسبه مثالا للحياة الخصبة في سياق الذكرى والحنين الى الماضي ، والخلاف فنّي وليس نوعيا ، فهو يقدم مثال الفتوة نفسه وهو يشمل النساء والخمر والميسر وركوب الخطر كالصيد في الاماكن التي يتحاماها الناس وقطع الصحارى المهلكة وما الى ذلك •• ولكنه يقدّم هذا المثال في أطناب ظاهر ، ولعل هذا الاطناب طبيعة مفهومة للذكريات عامة حين يتلذّذ صاحبها باستعادتها بعد السنين الطوال • ونضيف الى ذلك أن الشاعر الجاهلي حين يسترجع ماضيه قريب من موقف الرثاء ، وقد يقترب منه اقترابا صريحا • يقول المتلمّس[١٢] :

خليلي أمّا متّ يوما ونُفّست
منايا كما فيما يزحزحه الدهر
فمرّا على قبري فقوما فسلّما
وقولا سقاك الغيث والقطر يا قبر
كأن الذي غيّبت لم يله ساعة
من الدهر والدنيا لها ورق نضر
ولم تسقه منها بعذب ممنّع
بَرودٍ حمته القومَ رجراجةٌ بِكْر

---

(١٢) ديوان المتلمس ص ٢٠٢ . وروى البيت الرابع برفع القوم والمعنى انهم يحمون ريق هذه المراة . والوجه نصب القوم والمعنى ان لفتاة أباحت له ما منعته من لقوم .

ولم يصطبح في يوم حَرّ وقِرّة
حميّاً فدبّت في مفاصله الخمر
ولم يرع العيس الكوانس بالضحى
بأسرار موليّ ألِدّتُه صفر
ولم يمدح القرم الهمام بكفّه
لطائم يسقى من فواضلها القفر

ويقول أحيحة بن الجلاح[١٣] :

لتبكني قينة ومِزْهرها ولتبكني قهوة وشاربها
ولتبكني ناقة اذا رُحلت وغاب في سردَحٍ مناكبها
ولتبكني عُصبة اذا جمعت لم يعلم الناس ما عواقبها

ويقول دويد بن نهد[١٤] :

اليوم يبنى لدويد بيته لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحدا كفيته يا ربّ نهب صالح حويته
وربّ غَيْل حسن لويته ومعصم مخضّب ثنيته

ويقول عبد يغوث بن وقّاص الحارثي[١٥] :

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا
وظل نساء الحي حولي ركّدا يراودن مني ما تريد نسائيا
وقد علمت عرسي مليكة أنني أنا الليث معدّوا عليّ وعاديا

---

(١٣) الاغاني « الدار » ١٥/٣٦ . . وفيه غناء لابن سريح وغنته حبابة . . والقصيدة تختلط بشعر لعدى بن زيد رقم ٥ ص ٤٥ ولذلك خرجها المحقق هناك ص ١٩٤ . وانظر الاغاني « الدار » ٢/١٥٣ ، ١٥/١٢٢ .

(١٤) طبقات ابن سلام ص ٢٧ .

(١٥) المفضليات رقم ٣٠ ص ١٥٨ .

وقد كنت نحار الجزور ومعمل الـ مطي وأمضي حيث لا حيٌّ ماضيا
وأنحر للشرب الكرام مطيّتي وأصدع بين القينتين ردائيا
وكنت اذا ما الخيل شمّصها القنا لبيقا بتصريف القناة بنانيا
وعادية سَوْمِ الجرادِ وزعتها بكفي وقد أنحوا اليّ العواليا
كأني لم أركب جوادا ولم أقل لخيلي كرّي نفّسي عن رجاليا
ولم أسبأ الزقّ الرويّ ولم أقل لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا

وسواء كان الشاعر يستحضر صورة الموت كالمتلمس أم كان يواجهه فعلا كعبد يغوث فان هذا الشعر رثاء لا شك فيه .. والشاعر اذ يفخر بفتوته في ظاهر الأمر ، يطمئن نفسه في الحقيقة بأن حياته لم تذهب عبثا .. فقد أغناها بألوان المتعة وضروب المفاخر .. ولكنه يسوق كلامه في حزن وفي أسى على فوات هذه المتع وعجزه الراهن عن جني المزيد منها . ومما يشل ارتياح الفتى الى امتلاء حياته بالمتع مما يخفف عنه ألم فقدها قول قيس بن الخطيم(١٦) :

تذكّر ليلى حسنَها وبهاءَها
وبانت فأمسى ما ينال لقاءَها
ومثلك قد أصبيت ليست بكنّةٍ
ولا جارةٍ أفضت اليّ حياءَها
اذا ما اصطبحت أربعا خطّ مئزري
وأتبعت دلوي في السخاء رشاءَها
ثأرت عديا والخطيم فلم أضع
ولاية أشياخ جُعلت ازاءها
. . . .
. . . .

(١٦) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١ ص ٢١ .

متى يأت هذا الموت لا تبق حاجـــة

لنفسي الا ّ قــد قضـيت قضاءَها

وصورة الفتوة شائعة في الشعر الجاهلي وهي تتخذ مثالا يتوارد عليه الشعراء فالشاعر يأتي بخاطرته في الفناء فيرثي الديار أو يبكي شبابه أو يتوجع من تغيير الدهر لحبيبته أو يذكر امرأة غضت منه لسنّه وضعفه ثم يردّ على هذه الخاطرة بأنه طالما كان فتى منفلت العنان ثم يعدّد من ألوان البطالـــة ما يهتم به ، موجزا أو مطيلا في ذلك كله أو بعضه ، وانما يختلف شـــعراء الجاهلية في الاهتمام ببعض أعمال الفتيان •

كأهتمام الاعشى بالخمـر والنســـاء ، واهتمام امرىء القيس بالمرأة والصيد • وسنجتزىء بتحليل بعض أمثلة هذا اللون من تصـوير الفتوة لأن أمثلته كثيرة في شعرهم •

يقول امرؤ القيس[١٧] :

ألا عـم صـباحا أيهـــا الطلل البـــالي

وهل يعمن من كـان في العصر الخـــالي

وهـــل يعمن الا ّ ســــــعيد مخلـّد

قليـــل الهموم ما يبيت بأوجـــــال

وهـل يعمن من كـــان أحـدث عهـــده

ثلاثين شـــــهرا في ثلاثة أحـــوال

ديـار لســـلمى عافيـات بـذي خـــال

ألحّ عليهـا كلّ أســـحمَ هطـّال

(١٧) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٢٧ . واهم ما خالفت فيه شـرح القدماء هو في قوله : صرفت الهوى عنهن من خشية الردى .. فقــد فسروا الردى هنا بالفضيحة وهو تفسير لا يتفق مع شخصية امرىء القيس وقصصه الذي يرويه مع النسـاء ذوات الازواج والاطفال ..

وتحسب سلمى لا تزال ترى طَلاً
من الوحش أو بَيْضاً بميثاء مِحلال
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا
بوادي الخزامى أو على رأس أوعال
ليالي سلمى اذ تريك مُنَصَّبا
وجيدا كجيد الرئم ليس بمعطال
ألا زعَمت بسباسة اليوم أنني
كبرت وألا يحسن اللهو أمثالي

هذه خاطرة الشاعر في الفناء ، وهو يتمثل له في اطلال حبيبته سلمى التي لم يبق له منها الا الذكرى الحيّة التي تكاد ترتسم أمامه ، ويتمثل له كذلك في كبره الذي تشير اليه بسباسة .. وهو يرد عليها بعنف ملحوظ ينمّ عن خوفه الشديد من الشيخوخة :

كذبت لقد اصبي على المرء عرسه
وأمنع عرسي أن يُزَنَّ بها الخالي
ويا ربّ يوم قد لهوت وليلةٍ
بآنسة كأنها خطّ تمثالِ

ولكن ذلك كله مضى وبسباسة صادقة والشاعر يحس بقرب النهاية :

وبيت عذارى يوم دجن ولجته
يطفن بجمّاء المرافق مكسال
سباط البنان والعرانين والقنا
لطاف الخصور في تمام واكمال
نواعمَ يتْبِعن الهوى سبل الردى
يقلن لأهل الحلم ضلاً بتضلال

صرفت الهوى عنهن من خشـــية الردى
ولســـت بمقليّ الخـــلال ولا قـــال

وقد صار خوف الردى ينغّص على امرىء القيس لذاته .. ويمثل أمامه قريبا واقعا فيرثي نفسه هذا الرثاء القريب مما رويناه من رثاء عبـد يغـوث والمتلمس :

كـأني لـــم أركب جـواداً للـــذة
ولم أتبطـن كاعبـــا ذات خلخـــال
ولـم أســـبأ الزق الروي ولــــم أقـل
لخيـــلي كرّي كرّة بعـــد إجفـال
ولـم أشـهد الخيـل المغيرة بالضـــحى
على هيكل نهـــــــد الجُزارة جـــوّال

ويجرّه ذكر الخيل الى أن يرسم مشهدا من مشاهد الصيد ، فاذا وصلنا الى نهاية القصيدة سمعنا كلاما فيه الكثير من الحيـرة والالم ، فامرؤ القيس الذي يحس باقتراب نهايته يعمل في الوقت نفسه على استرجاع ملك آبائـه ، وهو يحس أن قرب الموت منه جدير بأن يصرفه عن المال وعن الملك .. ولكنه لا يستطيع أن يهمل هذا الملك ما بقيت حشاشة نفسه .. وهي بعد طبيعـــة الانسان الذي تراوده آماله حتى اللحظة الاخيرة من حيـــاته فلا هو بمدرك شيئا من آماله ولا هو يرتاح باليأس منها :

فلو ان ما أســـعى لأدنى معيشـــــة
كفـاني ولم أطلب قليـــــــل من المـال
ولكنما أســـــعى لمجـــد مؤثـــل
وقـد يدرك المجـــــد المؤثل أمثـاني
وما المرء ما دامت حشـــاشـــة نفســـه
بمدرك أطـراف الخطـــوب ولا آلي

ومعلّقة امرىء القيس لا تختلف عن هذه القصيدة الاّ في أنها أكثر بساطة : فهو يبكي في أولها من ذكرى الحبيب والمنزل .. ثم يندفع في استرجاع ذكريات صباه .. وهي في المعلّقة تقتصر على نجاحه في استمالة المرأة ثم يقول في آخر قصصه الغرامي :

تسلّت عمايات الرجال عن الصبا
وليس فؤادي عن هواها بمنسلي

وليس هذا من كلام فتى عابث وانما هو كلام رجل بلغ من العمر ما يعتبره المجتمع سنّ النضج ومراجعة النفس وتغلّب الحلم على عاطفة الصبا .. وهو يقول ذلك بين يدي حديثه عن همومه التي يأتيه بها الليل ولا يريحه منها النهار .. فنفهم نوع هذه الهموم وهي على الاكثر هموم انسان صار يعيش على ذكرى الماضي .

ويقول عبيد بن الابرص في مثال نادر من شعر الفتوة يقسم فيه ذكرياته فيوردها في موجتين متلاحقتين[١٨] :

وبيت يفوح المسك من حجراته
تسدّيته من بين سرّ ومخطوب

ومسمعةٍ قد أصحل الشرب صوتها
تأوّى الى أوتار أجوف محنوب

شهدت بفتيان كرام عليهم
حباء لمن ينتابهم غيرُ محجوب

وخرقٍ من الفتيان أكرم مصدقا
من السيف قد آخيت ليس بمذروب

فأصبح منّي كل ذلك قد مضى
فأيّ فتى في الناس ليس بمكذوب

---

(١٨) ديوان عبيد رقم ٨ ص ٢٥ ، وانظر القصيدتين رقم ١٢ ص ٣٨ ، رقم ٤١ ص ١٠٥ .

هذا هو الجانب اللاهي من حياة الشاعر ، وهو يرسل في أثر ذكرياتـه هذه الحسرة المؤلمة •• ويشعر بأنه خدع بجمال تلك الايام كما يخدع كـل فتى •• ولم يبق له من هذه الحياة الا ّ ذكرى ليس لها وزن في معيـــــار الحقيقة •• ويقول عبيد بعد ذلك مباشرة :

وقـد اغتـدى في القـوم تحتي شـــملة
بِطرف من الـسيدان أجردَ منسوب

كميتٍ كشـــاةِ الرمل صـــافٍ أديمـُه
مِفَجٍّ الحوامي جُرْشُعٍ غير محنوب

وخيـــلٍ كـأســراب القطا قــد وزعتها
بخيفـانـة تنمى بســـــاق وعرقوب

• • • • • • • • •

ترى المرء يصـــبو للحيـاة وطولهـا
وفي طول عيش المرء أبـرح تعـــــذيب

وهو في هذا القسم يتذكر الجانب الجادّ من حياته ، وينهيه نهايـــــة أصرح ، فهو قد أصبح شيخا عاجزا عن حياته الماضية •• وهو مبرّح أبرح تعذيب بهذه الشيخوخة التي أسلمه اليها حب الحياة ومدافعة الموت ••

ويقول الاسود بن يعفر(١٩) :

هـل لشـــــباب فات من مطلب ... أم ما بكاءُ البَدَنِ الاشـيب

الا ّ أضـــاليلُ ومن لا يـــزل ... يوفي على مَهْلَكَة يَعْطَب

بدّلت شـــيبا قــد عـــلا لمّتي ... بعــد شباب حســن مُعْجِب

(١٩) منتهى الطلب ١/٨٧ – ٨٨ . وانظر داليته المفضلية رقم ٤٤ ص ٢١٦ . وفي حماسة البحتري ثلاثة ابيات من مثالنا منسوبة للاسود ابن جهم التميمي ص ٢٨٨ . ويبدو ان هذا الخطأ يقتصر على اسم الاب . لان الاسود نهشلي تميمي .

صاحبته ثمّت فارقته ... ليت شبابي ذاك لم يذهب
وقد أراني والبلى كاسمه ... اذ أنا أصلع ولم أحدب
ولم يعرني الشيب أثوابه ... أصبي عيون البيض كالربرب
كأنما يومي حول اذا ... لم أشهد اللهو ولم ألعب
وقهوة صهباء باكرتها ... بجهمة والديك لم ينعب
وطامح الرأس طويل العمى ... يذهب جهلا كلّ ما مذهب
كويته حين عدا طوره ... في الرأس منه كيّة المكلب
وغارة شعواء ناهبتها ... بسابح ذي حضر ملهب
تراه بالفارس من بعد ما ... نكّس ذو الأمّة كالأنكب
وصاحب نبهته موهنا ... ليس بأنتاح ولا جأنب
أروع بهلول الحشا ... كالنصل ما نركب به يركب
فقام وسنان الى رحله ... وجسرة دوسرة ذعلب
ومربأ كالزج أشرفته ... والشمس قد كادت ولم تغرب
تلفّني الريح على رأسه ... كأنني صقر على مرقب
ذاك ومولي يمجّ الندى ... قريانه أخضر مغلولب
قفر حمته الخيل حتى اذا ... زاهره أغشي بالزرنب
جاد السماكان بقريانه ... بالنجم والنثرة والعقرب
كأن أصوات عصافيره ... أصوات راعي ثلّة مخصب
قدت به أجرد ذا ميعة ... عبل الشوى كالصدع الأشعب
فردا تغنيني مكاكيّه ... تغنّي الولدان في الملعب

والقصيدة غنية عن التحليل وهي تصوّر شيخا يتذكر صباه .. ويلفت النظر فيها انها تنتهي بمثل ما رويناه لإمرىء القيس ، بمشهد من مشاهد الصيد يتكوّن من وصف مكان جاده المطر فأمرع وأخصب ، وقد ارتاده الشاعر على جواده الذي يصف من نشاطه ما يصف .

ويقول سلمي بن عويّة بن ربيعة الضبي[20] :

لا تَبْعُدَنْ عهدَ الشباب ولا ... لذاته ونباته النضر
والمرشقاتُ من الخدود كأيـ ... ماض الغمام صواحب القطر
وطرادُ خيل مثلَها التقتا ... لحفيظة ومقاعدُ الخمر
لولا أولئك ما حفلت متى ... عوليت في حرج الى قبر
هزئت زنيبة ان رأت ثرمي ... وان انحنى لتقادم ظهري

وهذه هي نفس ثلاثية طرفة .. ولكنها هنا ماض ذهب .. وقريب من ذلك قول بشر بن ابي خازم[21] :

وعشت وقد افنى طريفي وتالدي ... قتيل ثلاث بينهن أصرّع
فإن سقاط الخمر كانت خباله ... قديما فلوموا شارب الخمر أودعوا
وحب القداح لا يزال مناديا ... اليها وان كانت بليل تَقَعْقَع
نغاءُ الحسان المُرْشِقات كأنها ... جآذر من بين الخدور تطلّع

---

(٢٠) مجالس ثعلب ٢٤٥/١ .. وهكذا ذكر الاسم .. ولعله غوية بن سلمي ابن ربيعة فيكون ابن الشاعر الذي روينا له فيما مضى « هامش ٦ من هذا الفصل ص ١٦٣ » وذكر في معجم الشعراء عوية بن سلمي بن ربيعة وقال انه جاهلي ، وانشد ابياتا على التاء لشاعر سماه اقرانة بن غوية بن سلمى بن ربيعة وذكر انه جاهلي ص ٣٢٧ . والابيات التائية نفسها انشدها ابو زيد في نوادره لرجل ادرك الاسلام : ص ٢٣ . وبهذا يكون سلمى وابنه غوية وحفيده قرانة جاهليين . وذكر البكرى في التنبيه ص ١١٥ ان قائل مثالنا هو سلمى بن غوية بن سلمى بن ربيعة . . فاذا صح ذلك فهو أخو قرانة الذي يذكر ابو زيد والمرزباني جاهليته .. وكذلك فان روح الشعر جاهلي .

(٢١) ديوان بشر رقم ٢٥ ص ١١٩ .

وقد أولع الأعشى بهـذا اللون من الشعر وتفنّن فيه .. ومن ذلك قوله[٢٢] :

لعمرُك ما طول هـذا الزمن	على المرء الا ّ عنـاء معن
يظـلّ رجيما لريب المنـون	وللسُّقْم في أهله والحَزن
وهـا لك أهـل يجنّـونـه	كآخـرَ في قفـرة لم يجـن
وما إن أرى الدهـر في صَرفه	يغـادر من شـارخ أو يَفَن
فهل يمنعنّي ارتيـادي البلا	دَ من حـذر الموت أو يـأتين
أليس أخـو الموت مستوثقـا	عليّ وان قلت قـد أنسـأن
عليّ رقيب لـه حـافـظ	فقـل في امـرىء غلق مرتهـن
أزال أذينـة عن ملكـه	وأخرج من حِصْنه ذا يـزن
وخـان النعيمُ أبـا مـالـك	وأيّ امرىءٍ لم يخنـه الزمن
أفـاد الملوك فأفنـاهـم	وأخـرج من بيتـه ذا حـزن
وعهـدُ الشـباب ولذاتُه	فـأن يك ذلك قد نُتَّـدن
وطاوعت ذا الحلم فاقتـادني	وقـد كنت أمنـع منـه الرسن
وعاصيت قلبي بعـد الصـبا	وأمسى وما ان لـه من شـجن
فقد أشرب الراح قـد تعلميـ	ـن يوم المُقـام ويوم الظَّعَن
وأشرب بالريف حتى يقـال	لَ قد طال بالريف ما قد دجـن
وأقـررت عيني من الغـانيـا	ت إمّـا نكـاحـا وإمّـا أزن

• • • • • •

وبيداء قفـر كبرد السـدير	مشـاربها داثرات أجَـن
قطعت اذا خبّ ريعـانهـا	بدوسـرة جسـرة كالفدن

(٢٢) ديوان الاعشى رقم ٢ ص ١٥ . وستاتي امثلة اخرى من شعره .

ومن الواضح أن ذكريات الأعشى الفتى رويت في ظل خواطره في الفناء المسلط على الملوك والسوقة •• والذي لا يغفل عن انسان حلّ أو ارتحل •• وغاية الأمر أن يؤجل الانسان فيلقى العناء المعني من الشيخوخة والسقم وترقب الموت •• والجانب المشرق في الحياة أنها لم يخدع عنها صاحبها •• فقد شرب فأكثر ، وأقر عينه من النساء وركب الاخطار ••

ويقول البرج بن مسهر الطائي(٢٣) :

وندمان يزيد الكأس طيبا   سقيت اذا تعرّضت النجوم
رفعت برأسه وكشفت عنه   بمعرفة ملامة من يلوم
فلمّا أن تنشّى قام خِرْق   من الفتيان مختلف هضيم
الى وجناء ثاوية فكاست   وهي العرقوب منها والصيم
فاشبع شَربه وجرى عليهم   بأبريقين كأسهما رذوم
تراها في الاناء لها حميّا   كميتا مثلما فقع الأديم
فبتنا بين ذاك وبين مسك   فيا عجبا لعيش لو يدوم
يطوّف ما يطوّف ثم يأوى   ذوو الأموال منّا والعديم
الى حفر أسافلهن جوف   وأعلاهن صفّاح مقيم

ونحن نستطيع أن نفهم لاميّة حسّان الشهيرة في آل جفنة في ضوء هذه النماذج فهي في حقيقتها قصيدة ذكرى وليست قصيدة مدح •• ويغلب على الظن أنه نظمها بعد شيخوخة وسنّ عالية • وبعد ان ذهب ملك آل جفنة فهو يقول فيها(٢٤) :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
بين الجوابي فالبضيع فحومل

(٢٣) المؤتلف والمختلف ص ٦٢ ، مجموعة المعاني ص ١٩٩ . وقد حقق المرزوقي جاهلية الشاعر في شرح الحماسة ٣٥٩/١ .

(٢٤) شرح ديوان حسان ص ٣٠٧ . وانظر امثلة اخرى لشعر الفتيان في : شرح ديوان لبيد القصائد رقم ٩ ، ٢٥ ، ٤٨ . المفضليات : الحادرة ←

فالمرج مرجِ الصُفَّرين فجاسم
فديارِ سَلْمى دُرَّسا لم تحلل

دمِن تعاقبها الرياح دوارس
والمدجناتُ من السماك الأعزل

دار لقوم قد أراهم مرّة
فوق الأعزّة عزّهم لم ينقل

لله در عصابة نادمتهم
يوما بجلّق في الزمان الأول

. . . . . .

فلبثت أزمانا طوالا فيهم
ثمّ ادّكرت كأنني لم أفعل

هم إذن ذكرى لم يبق منها شيىء •• وكأنها كانت حلما لم يحدث قط• وهو قد نادمهم في الزمان الاول •• ويستمر الشاعر في استرجاع الذكريات الاخرى •• فيقول :

أما تري رأسي تغيّر لونه — شمطا فأصبح كالثغام المحول
فلقد يراني موعديّ كأنني — في رأس دومة أو سواء الهيكل
ولقد شربت الخمر في حانوتها — صهباء صافية كطعم الفلفل
يسعى عليّ بكأسها متنطّف — فيعلّني منها ولو لم أنهل

. . . . . .

رقم ٨ متمم بن نويرة رقم ٩ ثعلبة بن صعير رقم ٢٤ ، مرقش الاكبر رقم ٥١ ، ربيعة بن مقروم رقم ١١٢ ، علقمة بن عبدة رقم ١٢٠ . الاصمعيات : خفاف بن ندبة رقم ٢ ، والمنخل اليشكرى « الرائية » رقم ١٤ وذهبت في اختيار هذهالقصائد الىوضوح الفكرة فيهاوشمولها لعدة جوانب من الفتوة .

ولقد تقلّدنا العشيرة أمرها   ونسود يوم النائبات ونعتلي

• • • • • •

وتزور أبواب الملوك ركابنا   ومتى نحكّم في البرية نعدل

وليس حسّان مبتدعا أو غريبا حين يجعل منادمة الملوك وأخذ جوائزهم من ألوان فتوّته الماضية .. فقد مرّ بنا في شعر المتلمس الذي رويناه قوله[٢٥] :

ولم يمدح القرم الهماك بكفه   لطائم يسقى من فواضلها القفر

ويفخر الأعشى بمدح جماعة من الملوك على النحو الذي عرفناه في شعر الفتيان فيقول[٢٦] :

ولقد ساءها البياض فلطّت   بحجاب من دوننا مسدوف

فاعرفي للمشيب اذ شمل الرأ   س فان الشباب غير حليف

ودعي الذكر من عشائي فما يد   ريك ما قوّتي وما تصريفي

وصحبنا من آل جفنة أملا   كا كراما بالشام ذات الرفيف

وبني المنذر الاشاهب بالحيـ   ـرة يمشون غدوة كالسيوف

وجُلَنداء في عمانَ مقيما   ثم قيسا في حضرموت المنيف

قاعدا حوله الندامى فما ينـ   فك يؤتى بموكر مجدوف

وصدوح اذا يهيجها الشر   ب ترقّت في مزهر مندوف

بينما المرء كالردينيّ ذى الجدّ   ة سوّاه مصلح التثقيف

أو اناء النضار لاحمه القيـ   ـن وداري صدوعه بالكتيف

ردّه دهره المضلّل حتى   عاد من بعد مشيه كالدليف

---

(٢٥) هامش رقم ١٢ من هذا الفصل ..

(٢٦) ديوان الاعشى رقم ٦٣ ص ٣١٣ .

وقد لاحظ د. محمد حسين أن هذه القصيدة ليست مديحا لبعض هؤلاء الملوك كما روى ثعلب وذكر ان القصيدة مما يتذكر الاعشى شبابه فيه وعندي أن لامية حسّان لا تختلف عنها ..

المرأة في شعر الفتيان

وقد رأينا أن من ضروب مفاخر الفتيان اختلاب النساء .. ونحن نلاحظ في حديثهم عن ذلك انهم لا يهتمون بالعواطف الرقيقة المخلصة وانما يذهبون الى المتعة المادية .. ومن هنا نجد امرأ القيس يذكر أكثر من امرأة .. أما بتسمية عدة نساء .. أو على طريقتهم في التكثير « ومثلك .. وبيضاء » ان المرأة في هذا الحديث ليست انسانا بقدر ما هي أداة للمتعة[٢٧] . وللمرأة دور آخر في هذا اللون من الشعر .. فنحن كثيرا ما نجدها شابّة خالدة الشباب تسخر من الشاعر الشيخ وتهزأ من ضعفه وتعرض عنه .. فتستثير حديثه عن فتوّته الماضية ذلك مع أن الشاعر يروي لنا بعض ذكريات شبابه مع هذه الفتاة نفسها .. فكأنه شاخ وشاب رأسه وبقيت حبيبة صباه خارج نطاق الزمن .. يقول الاعشى[٢٨] :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا
واحتلّت الغمر فالجُدَّين فالفرَعا

وانكرتني وما كان الذي نَكِرت
من الحوادث الاّ الشيبَ والصلعا

---

(٢٧) استدل د . محمد حسين على هذه النظرة الى المرأة في شعر الاعشى بانه يهمل تسميتها احيانا ويكتفي بالاشارة اليها . . : مقدمة ديوان الاعشى ص ق . ويقول ص ٨٢ في شرح القصيدة رقم ١٠ : « والاعشى هنا كما هو في كثير من قصائده لا يعنيه من أمر صاحبته التي يتغنى بها الا انها وسيلة لتحقيق لذته ولذلك فهو لا يذكر اسمها وانما يشير اليها ب «تيّا » فهو لا يتغنى بها في حقيقة الامر وانما يتغنى بلذته».

(٢٨) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١٠١

قد يترك الدهـــر في خلقــاءَ راســيةٍ
وهيــا وينزل منهـــا الأعصـــم الصدعــا

بانت وقـــد أســأرت في النفس حاجتَها
بعــــــد ائتــلاف وخيرُ الودّ ما نفعــــا

وقـد أرانـا طـلابـا هـمَّ صـــــاحبِه
لو أن شــيئا اذا ما فاتنـــــا رجعـــا

تعصي الوشــاة وكان الحبُّ آنــة
مما يزيّن للمشـــغوف ما صـــــــنعا

وكـــــان شـــيء الى شـــــيء فغيّره
دهـــر يعـود على تشـــتيت ما جمعــــا

وما طـلابـك شـــيئا لست مدركـــــه
ان كان عنك غراب الجهـــل قـــد وقعا

هذه سعاد تنكر على الشاعر شيبه وصلعه ، ولكنها في مثل ســـنّه كما يقول •• لأنه عرفها وعرفته في الشـــــباب •• ومثـل ذلك قول الاعشـــى أيضاً(٢٩) :

ألم تنـه نفســـك عمّا بهـــا	بلى عادهـــا بعض أطرابهــــا
لجـــارتنـــا اذ رأت امّتي	تقــول لك الويل أنى بهـا
فان تعهـــديني ولي لمّــة	فانّ الحوادث ألوى بهــــا

وفي هذه القصيدة يقول :

مضى لي ثمانون من مولـــدي	كذلك تفصـــيل حسّابهـا
فأصـــبحت ودّعت لهو الشبا	ب والخنـــدريس لأصـــحابها

---

(٢٩) ديوان الاعشى رقم ٢٢ ص ١٧١ — ١٧٣ .

فهذه الجارة التي كانت تعهد الأعشى شابا له لمّة تعجب لشيخوخته وهو في الثمانين من عمره أما هي فلا يبدو أنّ للسنين بها شأنا . ويقول الاسود بن يعفر(٣٠) :

قد أصبح الحبل من أسماء مصروما
بعد إئتلافٍ وحبٍّ كان مكتوما
واستبدلت خلّة مني وقد علمت
أن لن أبيت بوادي الخسف مذموما
عفٌّ صليب اذا ما جُلْبَةٌ أزَمَت
من خير قومك موجودا ومعلوما
لمّا رأت أن شيب المرء شامله
بعد الشباب وكان الشيب مسؤوما
صدّت وقالت أرى شيبا تفرّعه
انّ الشباب الذي يعلو الجراثيما

ويقول(٣١) :

صحا سَكَرَ منه طويل بزينبا
تعاقبه لمّا استبان وجرّبا
وأحكمه شيبُ القَذال عن الصبى
فكيف تصابيه وقد صار أشيبا
وكان له فيما أفاد حلائل
عَجِلن اذا لاقينه قلن مرحبا
فأصبحن لا يسألنه عن غيابه
أصعّد في علو الهوى أم تصوّبا

(٣٠) المفضليات رقم ١٢٥ ص ٤١٨ .
(٣١) الصبح المنير ص ٢٩٣ .

على انه يغنينا عن الازدياد من الامثال ان هذه الظاهرة هي الاصل في شعرهم والنادر أن يذكر الشاعر أنّ صاحبته شاخت كما شاخ • ومن هذا النادر قول شعبة بن قمير الطهوي[٣٢] :

وما تنكري منّي فقد ردّ مثله
عليك اختلاف بكرة وأصيل
تقعقع قلباها وشاب لداتها
وجازت لطيش نبلها ونصولي

وقول معاوية بن مالك معوّد الحكماء[٣٣] :

أجدّ القلب من سلمى اجتنابا
وأقصر بعد ما شابت وشابا
وشاب لداته وعدلن عنه
كما أنضيت من لبس ثيابا
فان تك نبلها طاشت ونبلي
فقد نرمي بها حِقَبا صِيابا
فتصطاد الرجال اذا رمتهم
وأصطاد المخبأة الكَعابا

وهذا اللون الواقعي من الحديث عن المرأة نادر كما ذكرنا ، مما يحتم علينا أن نفهم المرأة ـ وان حدّد اسمها ـ على انها اللذة والمتعة وحياة اللهو يتغنون بها وبشبابها الخالد • فالشاعر يهرم ويشيخ ولكنّ شوقه الى الحياة يظل شابا •

(٣٢) المؤتلف والمختلف ص ١٤٣ . وفيه جادت لطيش .

(٣٣) المفضليات رقم ١٠٥ ص ٣٥٧ .. وانظر القصيدة رقم ٦٣ في ديوان الاعشى وفيها يذكر مكابرة صاحبته ورفضها الاعتراف بالكبر .

ويغلب على خمر الفتيان أن تكون صبوحا يباكرونها قبل الفجر وقبل ان ينتشر الناس في الأرض وقبل أن يسمع صوت الطير .. وهذه عناية لا شك فيها بتأكيد معنى التبكير في شرب الخمر .. يقول الاعشى[٣٤] :

أتاني يؤامرني في الشمول ليلا فقلت له غادها
أرحنا نباكر جدّ الصبوح قبل النفوس وحسّادها
فقمنا ولمّا يصح ديكنا الى جونة عند حدّادها

ويقول :

وكأس كعين الديك باكرت حدّها
بفتيان صدق والنواقيس تضرب

ويقول :

وذات نواف كلون الفصوص باكرتها فادّمجت ابتكارا
غدوت عليها قبيل الشروق إمّا نقالا وإمّا اغتمارا

ويقول عدي بن زيد[٣٥] :

هذا وربّ مسوّفين صبحتهم
من خمر بابل لذة للشارب
بكروا عليّ بسحرة فصبحتهم
بإناء ذي كرم كقعب الحالب

---

(٣٤) ديوان الاعشى رقم ٨ ص ٦٩ ، رقم ٣٠ ص ٢٠٣ ، رقم٥ ص ٤٥ .

(٣٥) ديوان عدي بن زيد رقم ٢٨ ص ١٧ . والاغاني « الدار » ٢/٢٥٥ ويذكر ابو الفرج ان في القطعة غناء لحنين الحيري .

ويقول ثعلبة بن صعير[٣٦] :

باكرتهم بسباء جون ذراع
قبل الصباح وقبل لغو الطائر

ويقول عبدة بن الطبيب[٣٧] :

وقد غدوت وقَرْنُ الشمس منفتق
ودونه من سواد الليل تجليل

اذ أشرف الديك يدعو بعض اسرته
لدى الصباح وهم قوم معازيل

الى التجار فأعداني بلذته
رِخو الازار كصدر السيف مشمول

وقد ذكر الاعشى الصبوح في عشرة مواضع من شعره[٣٨] ولم يذكر وقتا آخر لشربه غير ما جاء في قوله[٣٩] :

شربت اذا الراح بعد الاصيل طابت ورفّع أطلالها

وقوله :

ولقد أرجّل جمّتي بعشية للشرب قبل سنابك المرتاد

---

(٣٦) المفضليات رقم ٢٤ ص ١٣٠ .

(٣٧) المفضليات رقم ٢٦ ص ١٤٣ .

(٣٨) ديوان الاعشى « الترقيم للقصيدة فالبيت » : ٥ـ١٢ ، ٦ـ٣٦ ، ٨ ـ ١٠ ، ١٠ ـ ١٠ ، ٢٩ ـ ١٦ ، ٣٠ ـ ١٣ ، ٣٦ ـ ٤٣ ، ٦٤ـ١٣ ، ٧٦ ـ ٧ ، ٧٨ ـ ٢١ . ولم احص الصبوح حين يذكرها على سبيل التشبيه .

(٣٩) ديوان الاعشى رقم ٢١ ص ١٦٣ ، رقم ١٦ ص ١٣١ .

ولعله هنا يقصد أنه يتهيأ في العشية ليصل الى الحانوت قبل الصباح قبل سنابك المرتاد •• وليس في شعر عدي بن زيد[٤٠] وحسّان[٤١] ذكر الغبوق ولعلهم يصورون بهذا الاصرار على الصبوح لهفة الى الخمر وانشغالا بها عما يؤدي الانسان من عمله وما يدبّر من معايشه في النهار •• فهم لا يفرطون في الفرص ولا يشتغلون بغير المتعة •• ومردّ ذلك الى الخوف من الغد ومن مفاجأة الحوادث ••

الصيد في شعر الفتيان :

وقد يفخر الفتيان بالصيد •• ويغلب أن تكون رحلة الصيد التي يفخرون بها الى مكان لم يطأه أحد قبلهم أو مكان مخوف حمته الرماح •• ويتكون مشهد الصيد عادة من وصف لمكان أصابه الغيث فأمرع وزها بالزرع الذي يجتذب الوحش والقسم الآخر من مشهد الصيد يتضمّن وصفا للحصان الذي ركبه الشاعر في رحلته وقد يطغى أحد القسمين على المشهد فيطيل الشاعر في وصف الغيث أو الفرس ويختصر الكلام على القسم الآخر •

يقول امرؤ القيس[٤٢] :

وقد اغتدى والطير في وكناتها
لغيث من الوسمي رائده خال
تحاماه أطراف الرماح تحاميا
وجاد عليه كلّ اسحمَ هطّال

---

(٤٠) ديوان عدى « القصيدة فالبيت » ١٣/١٣ ، ٢/٢٨ ، ١/٤٤ .

(٤١) شرح ديوان حسان :
ص ١١٢ اهوى حديث الندمان في فلق الصبح وصوت المسامر الغرد
ص ٢٣٥ :
مع ندامى بيض الوجوه كرام نبهوا بعد خفقة الاشراط
ص ٢٥٦ .
وقد غدوت على الحانوت يصحبني من عاتق مثل عين الديك شعشاع
ص ٤١٢ :
لتصطبحن وان اعرضت عنها ولو اني بحيبته سقاني

(٤٢) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٣٦ .

بعجلزة قـد أترز الجـرى لحمهـا
كميت كـأنهـا هـراوة منـوال
ذعـرت بهـا سربـا نقيـا جلوده
وأكرعـه وشي البرود من الخـال

الى آخر قوله في ذلك .. ويقول امرؤ القيس أيضاً[٤٣] :

وغائط قـد قطعت وحـدي   للقلب من خـوفـه اجـلال
صـاب عليـه ربيـع باكـر   كـأن قريـانـه الرحـال
تقـدمني نهـدة سـبوح   صـلّبها العضّ والحيـال

ويقول زهير[٤٤] :

وغيثٍ من الوسـميّ حـوّ تلاعـه
أجابت روابيـه النجا وهواطـله
هبطت بمسـود النواشر سـابح
ممَرّ أسـيل الخد نهـدٍ مراكله

ويقـول طرفة[٤٥] :

وضـبابٍ سَـفَرَ الماء بهـا
غرقت أولاجُهـا غير الثـدَد
فهي موتى لعـب المـاء بهـا
في غثـاء سـاقه السـيل عدَد
قـد تبطّنت بطِـرف هيكـلٍ
غيرِ مربـاء على جـأب مكَـد

---

(٤٣) المصدر السابق رقم ٣٣ ص ١٩٠ .
(٤٤) شرح ديوان زهير ص ١٢٧ ، مختار الشعر الجاهلي ص ٢٤١ والنص منه .
(٤٥) ديوان طرفة رقم ٣ ص ٢٨ .

ويقول لبيد[٤٦] :

وغيثٍ بدكداك يزين وهاده
نبات كوشي العبقري المخلّب

أربّت عليه كلّ وطفاء جونةٍ
هتوفٍ متى ينزف لها الوبل تسكب

بدي بهجة كنّ المقانب صوبه
وزيّنه أطراف نبت مشرّب

الى أن يصل الى وصف حصانه فيقول :

بسرت نداه لم تسرّب وحوشه
بغرب كجذعِ الهاجريّ المشذّب

ويقول تميم بن أبيّ بن مقبل[٤٧] :

وغيثٍ مريع لم يجدّع نباته
ولته أهاليل السماكين معشبِ

بسرت وغنّاني الذباب عشية
بذابله والشمسُ لمّا تغيّب

وللشمس أسباب كأن شعاعها
ممدّ حبالٍ في خباء مطنّب

بذي ميعة كأن بعض سقاطه
وتعدائه رِسْلاً ذآليل ثعلب

ويقول[٤٨] :

وغيثٍ تبطّنت الندى في تلاعه بمضطلع التعداء نهد مراكله

---

(٤٦) شرح ديوان لبيد رقم ٢ ص ١١ .

(٤٧) ديوان ابن مقبل رقم ٢ ص ٨ .

(٤٨) ديوان ابن مقبل رقم ٣٢ ص ٢٤٦ .

ويقـول[٤٩] :

وغيثٍ تبطّنت قُرْيـانـه إذا رفَّـه الوبلُ عنـه دجن
وقـوف بـه تحت أظـلالـه كهول الخزامى وقوف الظّعَن
كـأنّ صـواهـل ذِبّـانـه قبيل الصباح صهيل الحصن
بنهـد المراكـل ذى ميعـة أزلَّ العشـار معـنّ مفـن

ولعل تداعي وصف الغيث والحصان داخل اطار مشهد الصيد أوجد تداعيا بين الموضوعين بعامة .. وذلك يمكن أن يفسّر لنا تعاقب وصف الفرس والامطار في معلّقة امرىء القيس التي يبدو فيها جزءا الصورة منفصلين .. يقول امرؤ القيس :

وأنت اذا استدبرته سدّ فرجَه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل
أحار ترى برقا كـأن وميضـه كلمع اليـدين في حبّي مكلّـل

ومثل ذلك قوله في الضاديّة[٥٠] :

. . . .

وأضـحى يسـحّ الماء عن كلّ فيقـة
يحـوز الضـباب في صـفاصـف بيضِ
فأسـقي بـه أختي ضـعيفة إذ نأت
وإذ بعـد المزار غيرَ القـريضِ
ومربـأة كـالـزجّ أشـرفت فوقهـا
أقلّب طرفي في فضـاء عريضِ
فظلّت وظـلّ الجون عندي بلبده
كـأني أعـدّي عن جنـاح مهيضِ

---

(٤٩) ديوان ابن مقبل رقم ٣٨ ص ٢٨٩ .
(٥٠) ديوان امرىء القيس رقم ٥ ص ٧٣ .

الى آخر قوله في وصف حصانه ثم صيده •• وقد يبدو لنا وصف الامطار في المعلقة والضادية بعيدا عن أن يصوّر مكانا للصيد لأنه في الحقيقة وصف لعاصفة ، ولكنّ ذلك لا يمنع من تداعي وصف الغيث والخيل تأثرا بمشهد الصيد •• ويبدو ذلك في قول امرىء القيس أيضا[٥١] :

ديمة" هطلاء فيها وطف	طبق الأرض تحرّى وتدر
تخرج الودّ اذا ما أشجذت	وتواريه إذا ما تشتكر
وترى الضبّ خفيفا ماهرا	ثانيا برثنه ما ينعفر
وترى الشجراء في ريّقه	كرؤوس قطّعت فيها الخمُر
ساعة ثم انتحاها وابل	ساقط الاكناف واه منهمر
راح تمريه الصبا ثمّ انتحى	فيه شؤبوب جنوب منفجر
ثجّ حتى ضاق عن آذيّه	عرضُ خيم فجفاف فيسر
قد غدا يحملني في أنفه	لاحق الأِطلين محبوك ممر

ففي هذه القطعة يصف امرؤ القيس عاصفة على نحو ما يفعل في المعلّقة والضادية •• ثم يتلو هذا الوصف بذكر الفرس الذي حمله في أنف العاصفة •

وقد لاحظنا في حديثنا على علاقة وصف الماء بالرثاء أنه يأتي في أحيان كثيرة للتسلّي عن صور الفناء واستبعادها •• وأنه لذلك يشبه أن يكون رمزا للحياة •• ونضيف هنا أن وصف الحصان بعد وصف الطبيعة السخية ينم عن تعلّق الفتى بالحياة •• وانغماسه في الطبيعة •

الناقة في شعر الفتيان :

ومما يرويه الفتيان كذلك في شعرهم حديث قطعهم الصحارى والمفاوز المهلكة على ناقة يصفونها •• وليس لهذا الوصف وظيفة فنية في القصيدة أحيانا •• كما في شعر الاسود بن يعفر وعبد يغوث الحارثي الذي

---

(٥١) ديوان امرىء القيس رقم ٢٧ ص ١٤٤ .

روينا[٥٢] •• ولكن الاعشى بجمعه بين حياة الفتيـــان والتعبير عنها وبين احترافه المدح يفيد أحيانا من الاسفار فائدة فنيّة •• ونستطيع أن نرصـــد محاولته في هذا المجال •• فهو قد يدرج حديث أسفاره في كلامه عن ذكريات شبابه كما في قوله فاخرا[٥٣] :

أجِدّ َ بتيّـا هجرُهـا وشتاتُها	وحبٌ بها لو تُسـتطاع طِياتُهـا
وما خلت رأيَ السوء عَلَّق قلبـه	بوهنانة قـد أوهنتهـا سِـناتها
رأت عُجُزا في الحيّ أسنان أمها	لداتي وشـبّانُ الرجـال لداتُهـا
فشـايعها ما أبصرت تحت درعهـا	على صومنا واستعجلتها أنـاتهـا
ومثلكِ خَوْدٍ بادن قـد طلبتهـا	وسـاعيت معصيا لدينا وشـاتها
متى تُسْقَ َ من أنيابها بعـد هجعة	من الليل شِرْبًا حين مالت طلاتهـا
تخـله فِلسـطيّا اذا ذقت طعمـه	على رَبِذات النّيّ حمشٍ لثاتهـا
وخصـم تمنّى فاجتنيت بـه المنى	وعوجاءَ حرفٍ ليّنٍ عذباتهـا
تعـاللتهـا بالسـوط بعـد كلالها	على صحصح تَدْمى به بَخَصاتها
وكأس كماء النيّ باكرت حدّهـا	بِغِرّتهـا اذ غاب عنّي بغاتهـا

ومن الواضح أن الناقة والسفر أدرجا ادراجا في جملة من أعمال الفتوّة والشاعر لا يتوصل بذكر ناقته الى شيءٍ ، وهو قـد يغفل الاسـتفادة من وصف الناقة في قصائد المديح ـ كذلك يقول الاعشى[٥٤] :

• • • • • • • • •

فأن تك لمتي يا قتل أضـحت	كـأن لم أجر في ددن غـلامـا
وأقصـر باطلي وصحوت حنى	كـأن لـم أجر في ددن غـلاما
فإنّ دوائـر الأيّـام يفني	تتـابُع وقعهـا الذكر الحساما
وقـد أقرى الهموم اذا اعترتني	عُذافِـرةٌ مضبّرةٌ عُقـامـا

• • • • • • • • •

---

(٥٢) الهوامش : رقم ١٩ ، ١٥ من هذا الفصل . ص ٢٠٥ ، ١٦٦

(٥٣) ديوان الاعشى رقم ١٠ ص ٨٣ .

(٥٤) ديوان الاعشى رقم ٢٩ ص ١٩٥ ــ ١٩٦ .

وادكنَ عاتقٍ حَجْلٍ سِبَحل   صبحت براحه شَرْبا كراما

. . . .

وبيضاءِ المعاصم إلفِ لهوٍ   خلوت بِشَكْرها ليلا تماما
حلفت لكم على ما قـد نعيتم   برأس العين إن نفض السَقاما
وشـيكا ثم ثاب إليه جمع   ليلتمسنْ بلادَكم إلى ما

وفي قصيدة أخرى يقدم الاعشى وصف أسفاره ثم يستطرد الى ألوان أخرى من فتوته حتى اذا وصل الى موضع المديح لمّح الى الناقة تلميحا ، يقول الأعشى(٥٥) :

فكيف بدهر خلا ذكره   وكيف لنفس بإعجابها
وإذ لمّتي كجناح الغداف   ترنو الكعاب لأعجابها
وعنسٍ حملت على سبسب   مواشكةٍ حين يُرمى بها
ويَعْلنُ منها صريف السديس   اذا صرّفته بأَنيابها
أكلت السنامَ فأفنيتُه   وشُدَّ النسوع بأَصلابها
وكأسٍ شربت على لذّة   وأخرى تداويت منها بها

. . . .

وكعبة نجران حتم عليك   حتى تناخي بأبوابها

ونجده احيانا يؤخر حديث جرأته على الاسفار ليتوصل به الى المدح وهو يبدأ حديثه عن سفره على انه لون من افعاله اذ هو فتى ـ ولكننا نفهم في آخر حديثه أنه يرتحل الى ممدوحه(٥٦) :

فأما تريني على آلة   قليت الصبا وهجرت التجارا

---

(٥٥) ديوان الاعشى رقم ٢٢ ص ١٧١ ـ ١٧٣ . وفي المطبوع نقص في بعض الابيات اكمله لي استاذي د . محمد حسين عن مخطوطة المكتبة المتوكلية باليمن المحفوظة صورتها بمكتبة جامعة الدول العربية ص ٤١ ب .

(٥٦) ديوان الاعشى رقم ٥ ص ٤٥ ـ ٤٧ .

فقد أخرج الكاعب المُسْتَرا ةَ من خدرها وأشيع القمارا
وذاتِ نواف كلون الفصو ص باكرتها فادّمجت ابتكارا

. . . .

وشوقٍ عَلوق تناسيته بجوّالة تستخف الضفارا

. . . .

فلا تشتكنّ اليّ الوجا وطول السرى واجعليه اصطبارا
رواحَ العشيّ وسير الغدوّ يد الدهر حتى تلاقي الخيارا
تلاقين قيسا وأتباعه يسعّر لحرب نارا فنارا

ولست أزعم ان هناك تسلسلا زمنيا لهذه القصائد ؛ وان الشاعر الجاهلي توصل بعد محاولات مختلفة الى استغلال وصف الاسفار استغلالا فنيّا .. ولكن الذى نستطيع ان نلاحظه هو أن هذا اللون من الانتقال من مقدمة القصيدة الحماسية الى المدح لا ينفي الصفة الحماسية الاصيلة لوصف الناقة .. فهو لا يأتي في قصائد المديح وحدها أولا .. وهو شعر حماسي حين يأتي في قصائد المديح كذلك ..

ولم تكن هذه الحياة التي يفخر بها الفتيان هي الحياة الطبيعية المعتادة لاهل الجاهلية فهي بطالة أو باطل ، وهي غيّ وضلال يسدر فيه الشاب ثم يصحو منه الرجل الناضج .. يقول الاعشى(٥٧) :

وأقصرت عن ذكر البطالة والصبا
وكانت سفاها ضلّةً من ضلالكا

ويقول(٥٨) :

فاصبر فانّك طالما أعملت نفسك في الخسارة
ولقد أنى لك ان تفيـ ـق من الصبابة والدعارة

---

(٥٧) ديوان الاعشى رقم ١١ ص ٨٩ .
(٥٨) ديوان الاعشى رقم ٢٠ ص ١٥٥ .

ويقول النابغة[٥٩] :

على حينَ عاتبت المشيبَ على الصبا وقلت ألمّا أصح والشيب وازع

ويقول زهير[٦٠] :

صحا القلب عن سلمى وأَقصر باطله وعرّي أفراس الصبا ورواحله
واقصر عمّا تعلمين وسُدّدت عليّ سوى قصد السبيل معادله

ويقـول طرفة :

أرى قبر نحّام بخيل بماله كقبر غويّ في البطالة مفسد

ويقول دريد في مرثية أخيه[٦١] :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعُد

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمي[٦٢] :

صحوت وزايلني باطلي لعمرُ أبيك زيالا طويلا

ولم يكن التطرف في التماس المتعة مقبولا في دين الجاهلية وأصرح ما وصلنا مما يدل على ذلك قول الاسود بن يعفر[٦٣] :

ألم يأتها أَنّي صحوت عن الصبا وألت الى اكرومة وتديّن
وفارقت لذات الشباب وأَهله كفرقة غاد مشئم لميمّن

(٥٩) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٦ .
(٦٠) شرح ديوان زهير ص ١٢٦ .
(٦١) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١٤ .
(٦٢) المفضليات رقم ١١٧ ص ٣٨٦ .
(٦٣) منتهى الطلب ٨٥/١ .

ويحس الاعشى أن ما أصابه من آلام في شيخوخته كان عقابا على ما ركب من اثم في صباه فيقول[٦٤] :

وما كان ذلك إلاّ الصبـــا   والاّ عقابَ امرىء قد أثم

ولا نستطيع أن نغفل ملاحظة ابن سلاّم التي تقسم الشعراء الى متألّه ومتعهّر .. فنحن نفتقد صورة الفتى في شعر زهير الا في همزيّته في هجاء آل حصن وقد تكون هذه القصيدة من شعره المبكر .. وقد كان فيما يروى يكثر من الندم على ما قاله فيهـــا في آل حصن ويرى انه معرّض لعقوبة من الله عليها ..

شعر الكرم

وقد انطلق قسم من اهل الجاهلية من تفكيرهم في الفناء الى الزهد في المال والاسراف في انفاقه والجود به . والخطّ العام لتفكيرهم أن المال لا يسدّ في عمر الانسان والفقر لا يعجّل منيته ، وان الانسان فاقد ماله حتما وانما يكسب البخيل في النهاية سوء الاحـــدوثة في الناس ، يقول حطـــائط بن يعفر[٦٥] :

تقول ابنة العبّاب رهْم حرَبْتنـــا	حُطَائط لم تترك لنفسك مقعدا
إذا ما جمعنا صِرْمة بعد هجمة	تكون علينا كابن أمـــك مبردا
فقلت ولم اعيَ الجوابَ تأمّلي	أكان هزالا حتف زيد وأربـــدا
أريني جوادا مات هُزلا لعلّني	أرى ما ترين أو بخيـــلا مخلّدا
ذريني أكن للمال ربّا ولا يكـــن	لي المال ربّا تحمدى غبّه غدا
ذريني فلا أعيا بما حـــل ســاحتي	أســـود فأكفي أو أطيـــع المســودا
ذريني يكن مالي لعرضي وقاية	يقي المال عرضي قبل ان يتبدّدا

(٦٤) ديوان الاعشى رقم ٤ ص ٣٥ ، وانظر الكلام على التاله في الفصل الثاني من الباب الاول . ص ١١٤

(٦٥) الاغاني « الدار » ٢٧/١٣ عن المفضل شرح الحماسة للمرزوقـــي ١٧٣٢/٤ .

وشعر حطائط هذا من اجمل مـــا قالوا في الكرم واحفله بالتأمل ..
فالشاعر يبرر كرمه بالوان من الحجج .. فلا الكرم يؤدي الى فقر صاحبه حتى يموت هزالا .. ولا البخل يحفظ على الناس حياتهم .. والشاعر يرى أنه بكرمه يملك المال ويصرّفه ولا يملكه ماله ويتصرّف به .. وان هذا الكرم يمكنّه من أن يختار مكانه بين قومه سيّدا او مسودا ، وان هذا المال سيتبدد لا محالة وان احسن ما يصنعه به أن يدفع عنعرضه .ويقول تأبط شرا[٦٦]:

بل من لعذّالة خذّالة أشِـــب ... حرّق باللوم جلدى أي إحراق
يقول أهلكت مالا لو قَنِعت به ... من ثوب صدق ومن بزّ واعـلاق
عاذلتي إنّ بعض اللومَ معنفة ... وهـــل متـاع وان أبقيتُه بـاق
إنّي زعيم لئن لم تتركوا عَذَلي ... أن يسأل الحيّ عني أهل آفاق
أَن يسأل القوم عني أهل معرفة ... فلا يُخَبِّرهُـــم عن ثابت لاق
سدّد خلالك من مال تجمّعـــه ... حتى تلاقي الذى كلّ امرىء لاق

ويقول نهيك بن مالك[٦٧] :

يا خال ذرني ومالي ما فعلت به ... وما يصيبك منـــه إنّني مودي
إنّ نهيكا أبى إلاّ خلائقـــه ... حتّى تبيد جبال الحرّة السودُ
فلن أطيعـــك الاّ أن تخلّدني ... فاظر بكيدك هل تسطيع تخليدى

ويقول هاشم بن حرملة[٦٨] :

وعاذلـــة هبّت بليـــل تلومني ... كأني إذا أنفقت مالي أضـــيمها
دعيني فانّ الجود لن يتلف الفتى ... ولن يخلد النفس اللئيمة لومها
وتذكر أَخلاق الفتى وعظـــامه ... مفرّقة في القبـر بـاد رميمهـا

---

(٦٦) المفضليات رقم ١ ص ٣٠ .
(٦٧) الاصابة ٨٤/٦ ، وذكر انه انهب ماله بمكة وانه جاهلي .
(٦٨) الاغاني « الدار » ١٠٣/١٥ . عن الاصمعي .

ومن أشهر أمثلة هذا المعنى قول حاتم الطائي[٦٩] :

أماويّ قد طال التجنّب والهجر وقد عذرتني في طلابكم العــذر
أماويّ إنّ المال غـــاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماويّ إنّي لا اقول لســـائل إذا جاء يوما حلّ في مالنا نذر
أماويّ إمّا مانـــع فمبيّـــن" وامّا عطـــاء" لا ينهنهـــه الزجر
أماويّ مــا يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
إذا أنــــا دلاّني الذين أحبهم لملحودة زلج جوانبهـــا غبـــر
وراحوا عجالا ينفضـــون اكفّهم يقولون قد دمّى أناملنا الحفر
تري أنّ ما أهلكت لم يك ضرّني وأنّ يدى مما بخلت به صـفر

ومن الشـــعراء من يحرص على ان يذكر أن انفاقه المال غير موجه الى الضلال يقول حاتم الطائي[٧٠] :

وعاذلـــة هبّت بليـــل تلومني وقد غاب عَيُّوق الثريـــا فعرّدا
تلوم على الاهلاك في غير ضلّة إذا ضن بالمال البخيـــل وصرّدا

وقد يضيف الشاعر الى حبّه لحسن القالة بين الناس شعورا دينيا بأن انفاقه يرضى الله عنه .. يقول لبيد[٧١] :

تلوم على الاهلاك في غير ضلّة وهل لي ما أمسكت إن كنت باخلا
رأيت التقى والحمد خير تجـــارة رَباحا إذا ما المرء أصبح ثاقلا
وهل هو إلاّ ما أبتنى في حياته إذا قذفوا فوق الضريح الجنادلا
وأثنوا عليه بالذى كان عنـــده وعضّت عليه العائدات الأنامـــلا

---

(٦٩) ديوان حاتم ص ٣٩ .
(٧٠) ديوان حاتم ص ٢٦ .
(٧١) شرح ديوان لبيد رقم ٣٥ ص ٢٤٦ .

ومن الواضح أن الشاعر يبرر كرمه بالتقى والحمد معا .. وهما عنده كل الكسب الذى يراه حقيقيا في حياة الانسان .. واوضح من ذلك قول النمر ابن تولب[٧٢] :

ألا يا ليتني حجر بواد ... أنام وليت أمّي لم تلدني
فاني قد لبست العيش حتى ... مَلَلت من الحياة فقلت قدني
ولاقيت الخيور وأَخطأتني ... شرور جمّة وعلوت قرني
يلوم أخي على إهلاك مالي ... وما إن غاله ظهرى وبطني
ولا ضيّعته فألامَ فيه ... فانّ ضياع مالك غيرُ مَعْن
ولكن كلّ مختبط فقير ... يقول ألا استمع أنبيك شأني
ومسكينٍ وأعمى قال يوما ... أغثني للاله ولا تدعني
اقي حسبي به ويعزّ عرضي ... عليّ إذا الحفيظة أدركتني
وأعلم أن ستدركني المنايا ... فأن لا أتبعها تتّبعني
رأيت المانعين المال يوما ... مصيرهم لألقاء فدفن

والنمر كما لاحظنا يفرّق بين اهلاك المال في الشهوات وبين انفاقه في وجوه الخير واغاثة الضعيف والاعمى الذى يتوسل اليه بالله .. ويبقى أنّ ما يعتبر ضلّة في مقياس الجاهلية هو غير ما نفهمه كمسلمين .. فأجواد الجاهلية يفخرون بأنهم يرّوون نداماهم من الخمر ويعقرون لهم الابل .. وهذا عندهم كرم معتاد مقبول ، يقول النمر تولب[٧٣] :

قامت لتعذلني من الليل ، اسمعي : ... سفَه تَبَيّتُك الملامةَ فاهجعي
لا تجزعي لغد فأمر غد له ... أتعجلين الشرّ ما لم تمْنعي

(٧٢) منتهى الطلب ٤٨/١ ـ ٤٩ . ومن القصيدة ابيات متفرقة في طبقات ابن سلام ص ١٣٤ ، والمعاني الكبير ١٢٦٤/٣ .

(٧٣) خزانة الادب ١٥٣/١ ، والبغدادي ينقل عن شرح ديوان النمر لمحمد ابن حبيب . انظر ١٥٥/١وبعض القصيدة في اللآلىء ٤٨/١، الحماسة البصرية ٣٣/٢ .

قامت تبكّي أن سبأت لفتية زِقاً وخابية بعَودٍ مُقْطَع
وقريت في مقرى قلائصَ أربعا وقريت بعدَ قرى قلائصَ اربع
أتبكّيا من كلّ شيء هيّن سفهٌ بكاءُ العين ما لم تدمع
فاذا أتاني إخوتي فذريهم يتعلّلوا في العيش أو يلهوا معي
لا تطرديهم عن فراشي إنّني لابدّ يوما أن سيخلو مضجعي
هلا سألت بعاديا وبيته والخلّ والخمر التي لم تمنع
لا تجزعي إن منفس أهلكته وإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي

ومن تأملاتهم في شعر الكرم تصويرهم لما يحدث للمال بعد موت مالكه يقول ضمرة بن ضمرة النهشلي(٧٤) :

بكرت تلومك بعد وهن في الندى بسل عليك ملامتي وعتابي
أأصرها وبُنَيّ عمّي ساغب فكفاك من إبة عليّ وعاب
ولقد علمتُ فلا تظنّي غيره أن سوف يظلمني سبيلُ صحابي
أرأيت إن صرخت بليل هامتي وخرجت منها عاريا أثوابي
هل تخمشن إبلي عليّ وجوهها أو تعصبن رؤوسها بسِلاب

ويقول النابغة الجعدى(٧٥) :

أرأيت إن بكرت بليل هامتي وخرجت منها باليا اوصالي
هل تخمشن إبلي عليّ وجوهها أو تضربنّ رؤوسها بمآلي

ويقول ذو الاصبع(٧٦) :

أبنيّ إنّ المال لا يبكي إذا فقد البخيلا
فابسط يمينك بالندى وامدد له باعا طويلا

---

(٧٤) الوحشيات ص ٢٥٦ ، الشعر والشعراء ٢١١/١ .

(٧٥) شعر النابغة الجعدي ص ٢٢٦ .

(٧٦) الاغاني « الدار » ٩٩/٣ . وانظر ابياتا في المعنى انشدها في معجم البلدان من رواية ابن الاعرابي لرجل من بني دبير ٣٤١/١ . ولم يذكر زمنه .

وتحدثوا عن الوارث الذى يقبل على المال وينسى صاحبه الميّت .. يقول حاتم الطائي[٧٧] :

أهن للذى تهوى التلاد فانّه إذا متَ كان المال نهبا مقسّما
ولا تشقين فيه فيَسعَدَ وارث به حين تغشى أسود اللون مظلما
يقسّمه غنما وبشرى كرامة وقد صرت في خط من الأرض أعظما
قليل به ما يحمدنّك وارث إذا ساق ممّا كنت تجمع مغنما

ويقول عبيد[٧٨] :

إنّي وجدّك لو أصلحت ما بيدى لم يحسد الناس بعد الموت إصلاحي

ويقول ابو دواد الايادى[٧٩] :

والمرء يكسب ماله بالشحّ يورثه الكلاله

ويقول الاضبط بن قريع السعدى[٨٠] :

قد يجمع المالَ غير آكله ويأكل المالَ غيرُ من جمعه

ويقول النمر بن تولب[٨١] :

وذى إبل يسعى ويحسبها له أخي نصب في رعيها ودؤوب
غدت وغدا ربّ سواه يسوقها وبدّل أحجارا وجال قليب

ويقول الحارث بن حلّزة معبّرا عن الخوف من مفاجأة الحوادث للاغنياء واصحاب الحيطة والصنع للمال[٨٢] :

---

(٧٧) ديوان حاتم ص ٢٤ .
(٧٨) ديوان عبيد رقم ١٢ ص ٤٠ .
(٧٩) دراسات في الادب العربي رقم ٥٤ ص ٣٣٢ .
(٨٠) أمالي القالي ١/١٠٧ ، البيان والتبيين ٣/٣٤١ ، الاغاني « الساسي » ١٦/١٥٥ .
(٨١) الكامل للمبرد ١/٣٢٥ ، الحماسة البصرية ٢/٦٥ .
(٨٢) المفضليات رقم ١٢٧ ص ٤٢٩ .

قلت لعمرو حين أبصرته وقد حبا من دونها عالج
لا تكسع الشّول بأغبارها إنّك لا تدري من الناتج
واحلب لأضيافك ألبانها فانّ شرّ اللبن الوالج
ربّ عشار سوف يغتالها لا مبطيءُ الشدّ ولا عائج
يسوقها شَلاّ إلى أهله كما يسوق البكرةَ الفالج
قد كنت يوما ترتجي رِسلها فأطْرِد الحائل والدالج
بينا الفتى يسعى ويسعى له تاح له من أمره خالج
يترك ما رقّح من عيشه يعيث فيه همج هامج

والحارث يعظ صاحبه بأنه لا يعرف من سينتج هذه الابل التي يحتاط لقوة انسالها باعفائها من الحلب ، وقد يكون الناتج لها مغيرا يذهب بها الى أهله .. أو وارثا يضعف عن حفظها وابلغ من ذلك واكثر تعبيرا عن الخوف على المال من الدهر قول عبيد بن الابرص[٨٣] :

فأَقبل على أفواق مالك إنّما تكلّف م الأشياء ما هو ذاهب

فعبيد يرى ألاّ يأمن صاحبه من الدهر بين الحلبتين .. فيعلّمه أن يحلب ما يكون من اللبن في ابله ولا ينظره حتى يجتمع .. لأن كل شيء ذاهب ؛ والحق أن الجاهلي لا يزهد في المال شاكا في قيمته على النحو الاسلامي .. ولكنه يحب المال ويريد الانتفاع به قبل ذهابه بالجود به وانفاقه .

(٨٣) ديوان عبيد رقم ٤ ص ٩ . واثبت د . حسين نصار في الاصل أفواق سهمك وهي عن الفائق . ونقل عن اساس البلاغة أفواق نبلك . وافواق هي التي اوحت للزمخشري بروايته . . وقد اخترت الرواية الثالثة التي ذكرها المحقق .. والافواق أحد جموع الفيقة وهي ما يكون من لبن بين الحلبتين كما في القاموس .

وادراك الفرسان لحتمية الموت دفعهم الى الجرأة عليه .. فاذا لم يكن تفادي الموت ممكنا فان الخوف منه عبث لا طائل من ورائه .. ومن اشهر الامثلة في هذا المعنى قول عنترة[٨٤] :

بكرت تخوّفني الحتوف كأنني   قد بتّ عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إنّ المنيةَ منهلٌ   لابدّ أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي   أنّي امرؤ سأموت إن لم أقتل

وقوله[٨٤] :

وعرفت أنّ منيّتي إن تأتني   لا ينجني منها الفرار الأسرع
فصبرت عارفة لذلك حرّة   ترسو إذا نفس الجبان تطلّع

ويقول في ذلك برذع بن عدى الظفرى[٨٥] :

وأصبر نفسي في الكريهة إنّه   لذى كلّ جنب مستقرّ ومصرع

ويقول دريد بن الصمة في محاولته انقاذ اخيه[٨٦] :

فطاعنت عنه الخيل حتى تنفست   وحتى علاني حالك اللون أسودُ
طعان امرىء واسى أَخاه بنفسه   وأعلم أن المرء غير مخلّد

ويقول النمر بن تولب[٨٧] :

وإن أنت لاقيت في نجدة   فلا تتكأدك أن تقدما
فانّ المنيّة من يخشها   فسوف تصادفه أَينما
وإن تتخطاك أسبابها   فانّ قصاراك أن تهرما

---

(٨٤) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٩ ، ص ٣٩٣ . وعارفة صفة لمحذوف اي صبرت نفسا عارفة .
(٨٥) الاغاني « دار الكتب » ١٦/٢٣٦ .
(٨٦) الاصمعيات رقم ٢٨ ص ١١٥ .
(٨٧) مختارات ابن الشجري ص ١٧ .

ويقول الحصين بن الحمام[٨٨] :

أبى لابن سلمى أنه غير خالد ملاقي المنايا أىّ صَرف تيمّما
فلست بمتاع الحيـــاة بسبّة ولا مبتغٍ من خشية الموت سلّما

والى هذا يذهب زهير على الاكثر حين يقول :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن رام أسباب السماء بسلّم

وقد استعملت الفكرة في التحريض بين القبائل كما استعملت في النطاق الفردىّ يقول بشامة بن الغدير[٨٩] :

فأمّـــا هلكت ولـــم آتهم فأبلغ أماثل ســهم رســولا
بأن قـومكم خيّروا خَصلتيــن كلتاهما جعلوهـــا عُدولا
خزيُ الحياة وحربُ الصديق وكلاًّ أراه طعــاما وبيـــلا
فان لم يكن غيـــر إحداهمـــا فسيروا إلى الموت سيراً جميلا
ولا تقعـــدوا وبكم منّـــة كفى بالحـــوادث للمرء غولا

ويقول المتلمّس[٩٠] :

أعاذل إنّ المـــرء رهنُ منيّـــة صريعٌ لعافي الطير أو سوف يرمس
فلا تقبلن ضيما مخافة ميتـــة وموتن بها حـــرا وجلدك أملس
فمـــا الناس إلا ما رأوا وتحدّثوا وما العجز الاّ أن يضاموا فيجلسوا

ويقول النمر بن تولب في عكس هذا المعنى[٩١] :

سمونا ليشكر يوم النهاب نهزّ قنـــا ســـمهريّا طوالا
فلمّا التقينا وكان الجـــلاد أحبّوا الحياة فولّوا شـــلالا

---

(٨٨) المفضليات رقم ١٢ ص ٦٩ .
(٨٩) المفضليات رقم ١٠ ص ٥٩ .
(٩٠) ديوان المتلمس ص ١٨٢ .
(٩١) الحيوان ٤٣٦/٦ .

وقريب من جرأتهم على الحرب جرأتهم على الطواف في الارض والنقلة فيها . الا ان السفر يطرح سؤالا عن مكان الموت .. والشاعر يتشجع بأن الموت لا حق بالانسان أقام أم ارتحل .. يقول الحصين بن الحمام أو ابن قميئة[92] :

خليليّ لا تستعجلا أن تزوّدا ... وأن تجمعا شملي وتنتظرا غدا
فما لبث يومـا بسائق مغنم ... ولا سرعة يوما بسـابقة غدا

ويقول عروة بن الورد[93] :

ذريني أطوّف في البـلاد لعلّني ... أخليك أو اغنيك عن سوء محضرى
فأن فاز سـهم للمنية لـم أكن ... ضَروعا وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعـد ... لكم خلف أَدبار البيـوت ومنظر

ويقول[94] :

أرى أُمّ حسانَ الغـداة تلومني ... تخوّفني الاعداء والنفس أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسـرّنا ... ولم تدر أني للمقـام أطوّف
لعلّ الذى خوّفتنا من أمامنـا ... يصـادفه في أهلـه المتخلّف

(٩٢) ديوان عمرو ص ١١ . الاغاني « الدار » ١٤/١٠ ، « الساسي » ١٥٩/١٦ .

(٩٣) ديوان عروة ص ٢٤ ، والاصمعيات رقم ١٠ ص ٣٦ .

(٩٤) ديوان عروة ص ٢٣ .

ويقول الشنفرى[٩٥] :

إذا مـــا أتتني ميتي لم أبالهـــا ... ولم تذر خالاتي الدموعَ وعمّتي
ولو لم أرم في أهـــل بيتي قـــاعدا ... إذن جاءني بين العمودين حُمّتي

ويقول معقّر بن حمار البارقي[٩٦] :

تهيّبك الأسفار من خشيـــة الردى ... وكم قد رأينـــا من رد لا يسافر

ويقول ثعلبة بن عمرو العبدى بعد أن يصف سلاحه[٩٧] :

عتادُ امرىءٍفي الحرب لاواهنِ القوى ... ولا هو عما يَقْدِرُ الله صـــارف
به أشهد الحربَ العوانَ إذا ابدت ... نواجذها واحمرّ منهـــا الطوائف
ولو كنت في غمـــدان يحرس بابه ... أراجيل أُحبُوش وأسودُ آلف
إذا لأتتني حيث كنت منيتـــي ... يخبّ بهـــا هاد لأثري قائف
أمن حذر آتي المهالك ســـادرا ... وأيةُ ارض ليس فيهـــا متـــالف

ويقول الاعشى[٩٨] :

تقول ابنتي حين جد الرحيـــل ... أرانا ســـواء ومن قـــد يَتِم
أبانا فـــلا رِمت من عنـــدنا ... فانّـــا بخير إذا لـــم تَرِم
ويا أبتـــا لا تـــزل عنـــدنا ... فانّا نخـــاف بـــأن تُخْتَرم
أرانـــا إذا أضـــمرتك البـــلا ... د نجفي وتقطـــع منّـــا الرحـــم
أفي الطوف خفت عليّ الـــردى ... وكـــم من رد أهلَه لـــم يرم

---

(٩٥) المفضليات رقم ٢٠ ص ١١٢ .

(٩٦) المؤتلف والمختلف ص ٩٢ ؛ معجم الشعراء ص ٢٠٤ .

(٩٧) المفضليات ص ٢٨٢ رقم ٧٤ . وينسب البيتان الاخيران لأوس بن حجر وابي الطمحان القيني . ديوان اوس رقم ٣٠ ص ٧٤ .

(٩٨) ديوان الاعشى رقم ٤ ص ٤١ .

ويقــول [٩٩] :

تقول بنتي وقد قرّبت مرتحلا ... يارب جنّب أبي الأوصاب والوجعا
واستشفعت من سراة القوم ذا شرف ... فقد عصاها أبوها والذى شفعــا
مهــلا بُنَيّ فانّ المرء يبعثــه ... هم إذا خالط الحيزوم والضّلعــا
عليك مثل الذي صلّيت فاغتمضي ... يوما فأنّ لجنب المرء مضطجعا

ويعكس ذلك في قوله[١٠٠] :

فهل يمنعنّي ارتيـادي البـلا ... د من حــذر الموت أن يـأتين
أليس أخـو الموت مســتوثقا ... عليّ وان قلـت أنســان
عليّ رقيـب لــه حـافـظ ... فقــل في امرىء غَلِق مرتهن

ولا شك ان الكثير من هذا الشعر كالذي رويناه للشـنفري وعروة بن الورد وثعلبة بن عمرو العبدي انمـا يتحدث عن الخروج للغارة والقتال.. ولكن يميّزه مع ذلك أنه يثير ناحية المكان كما يثيرها الاعشى حين يتحـدث عن رحلته الى ممدوحيه .

---

(٩٩) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١٠١ .

(١٠٠) ديوان الاعشى رقم ٢ ص ١٥ .

الفصل الثالث



الشكوى :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطيء يعمّر فيهرم

هذه هي النظرة الجاهلية الى حياة الانسان . فهو داخل حصار محكم مكوّن من الموت وضعف الهرم ، ان كل يوم يمدّ للانسان في عمره يقرّبه من العجز ويفقده مزيدا من بهجة العيش .. وفي ذلك يقول عمرو بن قميئة(١) :

لا تغبط المرء أن يقال له ... أمسى فلان لأمره حكما

إن سرّه طول عيشه فلقد ... أضحى على الوجه طولُ ما سلما

ويقول عبيد(٢) :

ترى المرء يصبو للحياة وطولِها

وفي طولِ عيش المرء أبرحُ تعذيب

---

(١) استوقف هذا المعنى الجاحظ فانشد بعض النصوص التالية في الحيوان ٥٠١/٦ ، ٥٠٣ . وعنه ابن قتيبة في عيون الاخبار ٢٣١/٢ وصاحب الكامل ١٨٧/١ وعيار الشعر ص ٨٠ والصناعتين ص ٣٨ . . مع بعض الاختلاف في نسبة النصوص . . . والبيتان في ديوان عمرو بن قميئة رقم ٤ ص ٢٦ .

(٢) ديوان عبيد رقم ٨ ص ٢٧ .

ويقول النابغة الجعدي[٣] :

المرء يرغب في الحيا ة وطول عيش قد يضرّه
تفنى بشاشته ويبـ ـقى بعد حلو العيش مرّه
وتسوؤه الأيام حتـ ـى لا يرى شيئاً يسرّه

ويقول حميد بن ثور[٤] :

أرى بصري قد رابني بعد حدّة وحسبك داء أن تصحّ وتسلما

ويقول الأعشى فيما يؤدي اليه طول العمر من ألم وأن طول العمر الى غاية[٥] :

لعمرُك ما طول هذا الزمن على المرء إلاّ عناء" معن
يظلّ رجيما لريب المنون وللسُقم في أهله والحزن
وهالكُ أهل •• يجنّونه كآخرَ في قفرة لم يجن
وما إن أرى الدهر في صَرفه يغادر من شارخ أو يفن

ويقول النمر بن تولب شاكيا ما صار اليه من عجز مدّ له في حياته وسلامته[٦] :

لعمري لقد أنكرت نفسي ورابني مع الشيب أَبدالي التي أَتبدّل
فضول" أراها في أديمي بعدما يكون كفافَ اللحم أو هو أفضل
كَأن مِخطاً في يدي حارثيّة صناعٍ علت منّي به الجلدَ من عل
وقولي اذا ما غاب يوما بعيرهم يلاقونه حتى يؤوب المنخّل

(٣) شعر النابغة الجعدي ص ١٩١ . وجاء في الشعر والشعراء ٩٤/١ ان الابيات للذبياني .
(٤) ديوان حميد بن ثور ص ٧
(٥) ديوان الاعشى رقم ٢ ص ١٥ .
(٦) هي مجمهرة النمر في جمهرة اشعار العرب ص ١٩١ .

وأضحي ولم يذهب بعيري غربـةً ... وأشوي الذي أشـوي ولا أتحلّل
وظلعي ولـم أُكْسَر وأنّ ظعينتي ... تلفّ بنيهـا في البجـاد وأعـزل
ودهـري فيكفيني القليـل وأنّني ... أؤوب اذا مـا أبـت لا أتعـلّل
وكنتُ صفيَّ النفس لا شيء دونه ... وقد صرت من إقصا حبيبي أذهـل
بطيءٍ عن الداعي فلسـت بآخـذ ... إليـه سـلاحي مثل ما كنت أفعـل
تدارك ما قبـل الشـباب وبعـده ... حوادث أيـام تضرّ وأغفـل
يؤود الفتى بعـد اعتدال وصحّة ... ينوء اذا رام القيـام ويحمـل
يودّ الفتى طول السـلامة والغنى ... فكيف ترى طول السلامة يفعل

ويقول المرقش الاكبر(٧) :

ليس على طول الحيـاة نـدم ... ومـن وراء المـرء مـا يعـلم

ويبدأ أبو زبيد الطائي مرثيّة أخيه بهذا المعنى كأنه يرى في موت أخيه قبل أن يهرم جانبا من الخير .. يقول أبو زبيد(٨) :

إنّ طـول الحيـاة غيرُ سـعود ... وضـلالٌ تأميل عيش الخلود

ويقول حسّان السعدي أو حنظلة بن أبي عفراء(٩) :

مهما يكن ريب المنـون فأنّني ... أرى قمر الليـل المعذّب كالفتى
يهلّ صغيراً ثمّ يعظم ضـوؤه ... وصورته حتى اذا ما هو استوى
تقارب يخبو ضوؤه وشعاعه ... ويمصح حتى يستسرّ فما يرى
كذلك زيد الأمر ثم انتقاصـه ... وتكراره في إثره بعد ما مضـى

---

(٧) المفضليات رقم ٥٤ ص ٢٣٩ .
(٨) شعر ابي زبيد رقم ٩ ص ٤٢ .
(٩) نوادر ابي زيد ص ١١١ لحسان السعدي وبعضها عن ثعلب الذي روى انها من اقدم الشعر الجاهلي والحيوان ٣/٤٧٨ ، ٦/٥٠١ عن ابي زيد . ومعجم البلدان ٤/١٣٤ لحنظلة . وجاء في الحيوان قمر الليل المعذر . واخترت ما في الاصل وهو النوادر .

أرى الموت ممّن شارك الماء غاية   له أثر يجري إليـــــه ومنتهى
يبيّت أهل الحصن والباب مغلق   ويأتي الجبال من شماريخها العلى
فلا ذا نعـــيم يتــركن لنعيمه   وان قال فرّطني وخذ رشوة أبى
ولا ذا بؤوس يتركن لبؤوســـه   فتنفعه الشكوى اذا ماهو اشتكى

الانسان يمر بدورة كدورة القمر المعذب .. يولد ضعيفا ثم يشـــب ويقوى ثم يأخذ بالنزول حتى اذا ذهب بقيت هـذه الدورة ليمر بها انسان آخر .. ولا نملك الا أن نعجب بهذا التشبيه المقلوب .. فهو يوحي لنـــا بأن عذاب الانسان أوضح في ذهن الشاعر من عذاب القمر .. ولا شـك في أن جمال هذا الايحاء في صدقه .. وكذلك يقف الشاعر عنـد الموت الذي يشبه الماء .. فهو لا يمتنع عليه حصن ولا جبل .. ولا يقبل فديـة من غني منعّم ولا يسمع شكاة بائس فقير .. وهكذا يصور الشاعر لنا الحياة فهي عذاب ينتهي الى فجيعة ..

ومن هذه النظرة الى حياة الانسان بين حتف مفاجيء وبين عمر طويل يؤدي الى العجز أتى الخلاف في لونين من الشكوى .. أولهما يصور فعـل الدهر المفاجيء الذي يغتر الناس وهم غافلون عنه .. ومن ذلك قول عـدي ابن زيد(١٠) :

قـد أرانـا وأهلنـا بحفـــير   نحسب الدهر والسنين شهورا
فأمنّـا وغـرّنـا ذاك حتّى   راعنا الدهر قـد أتـانـا مغـيرا
انّ للدهر صولةً فاحـذرنهـا   لا تبيتن قــد أمنت الدهــورا
قد ينام الفتى صـحيحا فيردى   ولقـد بـات آمنـــا مسرورا
إنّما الدهـر ليّن ونَطــوح   يترك العظم واهيـا مكسورا

(١٠) ديوان عدى رقم ٩ ص ٦٤ .

واللون الآخر من الشكوى يصور فعل الدهر الدائب المستمر الـذي لا يحس به الانسان .. ومن هذا قول الأفوه الأودي[11] :

إن تري رأسـي فيـه قـزع ... وشـواتي خَلّةً فيها دوارْ

فصروف الدهر في أطبـاقـه ... خلعـة فيهـا ارتفـاع وانحدار

بينما الناس عـلى عليـائهـا ... إذ هووا في هوّة منهـا فغـاروا

إنما نعمة قـوم متعـة ... وحيـاة المرء ثوب مسـتعار

وليـاليـه إلال للقـوى ... من مـداه تختليهـا وشـفار

تقطـع الليـلة منـه قـوّة ... وكما كرّت عليـه لا تغـار

حتم الدهـر علينـا أتـه ... ظلف ما نال منّـا وجبـار

فله في كـلّ يوم غـدوة ... ليس منها لامرىء طـار مطـار

والعجز الذي يصير اليه المعمّر في مجتمع يحتاج الى القوّة يدفعه الى الضيق بحياته .. يضاف الى ذلك رتابة الأيام واحساس المعمّر بقلّة نفعـه لأهله وضيقهم به .. يقول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولا لا أبالك يسـأم

ويقول لبيد[12] :

ولقد سئمت من الحيـاة وطولها ... وسؤالِ هذا الناس كيف لبيـد

ويقول زهير بن جناب الكلبي[13] :

لقـد عمّرت حتّى ما أبـالي ... أحتفي في صـباحي أم مسائي

---

(١١) الطرائف الادبية ص ١١ .

(١٢) ديوان لبيد رقم ٥ ص ٣٥ .

(١٣) الاغاني « الساسي »٢١/٩٦ . المعمرين ص ٢٦ .

ويقول المستوغر بن ربيعة[١٤] :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وعمرت عدد السنين مئينا
مائة حدتها بعدها مئتان لي ... وعمرت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقى إلاّ كما قد فاتنا ... يوم يمرّ وليلة تحدونا

ويقول مسافع بن عبد العزّى الضمري[١٥] :

لعمركما لو يسمع الموت قد أتى ... لداع على برء جفته العوائد
به سَقَم من كلّ سُقْم وخبطة ... من الدهر أَصغى غضنه فهو ساجد
اذا مرّ نَعْشٌ قيل نعش مسافع ... ألا لا يؤدي لو بنى لي لاحد
يظنّون أني بعد أوّل ميّت ... فأبقى ويمضي واحد ثمّ واحد
فقالوا له لمّا رأوا طول عمره ... تأتّ لدار الخلد إنّك خالد
غضاب عليّ أن بقيت وإنّني ... بودّى الذي يهوون لو أنا واجد

ومثل ذلك تعبيرا عن ملل المعمّر من الحياة وضيق أهله به قول كعب ابن رداة النخعي[١٦] :

لقد ملّني الادنى وأبغض رؤيتي ... وأنبأني الاّ يحلّ كلامي
على الراحتين مرّة وعلى العصا ... أنوء ثلاثا بعدهنّ قيامي
فياليتني قد سخت في الارض قامة ... وليت طعامي كان فيه حمامي

ولكنّنا نجدهم في أحيان نادرة يتمسكون بفضل من أمل ويعبرون عن بقيّة من قوّة .. ويغلب أن يكون ذلك مواجهة التحدّي ، يقول امرؤ القيس[١٧] :

ألا ان بعد العدم للمرء قنوةً ... وبعد المشيب طولَ عمر وملبسا

---

(١٤) طبقات ابن سلام ص ٢٩ .
(١٥) المعمرين ص ٢٤ .
(١٦) المعمرين ص ٨٢ .
(١٧) ديوان امرىء القيس رقم ١٣ ص ١٠٨ .

ويقول النابغة الجعدي [١٨] :

فأبقى الدهـــر والأيـام منّي | كما أبقى من السـيف اليمـاني
تفلّل وهـــو مـأثور جـــراز | اذا جمعت بقـائمه اليـــدان
ألا زعمت بنـــو كعب بـأني | ـ ألا كذبوا ـ كبير السن فانى
فمن يحرص على كبرى فاني | من الفتيان أزمـــان الخنـــان

ويقول عبّاد بن أنف الكلب الصيداوي[١٩] :

عمرت فلما جزت ســتين حجّة | وســتين قال الناس أنت مفنّد
فقلت لهم بالله هـــل تنكروني | وهل عابني الا ّ السخا والتمجد

حتى يقول بعد استعراض سخائه وفتوّته :

وقلت لهـم إني حميل بمثل مـا | رأيتم طـوال الدهـــر لا أتزيـد

وهذه النظرة الى الحياة تحمل طابع تفكير الشـــيوخ وتمتزج بآلامهم وذكرياتهم وقد لاحظ القدماء وفرة شعر الشيخوخة عند العـــــرب •• فروى عن أبي عمرو بن العلاء قوله : « ما بكت العرب شـيئاً مثل ما بكت الشباب وما بلغت ما هو أهـــله »[٢٠] •• وروى مثل ذلك عن يونس بن حبيب[٢١] • ولعل الاحترام للسن وكذلك الشعور المبكر بانتهاء الشـــباب ـ وما يزال الامران مشهودين في العرب[٢٢] ـ لعلهما أديا الى أن يبدا الشاعر بشكوى الشيب وهو ما يزال شابّا أو كهلا •• فنحن نجد للأعشـــى مثـلا

---

(١٨) شعر النابغة الجعدي ١٦٠ . واعتمدت ترتيب الابيات كما جاء في المعمرين ص ٧١ .

(١٩) المعمرين ص ٤٥ ـ ٤٦ . حميل = كفيل .

(٢٠) الشعر والشعراء ٥٠/٤ .

(٢١) وفيات الاعيان ٢٤٤/٦ .

(٢٢) من مظاهر ذلك ان القبائل تسمي سادتها بالشيوخ وان كانوا شبانا . . وكذلك تسمى العالم بالدين .. ويقـول الشاب المصري لصـاحبه : يابني .. وربما كان أصغر ممن يخاطبه .

خمسا وعشرين قصيدة يزعم فيها أنه شيخ ذهب عنه لهوه وأيام صباه[٢٣] •• هذا وديوانه يضم اثنتين وثمانين قصيدة منها ثلاثون من الارجاز والقصائد غير المقدمة والمقطعات •• ولا ظن أن الاعشى نظم أكثر شعره بعد الخمسين ولا انه كان أخصب شاعرية وهو شيخ منه أيام فتوته • وأقرب الى التصوّر أنه بدأ في شكوى السن قبل أن يتقدم فيها فعلا •• ولا تذكر الاخبار أن امرأ القيس بلغ سنا كبيرة •• وهي تصوره شابا يفتن ابنة قيصر ثم يلاقي نهايته في طريق العودة •• والقسم المقبول من قصة حياته يصوره فتى عابثا انتزعه مصرع أبيه انتزاعا من حياة اللهو • ويروى في شعره مع ذلك قوله[٢٤] :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني   كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

وقوله :

أغادي الصبوح عند هر وفرتنى   وليدا وهل أفنى شبابي غير هر

وقوله :

وقالت بنفسي شباب له   ولمّته قبل أن يشجبا
واذ هي سوداء مثل الفحيم   تغشّى المطانب والمنكبا

ليس غريبا اذن أن يبالغ المعمّر في عدد السنين التي عاشها •• وهذه ظاهرة اصيلة بقيت مشاهدة في الاعراب حتّى قال فيها الجاحظ : « وذكروا انهم وجدوا أطول الناس عمرا في ثلاثة مواضع أولها سرو حمير ثمّ فرغانة ثم اليمامة • وان في الاعراب لأعمارا طوالا على أنّ لهم في ذلك كذبا

---

(٢٣) ديوان الاعشى (الرقم للقصيدة فالبيت) ١/١ ، ١١/٢ ، ٥/٤ ، ٨/٥ ، ١٠/٦ ـ ٣٦ ، ١/٧ ، ٣/١٠ ، ٢/١١ ، ٢٤/١٢ ـ ٢٩ ، ٢/١٣ ، ١/١٤ و ٤٣ ، ٢٣/١٦ ، ٥/١٧ ، ٢٠/٢٠ ، ٢/٢١ ، ٢٣/٢٢ ، ٦/٢٩ ، ٣/٣٣ ، ٣/٣٤ ، ٢/٣٩ ، ١/٥٢ ـ ٤ ، ٩/٦٣ ، ٢/٧٩ ، ١٠/٨٠ ، ١/٦٥ .

(٢٤) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٢٨ ، رقم ١٤ ص ١١٠ ، رقم ٩٨ ص ١٢٩ .

كثيرا •• والهند تربي عليهم في هــذا المعنى •• هكــذا يقــول علماء العرب •• »[٢٥] والحقيقة انه كان من العسير على الاعراب في الجاهلية ـ أن يحققوا أعمارهم فلم يكن لهم تاريخ ثابت يرجعــون اليه •• ولم يكونوا يسجّلون من أمور معاشهم شيئا كثيرا • وأحسب ان احساس المعمّر هــو الذي يتحكم في دعواه في سنّه • فقد يكون ضــيّقا بحياته أو متبجحا مفاخرا بعمله ومعاصرته لعظماء الماضين فيزداد من السنين وبعدّها بالعشرات والمئات •• وقد يكون راضيا عن حياته مفتونا بها فهو يقصّر بعمره • أخلص من ذلك الى ان شعر المعمّرين ليس موضوعا منتحلا كله •• وأن لنا أن نقبل منه ما جاءنا في رواية موثّقة وما كان يحمل الروح الجاهلي في لغته وديباجته وفكرته •• وليست السنون الطوال التي يفصّــل في حسابها المعمّر ـ برغم بعدها عن الحدّ المقبول ـ علامة على الوضع والانتحال دائما •

الموعظـة :

وقد جاءنا في شعر الجاهلية مواعظ انسانية عامة •• وهي تستند الى تلك النظرة المتشائمة الى حياة الانسان في ظل الفناء الذي يتهددها من كلّ مكان •• هذا هو الانسان يدرك ما يؤدي اليه طول العمر وهو مــع ذلـك يحبّ أن يعيش •• وهو موقن من أن يومه آت •• ولكنه ينشـغل عنــه يكاذب الأمل وزائف العلل •• يقول أبو زبيد[٢٦] :

علّل المــرء بالرجاء ويضـــحي ... غرضا للمنون نصــب العــود

ويقول ثوب بن تلدة الأسدي[٢٧] :

وانّ امرءاً قد عاش عشرين حجة ... الى مئتين كلّها وهــــو دائب

رهين لأحـــداث المنايـا وانمـا ... يلهّيه في الدنيا منــاه الكواذب

---

(٢٥) الحيوان ١/١٥٧

(٢٦) شعر ابي زبيد رقم ٩ ص ٤٢ .

(٢٧) المعمرين ص ٦٧ .

ومن العجيب أن الانسان لا يدرك من هذه الآمال الكاذبة شيئا ولا ييأس منها .. وهو لا ينفك يسعى وراءها حياته حتّى يقع به الموت .. يقول امرؤ القيس[٢٨] :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آلي

ويقول لبيد[٢٩] :

اذا المرء أسرى ليلة ظنّ انه قضى عملا والمرء ما عاش عامل

ويقول قيس بن الخطيم في تسليم المؤمن[٣٠] :

يحب المرء أن يلقى مناه ويأبى الله الاّ ما يشاء

ويقول عدي بن زيد من قصيدة تدور حول هذا المعنى[٣١] :

ماذا ترجي النفوس من طلب الـ ـخير وحب الحياة كاذبها
تظن أن لن يصيبها عنت الـ ـدهر وريب المنون كاربها

وهذه الآمال التي يحاولها الانسان ولا يبلغها وينشغل بها عن مشاكل وجوده الحقيقية ليست آمالا عريضة خطيرة .. وانما هي في أصلها الطعام والشراب وما اليهما .. أفليس الانسان مسحورا مغطّى على بصره حين يهتم بالطعام والشراب وينسى مصيره الفاجع .. يقول لبيد[٣٢] :

وليس الناس بعدك في نقير ولا هم غير أصداء وهام
وانّا قد يرى ما نحن فيه ونسحر بالشراب وبالطعام
كما سحرت به أرم وعاد فأضحوا مثل أحلام النيام

---

(٢٨) ديوانه رقم ٢ ص ٣٩ .
(٢٩) ديوان لبيد رقم ٣٦ ص ٢٥٤ .
(٣٠) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١١ ص ٥٣ .
(٣١) ديوان عدى بن زيد رقم ٥ ص ٤٥ .
(٣٢) شرح ديوان لبيد رقم ٢٧ ص ٢٠٩ .

والانسان يسير على خطى اسلافه من الامم البائدة .. وينشغل بمثل ما انشغلوا به عن مثل مصيرهم .. ولم يكن في آمال أرم وعاد ولا أرباب ناعط وحمير أن تبيد قبائلهم ويرث أوطانهم غيرهم .. ولكن ذلك هو ما تحقق لهم من حياتهم دون ما كانوا يرجون .. وذلك هو عجز الانسان الذي يشبه عجز العصافير والذبّان والدود وان كان الانسان يظهر قوة الذئاب .. يقول لبيد (٣٣) :

وأفنى بنات الدهر أرباب ناعط	بمستمع دون السماء ومنظر

. . . .

فان تسألينا فيم نحن فاننا	عصافير من هذا الانام المسحّر
نحلّ بلادا كلّها حلّ قبلنا	ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

ويقول امرؤ القيس(٣٤) :

أرانا موضعين لأمر غيب	ونسحر بالطعام وبالشراب
عصافير وذبّان ودود	وأجرأ من مجلّحة الذئاب
وكلّ مكارم الاخلاق صارت	اليه همّتي وبه اكتسابي
فبعض اللوم عاذلتي فأنّي	ستكفيني التجارب وانتسابي
الى عرق الثرى وشجت عروقي	وهذا الموت يسلبني شبابي
ونفسي سوف يسلبها وجرمي	فيلحقني وشيكا بالتراب
ألم أنض المطيّ بكل خرق	أمق الطول لمّاع السراب
وأركب في اللهام المجر حتى	أنال مآكل القحم الرغاب
وقد طوّفت في الآفاق حتى	رضيت من الغنيمة بالاياب
أبعد الحارث الملك بن عمرو	وبعد الخير حجر ذى القباب

(٣٣) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٥٥ ــ ٥٧ .

(٣٤) ديوان امرىء القيس رقم ١١ ص ٩٧ .
وقد تحدث الجاحظ عن تعبير السحر بالطعام والشراب في البيان والتبيين ١٨٩/١ .

أرجّي من صروف الدهر لينا ولم تغفل عن الصم الهضاب
وأعلم أنني عما قريب سأنشب في شبا ظفر وناب
كما لاقى أبي حجر وجدي ولا أنسى قتيلا بالكلاب

وهذه الوان من المواعظ يقول امرؤ القيس انها كافية لتهديه الى الحق ... فهذا نسبه الطويل في الأموات الى عرق الثرى يذكّره .. وهذا الموت يزحف اليه فعلا فيذهب بشبابه ويسلبه ايّاه .. وهذا طوافه الواسع في الآفاق ينتهي الى غير شيء فيرضى من الغنيمة بالاياب . وهذا مصابه في الملوك من آبائه يؤكد له أن كل شيء باطل .. وهو يشير هذه الاشارة الغامضة الى عاذلته فنظن أنه كان يعيد النظر في حياته اللاهية ممّا اعتبره سحرا بالطعام والشراب في أول شعره .. وانه غني بهذه المواعظ عن عذل عاذلته ..

ويشبه اشارة امرىء القيس الى موعظة النسب قول متمّم بن نويرة[٣٥] .

فعددت آبائي الى عرق الثرى فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا
ذهبوا فلم أدركهم ودعتهم غول أتوها والطريق المهيعُ
لابد من تلف مصيب فانتظر أبأرض قومك أم بأخرى تصرع

ولا يفلت الشاعر الجاهلي من هذه الدائرة المغلقة التي تحاصره الا حين يفزع الى ما في عقيدته من توحيد .. يقول لبيد[٣٦] :

وأكذب النفس اذا حدّثتها انّ صدق النفس يزرى بالأمل
غير ان لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر لله الأجل

---

(٣٥) المفضليات رقم ٩ ص ٥٤ .
(٣٦) شرح ديوان لبيد رقم ٢٦ ص ١٨٠ .

ونحن نرى في شعر لبيد هذا حلا وسطا لمشكلة حياة الانسان الدنيا •• وهو يرى ان الكذب على النفس وخداعها ينفع الناس اذا لم يؤد الى تجاوز حدود التدين والعمل على رضا الله •

وللبيد قصيدة نادرة المثال في شعر الجاهلية هي مرثية للنعمان •• فهو ينظر فيرى كل شيء فانيا •• وينطلق من هذه النقطة الى الايمان بالموجود الثابت وهو الله تعالى • وهو يجد سلوك الناس غريبا حين يهتمون بالزائف الفاني لا الثابت الباقي •• فيعظهم بنسبهم الطويل في الأموات وهو النسب الذي يتفاخرون به ويتمايزون على أساسه • ويخلص من هذه العظة الى أن الانسان يجب أن يتجه الى الله ويتخذ اليه الوسيلة •• يقول لبيد(٣٧) :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول ... أنحب فيقضي أم ضلال وباطل
حبائله مبثوثة بسبيله ... ويفنى اذا ما أخطأته الحبائل
اذا المرء أسرى ليلة ظن أنه ... قضى عملا والمرء ما عاش عامل
فقولا له ان كان يقسم أمره ... ألمّا يعظك الدهر أمك هابل
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى ... ولا أنت ممّا تحذر النفس وائل
فان أنت لم تصدقك نفسك فانتسب ... لعلّك تهديك القرون الأوائل
فان لم تجد من دون عدنان باقيا ... ودون معدّ فلتزعك العواذل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... بلى كلّ ذي لب الى الله واسل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكلّ نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم ... دويهية تصفرّ منها الأنامل

وهذه القصيدة مثال فريد في اكتمال الفكرة وشمول النظرة •• وقريب منها في بعض أفكارها قول عبيد(٣٨) :

من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب

---

(٣٧) شرح ديوان لبيد رقم ٣٦ ص ٢٥٤ .

(٣٨) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١٥ ؛ شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٥٤١ ، جمهرة اشعار العرب ص ١٧٤ ؛ الشعر والشعراء ١٨٩/١ .

بالله يدرك كـــــل خير والقـول في بعضـه تلغيب
والله ليس لـــه شـــريك عـــلّام ما أخفت القـــلوب
والمرء ما عـاش في تكذيـب طـول الحيـاة لـه تعـذيب

ويرجّح د. حسين نصار أن البيت الثالث والرابع ليسا من قول عبيد وانهما منحولان . ولا نجد هذا الشك راجحا لا من الناحية الفكرية ولا من حيث الرواية .. فان التفكير في بطلان الحياة وكذب الآمال أدّى الى ذكر الايمان بالله عند لبيد كما رأينا ، وأنه تعالى الحقيقة الوحيـــدة الثابتة التي ينبغي أن يتوجه اليها الانسان بآماله .. أما قول عبيـــد « ليس له شريك » فقد رأيناه في تلبيات الجاهلية[٣٩] ..

ومن هذا اللون من الموعظة المؤمنة قول زهير أو صرمة بن أبي أنس في رثاء النعمان[٤٠] :

ألا ليت شعري هل يرى النـاس ما أرى
من الأمر أو يبـــدو لهم ما بـدا ليـــا
بدالي أن النـــاس تفنى نفوســــــهم
وأموالهم ولا أرى الدهـــر فانيـــــا
وأني متى أهبـــط من الارض تلعــــة
أجـــد أثرا قبلي جـديدا وعـــافيـــا
أراني اذا ما بت بت عـلى هـــــوى
فثمّ اذا أصـــبحت أصبحت غـاديـــا

(٣٩) ذكرنا شيئا عن الاصنام ص ٧ والمحبر ص ٣١١ ـ ٣١٥ .
(٤٠) شرح ديوان زهير ص ٢٨٣ .. وانظر في ترجمة صرمة بن ابي انس الاصابة ٢٤٢/٣ والشاعر هم بأن يتنصر ثم امسك ولكنه صحح حنيفيته كما يفهم من اخباره ، ثم انه اسلم وصحب النبي عليه الصلاة والسلام ..

الى حفـرة أهـوى اليهـا مقيمـة
يحثّ اليهـا سـائق من ورائيـا

بدا لي أني عشـت تسـعين حجة
تبـاعـا وعشـرا عشـتها وثمانيـا

كـأني وقـد جاوزت تسـعين حجة
خلعت بهـا عن منكبيّ ردائيـا

بـدا لي أن الله حـق فـزادني
الى الحـق تقـوى الله ما قد بدا ليـا

بدا لي أني لسـت مدرك ما مضـى
ولا سابقيٍ شـيء اذا كان جائيـا

وما ان أرى نفسـي تقيهـا كريمتي
وما ان تقي نفسـي كريمة ماليـا

ألا لا أرى على الحـوادث بـاقيـا
ولا خـالـدا الاّ الجبـال الرواسيا

والاّ السـمـاء والبـلاد وربنـا
وأيـامنـا معـدودة والليـاليـا

الشاعر يستعرض الفناء في مظاهر عديدة بسيطة •• فهو يشاهد الناس يفنون هم وأموالهم •• وهو يرى آثار الماضين في كل مكان ينزله •• وعمره الطويل ولى بسرعة غريبة حتى ليخال أنه لم يعش الا بقـدر ما يخلع اللابس ثوبا ••• فكأن من ورائه سائقا يدفعه دفعا •• وليس من امامه الاّ حفرة اذا بلغها هوى فيها •• وهو يصل من ذلك كلـه الى الحق وهو الله تعالى •• ويضيف الى ذلك هذا التسليم الراضي بالقدر فيبدو له أنه لا يمكن أن يردّ ما فاته •• ولا أن يفوته ما كان آتيه •• ولعل ذلك هو رأيه في حياة الانسان الدنيا وآماله فيها •

ومن الحق أن نفهم من غض هذه المواعظ من الحياة الدنيا والحث على طلب ما عند الله أن فيها اشارة الى البعث وايمان قائليها به .. وهو معنى نجده صريحا في قول لبيد في مرثية النعمان التي روينا بعضها[٤١] :

وكل امرىء يوما سيعلم سعيه اذا كشفت عند الاله المحاصل

وقد يكتفي الشاعر من أهل الكتاب او من المتأثرين بهم بالاشارة الى البعث دون أن يعني بكونه ذروة منطقية يصل اليها بعد اطالة الفكر في حياة الانسان . ومن هذا قول السموأل[٤٢] :

ليت شعرى وأشعرن اذا ما قيل اقرأ عنوانها وقريت
ألي الفضل أم عليّ اذا حو سبت اني على الحساب مقيت
ميت دهر قد كنت ثم حييت وحياتي رهن بأن سأموت
وأتتني الانباء أني اذا ما متّ أورمّ اعظمي مبعوت

وهذا الشاعر اليهودي يتناول البعث ببساطة معتمدا على الخبر والانباء. ويقول أمية بن ابي الصلت[٤٣] :

اقترب الوعد والقلوب الى الـ لهو وحبّ الحياة شائقها

---

(٤١) الشعر والشعراء ١٩٩/١ يفترض ابن قتيبة ان البيت اسلامي او منحول أو ان لبيداً كان يؤمن بالحساب قبل اسلامه . . لان لفظة المحاصل تذكر عنده بقوله تعالى « وحصل ما في الصدور» العاديات.١٠. ويلاحظ د . احسان عباس ص ٢٣ من مقدمة ديوانه أن القصيدة في رثاء ملك نصراني مما قد يفسر بعض الافكار الموحدة فيها . . وقد جاء في الصحيح : « اصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : الا كل شيء ماخلا الله باطل . » مسلم ، النووى ١٢/١٥ . وهذا الشطر هو ابرز مافي القصيدة من التوحيد . . لانه يكاد يكون في معنى الشهادة الاولى في الاسلام . . هذا مع ان قول النبي عليه الصلاة والسلام كلمة لبيد قد يعني القصيدة كلها . . وهذا يعني رضاه عليه الصلاة والسلام عن اهم معاني القصيدة .

(٤٢) الاصمعيات رقم ٢٣ ص ٨٥ .

(٤٣) عيون الاخبار ٣٧٤/٢ ، الحماسة البصرية ٤١٩/٢ والكامل ٦٦/١ ،

ما رغبة النفس في الحياة فـــان	تحيا قليـلا فالمـوت لاحقهـا
يقودها قائـــد اليـــه ويحـــ	ـدوها حثيثا اليـــه سائقهـــا
قد أنبئت أنهـــا تعود كمـــا	كان براها بالامس خالقهـــا
وأن ما جمّعت وأعجبهـــــا	من عيشـــة مرّة مفارقهـــا
من لم يمت عبطـــة يمت هرما	الموت كأس والمرء ذائقهـــا
يوشك من فرّ من منيّتـــــه	في بعض غرّاتـــه يوافقهـــا

وامية المطلع على الاديان الكتابية يرى من العجب أن يهتم انسان بالحياة الفانية وقد علم بان الله ادّخر له حياة اخرى ٠٠

ومن المواعظ الجاهلية ما هو موجه الى شخص بعينه أو جماعة بعينها ٠٠ ويغلب أن تكون الموعظة من هذا اللون وليدة ظرف ســيء او حادثة ألمّت بالشاعر ٠٠ وهو يعظ من يعظ بأنه ليس بنجوة من مثـل ما اصابه ٠٠ يقول، عدى بن زيد(٤٤) :

ألا من مبلغ النعمـــان عنّي	علانية فقـــد ذهب الســرار
بأن المرء لـــم يخلق حـــديدا	ولا هُضْبـاً توقّـاه الوبـار
ولكن كالشـــهاب فثم يخبـــو	وحادى الموت عنـــه ما يحار
فهل من خالد إمّا هلكنـــــا	وهـــل بالموت ياللناس عـــار

ويقول(٤٥) :

أيها الشامت المعيّر بالدهـــ	ـــر أأنـت المبـــرّأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيّـ	ـــام بل أنـت جاهـل مغـرور

١/٢٩٧ وفيه يذكر الاخفش ان الاصمعي نسب اربعة ابيات منها لرجل خارجي . وجاء في الموشح ص ١١٢ أن الحسن البصري قال : هي لامية .. وفي القصيدة مما لم ينسب للخارجي افكار ادخل في معاني التوحيد .. وانظر ديوان امية ص ٤٢ .

(٤٤) ديوان عدى بن زيد رقم ٦٠ ص ١٣٢ .

(٤٥) ديوان عدى بن زيد رقم ١٦ ص ٨٧ .

من رأيت المنــون خلّدن أم من ذا عليه من أن يضــام خفير
أين كسرى كسرى الملوك انوشر وان أم أين قبلــه ســابور

. . . .

ثم بعــد الفلاح والملك والأ مـة وارتهم هنـــاك القبـور
ثمّ أضحوا كأنهم ورق جفّ فألوت بــه الصــبا والدبـــور
ان يصبني بعض الأذاة فلاوا ن ضعيف ولا أكبّ عثــور
غير أن الايام يغدرن بالمـــر ء وفيها الميســـور والمعسور
فاصبر النفس للخطوب فأن الـ دهر يدجو حينا وحينا ينير

ونحن نحس أن مواعظ عدى تهدف الى دفع شماتة الشامتين أول مـا تهدف .. ذلك أنها تصور انتصار أعداء الشاعر عرضـاً زائلا .. وتذكّـر هؤلاء الاعداء بما ينتظرهم ممّا يشبه ما اوقعوه بالشاعر .. والى هذا المعنى يذهب فروة بن مسيك المرادى حين يقول(٤٦) :

ومـا أن طبّنـــا جبن ولكن منايانا ودولـــة آخرينـــا
كذاك الدهر دولته ســـجال تكرّ صروفه حينـــا فحينـــا
ومن يغرر بريب الدهر يومـا يجـــد ريب الزمان له خؤونا

ومثل ذلك قول الخنساء(٤٧) :

قل للذى اضحى به شامتـــا إنك والموت غدا في شـــعار
هوّن وجدى أن من ســـره مصـــرعه لاحقـــه لاتمـــار
وانمـــا بينهمـــا روحـــة في اثر غاد سار حدّ النهـــار

(٤٦) الحماسة البصرية ٢١٦/٢ . الوحشيات ص ٢٧ ، اسد الغابة ١٨٠/٤ .
ويذكر انه قال ذلك يوم الردم حين اوقعت همدان بقومه .

(٤٧) انيس الجلساء ص ٤٠ .

وقد يكون معنى الموعظة اظهر من معنى دفع الشماتة عن النفس كما في بعض شعر عبيد بن الابرص •• ومن ذلك قوله(٤٨) :

تمنّى امرؤ القيس موتى وان أمت	فتلك سبيل لست فيها بأوحـد
لعـل الذى يرجو رداى وموتتي	سفاها وجبْنا أن يكون هو الردىَ
وما عيش من يرجو هلاكي بضائرى	ولا موت من قد فات قبلي مخلدى
وللمرء أيام تعد وقـد رعت	حبال المنايا للفتى كلّ مرصـد
منيّتـه تجرى لوقت وقصـره	ملاقاتها يوما على غير مرصـد
فمن لم يمت م اليوم لابدّ أنه	سيعلقه حبل المنيـة في غـد
فقل للذى يبغي خلاف الذى مضى	تهيّأ لأخرى مثلِها فكأن قـد
فـأنّا ومن قد باد منّا فكـالذى	يروح وكالقاضي البيات ليغتدى

ومن الواضح أن الفكرة أنضجعند عبيد منها عندعدى بن زيد برغمشهرته بهذا اللون من الموعظة •• فعبيد يفرّع من الفكرة الرئيسية وهي حتميـة الموت ألوانا من الافكار •• ومن ذلك أن موت الآخرين قبله أو بعده لن يغير من مصيره شيئا • لأن لكلّ انسان اياما معدودة لا تزيد ولا تنقص •• ومن ذلك أن الشاعر يقف عند كل الاحتمالات • فقد يكون حتف امرىء القيس سابقا • وجدير به أن يتدبر أمر نفسه وقد يؤخر امرؤ القيس •• ولكن عليه أن يتساءل : كم أؤخر ؟ وهو سباق خاسر ليس بذى موضوع أو هو سفر دائم •• يروح له بعض الناس ويغدو آخرون •• ويقول عبيد ايضا(٤٩) :

أبلغ أبـا كرب عنّي وأسـرتـه	قولا سيذهب غورا بعد إنجاد
يا عمرو ما راح من قوم ولا بكروا	الاّ وللموت في آثارهم حادى
يا عمرو ما طلعت شمس ولا غربت	الاّ تقرب آجـال لميعـاد
هل نحن الاّ كأرواح تمر بهـا	تحت التراب وأجساد كأجسـاد

---

(٤٨) ديوان عبيد رقم ١٩ ص ٥٦ .

(٤٩) ديوان عبيد رقم ١٦ ص ٤٨ .

فان رأيت بواد حيّـــة ذكرا | فامض ودعني أمارس حيّة الوادى
لا أعرفنّك بعد الموت تنـدبني | وفي حياتي ما زوّدتنـي زادى
فان حييت فلا احسبك في بلدى | وان مرضت فلا احسبك عوّادى
انّ امامك يوما أنت مدركـه | لا حاضر مفلت منـه ولا بادى
فانظر الى فيء ملك أنت تاركـه | هل ترسيـنّ أواخيه بأوتـاد
الخير يبقى وان طـال الزمان به | والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

وعبيد في هذه الموعظة ايضا يحيط بموضوعه •• فهو يعظ هذا الملك الذى تخلّى عن صديقه خوفا على ملكه بأنه ميّت لا محالة •• وانه خاسر هذا الملك الذى يحرص عليه •• وهو يسخر من ادعاء هذا الملك ودّا ليس له وجه عملي •• وهو يصل اخيرا الى هذه الفكرة النادرة في شعر الجاهلية•• فان يكن كل شيء ذاهبا فان الخير باق وان الشر باق •• على ان من اجل ما في الشعر ما يلمح اليه عبيد من ان الموت الذى يفرّ منه هذا الملك لأنه يحسب الخلاص منه ممكنا هو الذى يزيد من جرأة الشاعر ويهوّن عليه أمر حيّـة الوادى •• والحقيقة ان هذا الشعر ان صحّ لعبيد فانه به استاذ هذا اللون من الموعظة •• فهو أقدم من عدى بن زيد اولا وهو أجود منه موعظة كذلك •

ومن هذا اللون من الموعظة قول مصاد بن مذعور القيني مسلّيا نفسه حين أغير على ابله(٥٠) :

هو الدهر آس مرّة ثم جـارح | سوانحه مبثوثة والبـوارح
فبينـا الفتى في ظـل نعماء غضّة | تبـاكره أفيـاؤه وتراوح
الى ان رمته الحادثات بنكبـة | تضيق به منها الرحاب الفسائح
فأصبح نضوا لا ينوء كأنمـا | بأعظمه ممّا بـراه القوادح
فماخلتني من بعد عَرْجٍ عُكامس | أقسّس أذوادا وهـن روازح
حدابيرُ ما ينهضن الاّ تحاملا | شراسف عوج أسأرتها الجوائح

(٥٠) امالي القالي ١٤٣/١ . وتعرف جاهلية الشاعر من اخذه المرباع .

فيا واثقا بالدهـــر كن غير آمن لما تنتضيه الباهظـــات الفوادح
فلست على ايامـــــه بمحكّم اذا فغرت فاها الخطوب الكوالح
مجيرك منه الصبر ان كنت صابرا والا كما يهوى العدوّ المكاشح

ومن المواعظ الجاهلية الموجهة الى أناس بعينهم ما يذكّر بالله تعـــالى ويحذر من عقوبته ويتأسى برحمته وعدله : ومن أشهر اناشيد هذا اللون قول زهيـــر :

فمن مبلغ الاحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كلّ مقسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهمـــا يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يعجّل فينقم

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمي في جملة وصاياه لابنه(٥١) :

الله فاتقـــه وأوف بنَـــذره واذا حلفت ممـــــاريا فتحلّل

ويقول عدى بن زيد(٥٢) :

ليس شيء على المنون ببـــاق غير وجـــه المسبّح الخلاّق
ان نكن آمنين فاجأنا شـــــرّ مصيب ذا الود والاشـــــفاق
فبريء صدرى من الظلم للر ب وحنث بمعـــقد الميثـــاق
وأذهبي يا أميم ان يشأ الـ له ينفّس من أزم هذا الخناق
أو تكن وجهة فتلك سبيب الـ ـناس لا تمنع الحتوف الرواقي

ويقول عدى واصفا نفسه بالتقوى والتديّن وكأنه يخوّف النعمان من ايذائه بان الله تعالى سيساعده ويردّ كيد من يكيد له(٥٣) :

---

(٥١) المفضليات رقم ١١٦ ص ٣٨٤ .

(٥٢) ديوان عدى بن زيد رقم ٩٢ ص ١٥٠ . من الملحق .. وهي مما صححه ابن سلام من شعر عدى . طبقات فحول الشعراء ص ١١٧ ـ ١١٨ .

(٥٣) ديوان عدى رقم ٨ ص ٦٠ .

أبلغ النعمان عنّي مألكـــا قولَ من خافَ اظطنانا فاعتذر
أنّني واللهِ فاقبــل حَـــلفي لأبيل" كلّما صـــلى جار
مرعد" احشاؤه في هيكـــل حسن" لمّتـــه وافي الشـــعر
مؤمنُ الصدر يرجّى عتقَـــه يـوم لا يكفـر عبد ما ادخر
ما حملنا الغلّ من أعـدائكم ولدى الله مـن العـذر المُسَر
حولنا الاعداء ما ينصــــرنا غير عون الله والله نصـــر
لا تكونن كآســـي عظمـــه بأسى حتّى اذا العظم جَبَر
عاد بعد الجبر يبغي وهيـــه ينحونّ المشي منـــه فانكسر
واذكر النعمى التي لم أنسهـا لك في السعي اذا العبد كفـر
فاكتنت لاتك عبـــدا طائرا واحذر الأقتـــال منّا والثور
إنما قـــد قدمت مســـعاتنا نعمـــا ترفع منّا من عثـــر
ولنا مجـــد وربّ مفضـــل بيديه الخيرُ ما شـــاء أمر
منـــه فضـــل ولديـــه سعة انما يرجى لمـــا فات الغير

القدر والحظ في حكمة الجاهلية :

واغلب المواعظ الجاهلية تخوّف من مصير مظلم ينتظر الانسان .. وذلك واضح فيما مرّ بنا منها .. ومن النادر أن نسمع صوتا يدعو الى غضّ النظر عن هذا المصير ومواجهة الحياة بشجاعة .. ومن هذا النادر قول ابن الذئبة الثقفي(٥٤) :

ان المنية بالفتيـــان ذاهبـــة ولو اتقوهـــا بأسياف وادراع
بينا الفتى يبتغي من عيشه سددا اذ حان يوما فنادى باسمهالناعي
لا تجعل الهم غلاّ لا انفراج له ولا تكونن سؤوما ضيّق الباع

(٥٤) المؤتلف والمختلف ص ١٢٠ . وفي سمط اللالىء ٧٩٢/٢ انه جاهلي . وفي الاصل كؤوما .

وقول جثامة بن قيس الكناني[٥٥] :

أصبحت آتي الذي آتي وأتركه وبات اكثر رأى الناس مرتابا
فان أمت والفتى رهن بمصرعه فقد قضيت من الآداب آرابا
وقلّما يفجأ المكروه صاحبه حتى يرى لوجوه الامن ابوابا

ويتناول الاعشى مسألة القدر ببساطة الجاهلي التي ينبغي الاّ نخلط بينها وبين السطحية والسذاجة .. فهو يرى تناقضا بين العدل الذي خصّ به الله تعالى وبين التفاوت البيّن فيما قسمه للناس من حظوظ من الخير والشر . وهو يعجب لهذا الانسان كيف خص بالظلم وهو لا يكون ما يكون بارادة واختيار . يقول الاعشى[٥٦] :

ان محلا وانّ مرتحلا وانّ في السفر ما مضى مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولّى الملامة الرجلا
والارض حمّالة لما حمّل وما ان تردّ ما فعلا
أنشا لها الخفّ والبرائن والـ حافر شتى والأعصم الوعلا
والناس شتى على سجائحهم مستوقحا حافيا منتعلا

---

(٥٥) المؤتلف والمختلف ص ١٠٦ . وفي معجم الشعراء ان لجثامةابنا مخضرما ص ٣٥٦ .

(٥٦) ديوان الاعشى رقم ٣٥ ص ٢٣٣ .. وأورد د . محمد حسين شك ابن قتيبة في اصالة القصيدة . . واظن انه يعبر عن عدائه لافكار الاعتزال بموقفه هذا ... فهو يروى للاعشى بيتا يذكر فيه الملكين الكاتبين ويقول ان ذلك مما بقي من دين اسماعيل عليه السلام ولا يشك فيه . الشعر والشعراء ١٨٦/١ ومما يشير بسر موقفه من اللامية انه روى : استأثر الله بالوفاء وبالحمد بدل العدل ، الشعر والشعراء ١٥/١ . اما قلق النظم فقد لاحظه ابن قتيبة في شعر آخر للاعشى .. ولاحظه ابن طباطبا العلوي في ثلاث قصائد اخرى من شعره . الموشح ص ٦٧ .

ونسبة العدل والوفاء الى الله تعالى هي اعلى ما وصـــل اليه تفكير الجاهلية في القدر .. ونحن نجد هاتين الصفتين منسوبتين اليه تعالى في قول النابغة[٥٧] :

أبى الله الا عدله ووفـــاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

أمّا العدل فصفة مفهومة وتعني ان الله لا يثيب الحسن والمسيء نفس الثواب وذلك يقتضي في الاصل ان يكون عمل الانسان اراديا .. واما الوفاء فيمكن ان نفهم انه التزام الله تعالى بأن يثيب ويعاقب ولا يترك الناس سدى .. فلا النكر معروف ولا العرف ضائع كما يقول النابغة .. ولعـلّ الوفاء في اصطلاح الجاهلية يعني الثقة بالله .. ويشـــير الى معنى قوله تعالى : « ومن أوفى بعهده من الله » التوبة ١١١ . ولعل اصل هذه النظرة في نفي القدر غير عربي .. فراوية الاعشى يقول انه أخذها من عباد الحيرة أو نصـــارى نجران[٥٨] .. ويمكن ان نرد الفكرة في شعر النابغة الى الحيرة لصلته الوثيقة بحكامها .. وكذلك يبدو أن الفكرة ليست مما انتشر على نطاق واسع بين العرب .. ولعلّ ذلك راجع الى انها ممّا تأخر وصـــوله اليهم من الافكار الوافدة .. وآية ذلك أنها جاءت في شعر شاعرين من متأخرى اهل الجاهلية.

ولعل أصدق ما يقال عن آراء الشعراء في القدر وحريّة الارادة هو قول جثامة الذى سبق ايراده .. فقد كان اكثر الناس مرتابا .. وكان هذا الشك يؤدى بهم الى بلبلة وتردّد وحيرة فيما يأتون وما يدعون .. ويجرّهم الى جبريّة متشائمة يفســـرون بها اغلب مشـــاكلهم . وظواهر الحياة التي تستوقفهم .

---

(٥٧) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٩ .

(٥٨) الاغاني ١١٢/٩ ، ٣/١٢ – ٤ .

من ذلك قولهم بأن الانسان مفطور على الشر مجبول على الرذيلة ..
وفي ذلك يقول طرفة(٥٩) :

أسلمني قومي ولم يغضبوا   لسوءة حلّت بهم فادحه
كلّ خليل كنت خاللته   لا ترك الله له واضحه
كلّهم أروغ من ثعلب   ما أشبه الليلة بالبارحه

ويقول امرؤ القيس(٦٠) :

اذا قلت هذا صاحب قد رضيته   وقرّت به العينان بدّلت آخرا
كذلك جدّى ما اصاحب صاحبا   من الناس الاّ خانني وتغيّرا

ويقول زهير(٦١) :

ليتني خلقت للأبد   صخرة صمّاء في كبد
لا تشكي شرّ جارتها   خلقت غليظة الكبد

ويقول الافوه الأودى(٦٢) :

بلوت الناس قرنا بعد قرن   فلم أر غير خلاب وقال

ويقول عبيد بن الابرص(٦٣) :

اني لأخشى الجهول الشكس شيمته   وأتّقي ذا التقى والحلم بالراح

---

(٥٩) ديوان طرفة رقم ٢ ص ٢٥ .

(٦٠) ديوان أمرىء القيس رقم ٤ ص ٦٩ .

(٦١) الحيوان ٣٩١/٤ . وقد ذكر المحقق انهما ليسا في ديوانه .. ولم يذكر لهما مصدرا آخر .

(٦٢) الطرائف الادبية ص ٢٣ من ثلاثة ابيات قال عبد الله بن الزبير انها جامعة لما قالت العرب . انظر معاهد التنصيص ١٥٠/٢ .

(٦٣) ديوان عبيد رقم ١٢ ص ٣٩ .

وعبيد لا يأمن الجاهل الشكس ولا الحليم التقي •• وفي تفضيله هذا مهاجمة واضحة للاتقياء واشارة الى ان التقوى لا تغيّر من حقيقة الناس ••

ولم تنج المرأة من هذه الجبرية المتشائمة •• فقد اتهموها بالكذب والخيانة وصوّروا ذلك طبعا أصيلا فيها •• يقول النمر بن تولب[٦٤] :

كلّ خليل عليه الرعا	ث والحبلات كذوب ملق

ويقول آكل المرار الملك[٦٥] :

كل انثى وان بدالك منها	آية الحب حبّها خيثعور

ويقول طفيل الغنوى[٦٦] :

ان النساء كأشجار نبتن معا	من المرار وبعض المر مأكول
ان النساء متى ينهين عن خلق	فانه واجب لابد مفعول
لا ينثنين لرشد ان صرفن له	وهنّ بعد ملاويم مخاذيل

وبهذه الجبرية علّلوا اختلاف الافراد في اخلاقهم •• فمنهم من يزعم أنها طبيعة لا يمكن ان تتبدل • ومنهم من يردّها الى الارث أو قسمة الله تعالى : يقول قيس بن الخطيم[٦٧] :

وبعض خلائق الاقوام داء	كداء الكشح ليس له دواء

ويقول ذو الاصبع[٦٨] :

كل امرىء راجع يوما لشيمته	وان تخلّق اخلاقا الى حين

(٦٤) الاغاني « الساسي » ١٥٨/١٩ . يقول ذلك في امراته السبية التي ازارها قومها فلم تعد اليه .

(٦٥) البيان والتبيين ٣٢٨/٣ ، وجاء في الاغاني « الدار » ٣٥٣/١٦ ان لحنين الحيري غناء في هذا الشعر .

(٦٦) البيان والتبيين ٣٢٨/٣ ولمالك بن ابي كعب قصيدة شبيهة بها رواها في الاغاني « الدار » ٢٣٦/١٦ .. وفي البيان منها المرار .. وفي الاغاني: منهن مر . وما اثبته يقتضيه المعنى . فالشاعر يريد ان النساء خلق واحد . ولا يستقيم ذلك مع القول بان بعضهن من المرار ..

(٦٧) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١١ ص ٥٣ .

(٦٨) المفضليات رقم ٣١ ص ١٦٠ ، ١٦٣ .

ويقول عبيد بن الابرص[٦٩] :

لا ينفع اللبّ عن تعلّم الاّ السجيّات والقلوب

ويقول زهير[٧٠] :

فما كان من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطيّ الاّ وشيجه وتنبت الا في منابتها النخل

ويقول الافوه الاودى[٧١] :

ولكل ساع سنة ممّن مضى تنمى به في سعيه أو تبدع

وهم يذهبون الى الوراثة في شعر الفخر والمدح غالبا . ويقول لبيد[٧٢]:

فاقنع بما قسم المليك فانمّا قسم الخلائق بيننا علاّمها
واذا الامانة قسمت في معشر أوفى بأوفر حظنا قسّامها

ومن أغرب ما نلمح فيه هذه الجبرية المتشائمة بعض شعرهم الذى قالوه في تسفيه الكهانة والزجر والسخرية من الطيرة .. ذلك اننا نتوقع منهم في هذا الشعر تفاؤلا يتمشى مع هذه النظرة المتحررة من الاوهام .. ولكننا نجد عكس ذلك . يقول أحيحة بن الجلاح في مذهبته[٧٣] :

فهل من كاهن أو ذى الـه اذا ما حان من ربّ أفول

---

(٦٩) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١٤ .

(٧٠) شرح ديوان زهير ص ١١ .

(٧١) الطرائف الادبية ص ١٨ .

(٧٢) شرح ديوان لبيد رقم ٤٨ ص ٣٢٠ . وانظر حماسة البحتري : باب غلبة الشيمة والخلق على التخلق ص ٣٥٨ . باب نزوع المرء الى اصله ص ٣٤٨ .

(٧٣) جمهرة اشعار العرب ص ٢٣١ . وقد روى في البيت قبل الاخير بناشئة منقوطة وفي طبعة الرحمانية ١٩٢٦ بناشئة الا .. والمعنى مستقيم ولكن الا زائدة على الوزن .

يراهنني فيرهنني بنيه وأرهنه بنيّ بما اقول
وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنّي متى يعيل
وما تدرى وان ألقحت شولا أتلقح بعد ذلك أم تحيل
وما تدرى اذا ذمّرت سقبا لغيرك أم يكون لك الفصيل
وما تدرى وان اجمعت أمرا بأىّ الارض يدركك المقيل

وفيها يقول :

وقد أعددت للحدثان حصنا لو ان المرء تنفعه العقول

ويقول في آخرها :

وما من اخوة كثروا وطابوا بناسئة لأمهم الهبول
ستثكل أو يفارقها بنوها سريعا أو يهمّ بهم قبيل

فهذه قصيدة يغلب عليها التشاؤم برغم ما فيها من التشكيك في علم الكهان ويقول لبيد في قصيدة حزينة يرثي بها أربد أخاه[٧٤] :

أعاذل ما يدريك الاّ تظنيا اذا ارتحل الفتيان من هو راجع
تبكي على اثر الشباب الذى مضى ألا انّ اخدان الشباب الرعارع
اتجزع ممّا احدث الدهر بالفتى وأىّ كريم لم تصبه القوارع
لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله صانع
سلوهنّ ان كذبتموني متى الفتى يذوق المنايا أو متى الغيث واقع

ولبيد لا يشك في مصير الانسان المظلم .. ولكنه يجهل ميعاد هذا المصير ، أما خزز بن لوذان فهو يوصي في قصيدة يرثي فيها نفسه بطلب الخير والعمل دون نظر الى اوهام الطيرة .. ولكنه ينهي هذه القصيدة بعبرة حياته

---

(٧٤) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ ص ١٧١ .

فيذكرنا بأن كلّ شيىء من الخير والشـــر ذاهب غير دائم لأحـــد .. يقول خزز[٧٥] :

طال الثـواء بمـــأرب وظننـت أني غـير زائـم
من مبلغ عمرو بن لأى حيث كان من الاقـــاوم
فلرب باك مـــن بني ذهـــل وقاعـــدة وقائم
ومشـــقّقات للجيـــوب عليّ كالبقـــر الحوائم
لا يمنعنّك من بغـــاء الخير تعقـــاد التمـــائم
ولا التشـــاؤم بالعطـــاس ولا التيمّن بالمقاسم
ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحـــاتم
فاذا الاشـــائم كالايامن والايامن كالاشـــائم
وكذاك لا خيـــر ولا شـــرّ على أحـــد بدائم
قـــد خطّ ذلك في الزبور الاوّليّـــات القدائم

ويقول الحارث بن حلزّة[٧٦] :

يا ايهـــا المزمع ثـــم اثنى لايثنك الحازى ولا الشـــاحج
ولا قعيـــد قرنه أعضـــب هاج له من مربـــع هـــائج
بينا الفتى يسعى ويســـعى له تاح لـــــه من أمره خالـــج
يترك ما رقّح من عيشـــه يعيث فيـــه همـــج هامـــج

---

(٧٥) المؤتلف والمختلف ص ١٠٢ ، عيون الاخبار ١٤٥/١ والوحشيات ص ١٦٦ . والشعر ينسب لمرقم السدوسي أو خزز بن لوذان ولعل المرقم لقب خزز . فقد جاء في نوادر القالي ص ١٨٥ : « والنعامة للحارث ابن عباد ، وولدت النعامة الشيط وهو لبني سدوس وكان لخزر بن لوذان .. » وهذا نص على ان خزز سدوسي مما يتفق مع نسب المرقم. وبهذا تعرف جاهلية الشاعر .. فالنعامة وصاحبها الحارث مذكوران في حرب البسوس واشعارها ..
وقد حقق البغدادي في الخزانة جاهلية الشاعر : ٣٣٠/١ .

(٧٦) الحيوان ٤٤٩/٣ .

ويقول علقمة بن عبدة في جملة من خواطره المتشائمة[٧٧] :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه ... أنى توجّه والمحروم محروم
ومن تعرّض للغربان يزجرها ... على سلامته لابد مشؤوم
وكلّ بيت وان طالت اقامته ... على دعائمه لابدّ مهدوم

وقد يمازج السخرية بالطيرة روح متفائل ، وأغلب ما يكون ذلك في الفخر ، ومن ذلك قول زبّان بن سيار الفزاري في تطيّر النابغة بجرادة وقعت عليه ورجوعه عن الغزو[٧٨] :

تخبّر طيرة فيها زياد ... لتخبره وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد ... أشار له بحكمته مشير
تعلّم انه لا طير الاّ ... على متطيّر وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء ... أحايينا وباطله كثير

ويقول عوف بن عطيّة بن الخرع[٧٩] :

نؤم البلاد لحب اللقاء ... ولا تتقي طائرا حيث طارا
سنيحا ولا جاريا بارحا ... على كل حال نلاقي اليسارا

العدل :

والعدل مما فكر فيه الشاعر الجاهلي بعيدا عن جبرته المتشائمة .. ويبدو ذلك في كون الظالم لا ينجو من عقوبة غيبية نجد أكثرهم لا يصرّح بمصدرها . والمثل عندهم في مصير الظالم كليب وائل ؛ يقول درهم بن زيد[٨٠] :

أرى قومنا والبغي مهلك أهله ... يريدون ظلما في العشير ومأثما

---

(٧٧) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٩ ، المفضليات رقم ١٢٠ ص ٤٠١ .
(٧٨) العمدة ٢٦١/٢ ، عيون الاخبار ١٤٦/١ .
(٧٩) المفضليات رقم ١٢٤ ص ٤١٥ .
وانظر في النصوص السابقة : الحيوان ٤٤٧/٣ ، وحماسة البحتري ص ٢٥٥ في باب ترك الطيرة .
(٨٠) حماسة البحتري ص ١٦٦ .

ويقول المتلمس[٨١] :

ومن يبغ أو يسعى على الناس ظالما   يقع غير شك لليدين وللفم

ويقول طرفة[٨٢] :

والظلم فرّق بين حيّي وائل   بكر تساقيها المنايا تغلب
قد يورد الظلم المبيّن آجنا   ملحا يخالط بالذعاف ويقشب

ويقول العباس بن مرداس[٨٣] :

أكليب مالك كلّ يوم ظالما   والظلم أنكد وجهه ملعون
قد كان قومك يحسبونك سيدا   وأخال أنك سيد معيون
فاذا رجعت الى نسائك فادّهن   انّ المسالم رأسه مدهون
وافعل بقومك ما أراد بوائل   يوم الغدير سميّك المطعون
وأخال أنك سوف تلقى مثله   في صفحتيك سنانها المسنون
انّ القرية قد تبيّن أمرها   ان كان ينفع عندك التبيين
حيث انطلقت تخطها لي ظالما   وابو يزيد بجوها مدفون

ويقول النابغة الجعدي[٨٤] :

وبلّغ عقالا أن خطة داحس   بكفيك فاستأخر لها أو تقدّم
تجير علينا وائلا في دمائنا   كأنك عمّا ناب أشياعنا عم
كليب لعمري كان أكثر ناصرا   وأيسر جرما منك ضرّج بالدم

---

(٨١) ديوان المتلمس ص ٢٠٤ .

(٨٢) ديوان طرفة رقم ١ ص ٢٣ .

(٨٣) الوحشيات ص ٢٣٨ ، الحماسة البصرية ١٠/١ ، معاهد التنصيص ١٢/١ .

(٨٤) شعر النابغة الجعدي ص ١٤٢ . ويضاف الى مصادرها النقائض ٩٠٦/٢ .

ويقول عمرو بن الاهتم[٨٥] :

فلله ساع بالمظـــالم بعــد مـا ... يرى كيف يأتي الظالمون ويسمع
سعى لبني عبس بغـدوة داحس ... على آل بـدر والرمــاح تزعزع
ورهط كليب قـد جزاهم بظلمهم ... ببطن شبيث اذ ينــوء ويصـرع

وخوّفوا كذلك من الحروب والبـــدء بها على أن ذلك لون من البغي الذي لا تحمد عقباه . ومن أجمل ما جاءنا من ذلك وأكثره تفصيلا قول بلعاء ابن قيس الكناني ذاكرا حرصه على السلم ومعرفته لما تجرّ الحرب من خسارة وأنه ترك عدّوه يبدأ الحرب لان ذلك سيؤدي الى خسارته ببغيه[٨٦] :

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو يرى ... برأي رشـيدٍ أو يؤول الى عــزم
وقلت له دع عنـك بكرا وحربهــا ... ولا تركبن منهـا على مركب وخـم
ومهلا عن الحرب التي لا أديمهــا ... صحيح ولا تنفك تأتي على سُـقْم
فاحر بهـا بسلا عليــكم وان رئي ... لكم زمن من فضـل ريّ ومن طعم
فان يظفر الحـــرب الذي أنت فيهم ... وآبوا بدهم من ســـباء ومن غنم
فلابد من قتــل وعلّك فيهـــــم ... والاّ فجُرْح" ليس يكني عن العظم
دعاني يشـب الحرب بيني وبينـــه ... فقلت له لا بل هلّم الى الســـلم
فلمّــا أبى أرســلت فضـــلة ثوبه ... اليـه فلم يرجع بعزم ولا حـــزم
وأمهلتــه حتى رمـــاني بحرهـا ... تغلغــل من غيّ غويّ ومـــن إثم
فلمّا رمانيها رميت ســـــواده ... ولا بدّ أن ترمي سواد الذي يرمي
فبتنا على لحم من القـــوم غودرت ... أسنتنا فيـــه وباتو على لحـــم
وأصـبح يبكي من بنين واخـــوة ... حسان الوجوه طيّبي الجسم والنسم
نحن نبكّي اخـــوة وبنيــــهم ... وليس سواء قتـل حق على ظـــلم

---

(٨٥) حماسة البحتري ص ١٦٨ من باب بهذا المعنى فيه مزيد من النصوص.. كذلك اورد الجاحظ في الحيوان ٣٢١/١ نصوصا عديدة من الشعر قيلت في كليب .

(٨٦) في المصادر خلاف في نسبة الشعر لبلعاء او اخيه حلحلة او الحارث بن وعله الجرمي . انظر حماسة البحتري ص ٧٣ ، الحماسة البصرية ٦٣/١ حماسة ابن الشجري ص ٥٣ .

ويقول العباس بن مرداس[87] :

السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

ويقول أبو قيس بن الاسلت[88] :

أنكرته حين توسمته ... والحرب غول ذات أوجاع
من يذق الحرب يجد طعمها ... مرًّا وتحبسه بجعجاع

ويقول عمرو بن معد يكرب[89] :

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول
حتّى اذا حميت وشب ضرامها ... عادت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت ... مكروهة للشم والتقبيل

ولم ينظر الجاهلي الى الظلم الذي يوقعه به غيره على أنه قدر مرسوم.. ولذلك فهو يدفع الظلم عن نفسه ولا يقبل به ؛ يقول الشداخ الكناني[90] :

أبينا فلا نعطي مليكا ظلامة ... ولا سوقة الا الوشيج المقوّما

ويقول زهير :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

ويقول بن براقة الهمداني[91] :

متى تجمع القلب الذكيّ وصارما ... وأنفا حميا تجنّبك المظالم

---

(87) خزانة الادب ٨٢/٢ ، والعيني بهامشها ٥٦/٢ .
(88) المفضليات رقم ٧٥ ص ٢٨٤ .
(89) الحماسة البصرية ١٨/١ .
(90) حماسة البحتري ص ٢٣ .
(91) امالي القالي ١٢٢/٢ ؛ الاغاني « الساسي » ١١٣/٢١ .

ومعنى دفع الظلم بالقوة كثير في شعرهم •• أما اذا كان ردّ الظلم بهذه الوسيلة غير ممكن فان الشاعر الجاهلي لا يجد غير الارتحال عن دار الضيم •• وهو يعتبر الاقامة فيمن أوقع الظلم عجزا من الافراد والقبيلة •• ولا يرى الرضوخ لقوة الناس تسليما للقدر •• والمثل الاعلى في مغادرة دار الظلم عندهم سامة بن لؤي الذي هجر مكة الى عمان من ابائه الضيم • يقول المسيب بن علس[٩٢] :

أبلغ ضبيعة أن البلا	د فيها لذى قوّة مهرب
وقد يجلس القوم في أصلهم	اذا لم يضاموا وإن أجدبوا
فلا تجلسوا غرضا للهوا	ن خذفا كما تخذف الأرنب
فان لم تكن لكم مرّة	يبلغها البلد الأركب
فكونوا عبيدا لأربابكم	فان ساءكم ذلكم فاغضبوا
وهل يقعد الألف لا يغضبو	ن كلّهم أنفه يضرب
وقد كان سامة في قومه	له مأكل وله مشرب
فساموه ضيما فلم يرضه	وفي الأرض من ضيمهم مهرب

ويقول المتلمس[٩٣] :

يا آل بكر ألا لله أمّكم
طال الثواء وثوب العجز ملبوس
أغنيت شأني فأغنوا اليوم شأنكم
واستحمقوا في مراس الحرب أو كيسوا
انّ علافا ومن باللوذ من حضن
لمّا رأوا أنه دين خلابيس

(٩٢) الصبح المنير ص ٣٥٠ .. وانظر في قصة سامة بن لؤي : أماليالزجاجي ص ٤٨ .

(٩٣) ديوان المتلمس ص ١٧٧ .

شــدّوا الجمال بأكــوار على عجـــل
والظلم ينكــره القـــــوم المكايس

كانوا كســامة اذ شــعف منــازلـــه
ثم اســتمرّت بـــه البزل القنــاعيس

ويقول في قصيدة أخرى[٩٤] :

ان الهوان حمار الحي يعــــرفـه والحـر ينكره والرسلة الأجد
كونوا كبكر كما قــد كان أوّلكم ولا تكونوا كعبد القيس اذ قعـدوا
يعطون ما سئلوا والخط منزلهــم كما أكبّ على ذى بطنه الفهـــد
ولن يقيم على خســف يراد بــه الاّ الاذلان عــير الحيّ والوتـد
هذا على الخسف مربوط برمّته وذا يشج فما يرثي له أحــد
كونوا كسامة اذ شَعْف" منازله اذ قيل جيش وجيش حافظ رصد
شــدّ المطية بالانسـاع فانحرفت عَرْضَ التنوفة حتّى مسها النجد
وفي البــــلاد اذا مـا خفت نائرة مشهورة عن ولاة السوء مبتعــد

ويقول قيس بن الخطيم[٩٥] :

وما بعض الاقامـــة في ديار يكون بها الفتى الاّ عنــاء
ولم أر كامرىء يدنو لخســف له في الارض ســير وانتواء

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمي[٩٦] :

واترك محل الســوء لا تحلل به واذا نبا بــك منــزل فتحوّل
دار الهـوان لمن رآهــا داره أفراحل عنها كمن لم يرحـــل

---

(٩٤) ديوان المتلمس ص ١٩٥ .
(٩٥) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١١ ص ٥٣ .
(٩٦) المفضليات رقم ١١٦ ص ٣٨٥ .

ويقول عميرة بن جعل في هجاء قومه[٩٧] :

اذا ارتحلوا عن دار ضيم تعاذلوا عليهم وردوا وفدهم يستقيلهـــا

ويقول امرؤ القيس[٩٨] :

واذا اذيت ببلدة ودّعتهـــا ولا أقيم بغير دار مقـــام

وهذا المعنى مرتبط بالبداوة وكراهة الاستقرار[٩٩] :

وليس ثمة تعارض بين الكثير من شعر الجاهلية الذى يصوّر الاحتكام الى القوّة والفخر بالغلب وبين الشعر الذى يصوّر احساسا واضحا بالفرق بين العدل والظلم ٠ ذلك ان الشعر الذى يمجد القوة هو شعر الصراع الذى يمثل الدفع عن كيان القبائل والافراد ودرء العدوان عنهما ٠ والشعر الذى يمجد العدالة هو سلاح ثانوي في هذا التنازع للبقاء ٠ وقد يكون هذا الشعر محاولة لتفادى اللجوء الى القوّة وقد يكون محاولةلأنهاء الصراعالداميحين يمتد ويتسع دون ان ينتهي الى نصر يحسم النزاع ٠٠ ولكنه يصوّر تعلّقا واضحا بالحق ويرتبط بقيم الضمير الانساني المتسامي ٠

ونحن نجد في هذا الشعر حديثا عن مفاهيم العدالة المختلفة وجوانبها المتشابكة فهو يتناول القضاة والمتخاصمين والاحكام جميعـــا بالكثير من التفصيل ٠٠ ومما قالوه في القضاة وصيّة سلمة بن الخرشب الانمارى لسبيع الثعلبي الذى وضعت على يديه الرهائن في بداية حرب داحس ٠ وهو يرسم في هذه الوصية صورة تثير الاعجاب لقاض مثاليحريص على الحيـــاد مدقق في التعرّف على الحقيقة جريء في وقوفه الى جانب الحق ٠٠ يقول سلمة[١٠٠]:

---

(٩٧) المفضليات رقم ٦٣ ص ٢٥٨ ٠

(٩٨) ديوان امريء القيس رقم ٥١ ص ١١٨ ٠

(٩٩) انظر في معنى الفخر بالبداوة وذم الاستقرار : « الرقم للقصـــيدة فالبيت » : ديوان الاعشى ٣٣/٣٤ ، الاصمعيات للاسعر الجعفي ٦/٤٤ ، المفضليات ليزيد بن خذاق ١١/٧٩ ، مقاس العائذي ٣/٨٥ ٠

(١٠٠) البيان والتبيين ٢٣٨/١ ، ٣١٤/٣ ، عيون الاخبار ٦٧/١ ٠

أبلغ سبيعـــا وأنت سيّدنا قدما وأوفى رجالنا ذممـــا
انّ بغيضـــا وانّ اخوتهـا ذبيانَ قد صرّموا الذى اضطرما
نبئت ان حكمـــوك بينهم فلا يقولنّ بئس ما حكمـــا
ان كنت ذا خبـــرة بشـــأنهم تعرف ذا حقهم ومن ظلمـــا
وتنزل الامـــر فيْ منازلـــه حكما وعلما وتحضر الفهمـــا
ولا تبالي من المحق ومن الـ ـمبطل لا إلّة ولا ذممـــا
فاحكم فأنت الحكيـم بينهم لن يعدموا الحكم ثابتا صتمـا
واصدع أديم الســـواء بينهم على رضى من رضي ومن رغمـا
ان كان مـــالا فقضّ عدّته مالا بمال وان دما فدمـــا
حتّى ترىظاهر الحكومة مثل الـ ـصبح جلّى نهاره الظلمـــا
هـــذا وان لم تطق حكومتهم فانبذ اليهم أمورهم سَلَمـــا

والمعنى الذي يختفي وراء هذه الوصية هو الخوف من سبّة الجور في الحكومة أن تلحق بهذا الحكم وبقبيلته .. وهو المعنى الذى يشير اليـــه الشاعر بقوله :

نبئت أن حكّموك بينهـــم فلا يقولنّ بئس ما حكمـــا

وهذا المعنى واضح في شعر سبرة بن عمرو الفقعسي الذى يقوله لضمرة النهشلي حين ارتشى وتفرّ عليه ، وذلك هو قوله[١٠١] :

يا ضمر كيف حكمت أمك هابل والحكم مسؤول به المتعمَّـد
أحفظت عهدا أم رعيت امانة أم هل سمعت بمثلها لا ينشد
شنعاء فاقرة تجلّـــل نهشـــلا دنسا تغور به الركاب وتنجد
ان الرقاق أمال حكمَكَ حبّهـا فلك اللقـــاء وراكب متمرّد

وسبيع من ثعلبة بن سعد بن ذبيان كما جاء في النقائض ٩٣/١ وليس تغلبيا كما جاء في المصادر مصحفا . ويدل على ذلك ان سلفه ـ هو انماري غطفاني يقول له انت سيدنا . وانمار اخو عبس وذبيان كما جاء في جمهرة ابن حزم ص ٢٥٠ .

(١٠١) الحيوان ٢٤٦/٢ .

والارجح انه يتحدث عن مسؤولية الحاكم الادبية التي دنّست قومه بني نهشل « مسؤول به » .. وربما كان يقصد مسؤولية مباشرة .. فهو يهدّده بالجرب كما هو ظاهر ..ويقول طرفة في قاض منالكهّان متهما اياه بالخداع ممّا أدى الى فشله في اقامة الصلح بين بكر وتغلب[١٠٢] :

فسعى الغـــلاّق بينهم   سعي خبّ كاذب شيمـه
اخذ الازلام مقتسمـــا   فأتى أغواهمـــا زلمـــه
عند أنصاب لهـــا زفر   في صعيد حمّه أدمـــه

حتى يقول :

ففعلنـــا ذلكم زمنـــا   ثمّ دانى بيننا حكمـــه

ويقول زهير مادحا[١٠٣] :

متى يشتجر قوم تقل سرواتهم   هم بيننا فهم رضا وهم عـــدل
هم جدّدوا أحكام كلّ مضلّة   من العقم لا يلفى لامثالها فصل
بعزمة مأمور مطيـــع وآمر   مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل

وهو يمدح سنان بن ابي حارثة وقومه بشهرتهم بالعدالة بين الناس .. ويضيف الى ذلك خبرتهم في الاحكام وقدرتهم على استنباط القاعدة الصالحة العادلة وعلى الحكم فيما يشتبه على غيرهم . وهو يبيّن لنا سرّ هذه القدرة.. وهو حزمهم ونفاذ كلمتهم فيمن يحتكم اليهم .. ولولا هذه الطاعة والشهرة بالعدل لوقفوا عند القواعد المتعارف عليها في احكامهم .

---

(١٠٢) ديوان طرفة رقم ١٨ ص ١٥٢ ، مختار الشعر الجاهلي ص ٣٣٦ . والبيت الاخير مقدم في الحيوان ..

(١٠٣) شرح ديوان زهير ص ١٠٧ .

ومن قولهم في الحكام قول النابغة(١٠٤) :

أحكم كحكم فتـاة الحي اذ نظرت	الى حمام شـراع وارد الثمـد
يحفـه جانبـا نيق وتتبعـه	مثلَ الزجاجة لم تكحل من الرمـد
قالت ألا ليتما هذا الحمـام لنا	الى حمامتنـا ونصـفَه فقـد
فحسبوه فألفوه كمـا حسبت	تسعا وتسعين لـم تنقص ولم تزد
فكمّلت مائة فيهـا حمامتهـا	وأسرعت حسبة في ذلك العـدد

وهو يطلب من النعمـان ان يحكم متجردا عن الهوى كمـا يحسب الحاسب .. وان يكون دقيقا في فهمه للقضية ليكون حكمه عادلا مصيبا .

ومن مظاهر التعلق بالعدل وجود قوانين مقرّرة في المجتمع ، هي موضع الاحترام والتوقير ، سواء كان ذلك في داخل القبيلة الواحدة أم بين القبائل المختلفة . فكثيرا ما يصور الشعر خصاما حول الدماء وتكافئها وقيمها .. ومن ذلك قول عوف بن الاجرص العامرى في خلاف بين بني جعفر وبني أبي بكر وهما جميعا من عامر(١٠٥) :

خذوا دأبا بما أشأيت فيكـم	فليس لكم على دأب عـلاء
وليس لسوقة فضل علينـا	وفي أشـياعكم لكـم بواء
فهل لك في بني حُجْر بن عمرو	فتعلمَـه وأجهلَـه ولاء
أو العنقاءِ ثعلبةَ بنِ عمرو	دمـاءُ القـوم للكلبـى شفاء
وما ان خلتكم من آل نصـر	ملوكـا والملوك لهم غـلاء

وهو يطلب أن يقبلوا ابنه دأبا رهنا لانه بواء لهم ، ويجادلهم بأنهم ليسوا ملوكا دماؤهم أغلى من دم ابنه . ويقول مالك بن العجلان في يوم سمير(١٠٦):

لا نقبـل الدهر دون سنّتنـا	فينـا ولا دون ذاك منصـرف
ان لا يؤدوا الـذى يقال لهم	في جارنا يقتـلوا ويختطفـوا

---

(١٠٤) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٣ .

(١٠٥) المفضليات رقم ٣٥ ص ١٧٤ .

(١٠٦) في جمهرة اشعار العرب أن القصيدتين هما مذهبتا مالك بن العجلان ←

وهو يزعم ان بجيرا جارهم فينبغي أن يكون دمه كالسنّة في دمائهم فيرد عليه عمرو بن امرىء القيس أو درهم بن يزيد بأن بجيرا ليس من صميمهم فدمه أرخص من دمائهم :

لا نرفع العبد فوق سنّته ما دام منّا ببطنها شرف

ويقول :

ان بجيرا عبد فخذ ثمنا فالحق يوفى به ويعترف

ويفخر كعب بن زهير بأن مزينة قتلت برجل منها خمسين من الخزرج وانهم لم يقفوا عند القاعدة العرفية في الدماء . يقول كعب(١٠٧) :

فما عتر الظباء بحي كعب ولا الخمسون قصّر طالبوها
ولا قلنا لهم نفس بنفس أقيدونا بها ان لم تدوها

وقد تكون عبارة « نفس بنفس » اشارة الى قاعدة شرعية اقتبسها الخزرج من جيرانهم اليهود .. ويكون الشاعر يسخر من الخزرج بذكرها والفخر بالخروج عليها . ويصوّر الشعر أيضا خصومات حول الاموال ويعتبر اغتصابها عملا غير مشروع ومن ذلك قصيدة طرفة التي أولها(١٠٨) :

ما تنظرون بحق وردة فيكم صغر البنون ورهط وردة غيّب

ويقول مرّة بن همام الشيباني(١٠٩) :

يا عوف ويحك فيم تأخذ صرمتي ولكنت أسرحها أمامك عزّبا

ص ٢٢٥ وعمرو بن امرىء القيس ص ٢٣٧ . وفي الاغاني ان القصيدة الثانية لدرهم بن يزيد اخي سمير الذي كانت الحرب بسببه . الاغاني « الدار » ٢١/٣ .

(١٠٧) شرح ديوان كعب ص ٢٠٩ .

(١٠٨) ديوان طرفة رقم ١ ص ٢٣ .

(١٠٩) المفضليات رقم ٨٢ ص ٣٠٣ .

تا لله لو لا أن تشـأى أهلهـا ولشر ما قال امرؤ أن يكـذبـا
لبعثت في عرض الصراخ مفاضـة وعلوت أجرد كالعسيب مشـذبا

ونحن نفهم من هذا الشعر أن عوفا من قوم الشاعر .. ومن هنـا خوّفه من أن يسترجع صرمته بالقوة مما يؤدي الى فرقة القبيـلة ، ويقول أوس بن حجر لقوم من شيبان أخذوا معزاه واقتسموها[110] :

ألا تتقـون الله اذ تعلفونهـا رضيخ النوى والعُضّ حولا مجرما

ومن الغريب أن يتحدّث أوس عن حرمة دينية للمال .. ولكننا نجد مثل ذلك في شعره وهو قوله[111] :

تركت الخبيث لم أشارك ولـم أذق ولكـن أعفّ الله مـالي ومطعمي
فقومي وأعـدائي يظنّـون انّني متى يحـدثوا أمثـالهـا أتكلّم

ومن ذلك شعر زهير في عبده يسار وهمزيته في آل حصن[112] :

والجاهلي لا يضيق بتحمّل تبعة الجماعة التي ينتمي اليها في العادة .. وهذه المسؤولية الجماعية هي روح الحياة القبلية .. ولكننا نجد في الشعر أحيانا دعوة الى تحديد المسؤول عن الجرم ورفع العقوبـة عن غيـره من الابرياء .. وقد يكون المجرم والبريء المؤاخذ بجرم غيره من قبيلة واحدة أو من قبيلتين مختلفتين .. ولعلّ هذه القاعدة ممّا بقي في العرب من ملّـة ابراهيم صلى الله عليه وسلّم .. فقد جاء في سورة النجم قوله تعـالى : « أم لم ينبّأ بما في صحف موسى . وابراهيم الذي وفّى . ألا تـزر وازرة وزر أخرى . » وهذا المعنى هو أحد أركان معلّقة الحـارث بن حلّزة .. التي يتساءل فيها عمّا اذا كان من الحق أن يؤخذ قومه بما فعلت تميم وكندة

---

(110) ديوان اوس بن حجر رقم ٤٤ ص ١١٢

(111) ديوان أوس بن حجر رقم ٤٨ ص ١٢٢ .

(112) شرح ديوان زهير ص ١٦٤ ، ص ٥٦ .

وغيرهم .. وجاء فيها أيضا التفريق بين المذنب والبرىء من القبيلة نفسها وهو قوله[113] :

وأتانا من الحوادث والانبا ء خطب نعنى به ونساء
انّ اخواننا الأراقم يغلو ن علينا في قيلهم أحفاء
يخلطون البرىء منا بذى الذنـ ـب ولا ينفع الخليّ الخلاء

ويقول الاعشى[114] :

واني وان كلفتموني – وربكم – ليعلم من أمسى أعق وأحوبا
لكالثور والجني يضرب ظهره وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر وما ان تعاف الماء الا ّ ليضربا

ويقول النابغة[115] :

لكلفتني ذنب امرىء وتركته كذى العرّ يكوى غيره وهو راتع
فانكنتَ لاذو الضغنعنّيمكذب ولا حلفي على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشيىء أقوله وأنت بأمر لا محالة واقع
فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أنّ المنتأى عنك واسع

وهو يضيف الى معنى البراءة من ذنب غيره الطعن في عدالة الشاهد عليه وحلفه على البراءة واحتجاجه لها .. فهو يكاد يجمع ما ذكره زهير في همزيته من طرق الحكم وهو قوله[116] :

وان الحكم مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

---

(١١٣) المعلقات السبع للزوزني ص ٣١٠ – ٣١١ . وهو يذهب الى هذا المعنى صراحة اذ يقول : « يقول يخلطون برآنا بمذنبينا . . »

(١١٤) ديوان الاعشى رقم ١٤ ص ١١٥ .

(١١٥) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٨ . وانظر بابا فيمن اخذ بذنب غيره في حماسة البحتري ص ٣٥٣ .

(١١٦) في هذه القصيدة من مصطلح القضاء : الشهداء ، والكفالة والعقد والقسم وغيرها . فهي تمثل القضاء الجاهلي تمثيلا جيدا .

ومن مظاهر هذا التعلق بالعدل أنه لا يغيب عن ذهن المحارب أحيانا فهو يزعم أنّ حربه كانت عادلة وانه أخذ بهـا حقا من حقوقه .. يقـول الشميذر الحارثي[117] :

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما ... دفنتم بصحراء الغميم القوافيا
فلسنا كما كنتم تصيبون سلّة ... فنقبل ضيما أو نحكّم قاضيا
ولكن حكم السيف فينا مسلّط ... فنرضى اذا ما أصبح السيف راضيا
وقد ساءني ما جرّت الحرب بيننا ... بني عمّنا لو كان أمرا مدانيا
فان قلتم انّا ظلمنا فلم نكن ... ظلمنا ولكنّا اسأنا التقاضيا

ويقول عمرو بن برّاقة الهمداني[118] :

وكنت اذا قوم غزوني غزوتهم ... فهل انا في ذا يال همدان ظالم

وبعد ، فان ما وقفنا عليه من افكار الجاهلي في شؤون حياته لا يصوّر فلسفة ناضجة تفسر هذه الحياة له .. ولكنّه لا يصوّر الجاهلي ساذجا يعيش بالغريزة والاستجابة المباشرة للظروف والاحداث . فقد رأينا في الشعر الجاهلي أصداء متنوعة للضمير الديني . ورأينا فيه موقفا من الحياة يرسم لها خطة لاهية أو خلقية مثالية . ورأينا فيه آراء فيالناس وتأملاتفي الاخلاق وتفكيرا في القدر ومفاهيم عالية من العدالة والحق والخير .. ولا نستطيع أن نزعم بعد أننا تعرضنا لكلّ فكر الجاهلية .. فبعض ذلك داثر نسيه الرواة أو اغفلوه لانه فكر وثني .. وبعضه يقع خارج نطاق بحثنا .. فما نقوله في تفكير الجاهلي مقيّد بهذه الحدود . وليس حكما نهائيا عاما .

---

(١١٧) شرح الحماسة للمرزوقي ١/١٢٤ ؛ المؤتلف والمختلف ص ١٤٠ .

(١١٨) امالي القالي ٢/١٢٢ .



الباب الثالث

دراسة فنية



الفصل الأول

استخدام القصة

قصص الحيوان والقصص التاريخي والحوار

لاحظ ابن رشيق القيرواني ان القدماء من شعراء العرب كانوا يتأسون في رثائهم بقصص الملوك والامم البائدة والحيوان المعروف بالمنعة أو القوة. يقول ابن رشيق في ذلك : « ومن عادة القدماء ان يضربوا الامثال في المراثي بالملوك الاعزة والامم السالفة والوعول الممتنعة في قلل الجبال والاسود الخادرة في الغياض وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيّات لبأسها وطول اعمارها وذلك في اشعارهم كثير موجود ولا يكاد يخلو منه شعر .. »[1]

وملاحظة ابن رشيق دقيقة صادقة ، ولكن هذا الاستخدام للامثال لم ينحصر في الرثاء الخالص ، فهو شائع في الموعظة وشعر الكرم الحماسي ونحو ذلك من الشعر الذي يرتبط بمراقبة الموت . كما ان هذه الامثال قد تكون قصصا يتوفر فيه عنصر الحوادث والحوار والشخوص .. وقد تكون اشارة الى قصص يفترض الشاعر اننا نعرفه فيعفي نفسه من سرد حوادثه ..

---

(١) العمدة ٢/١٥٠ ويذكر بعد ذلكتغير اسلوب الرثاء عند المحدثين « بالنسبة لعصره » .

ويبدأ الشاعر قصة الحيوان الذى يختاره في المرثية بأن يقول : لو كان أحد ناجيا من الدهر لكان الوعل أو النسر أو حمار الوحش الذي يصفه .. أو يقول مباشرة : ان الدهر لا ينجو منه ولا يبقى على حـدثانه الحيـوان الموصوف وقد يكتفي الشاعر بهذه الاشارة دون أن يسرد أى حدث جرى للحيوان . يقول عمرو بن قميئة[٢] :

فزعت تَكْتُمُ وقالت عجيبـا أن رأتني تغيّـر اليـوم حالي
يا ابنـة الخير انما نحن رهن لصروف الايّام بعد الليـالي
جلّح الدهر وانتحى لـي وقدمـا كان ينحي القوى على امثـالي
أقصـدتني سـهامه اذرمتني وتولّت عنـه سليمى نبـالي
لاعجيب فيمـا رأيت ولكـن عجب من تفـرّط الآجـال
تدرك التمسـح الموكّـعَ فـي اللجـة والعُصم في رؤوس الجبال
والفريدَ والمسفع الوجه ذا الجُدّ ة يختار آمنـات الرمـال
وتصدى لتصرع البطـل الار وع بين العَلْهـاء والسـربال

والشاعر يكتفي هنا بذكر الحيوان ومكانه الآمن كمـا هو واضح . ويقول الافوه[٣] :

والدهر لا يبقى عليه لِقْوَةٌ في رأس قاعلةٍ نمتها أربـع

ويقول[٤] :

والدهر لا يبقى على صـرفه مُغْفِـرة في حالق مرمريس

---

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ص ٣١ رقم ٦ .
(٣) الطرائف الادبية ص ١٨ .
(٤) الطرائف الادبية ص ١٦ .

ويقول رجل من ثقيف[٥] :

الا تلك المسـرة لا تـدوم ... ولا يبقى على الدهـر النعيم
ولا يبقى على الحدثان غُفْر ... لـه أمّ بشاهقـة رؤوم

ويقول لبيد[٦] :

لـو كـان شيء خـالـدا لتواءلت ... عصماءُ مُؤْلِفَةٌ ضواحي مأسل
بظلوفهـا ورق البَشام ودونهـا ... صعب تزل سـراته بالاجدل
فأصـابه ريب الزمان فأصبحت ... أنيابه مثـلَ الزّجاج النّصّل

ويقول امية بن ابي الصلت[٧] :

فاجعل الموت نصب عينيك واحذر ... غولـة الدهر ان للدهر غولا
نائلا طرفها القساور والصـد ... عان والطِفْل في المنار الشكيلا
وبغاثَ النياقِ واليَعْفُرَ النـا ... فر والعوهَج التـؤام الضئيلا

ونحن في هذه النماذج كلها نفتقد الحوادث والشاعر يكتفي بالقول بأن الدهر ينال الحيوان . وفي أحيان اخرى يذكر الشاعر جمـاعة من الحيوان ولكنه يقف عند واحد منها ليسرد قصته ويفصل في اصابة الدهر اياه ...

يقول المتنخل الهذلي[٨] :

فاذهب فأيّ فتى في الناس أحرزه ... من حتفه ظُلَمٌ دُعْجٌ ولا جبـل
ولا السماكان إنْ يستعل بينهما ... يطر بخطة يوم شرّه أصـل
ولا نعـام بجو يستـريد به ... ولا حمـار ولا ظبي ولا وَعِـل

أوفى يبيت على ....

---

(٥) نوادر القالي ص ٥١ . وهو يذكر ان امراة تمثلت به في ظروف هدم خالد بن الوليد لود

(٦) شرح ديوان لبيد ص ٢٧٢ رقم ٣٩ .

(٧) ديوان امية ص ٤٥ .

(٨) ديوان الهذليين ٣٥/٢

فهو يذكر أربعة اصناف من الحيوان ولا يستوقفه الا ّ الوعل ليروى قصته .. ومثله قوله[٩] :

اری الایـــام لا تبقي عزيزا ولا العُصم الأوابد والنعاما

أتيح لهـا أقيدِر ذو خُشَيْفٍ اذا سامت على المَلَقات ساما

وقد يذكر حيوانا واحدا يسرد قصة عنه أو يذكر اكثر من حيوان ولكنه يفرد كلاً منهم بالذكر ليروى قصته . يقول ساعدة بن جؤية[١٠] :

تالله يبقى على الايام ذو حَيَد أدفى صلود من الأوعال ذو خدم

. . . .

ولا صوار مذرّاة مناســـجها مثلُ الفريد الذى يجرى من النّظم

ويقول صخر الغيّ[١١] :

فعينيّ لا يبقى عــلى الدهر فادر بتَيْهورة تحت الطخاف العصائب

. . . .

ولله فتخاءُ الجناحــين لِقــوة توسّد فرخيها لحــوم الارانب

ويقول ابو ذؤيب[١٢] :

والدهر لا يبقى عــلى حدثانه جون السراة له جدائد اربــع

. . . .

والدهر لا يبقى عــلى حدثانه شَبَبٌ أفــزته الكلاب مروّع

---

(٩) ديوان الهذليين ٦٣/٢

(١٠) ديوان الهذليين ١٩٣/١ ، ١٩٧

(١١) ديوان الهذليين ٥٢/٢ ، ٥٥

(١٢) ديوان الهذليين ٤/١ ، ١٠

وكثيرا ما يختار الشاعر الجاهلي اللقوة دون النسر ، وقصته عنهـــا تصورها ذات أفراح تضعها في ذروة جبل باذخ .. وقد باتت الليل تقاســي البرد وينجمد الندى على جناحيهـــا .. فاذا طلع الصباح نفضت الثلج عن ريشها وانقضت على صيد رأته من بعيد ثم يبصرها الصيد فيحاول أن ينجو منها بأن يلجأ الى الشجر أو احجار الجبل ... وما وصلنا من هذا القصص محدود والشعراء يختلفون في كيفية انهائهم لهذا الصراع ..

يقول أبو خراش يصف صقرا[١٣] :

أرى الدهر لا يبقى عـلى حدثانه　　أقبّ تباريــه جدائــد حـــول

. . . .

ولا امعر الساقين ظـــلّ كأنه　　على مُحْزَئِلاّت الاكام نَصِيل
رأى ارنبا مندونها غَوْلٌ أشرُجٍ　　بعيدٌ عليهن الســراب يزول
فضم جناحيه ومن دون مـــا يرى　　بلادٌ وحوشٌ أمرُعٌ ومحـــول
توائِل منـــه بالضراء كأنهـــا　　سـفاة لها فوق التراب زَليـــل
يقرّبه النهض النجيح لمـــا يرى　　ومنه بـــدوّ مـــرّة ومثـــول
فأهوى لها في الجو فاختل قلبهـــا　　صـيود لحبّــات القلـوب قتـول

والشاعر يكتفي بأن هذا الصقر لن يبقى على حدثان الدهر .. فقصته تنتهي بصيده للارنب وانتصاره ، ويقول صخر الغيّ في رثاء أخيه[١٤] :

ولله فتخـــاءُ الجنـــاحين لِقْوة　　توسّد فرخيهـــا لحوم الارانب
كأن قلوبَ الطير في جوف وكرها　　نوى القسب يلقى عند بعض المآدب
فخاتت غزالا جاثما بصُرت بـــه　　لدى سَمُرات عند أدماء سارب
فمرت على ريَد فأعنت بعضهـــا　　فخرّت على الرجلين أخيب خائب

---

(١٣)　ديوان الهذليين ١٢٢/٢ .
(١٤)　ديوان الهذليين ٥٥/٢ .

تصيح وقد بان الجنـــاح كأنه … اذا نهضت في الجو مخراق لاعب
وقد تـُرِكَ الفرخان في جوف وكرها … ببلدة لامولى ولا عنــد كاسب
فريخان ينضاعان في الفجر كلمـــا … أحسّا دويّ الريح أو صوت ناعب
فلم يرها الفرخان عند مسائهـــا … ولم يهدآ في عشها من تجـــاوب
فذلك ممـــا يحــدث الدهر انه … له كل مطـــلوب حثيث وطالب

هذه قصة بطل انتهى نهاية فاجعة .. فهذه اللقوة التي يتوسد فرخاها لحوم الارانب وتنثر قلوب الطير حول وكرها تواجه القدر المرسوم الذى لا يفلت منه أحد فينكسر بعضها .. وتعجز عن الصيد ... وعن العودة الى وكرها ... ويظل فرخاهـا العاجزان في انتظارهـا وهما ضحية اخرى للقــدر المجهول المعلوم وهذه القصة الفريدة هي النموذج الذي احتذاه الحطيئة حين استعطف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد صور ابناءه في صــورة أفراخ زغب الحواصل ضعاف تعتمد في طعامها وشــرابهــا على كاسبها الذي ابعد عنها .

والاصل في قصص النسر والصقر وما الى ذلك من الجوارح هو انهــا مما تشبه به الخيل في شعرهم .. ثم يستطرد الشاعر الى قصة هـــذا الطير المشبه به على النحو المعروف في الشعر الجاهلي .. يقول امرؤ القيس[١٥] :

كأني بفتخـاء الجناحين لِقْــوة … صيودٍ من العقبان طأطأتُ شِملال
تَخَطَّفُ خِزّانَ الشَّرِبَةِبالضحى … وقد حجرت منها ثعالبُ أورال
كأن قلوب الطير رطبا ويابســـا … لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

ويقول[١٦] :

كأن غلامي اذ علا حال متنــــه … على ظهـر بــاز في السماء محلّق
رأى أرنبا فانقض يهـوى أمـامـــه … اليهـــا وجلاّهـــا بطرف ملقلق

(١٥) ديوان امرىء القيس رقم ٢ ص ٣٨ .
(١٦) ديوان امرىء القيس رقم ٣٠ ص ١٧٣ .

ويقول عبيد[١٧] :

فذاك عصر وقد أراني	تحملني نهدة سرحوب
مضبّر خلقها تضبيرا	ينشق عن وجهها السبيب
زيتيّة ناعم عروقها	وليّن أسرها رحيب
كأنها لقوة طلوب	تحنّ في وكرها القلوب
باتت على إرم رابئة	كأنها شيخة رقوب
فاصبحت في غداة قرّة	يسقط عن ريشها الضّريب
فأبصرت ثعلبا من ساعة	ودونه سبسب جديب
فنفضت ريشها وانتفضت	وهي من نهضة قريب
فاشتال وارتاع من حسيسها	وفعله يفعل المذؤوب
فنهضت نحوه حثيثة	وحردت حرده تسيب
فدبّ من رأيها دبيبا	والعين حملاقها مقلوب
فأدركته فطرّحته	والصيد من تحتها مكروب
فرنّحته وضعّته	فكدّحت وجهه الجبوب
فعاودته فرفّعته	فأرسلته وهو مكروب
يضغو ومخلبها في دفّه	لابدّ حيزومه منقوب

وقد يكون تعاطف الشاعر مع الصيد الذي يهوى اليه الجارح وهو في هذه الحالة يشبّه حصانه بالصيد لا الجارح .. يقول امرؤ القيس[١٨] :

وغيث كألوان الغناقد هبطته	تعاون فيه كل اوطف حنّان
على هيكل يعطيك قبل سؤاله	أفانين جرى غير كزّ ولا وان
كتيس الظباء الاعفر انضرجت له	عقاب تدلّت من شماريخ ثهلان

(١٧) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١٧ .

(١٨) ديوانه رقم ٩ ص ٩١ .

ويقول زهير[١٩] :

وقد أروح أمام الحي مقتنصا ... قمرا مراتعها القيعان والنبك

وصاحبي وردة نهد مراكلها ... جرداء لافحج فيها ولا صكك

مر كفاتا اذا ما الماء أسهلها ... حتى اذا ضربت بالسوط تبترك

كأنها من قطا الأجباب حلأها ... ورد وأفرد عنها اختها الشرك

جونية كحصاة القسم مرتعها ... بالسي ما تنبت القفعاء والحسك

أهوى لها أسفع الخدين مطرق ... ريش القوادم لم ينصب له الشبك

لا شيء أسرع منها وهي طيبة ... نفسا بما سوف ينجيها وتترك

دون السماء وفوق الارض قدرهما ... عند الذنابى فلا فوت ولا درك

عند الذنابى لها صوت وأزملة ... يكاد يخطفها طورا وتهتلك

حتى اذا ما هوت كف الغلام لها ... طارت وفي كفه من ريشها بتك

ثم استمرت الى الوادى فألجأها ... منه وقد طمع الاظفار والحنك

حتى استغاثت بماء لارشاء له ... من الاباطح في حافاته البرك

مكلل بأصول النبت تنسجه ... ريح خريق لضاحي مائه حبك

كما استغاث بسيء فز غيطلة ... خاف العيون فلم ينظر به الحشك

فزل عنها وأوفى رأس مرقبة ... كمنصب العتر دمى رأسه النسك

والتلوين الظاهر في قصة الجوارح ـ فيما اظن لا يدل على جدة هذا اللون من القصص في شعرهم ، فهو تلوين في التفاصيل ولا يتناول عمود القصة[٢٠] على ان يراد هذا القصص في الرثاء دونما تشبيه للخيل به يدل

---

(١٩) مختار الشعر الجاهلي ص ٢٥١ .

(٢٠) استدل د . محمد حسين من ثبات اسلوب الشعراء صورهم في وصف الناقة على أن الشعر العربي كان قد بلغ حدا من النضج واضحا . اساليب الصناعة ص ٥٢ ، ٩٥ فأنا في الحقيقة اجري على نفس المقياس.

أن الخيل ليست مما يوحي باليأس او التشاؤم .. ويؤيد ما ذكرناه في كلامنا على الحماسة من أن الحصان يمثل الانتشاء بالطبيعة واشتهاء الحياة .. ويؤيد ذلك هذا الشعر الذى يقوله دريد في رثاء صديقه معاوية بن عمرو بن الشريد. فهو يصف الشمّاء فرسه متعللا بهـــا متناسيـــا بها مصابه فيه . . يقول دريد[٢١] :

تعللت بالشماء اذ بان صـــاحبي	وكلّ امرىء قد بان اذ بان صاحبه
كأني وبزّى فوق فتخـــاءَ لِقوةٍ	لها ناهض في وكرها لاتجانبـــه
فباتت عليه ينفض الطلَّ ريشَها	تراقب ليـــلا ما تغور كواكبـــه
فلما تجلّى الليل عنها واسـفرت	تَنَفَّض حسرى عن أحصّ مناكبه
رأت ثعلبا من حرّة فهوت لــــه	الى حرّة والموت عجـــلان كاربه
فخر قتيلا واستمر بَســـحْرِه	وبالقلب يدمى أنفه وترائبـــه

وهو يصور هذه اللقوة منتصرة ولا يلمح الى ترصد القدر لها لأنه يريد ان يتعلل بها وكأنه يتفاءل بالثأر لمعاوية .. يؤيد ذلك ان ذكره لفرس القاتل في رثاء المقتول فيه من الوعيد ما هو واضح .. وكذلك فان موقف القوى اقرب الى شخصية الفارس دريد من موقف الحزين المتشائم .

(٢١) الحيوان ٣٣٧/٦ . وفيه تعللت بالشطاء . وقد اجتهدت هذا التوجيه لاسباب

أ ــ ذكر المحقق انه لم يرلدريد فرسا بهذا الاسم في المراجع .

ب ــ كان دريد صديقا لمعاوية وقد رثاه بشعر آخر روينا قسما منه. انظر الاغاني « الدار » ٩٧/١٥ .

حـ ــ الشماء فرس هاشم بن حرملة استولى عليها بنو سليم يوم حوزة الاول عند مقتل معاوية .. وغزاهم عليها صخر أخوه يوم حوزة الثاني .. ايام العرب في الجاهلية ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦ ، ٢٨٩ .

د ــ ان تحريف الشماء الى الشطاء محتمل لقرب رسميهما .

الوعـل :

وصورة الوعل في رثائهم تصوره متحصنا بأعالي الجبال الوعرة التي لا يستطيع ان يرتقيها احد ولا ان يهتدى اليها •• وهو آمن منعم لديه من النبت ما يشاء •• ولكنه يصادف صائدا يرميه فيلاقي حتفه على حذره وأمنه في حماه • يقول عمرو بن قميئة أو ربيعة بن توبة العبدى(٢٢) :

لـو كان شيء فائت الموت أحرزت	عمـــاية اذ راح الاغـــر الموقف
سما طرفـــه وابيض حتى كأنه	خصيّ جفت عنه الرحائل أكلف
يرود بارض ماؤها في قلاتهـــــا	يصيف بها بعد الربيع ويخرف
اذا شاء طلح أو أراك وســـخبر	لديه وذو ظـــل من الغار أجرف
يكسّر اطراف البشـــام بروقـــه	ومن دونه هضب منيف ونفنف
فما زال عنه الحين حتى استماله	أبو صبية طـــاو من الزاد أعجف
يعالجـــه عـــن نفســـه وبكفـــه	مذرّبـــة زرق وفـــرع معطّف

ويقول النمر بن تولب(٢٣) :

ولو أن من حتفـــه ناجيـــــا	لكان هو الصدع الاعصمـــا
بأسـبيل القـــت بـــه امـــه	علـى رأس ذي حبـك أيهمـا
اذا شـــاء طالـــع مسجورة	ترى حولها النبع والسأســـما
تكون لاعـــدائه مجهـــــلا	مضلا وكانت لـــه معلمـــا
سقته الرواعـــــد من صيّف	وان من خريف فلن يعدمـــا

(٢٢) البيتان الاولان في المعاني الكبير لعمرو بن قميئة . وذكر المحقق انهما ليسا في ديوانه ولم يذكر لهما مصدرا آخر :٦٩٤/٢، والقطعةعدا الثاني في حماسة البحتري لربيعة بن توبة العبدي : ص ١٤٣ .

(٢٣) مختارات ابن الشجري ص ١٧ . وهي في منتهى الطلب ٥٠/١ ، ومنها أبيات في الاغاني « الساسي » ١٦١/١٩ والبيان والتبيين ١٨٤/١ . والقصيدة جاءت في مجموعة خطية حديثة في دار الكتب أدب ١٧٣٦ . الورقة ١٥٦ ولعلها منقولة من شرح ابن حبيب الذي ذكره في الخزانة ١٥٥/١ ــ والمخطوطة تضم شعرا لكاظم الازرى من شعراء القرن التاسع عشر في العراق . فهي حديثة كما ذكرت .

فســاق له الدهر ذا وفضــة ... يقلّب في كفــه أســهما
فراقبـــه وهو في قتـــرة ... وما كان يرهب أن يكلمـــا
فأرسل ســهما له أمزعـــا ... فشـــك نواهقه والفمـــا
فظل يشـــبّ كـــأن الولو ... ع كـــان يصحبه مغرمـــا
وأدركـــه مـــا أتى تبعـــا ... وابرهـــة الملك الاعظمـــا

ويقول ساعدة بن جؤية[٢٤] :

تالله يبقى على الايام ذو حيَـــد ... أدفى صلود من الأوعال ذو خـــدم
يـأوى الى مشمخرات مصـعدة ... شمّ بهنّ فروع القان والنشـم
من فوقه شَعَف" قَرّ" وأسفلُه ... جِيٌ تَنَطَّقَ بالظَّيَّان والعَتَم
موكّل بشُدوف الصوم ينظرُها ... من المغارب مخطوفُ الحشـا رزم
حتى أتى له رام بمُحْـدِلـــة ... جَشْءٍ وبيْض نواحيهن كالسَّجَم
فظل يرقّبـــه حتى اذا دمست ... ذاتُ العِشاء بأسداف من الغَسَم
ثم ينوشُ اذا آد النهار لـــه ... بعد الترقّب من نِيم ومن كَتَم
دلّى يديه له سيرا فألزمـــه ... نفّاحة غير إنبْاء ولا شَـــرَم
فراغ منه بجنب الريد ثم كبـــا ... على نضيّ خـلال الصـدر منحطم

والوعل الذى يتأسون بانه لا ينجو من الدهر هو المثل في الامن والمنعة في كلامهم .. يقول امرؤ القيس[٢٥] :

تبيت لبوني بالقريّـــة آمنـــا ... وأسرحها غبـــا بأكنـــاف حائل
بنو ثعل جيرانهـــا وحماتهـــا ... وتمنع من رماة سعد ونائـــل
تلاعب أولاد الوعول رباعهـــا ... دوين السماء في رؤوس الجنادل

---

(٢٤) ديوان الهذليين ١٩٣/١ وانظر فيه ايضا لساعدة ٢٤٠/١ ، المتنخل ٣٦/٢ صخر الغي ٥٢/٢ مالك بن خالد الخناعي ٢/٣ .
(٢٥) ديوانه ص ٩٥ رقم ١٠

ويقول عدى بن زيد[٢٦] :

وأرى الشاهقَ المدلَّ به الأر   وى دونَ السحاب وعرَ المراقي
ودلالَ العزيزَ بالجمع ذى الأر   كان كلاّ معاذُه غيــــرُ واقي

ويقول النابغة[٢٧] :

وحلّت لبوني في يفاع ممنــــع   تخال به راعي الحمولة طـــائرا
تزل الوعول العصـــم عن قذفاته   وتضحي ذراه بالســحاب كوافرا
حـــذارا على الا تنـــال مقادتي   ولا نسوتي حتـــى يمتن حرائرا

والشاعر حين يذكر الوعل في غير الرثاء ليس محتاجا الى ان يروى عنه قصصا ويكفيه ان يذكر مقامه بأعلى الجبال ومن هنا يكثر قصص الوعل في اللون المتشائم المحزن من شعرهم •

الحيوانات الاخرى :

وقد تأسوا كذلك بالاسد وهو مثال واضح للقوة والهيبة • فأدراك الدهر له قول بعبث القوة في مواجهة القدر •• وانه أقوى من كل قوي •• يقول مالك بن خالد الخزاعي[٢٨] :

يا ميّ لا يعجز الايـام مجترىء   في حومة الموت رزّام و فرّاس
ليث هزبر مدل عند خيســــته   بالرقمتــين له أجر وأعــراس
احمى الصريمةَ احدانُ الرجال له   صيد ومستمع بالليــل هجّاس
صعب البديهة مشبوب اظـافره   مواثب أهرت الشــدقين هِرماس

---

(٢٦) ديوان عدى رقم ٩٤ ص ١٥٤ .

(٢٧) المختار من الشعر الجاهلي ص ١٧٣ .

(٢٨) ديوان الهذليين ص ٤/٣ . ولمالك شعر جاهلي يقوله ردا على مالك بن عوف النصري رئيس هوازن يوم حنين . انظر ٧/٣ ــ ٨ وما بعدها .

ويقول جندل بن أشمط العنزى[٢٩] :

لا ينفع الهارب الفـرار من الموت اذا ما تقـارب الاجـل
تعدو المنايا على أسـامة في الخنيس عليه الطرفاء والاسل

ولكن حديثهم عن الاسد لا يبلغ الى ان تكون قصصا •• فهو وصف لا يحتوى على حوادث •• ولم اجد في النعامة الا" قطعة لصخر الغي[٣٠] : وهو لا يأتي فيها بجديد •• فقد اتيح لسرب من النعـام رام اصابها فلاقت مصير الاحياء المحتوم اما الحيات التي جاء في كلام ابن رشيـق انهم كانوا يتأسون بها فقد بذلت الوسع فلم أعثر على نماذج لها من شعرهم •

بقر الوحش وحمار الوحش :

وقصص بقر الوحش وحمار الوحش كثير في الشعر العربي •• ولكن بين ما اتى منه على سبيل تشبيه الناقة به وما جاء قائما بنفسه في الرثاء فروق من اوضحها أن الحيوان ينجو من الصائد في غير الرثاء • ويقع فريسة للكلاب وتصيبه الرماح والسهام في الرثاء •• وهـذا مفهوم في الرثاء •• اذ ان هم الشاعر فيه ان يعبّر عن اليأس وعن الاستسلام للقدر المحتوم •• فهو يخلع تشاؤمه على الطبيعة من حوله •• كذلك فان الحيوان اذا كان مما تشبه به الناقة ينبغي ان يكون سريعاً •• ومن هنا كان انصراف الشاعر الى اصطناع ما يصور سرعة الحيوان فيصور الصائد والكلاب تلاحق البقر •• ويصور الحمار يطرد الاثنين ويحرص على ان يوجهها كما رغب[٣١] •• وليست السرعة مما يهتم به الشاعر في الرثاء •• فهو أقل عناية بدواعيها في صفته للحيوان •• وهمه ان يصور الحيوان خائفاً حريصاً على الحياة فهو يرد المياه حـذراً من الصائد ••

---

(٢٩) حماسة البحتري ص ١٤٤ واسمه عنده جلل بن اشمط العبدي . وانظر صحة اسمه محققة في الوحشيات ص ١٦٢ .

(٣٠) الهذليين ٣/٤ .

(٣١) اساليب الصناعة ص ٥٣ وما بعدها .

ولكن ذلك لا يمكن ان يستقيم له فهو مضطر الى الورود . فيستسلم لقدره ويرد .. ويلقى الصائد وقد ينجو من صائد ثم يصيبه آخر .. وقد ينجو من الكلاب ويقتل عددا منها ولكن الصياد يلحق به فيصيبه بسلاحه .. ولابد أن يدركه القدر . يقول ابو خراش[٣٢] :

أرى الدهر لا يبقى على حدثانه	أقبُّ تباريه جدائدُ حُولْ
أبنّ عِقاقا ثم يرمحن ظَلْمَه	اباء وفيه صولة وذميل
يظل على البَرز اليفاع كأنه	من الغار والخوف المحمّ وبيل
وظل لها يوم كأن أواره	ذكا النار من فيح الفروغ طويل
فلما رأين الشمس صارت كأنها	فويق البضيع في الشعاع خميل
فهيجها وانشام نقعا كأنه	اذا لفّها ثم استمر سحيل
منيبا وقد أمسى تقدّم وردَها	أقيدِرُ محموزُ القِطاع نذيلُ
فلما دنت بعد استماع رهفنه	بنَقْب الحجابِ وقعهن رجيل
يفجين بالايدى على ظهر آجن	له عرمض مستأسد ونجيل
فلما رأى أنْ لانجاء وضمّه	الى الموت لِصبٌ حافظ وقَفيل
وكان هو الادنى فخل فؤاده	من النبل مفتوق الغرار بجيل
كأن النضيّ بعد ما طاش مارقا	وراء يديه بالخلاء طميل

ويقول ابو ذؤيب في الثور[٣٣] :

والدهر لا يبقى على حدثانه	شبَبٌ أفزّته الكلاب مروّع
شعف الكلابُ الضارياتُ فؤادَه	فاذا يرى الصبح المصدّق يفزع
ويعوذ بالارطى اذا ما شفّه	مطرٌ وراحته بَلِيل زعزع
يرمي بعينيه الغيوبَ وطرفُه	مغض يُصَدّق طرفُه ما يسمع
فغدا يشرق متنه فبداله	أولى سوابقها قريبا توزع
فاهتاج من فزع وسدّ فروجه	غبر ضوار : وافيان وأجدع

(٣٢) ديوان الهذليين ١١٧/٢ . وانظر هامش الصفحة السابقة حيث يذكر المحققون ان المرثي هو عروة اخوه . . وان امراته لامته لترك الثار لزوجها .

(٣٣) ديوان الهذليين ١٠/١

ينهشنه ويذبهن ويحتمي عبل الشوى بالطرتين مولع
فنحالها بمذلقين كأنما بهما من النضح المجدع ايدع
فغدا يشرق متنه فبداله أولى سوابقها قريبا توْزع
فكأن سفّودين لمّا يُقْتَرا عَجِلا له بشواء شَرْب يُنْزَع
فصرعنه تحت الغبار وجنبه متترّب ولكل جنب مصرع
حتى اذا ارتدت وأقصد عصبة منها وقام شريدها يتضرّع
فبدا له رب الكلاب بكفه بيض رهاف ريشهن مقزع
فرمى لينقذ فرّها فهدى له سهم فأنفذ طُرّتَيْه المِنْزَع
فكبا كما يكبو فنيق تارز بالخَبْتِ إلا انه هو أبرع

الثور مسن وقد أحس بالكلاب فهو خائف طول الليل .. ثم هي تفاجئه في الصباح فتنهشه وتصرعه كما يصرع كل جنب .. وهو يقاوم ويقتل بعضها .. ولكن الصياد يلحق به فيرميه بسهم يصيبه .. والشاعر كما هو واضح لم يعن بتصوير عدو هذا الثور وسرعته ..

ويختار الشاعر أحياناً أن يروي قصته عن عانة أو صوار فهو غير مضطر الى مراعاة الطرف الآخر من التشبيه كما يفعل حين يصف ناقته .. وربما كان بذلك يتناول كل حي يصير الى القدر الواحد .

يقول ساعدة بن جؤية(٣٤) :

ولا صوار" مذرّاة" مناسجُها
مثلُ الفريدِ الذي يجري من النُظُم
ظلت صوافن بالأرزان صادية
في ماحق من نهار الصيفِ محتدم
قد أوبيت كلّ ماءٍ فهي طاوية"
مهما تصِب أُفقا من بارقٍ تَشِم

---

(٣٤) الهذليين ١٩٧/١ .

حتى شـأها كليلٌ مَوْهِناً عَمِلٍ
باتت طرابا وبات الليـل لـم ينم

كـأن ما يتجـلى عـن غواربـه
بعـد الهـدوء تمشـّي النار في الضَّرَمِ

حيرانُ يركب أعـلاه أسـافله
يخفي جـديدَ ترابِ الأرضِ منهـزمُ

فأسـأدت دَلَجـا تحْيِي لمـوقعـه
لم تنتشبْ بوعوث الأرض والظُّـلَم

حتى اذا ما تجلّى ليلهـا فزعت
من فـارس وحليف الغـرب ملتئم

فأفتنهـا في فضـاء الأرض يأفرهـا
وأصحرت عن قفاف ذات معتصـم

أنحى عليهـا شُراعيّـا فغـادرهـا
لدى المزاحف تلّى في نضـوخ دم

فكـان متفـا بمقـدار وأدركهـا
طـول النهار وليل غـير منصـرم

ويقول قيس بن عيزارة(٣٥) :

والله لا يبقى على حَدَثـانـه	بقـر بناصـفة الجواء ركود
ظلت بلقعة وخَبْتٍ سَمْلَقٍ	فيـه يكـون مبيتهـا وترود
يومـاً كـأن مشـاوذا ربعيـّة	أو ريط كتّـان لهـن جـلود
كُتِبَ البياض لها وبورك لونها	فعيونها حتى الحواجب سـود
حتى أُشِبَ لها أغيبر نـابـل	يغري ضـوار خلفها ويصيد
في كل معترك تغـادر خلفهـا	زرقـاء داميـة اليدين تميد
يوما أراد لها المليك نفـادهـا	ونفـادهـا بعـد السلام يريد

(٣٥) الهذليين ٧٤/٣ . وتعرف جاهليته بعلاقته مع تأبط شرا .. انظر ٧٦/٣ .

ونحن نرى مما استعرضنا من نماذج قصص الحيوان في الرثاء أن له قيمة كمثل يضرب لمصير الاحياء الى الفناء وعجزهم عن النجاة من الدهر .. كذلك رأينا أنه في الرثاء يساق قائما بنفسه ولا يكون طرفا في تشبيه .. وهذا ينبغي أن يوجهنا الى هذا النوع من القصص في غير الرثاء . لمحاولة فهمه والتعرف على الهدف من سرده .. وأول ذلك أن وصف الناقة الذي لانجده في الرثاء[٣٦] ينبغي أن يكون مرتبطاً في الذهن الجاهلي بالحياة والتفاؤل بها والقوة والقدرة على مواجهة التحديات .. والواقع اننا نجدهم يعبرون عن كل هذه المعاني حين يأخذون في وصف الناقلة وذكر ارتحالها .. ووصف قوة الناقة ومرتحلها على مواجهة أهوال الصحراء ومشاق السفر .. وفي استعراض د. محمد حسين[٣٧] لأساليبهم في التخلص من الغزل الى وصف الناقة لاحظ أن أكثر مذاهبهم شيوعا في ذلك أن الشاعر يسلي بالناقة همه ويتناسى ما كان بينه وبين صاحبته من مودة .. وما ضرب به المثل من ذلك قول الاعشى .

وقد أسلّي الهمّ حين أعتري ... بجسرة دوسرة عاقر

وقوله :

فدعها وسلّ الهم عنك بجسرة ... تزيّد في فضل الزمام وتغتلي

وقول امرىء القيس :

فدعها وسلّ الهم عنك بجسرة ... ذمول اذا صام النهار وهجّرا

وقول طرفة :

واني لأمضي الهم عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

---

(٣٦) للنابغة قصيدة في رثاء النعمان بن الحارث الغساني يصف فيها الناقة ويشبهها بحمار الوحش .. ولكنه مثال فريد .. مختار الشعر الجاهلي ص ١٩٥ .

(٣٧) اساليب الصناعة ص ٧٤ ــ ٧٨ . والنصوص بعض ما اورده من مثال.

ومن أساليبهم في ذلك انهم يرتحلون عليها قطعا لحبال من يقطع الحبل. أو يتمنون أن يلحقوا عليها من ارتحل من أحبابهم .. أو يرتحلون الناقة حين تعجز الديار عن الاجابة على لهفتهم وتساؤلهم .. وفي كل هذه الاساليب يعبّر الشاعر عن القوة على مواجهة آلامه ولا يرتحل هذه الناقة أبدا تعبيرا عن الضعف أو الاستسلام للحزن أو القدر . والناقة بهذا رمز للحياة وحبها والحرص على التمتع بها .. وهو أمر يتفق تماما مع القيمة الحقيقية للناقة في حياة الصحراء .. وكذلك ينبغي أن نفهم أيضا ما تشبه به الناقة من حيوان فحمار الوحش أو ثور الوحش أو الناقة أمثلة للحياة والتفاؤل بها يعبر عنه بنجاة هذا الحيوان من الكلاب والرماة واليأس منها ينتهي بهذا الحيوان الى ملاقاة حتفه على يد الصائد .. ونفهم امتدادا لهذا المنطق أن الصائد والكلاب هي رمز للقدر أو الدهر .. ينجو منه الحيوان اذا كان الشاعر متفائلا ويكون فريسة له اذا كان متشائما حزينا . والحقيقة أن تصوير الدهر بالرامي أو الصائد الذي يوجه سهامه الى الانسان صورة شائعة في شعرهم . يقول عمرو بن قميئة[٣٨] :

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... وكيف بمن يرمي وليس برام
فلو انها نبل اذا لاتّقيتها ... ولكنني أرمى بغير سهام

ويقول أيضا[٣٩] :

جلح الدهر وانتحى لي وقد ما ... كان ينحي القوي على أمثالي
أقصدتني سهامه اذ رمتني ... وتولت عنه سليمي نبالي

ويقول أبو زبيد الطائي[٤٠] :

علل المرء بالرجاء ويضحي ... غرضا للمنون نصب العود
كل يوم ترميه منها برشق ... فمصيب أوصاف غير بعيد

---

(٣٨) ديوانه ص ٢٢ رقم ٣
(٣٩) ديوانه ص ٣١ رقم ٦
(٤٠) شعر ابي زبيد ص ٤٢ رقم ٩

ويقول النمر بن تولب[٤١] :

وقد تثلم أنيابي وأدركني قرن عليّ شديد فاحش الغلبه
وقد رمى بسراه اليوم معتمدا في المنكبين وفي الساقين والرقبه

ويقول الفند الزماني[٤٢] :

ولولا نبل عوض في خضمّاتي وأوصالي
لطاعنت صدور الخيل طعنا ليس بالآلي

ويقول عدي بن زيد[٤٣] :

فوق الدهر الينا نبله علّلا يقصدنا بعد نهل
فهو يرمينا فلا نبصره فعل رام رامَ صيدا فختل
رزق الصيد ولاقى غرّة فرمى مستمكنا ثم قتل
فلذاك الدهر مأمور بنا فهو لا يغفل ان شيىء غفل

ويذكر الأصمعي أن وصف امرىء القيس للرامي من بني ثعل هو من نوحه على أبيه[٤٤] .. وقد يكون الاصمعي معتمدا في قوله على خبر بلغه أو على فهم دقيق لهذا الرمز الجاهلي .. ويمكن على كل حال أن نقبل ما قاله الأصمعي في ضوء ما قدّمنا من النصوص .. يقول امرؤ القيس[٤٥] :

رب رامٍ من بني ثعل متلج كفّيه في قُتَره
عارضٍ زوراءَ من نَشَمٍ غيرِ بأناةٍ على وتره
قد أتته الوحش واردةً فتنحّي النزعَ في يَسَره

---

(٤١) أمالي القالي ٢٢٣/١ .
(٤٢) شرح الحماسة للمرزوقي ٥٣٧/٢ .
(٤٣) ديوان عدى بن زيد رقم ٢١ ص ٩٩ .
(٤٤) الموشح ص ٢٧ .
(٤٥) ديوان امرىء القيس رقم ١٧ ص ١٢٣ .

فرماهـا في فرائصـهـا بـأزاء الحـوض أو عُقَره
برهيش مـن كنـاتتـه كتلظّي الجمر في شـرره
راشـه من ريش ناهضـةٍ ثم أمهـاه على حجـره
فهـو لا تنمى رميّتـه مالـه لا عـدّ من نفـره
مطعَم للصـيد ليس لـه غيرهـا كسب على كبـره
وخليـل قـد أفـارقـه ثمّ لا أبكي عـلى أثـره
وابن عـم قـد تركت لـه صـفو ماء الحوض عن كـدره
وحديثُ الركبِ يومَ هنـا وحديث" ما عـلى قصـره

وليس تعيين قبيلة الرامي مبهما في فهم هذا الشعر لاننا نراهم يذكرون مثل ذلك في قصص الحيوان .. فمن ذلك قول ساعدة بن جؤية في قصيدة رثـاء[٤٦] :

أرى الدهـر لا يبقى على حدثـانـه
أبـود" بـأطـرافِ المنـاعـةِ جلعـد

حتى يقول :

رأى شخص (مسعود بن سعد) بكفـه
حـديـد حديث بالوقيعـةِ معتـد

ويقول الأعشى يصف حمارا ورد عينا عندها وكر لصياد[٤٧] :

بنـاهنّ (من ذلاّن) رام أعـدّهـا
لقتـل الهـوادي داجـن بالتوقّـم

(٤٦) ديوان الهذليين ١/٢٤٠ ــ ٢٤١ .
(٤٧) ديوان الاعشى رقم ١٥ ص ١٢١ .

ويقول في بقرة وحشية[٤٨] :

حتى اذا ذرّ قرن الشمس صبّحها
(ذؤالُ نبهان) يبغي صحبه المُتَعا

ويقول أيضا[٤٩] :

فصبّحه عند الشروق غديّةً
كلاب (الفتى البكريِّ عوفِ بنِ أرقما)

ويقول ربيعة بن مقروم الضبي في الصائد[٥٠] :

وبالماء (قيس أبو عامر) يؤمّلها ساعة أن تصوما

ويقول :

فصبّح من بني جلّان صلّا عطيفته وأسهمه المتاع

ويقول سويد بن أبي كاهل[٥١] :

راعه من طيّ ذو أسهم وضراء كنّ يبلين الشرع

والراجح انهم يذهبون الى الشهرة في ذلك ولا يريدون خصوص ما يذكرون ، ويشبه هذا اختيارهم أن يشبهوا بسفين بن يامن ودكان العبادي وخمر هذا المكان أو ذاك .. وفعلهم هذا لا يحوّل شعرهم من القصص العام الذي يعبّرون به عن مشاعر التفاؤل والتشاؤم الى قصص حقيقي واقع يروي حادثة بعينها .

---

(٤٨) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١٠٥ .
(٤٩) ديوان الاعشى رقم ٥٥ ص ٢٩٥ .
(٥٠) المفضليات رقم ٣٨ ص ١٨٢ ، رقم ٣٩ ص ١٨٩ .
(٥١) المفضليات رقم ٤٠ ص ١٩٦ .

لا تبلغ أكثر اشارات الشعراء الجاهليين الى حوادث التاريخ وشخوصه الى أن تكون رواية لقصة .. فالحادثة اذا كانت شهيرة معروفة اكتسبت في كلامهم صفة المثل الوجيز واكتفى الشاعر بالالماح الى حوادثها وأبطالها .. ومن هذا اللون أكثر قصص ملوك العرب وقبائلهم القديمة والبائدة..ويتحكم ميل الشاعر وشخصيته الفنية كذلك في افاضته أو ايجازه في السرد . فلبيد مثلا قصير النفس في رواية احداث التاريخ .. وهو يكاد يقف عند الاسماء ويقدمها متراكمة وجيزة دون حدث الا في النادر .. يقول لبيد بعد ان يذكر جماعة من أهله وسادة قومه[٥٢] :

وشمطَ بني ماء السماءِ ومردَهم
فهل بعدهم من خالد أو معمّر

ومن فاد من اخوانهم وبنيهم
كهول" وشبان" كجِنّة عبقر

مضوا سلفا قصدُ السبيلِ عليهم
بهيٌ من السّلافِ ليس بحيدر

فكائن رأيت من بهاء ومنظر
ومفتح قيد للاسير المكفّر

وكائن رأيت من ملوكٍ وسوقةٍ
وراحلةٍ شدّت برحل محيّر

وأفنى بنات الدهر أربابَ ناعطٍ
بمستمعٍ دون السماء ِمنظر

وبالحارثِ الحرّابِ فجّعن قومه
ولو هاجهم جاءوا بنصر مؤزر

(٥٢) شرح ديوانه رقم ٨ ص ٥٤ .

وأهلكن يوما ربَّ كندةَ وابنَه
وربَّ معدّ بين خبث وعرعر

وأعوصن بالدّوميّ من رأس حصنه
وأنزلن بالاسباب ربّ المشقر

وأخلفن قسا ليتني ولعلني
وأعيا على لقمانَ حكمُ التدبّر

فان تسألينا فيم نحن فاننا
عصافير من هذا الانام المسحّر

نحل بلادا كلّها حلَّ قبلنا
ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

ومثل ذلك قول لبيد أيضا .. وهو أكثر تفصيلا في هذه القصيدة(٥٣) :

ولقد رأى صبحٌ سوادَ خليله
من بين قائم سيفه والمحمل

صبّحن صبحاً حين حقَّ حذارهُ
فأصاب صبحا قائف لم يغفل

فالتف صفقهما وصبح تحته
بين التراب وبين حنو الكلكل

ولقد جرى لبد فأدرك جريَه
ريبُ الزمان وكلُّ غيرِ مثقّل

لما رأى لبد النسور تطايرت
رفع القوادم كالفقير الاعزل

---

(٥٣) شرح ديوانه رقم ٣٩ ص ٢٧٣ .

من تحتــه لقمان يرجــو نهضَــه
ولقــد رأى لقمـــان ألا ّ يـأتلي

غلب الليــالي خلفَ آل محــرّق
وكما فعـــلن بتبـــع وبِهِر ْقَـل

وغلبن إبرهـــةَ الـذي الفينـــه
قـد كـان خلّد فوق غرفـة مو ْكَـل

والحــارثُ الحرّابُ خلّى عاقــلا
دارا أقــام بهـا ولـم يتنقــل

تجري خزائنــه على من نـابـــه
مجرى الفــرات على فِراض الجـــدول

حتى تحمّــل أهـــلُه وقطينـــه
وأقـام سـيّدهم ولــم يتحمّـــل

والشـــاعرون النـاطقـــون أراهــم
ســـلكوا ســـبيل مرقّش ومهلهـــل

ومما أوجزوا فيه من القصص ما يتعلق بالروم .. وذلك ـ على العكس من قصص العرب ـ يرجع فيما أرى الى جهلهم بتاريخ الروم وملوكهم وبعــد عاصمتهم القسطنطينية عن العرب . ومن هذه الاشارات اليهم ما مر في لاميـة لبيد .. وقول عدي بن زيد(٥٤) :

وبنو الاصفر الملوك ملوك الروم لـم يبـق منهـم مذكـــــور

ويبدو ان بعض الشعراء يميلون الى الاســـلوب القصصي .. وانما يختارون مواضيعهم من التاريخ الذي لا يعرفه الا ّ القلة المحـــــدودة .. ويختارون منه كذلك ما يحتوي على شيىء غير مألوف مما يتيح لهم جانبا من

---

(٥٤) ديوانه رقم ١٦ ص ٨٧ . ويشير اليه مرة اخرى ويسميهم بني الناصور. رقم ٤١ ص ١٢٥ .

المتعة الفنية .. فمن أكثر ما فصلوا القول فيه قصة الحضر .. وهو حصن حاصره الفرس واستعانوا بابنة صاحبه على افتتاحه .. ثم لقيت الخائنة حتفها على يد الفاتح لأنه لم يأمن امرأة خانت أباها .. يقول عدي بن زيد في هذه القصة[٥٥] :

والحَضْرُ صابت عليه آسية	من ثُغْرةٍ أيّد مناكبها
ربيبةٌ لم تُوَقَ والدها	لحبّها اذ يضاع راقبها
أجشمها حبّها لما فعلت	اذ نام عنها للغي صاحبها
اذ غبقته حمراءَ صافيةً	والخمر وهل يهيم شاربها
وأسلمت ربّها بليلتها	تظن أن الرئيس خاطبها
فكان حظ العروس اذ برق الـ	ـصبح دماء تجري سبائبها
وحوّر الحضر واستبيح وقد	أُحرِق في خدرها مشاجبها
لم يبق فيه الا مراوحُ طا	يات وبورٌ تضغو ثعالبها

ويقول الاعشى في الحضر : ومن البيّن ان عدي بن زيد بآقامته بالحيرة وصلته بالفرس أكثر معرفة وأدق في الرواية[٥٦] :

ألم ترى الحَضْرَ إذ اهلُه	بنعمى وهل خالد من نعم
أقام به شاهَبور الجنو	دِ حولين تضرب فيه القدم
فما زاده ربه قوةً	ومثل مجاوره لم يقم
فلما رأى ربه فعله	أتاه طُروقا فلم ينتقم
وكان دعا رهطَه دعوة	هلمّ الى أمركم قد صرم
فموتوا كراما باسيافكم	وَللموتُ يجشمه من جَشِمِ

(٥٥) ديوانه رقم ٥ ص ٤٧ .

(٥٦) ديوانه الاعشى ص ٤٣ رقم ٤ وانظر فيه قصيدة نونية لابي دواد : دراسات في الادب العربي ص ٣٤٥ رقم ٦٥ .

وأفاضوا كذلك في قصص ملوك اليمن وحصونه .. ومنـــه قول أبي الطمحان القيني في مأرب[٥٧] :

ألم تروا مأرباً ما كان أحصنه — وما حواليه من ســور وبنيان
ظل العبادي يسقى فوق قلته — ولم يهب ريب دهر جدّ خوان
حتى تناوله من بعد ما هجعوا — يرقى اليه على أسباب كتّان

ويقول فيه الاعشى[٥٨] :

ففي ذاك للمؤتسي اســوة — ومأرب قفّى عليهـــا العرم
رخـــام" بنتـــه لهم حمير — اذا جاءه ماؤهم لـــم يرم
فأروى الزروعَ واعنابَهـــا — على سعةٍ ماؤهم اذ قُسِم
فعاشـــوا بذلك في غبطـة — فجـــار بِهم جـــارف منهزم
فطار القيـــول وقيلاتهـــا — بيهماء فيهـــا ســـراب يطِم
فطاروا ســـراعا وما يقـدرو — ن منــه لشـرب صبي فُطِم

ويقول عدى بن زيد في صنعاء واستيلاء الفرس عليهـــا وذهاب ملك الحبشة[٥٩] :

مـــا بعـد صنعاء كان يعمرهـــا — سادات ملك جزل" مواهبهـــا
يرفعها من بني لدى قَزَعِ الـ — ـمزنِ وتندى مسكا محاربها
محفوفة" بالجبال دون عرى الـ — ـكيد فيهـــا ترقـــى غواربها
يأنَس فيها صـــوت النُّهام اذا — جاوبهَـــا بالعشّي قاصبهـــا
ساقت اليهـــا الاسبابَ جندبني الاحرار فرســـانُها مواكبهـــا
وفوّزت بالبغـــالِ توسق بالـ — ـحتف وتسعى بها توالبهـــا
حتى رآها الاقوال من طرف الـ — ـمِنْقَلِ مخضرّة" كتائبهـــا

---

(٥٧) مروج الذهب ٢/٩٢ .

(٥٨) ديوانه رقم ٤ ص ٤٣ .

(٥٩) ديوان عدى رقم ٥ ص ٤٦ .

يوم يقولون يـال بربر والـ ـيكـرمَ لايفلتنّ هاربهـا
وكان يوما باقي الحديث وزا لت أمّـه ثابت مراتبهـا
وبدّل الفيج بالزرافـة والـ ـأيام خون جم عجائبهـا
بعد بني تبّـع نخـاورةٍ قد اطمأنت بهـم مرازبهـا

وقصص ملوك الحيرة مما اكثروا وفصلوا فيه .. فهو لـم يبلغ من الشهرة ما يجعله معروفا عند الاكثرية .. ولم يكن بعيدا عن علم الشعراء والمهتمين بشيء من الاحداث العامة .. يقول الاسود بن يعفر فيهم[٦٠] :

ماذا أؤمـل بعـد آل محـرّق
تركوا منازلهـم وبعـد ايـاد
أهـل الخورنق والسـدير وبارق
والقصـر ذى الشرفات من سنداد
أرضـا تخيّرهـا لدار ابيهـم
كعب بن مامـة وابـن أمّ دواد
جرت الرياح على مكـان ديارهـم
فكأنمـا كانوا عـلى ميعـاد
ولقد غنوا فيهـا بأنعم عيشـة
فـي ظـلّ ملك ثابت الاوتـاد
نزلوا بأنقـرة يسـيل عليهـم
مـاء الفـرات يجيء من أطـواد
أين الذين بنـوا فطـال بنـاؤهم
وتمتعـوا بالاهـل والاولاد
فاذا النعيم وكـل مـا يلهى بـه
يومـا يصير الى بـلى ونفـاد

---

(٦٠) المفضليات رقم ٤٤ ص ٢١٧ .

ويقول الاعشى[٦١] :

ولا الملك النعمـــان يوم لقيتـــه
بامّتـــه يعطي القطـــوط ويأفـــق
ويجبى اليـــه السَيْلَحون ودونهـا
صَرِيفون فـــي أنهارها والخورنق
ويقســـم أمرَ الناس يومـــا وليلة
وهم ســاكتون والمنيّـــة تنطـــق
ويـأمر للحيمـوم كـــلّ عشـــية
بقتّ وتعليـــق وقـــد كان يَسْنَق
يعـــالى عليـــه الجلّ كل عشـــيّة
ويُرْفَع نُقْـــلا بالضـــحى ويعرّق
فذاك ومـــا أنجى من الموت ربـــه
بساباط حتى مات وهـــو محـــزرق

ويقول عدى بن زيد في ملك الحيـــرة الذى يقال انه سمع موعظـــة فترهب[٦٢] :

وتـأمل رب الخـورنـق اذا اشـرف يومـا وللهدى تفكير
سرّه ماله وكثرة مـا يملك والبحر معرضـا والسدير
فارعوى قلبه وقال ما غبطة حيّ الى الممات يصيـــر

ولا يخرج قصص الغساسنة على هذا النمط .. ومثلهـــا ما رووه عن حكام الحصون واصحابها كحصن المشقر وحصن السموأل .. فهؤلاء جميعا كانوا أقوياء ممتنعين بالحصون او الجيوش ولم ينجهم شـــيء من ذلك من الدهر ..

---

(٦١) ديوان الاعشى رقم ٣٣ ص ٢١٩ .

ومعلوماتهم عن الفرس اوفر منها بالنسبة للروم •• فهم يذكرون ملوك الفرس باسمائهم ويشيرون الى شيء من قصص هؤلاء الملوك بدقة لاحظناها فيما رويناه عن احتلال احدهم للحضر ، ويقول عدى بن زيد[٦٣] :

قتلوا كسرى بليل محرما
فتولى لم يمتّع بكفن

ويقول[٦٤] :

أين كسرى كسرى الملوك انوشروان أم اين قبله سابور

وقد رأيناه يذكر احتلال الفرس لليمن وطردهم للاحباش ••

وهو يذكر كذلك قباذ[٦٥] :

صرعن قباذا ربّ فارس كلها
وحشت بأيديها بوارق آمد

أما قصص العرب من الدول القديمة والقبائل البائدة والتابعة الاوائل ، فالاشارة اليه كثيرة ولكن التفصيل فيه نادر •• واكثر الاشارة اليهم تستخدمهم أمثالا في القوة والكثرة والامن الذى لم يدم لهم •• وامثلة في الاندثار وذهاب الريح • وما الى ذلك •• ونفهم كذلك من التناقض الذى يشيع في اخبارهم في الشعر أن قصصهم لم يكن واحدا بين أهل الجاهلية •• يقول سويد بن ابي كاهل[٦٦] :

ان اذق حتفي فقبلي ذاقه
طسم عاد وجديس ذو السبع

---

(٦٢) ديوان عدى رقم ١٦ ص ٨٩ .
(٦٣) ديوان عدى رقم ١٣٠ ص ١٧٨ .
(٦٤) ديوان عدى رقم ١٦ ص ٨٧ .
(٦٥) ديوان عدى رقم ٤١ ص ١٢٤
(٦٦) مروج الذهب ١٦/٢

فهذه الاشارة غير مفهومة بالنسبة للقصة المروية • ويقول النمر بن تولب[٦٧] :

هلاّ سألت بعادياء وبيته
والخلّ والخمر التي لم تمنع
وفتاتهم عنز عشية أبصرت
من بعد مرأى في الفضاء ومسمع

ويقول ابن حبيب أنه أراد أبا السموأل •• أو أراد عادا لأن كل قديم عند العرب عادى • ولكن كلا التفسيرين غير مقنع •• والشاعر يروى ما لم يعرف الرواة والمفسرون•• فعادياء الذي يذكره منابطال قصة جديس وطسم ولاصلة له بعاد أو السموأل •

واختلفوا كذلك في نسبة قدار الى عاد في معلقة زهير •• فزعموا انه أخطأ •• أو ان ثمودا هم عاد الثانية[٦٨] ولكن احتمال خطأ زهير غير كبير •• والارجح منه ان القصص العربي يربط بين القبيلتين البائدتين نوعا من الربط لم يعرفه الرواة ••

ومن شخوص هذا القصص العربي لقمان •• وهو مثل في طول العمر ونسوره ومنها لبد استخدمت رمزا اسطوريا في هذا الصدد ومنذلك قول عمرو بن حممة الدوسي المعمّر[٦٩] :

وأصبحت مثل النسر طارت فراخه
اذا رام تطيارا يقلن له قع

---

(٦٧) خزانة الادب ١٥٥/١ .

(٦٨) شرح القصائد السبع لابن الانباري ص ٢٧٠ ، شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٢٢٥

(٦٩) كتاب المعمرين ص ٢٢ .

ويقول مسافع بن عبد العزى الضمرى[٧٠] :

كأنا مضرحيات برضوى
ينؤن اذا ينؤن بلا جناح

ويقول سلميّ بن غوية بن ربيعة الضبيّ[٧١] :

أولم ترى لقمان أهلكه ما اقتات من سنة ومن شهر
وبقاء نسر كلما انقرضت أيامه عادت الى سر
ما طال من أبد على لبد رجعت محورته الى قصر

وضربوا المثل به في النباهة والحكمة ، يقول النمر بن تولب[٧٢] :

لقيم بن لقمان من أخته
فكان ابن أخت له وابنما
ليالي حمّق فاستحصنت
اليه فغرّ بها مظلما
فأحبلها رجل نابه
فجاءت به رجلا محكما

ويقول لبيد في تسلّط بنات الدهر[٧٣] :

وأخلفن قسّا ليتني ولو أنني
وأعيا على لقمان حكم التدبّر

---

(٧٠) كتاب المعمرين ص ٢٤ .

(٧١) مجالس ثعلب ٢٤٥/١ . وانظر في قولهم في نسر لقمان كتاب المعمرين ص ٢ ــ ٣ حيث جاء بابيات للبيد والاعشى وابيات الضبي الرائية .

(٧٢) مختارات ابن الشجرى ص ١٧ ، البيان والتبيين ١٨٤/١ .

(٧٣) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٤٦ .

ويقول زبّان بن سيار في تطيّر النابغة ورجوعه عن الغزو[٧٤] :

أقــام كأن لقمــــان بـــن عــاد
أشــــار لـــه بحكمتــــه مشيــر

وضربوا المثل بقدار في الشؤم كما جاء في معلقة زهير ، وقول علباء بن ارقم الذى ذبح كبشا حماه النعمان[٧٥] :

وقال صحابي انــك اليـــوم كائن
علينا كمـــا قفّى قدار عـــلى ارم

وهـــذه الاشارة التاريخية تربط بين قدار وعـــاد مثل اشارة زهير في المعلقة •• لأن ارم ذات صلة واضحة بعاد •• يقول تعالى في سورة الفجر : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد • ارم ذات العماد • »

وضرب قدار مثلا في طول العمـــــر ، تقول الخنســـاء اخت زهير في رثائه[٧٦] :

ولاقــاه مـــــن الايّـــام يـــوم
كمـــا من قبـــل لم يخلـــد قدار

وأهتموا بقصة زرقاء اليمامة •• فجعلها النابغة مثلا في الفراسة في معلقته الدالية ، وروى النمر بن تولب قصتها ورؤيتها الاسطورية لجيش الملك اليماني الذي أفنى قومها بجوّ فقال[٧٧] :

هـــلاّ ســـألت بعـــادياء وبيتـــه
والخلّ والخمـــر التـــي لـــم تمنع

---

(٧٤) الحيوان ٣/٤٤٧ ، العمدة ٢/٢٦١ .
(٧٥) الاصمعيات رقم ٥٥ ص ١٧٩ .
(٧٦) معاهد التنصيص ١/١١٠ ، المؤتلف والمختلف ص ١١٠ . ولم يرد فيها هذا البيت .
(٧٧) خزانة الادب ١/١٥٥ .

وفتـــاتِهم عنزٍ عشـــيةَ أبصرت
من بعدٍ مرأى في الفضاء ومسمعِ

قالت أرى رجـــلا يقلّب نعـــله
أصُـــلا وجوٌ أمن لـــم يفـــزع

فكـــأن صـــالح أهـــل جوّ غدوة
صبحوا بذيفـــان السِّمام المُنْقَع

كانوا كأنعمٍ من رأيتِ فأصـــبحوا
يلـــوون زاد الراكـــب المتمتّـــع

كانت مقدّمـــة الخميس وخلفهـــا
رَقَصُ الركابِ الى الصباحِ بتبّع

ورواها الاعشى أيضاً في قوله مخاطباً ابنته طالباً اليها ان تتفاءل برجوعه من سفره ولا تتطيّر كما فعلت فتاة اليمامة[٧٨] :

كوني كمثل التي اذغاب وافدهـــا
أهدت له من بعيـــد نظرة جزعـــا

ولا تكوني كمـــن لا يرتجي أوبـــة
لذى اغتراب ولا يرجو له رِجَعـــا

ما نظرت ذات أشـــفار كنظرتهـــا
حقّا كمـــا صدق الذئبي اذ سجعا

اذ نظرت نظرة ليســـت بكاذبـــة
اذ يرفع الآل رأسَ الكلبِ فارتفعا

وقلّبت مقلـــة ليست بمُقْـــرِفة
انســـانَ عينٍ وموقاً لم يكن قمَعا

---

(٧٨) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١٠١ .

قالت أرى رجـــلا في كفـــه كتف
أو يخصف النعـــل لهفي أيةً صنعا

فكذبوها بمـــا قـــالت فصبّحهـــم
ذو آل حسّان يزجي الموت والشرعا

فاســـتنزلوا أهـل جوّ من مساكنهم
وهدّموا شاخص البنيان فاتّضعـــا

ويشير القرآن الكريم الى معرفة العرب لبعض قصص الانبياء وأقوامهم مما جاءهم من المصادر الكتابية ، يقول تعالى : « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات اتتهم رسلهم بالبيّنات • » التوبة ٧٠ ويقول تعالى في قوم لوط عليه السـلام : « وانكم لتمرّون عليهم مصبحين • وبالليل افلا تعقلون • » الصافات ١٣٧ • ويقول تعالى : « ولقد أتوا على القرية التي مطرت مطر السوء افلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا » • الفرقان ٤٠ • وينقل الطبري عن قتادة أن اوائل الامة نظرت الى سفينة نوح بالجزيرة[٧٩] : وهي من مواطن اياد ووجود سفينة نوح عليه السلام او ما يقال انه هي يحتّم ان تكون قصة الطوفان معروفة عندهم في الجاهلية وعند من يخالطهم من العرب • ولابد ان وجود اليهود والنصارى بين العرب نشر بينهم كثيرا من هذا القصص لانه مادة قريبة من الفهم مفيدة للتبشير والعظة • وكان اتصال العرب بالعالم حولهم يتيح لهـم شيئا من هذه المعرفة ؛ جاء أن قيس بن نشبة السلمي قال لقومه يدعوهم الى الاسلام : « قد سمعت ترجمة الروم وفارس واشعار العرب والكهانة ومقاول حمير وما كلام محمد يشبه شيئا •• الخ[٨٠] وينقل الجاحظ أن مسيلمة الكذاب

---

(٧٩) تفسير الطبري « بولاق » ٥٦/٢٧ في تفسير قوله تعالى من سورة القمر : «ولقد تركناها آية فهل من مدكر » . و ٣٩/٢٩ « بولاق » في تفسير قوله تعالى من سورة الحاقة : « لنجعلها لكم تذكرة » .

(٨٠) اسد الغابة ٢٢٨/٤ .

طاف قبل أن يتنبأ في الاسواق التي كانت بين دور العجم والعرب كسوق الابلّة والانبار والحيرة وتعلّم اصنافا من حيل الحواة والسحرة والكهان وغيرهم[81] ويصف الاعشى تطوافه في دائرة واسعة من أجل المال فيقول[82] :

وقد طفت للمال آفاقه	عمان فحمص فاويشلم
أتيت النجاشي في ارضه	وأرضَ النبيط وارضَ العجم
فنجرانَ فالسروَ من حميرٍ	فأىّ مرام لـه لـم أرم
ومن بعد ذاك الى حضرموتَ	فأوفيت حينا وحينا أهم

فالاعشى وامثاله من الشعراء ومثلهم التجار من الحجاز واليمن كان يتاح لهم الكثير من فرص التعرّف على القصص الاجنبي والكتابي .

الشك في القصص الكتابي اذن ليس سببه استحالة معرفته على أهل الجاهلية .. وانما يرد الشك في هذا القصص لأنه يساق في كثير من الاحيان دون هدف ولأنه كذلك تقليد غث بارد للقرآن الكريم .. وقد رأينا فيما مر بنا من قصص عاد وثمود ونحوه ان الشاعر الجاهلي لا ينظم القصص لذاته ولمتعته الفنية ، وانما يسوقه ليخلص الى العبرة منه . وكذلك فان ما يثير انتباهه في هذا القصص ليس هو الجانب الذى يهتم القرآن الكريم بابرازه . أما تقليد القرآن الكريم اللفظي أحيانا فهو سذاجة غريبة لا يقع فيها الرواة الكبار الذين اتهموا بالانتحال كحماد وخلف .. ولئن قبلنا بعض ما تقوله هؤلاء لأنه تقليد دقيق للاصول فان شعر أمية بن أبي الصلت لا يرتفع في القيمة الى هذا المستوى .. وانه لمن الغريب كذلك ان لا يروى لامية شعر في المناذرة والغساسنة والحضر والفرس والروم وهم من المواضيع المفضلة للقصص

---

(81) الحيوان ٤/٣٦٩ .

(82) ديوان الاعشى رقم ٤ ص ٤١ .

الجاهلي .. ولكن وضّاع الشعر على امية اهملوا ذلك لأنه ليس موضوعا للقصص القرآني ، وهو هدفهم او انموذجهم الذى يقلدون[٨٣] .

ويمكن ان نقبل من القصص الكتابي ما يبدو معرّبا ، كقول لبيد في داود عليه السلام[٨٤] :

ونزعن من داود أحسن صنعه
ولقد يكون بقوّة ونعيم
صنع الحديد لحفظه أسرادَه
لينال طول العيش غير مروم
وكأنما صادفنه بمُضِيعة
سَلَمَا لهنّ بواجب مغروم

---

(٨٣) انظر مثلا الدالية المنسوبة اليه في ديوانه ص ٢٣ وهي خليط من الاصيل والمنحول وفيها :

تعلم فان الله ليس كصنعه
صنيع ولا يخفى على الله ملحد

من قوله تعالى : « ان الذين يلحدون في آياتنا لايخفون علينا . » فصلت

ملك على عرش السماء مهيمن
تعنو لعزته الوجوه وتجسد

من قوله تعالى : « وعنت الوجوه للحي القيوم . » طه ١١١ .

والشهر بين هلاله ومحاقه
اجل لعلم الناس كيف يعدد

من قوله تعالى : « ولتعلموا عدد السنين والحساب » الاسراء ١٢ .

لمواعد تجرى النجوم امامه
ومعمم بحذائهن مسود

من قوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . » يس وانظر قصة ذي القرنين ص ٢٦ وفرعون ص ٣٤ وثمود ص ٣٥ وفداء اسماعيل ص ٥٠ وكلها تقليد للقرآن الكريم

(٨٤) حماسة البحتري ص ١١٩ من باب حافل بالقصص التاريخي مخصص لماقيل في غلبة الزمان .

فلبيد يحسب أن صناعة داود للدروع كانت بقصـــد الاحتماء بها • •
ومثل هذا نسبتهم الحصون القوية التي يعجبون لبنائها الوثيق الى سليمان عليه السلام • وفي ذلك يقول الاعشى[٨٥] :

ولا عاديا لـــم يمنـــع الموتَ مالُه
وحصنٌ بتيمـــاءِ اليهـــودي أبلقِ
بنـــاه سليمـــانُ بنُ داودَ حقبـــةً
له أَزَجٌ عـــالٍ وطـــيَ موثّق
يوازى كبيـــداء الســـماء ودونـــه
بَـــلاط ودارات وكلس وخنـــدق

ويقول النابغة مشيرا الى حكمة سليمان وعدله واصابته[٨٦] :

فتلـــك تبلّغني النعمـــان أن لـــه
فضلا على الناس في الادنى وفي البعـد
ولا أرى فاعلا في النـــاس يشـــبهه
ولا أحاشـــي من الاقوام من أحـــد
الاّ ســـليمان اذ قال الالـــه لـــه
قم فـــي البرية فاحددها عن الفنـــد
وخيّس الجن اني قـــد أذنت لهـــم
يبنون تدمـــر بالصـــفّاح والعمـــد
فمن أطاعـــك فانفعـــه بطـــاعته
كما اطاعـــك وادلله عـــلى الرشـــد
ومـــن عصـــاك فعـــاقبه معـــاقبة
تنهى الظـــلوم ولا تقعـــد على ضمد

---

(٨٥) ديوان الاعشى رقم ٣٣ ص ٢١٧ .
(٨٦) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥١ .

والنابغة يطابق بين غرضه في القصيدة وبين ما يرويه عن سليمان • فهو يزعم أنه لم يخرج على طاعة الملك فهو جدير أن ينتفع بهذه الطاعة •• وقد أمر الله سليمان أن يخيّس الجن لبناء تدمر فمن أطاع فهو جدير بالثواب •• ومن عصى فهو مستحق لعقوبة يتّعظ بها الظلوم •• ففي هذه القصة نسبة بناء تدمر للجن بأمر سليمان • وفيها تصوّر العدل شرعة الهيّة وهو ما يشير اليه النابغة في العينية بقوله : « أبى الله الاّ عدله ووفاءه • » وفيها اتساق بين مغزى القصة وسياق سردها • وذلك كله يزيد الثقة باصالة هذه القصة[87] •

ومن القصص الذى يدور حول الانسان لون يختار امثلة من عامة الناس ليسوا مقصودين لذاتهم بل لتمثيل الانسان بعامة • وهذا القصص ــ مع انه يدور حول الانسان ــ قريب الشبه من حيث المحتوى والمغزى من قصص الحيوان ، فبعض هذا القصص يساق في الرثاء وما يقرب منه مع قصص الحيوان ويقدم بالتقديم نفسه وتستخلص منه العبرة ذاتها •• ومنه قول ساعدة بن جؤية[88] :

تالله يبقى على الايام ذو حيد
أدفى صلود من الأوعال ذو خدم

• • • • • • • • • •

ولا صوار مذراة مناسجها
مثل الفريد الذى يجرى من النظم

• • • • • • • • • •

---

(87) لعدى بن زيد قصيدة يروي فيها قصة الخلق كما جاءت في التوراة ص ١٥٨ من ديوانه . ومن مصادرها التي اوردها المحقق الحيوان ١٩٨/٤ وغيره . ويحتمل أن تكون اصيلة لنصرانية عدى .

(88) ديوان الهذليين ١٩٣/١ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ والقصيدة من بكائهلشبابه . وللشاعر قصة مماثلة يبدأها بقوله :

فاليوم اما تمس فات مزارها — منا وتصبح ليس فيها مآرب
فالدهر لا يبقى على حدثانه — انس لفيف ذو طوائف حوشب

١٨٣/١

هــل اقتنى حدثان الدهر مــن أنس
كانوا بَمَعْيَطَ لاوَخْشٍ ولا قَزَمَ
كيــداً وجمعــاً بآنــاسٍ كأنهــم
أفناد كبكب ذاتُ الشتِّ والخَزَمِ
يهْدِي ابن جُعْشُم الابناءَ نَحْوَهم
لا منتــأ عن حيــاضِ الموتِ والحُمَم
يَخْشى عليهم من الأملاكِ بائجــةً
من البوائجِ مثلَ الخــادرِ الرزم
ذا جرأة تســقط الاحبــالَ رهبتُه
مهما يكن من مســام مكره يَسُــم
يُدْعَون حُمْساً ولم يرتع لهم فَزَع
حتى رأوهم خلال الســبي والنعــم
بمُقْربـات بأيـديهـم أعنتهــــا
خوص اذا فزعــوا أدغمن في اللجم
يُوَشْوِشْنَهنّ اذا مـا نابهــم فَزَع
تحت السنوَّرِ بالأعقــابِ والجِذَم
فأشــرعوا يزنيّـــاتٍ محــرَّبةً
مثل الكواكب يســّــاقون بالسِّمِ
كأنمــا يقــع البُصـرى بينهـــم
من الطوائف والاعنــاقِ بالــوَذَم
يجدّلون ملوكـا فــي طوائفهـــم
ضربا خراديلَ كالتشــقيق في الادم
ماذا هنالك مــن أســوانَ مكتئبٍ
وســاهف ثمــل في صــعدة حطم

وخضرمٍ زاخـــرٍ أعراقـــه تلفٍ
يؤوى اليتيم اذا مـــا ضنّ بالذمـــم

وشَرْجَبٍ نحرُه تـدامٍ وصفحتُـــه
يصيح مثل صياحِ النَّسرِ منْتَحِـــم

مُطَرِّفٍ وســـط أولى الخيل معتكر
كالفحل قرقر وسط الهجمـــة القطم

وحـــرّة من وراء الكـــور واركـــة
في مركب الكُره أو تمشي على قـــدم

يذرين دمعـــا على الاشفار منحـــدرا
يرفلن بعـــد ثياب الخـــال في الردم

فاســـتدبروهم فهاضـــوهم كأنهـــم
أرجـاء هـــــار زفـاه اليـم منثـلم

فجلّـــزوا بأســـارى فـــي زمامهم
وجامل كحـــريم الطـــود منقســـم

هذهصورة حيةلما كانيحدث في الغزو حينيفجأ الحي بالغارة في الصباح الباكر ويهبّون للدفاع عن انفسهم وعيالهم ومالهم .. ولكنهم يقتلـون ويؤسرون ويرجع الغازون بالاسرى والمال والسبي من النساء وبعضهن مردفات وبعضهن راجلات .. وهن جميعا يبكين ذويهن .. والشاعر يسوق هذه القصة ليدلل على المصير الذى يخضع له كل شيء من شباب أو وعل او بقرة او انسان .

ويروى أبو ذؤيب قصة اخرى في السياق نفسه .. فهو يقول في مرثيته العينية(٨٦) :

---

(٨٩) ديوان الهذليين ١/٤ ، ١٠ ، ١٥ .

فالدهـر لا يبقـى على حـدثانه
جون السـراة لـه جـدائد اربع

. . . .

والدهـر لا يبقـى على حـدثانه
شـيب أفزّتـه الكـلاب مروّع

. . . .

والدهـر لا يبقـى عـلى حـدثانه
مسـتشعر حلق الحـديد مقنّـع
حميت عليـه الدرع حتّى وجهـه
من حرّهـا يوم الكريهـة أسـفع
تعـدو به خوصـاء يفصم جريهـا
حلق الرحالة فهي رِخْـو" تَمْزَع
قَصَر الصبوح لهـا فشرّج لحمهـا
بالنيّ فهي تتوخ فيهـا الاصبـع
متفلّق" أنسـاؤُهـا عن قـانيءٍ
كالقرط صاوٍ غُبْرهُ لا يرْضَـع
تأبى بدرتهـا اذا ما اسـتكرهت
الاّ الحميـمَ فانـه يتبضّـع
بينـا تعنّقـه الكمـاة وروغه
يوما أتيح لـه جـرىء سَـلْفَع
يعدو بـه نَهِش المُشـاش كأنـه
صَدَع سليم" رجعـه لا يَظْـلع
فتنـاديا وتواقفـت خيـلاهما
وكلاهمـا بطـل اللقـاء مخدّع

متحامين المجدَ كلّ واثق
بلائه و اليوم يوم أشنع
وعليهما مسرودتان قضاهما
داود أو صنع السوابغ تبع
وكلاهما في كفه يزنيّة
فيها سنان كالمنارة اصلع
وكلاهما متوشح ذا رونق
عضبا اذا مسّ الضريبة يقطع
فتخالسا نفسيهما بنوافذ
كنوافذ العبُط التي لا ترقع
وكلاهما قد عاش عيشة ماجد
وجنى العلاء لو أن شيئا ينفع

المجد والبطولة الانسانية ذاهبة زائلة مثل الاشياء كلها . وهذان البطلان سارا الى مصيرهما كما يسير الاعمى الى هاوية لايراها .. وهما آلة تنفذا حكم الدهر في نفسيهما مخدوعين بحلم المجد .. وهما في النهاية لا يختلفان عن حمار الوحش أو عن الثور .

ومن القصص الذي يختار الانسان بطلا ما يأتون به على سبيل تقريب عاطفتهم ووجدهم .. فهو تشبيه ضمني ولكنه تشبيه طويل النفس يمتد حتى يرسم صورة قصصية رائعة للامومة .. وهذه الصورة تشبه ما يروونه عن المسبوعة أو الخاذلة من الظباء والبقر .. الأم عجوز زهد فيها زوجها .. أو هي أرملة .. وهي ذات وحيد تتعلّق به حياتها وآمالها .. وهو يخرج مع أصحابه غازيا ثم انهم يرجعون دونه وينعون لها وحيدها فتبكيه أحرّ بكاء وتعبّر عن لوعتها كما تفعل الأم من الحيوان حين تغفل عن ابنها فتأكله السباع فهي تعود الى حيث تركته وتدور هناك تناديه وتدعوه .. ويزداد

وجدها حين يحتفل ضرعها بلبنه .. فالقصة من حيث السياق والخطوط العامة واحدة .. ولكن يميزها في قصص الانسان فهمه وحواره وأساليبه في التعبير عن عواطفه المختلفة . يقول ساعدة بن جؤية[٩٠] :

وتالله ما ان شــــهلة" أمُ واحدٍ ... بأوجدَ منّي أن يهــان صغيرهـا
رأته على يأسٍ وقد شابَ رأسُـها ... وحين تصدّى للهوان عشيرها
فشــبّ لها مثلُ السنانِ مبرّأ" ... امام" لنادي دارها وأميرهـــا
عناشُ عدوٍ لا يـزال مشــــمّرا ... برجْلٍ اذا ما الحربُ شبّ سعيرها
تقــدمِ يومـا في ثلاثـة فتيـــة ... بجرداء نصب للغوازي ثغورها
فبيناهم يتّـابعــون لينتهــوا ... بقذْفٍ نياف مستقل صخورها
رأوا في قدى الكفين قـدّام عـدوة ... محيطا به من كلّ أوب حضورهـــا
فورّك لينـــا أخلص القينُ أثْره ... وحاشكةً يَحْصَى الشمالَ نذيرها
يزحزحهم عنـه بنبـــل سَنيْنَة ... يضرّ بحبات القلوب حَشُورها
فلما رآهم يركبـون صـــدورهم ... كبْدْنٍ إياد حين ثجّت نحورهـا
تملّز من تحت الظبـــات كأنـــه ... رداة اذا تعلو الخبـار نُدُورها
بساقٍ اذا أولى العدوّ تبـــددوا ... يخفّض ريعان السعاةِ غويرهـا
وجاء خليـــلاه اليهـــا كلاهما ... يفيض دموعـا لا يريث هُمورها
ينيلان بالله المجيدِ لقـــــد ثوى ... لدى حيث لاقى زينهـــا ونصيرها
فقامت بسبت يلعج الجـلدَ مارن" ... وعزّ عليهـــا هلكه وغبورهـا
فبينا تنــوح استبشروها بحِبّها ... صحيحا وقد فت العظام فتورهـــا
فخرّت وألقت كـلّ نعل شراذمـاً ... يلوح بضاحي الجـــلد حدورهـا

ويروى أبو ذؤيب القصة نفسها ولكنه ينهيها كما انهى قصة البطلين في مرثيته العينية .. فالابن يقتل بعد أن يقتل بعض اعدائه .. يقول أبو ذؤيب[٩١] :

وما إنْ وجدُ معولةٍ رَقوبٍ ... بواحدها اذا يغزو تُضِيــف

(٩٠) ديوان الهذليين ٢/٢١٤ .

(٩١) ديوان الهذليين ٩٨/١ .

تنفّض مهدَه وتذبُ عنـــه	وما تغني التمائـمُ والعكوف
تقول له كفيتك كـل شـــيء	أهمّك ما تخطّتني الحتـــوف
أتيح له من الفتيــــان خِرْقٌ	أخـو ثقة وخِرّيق خشــوف
فبينا يمشيـان جرت عُقــاب	من العِقبـان خائِتـَـةٌ دَفوف
فقال لـه وقـد أوحت اليـــه	ألا لله أمُّـــك مـا تَعيـــف
بأرضٍ لا أنيس بهـا يبـابٍ	وأَمْسِـلةٍ مدافِعُها خَليف
فقـال له أرى طيـــرا ثقـــالا	تبشّر بالغنيمة أو تُخبـــف
فألفى القومَ قد شربوا فضمّوا	أمـام المـاء منطقهـم نسيف
فلم يـر غير عـادِيــةٌ لِزامـا	كما يتهـدم الحوضُ اللقيف
فراغ وزودوه ذات فـــرغٍ	لها نَفَـذ كما قـدّ الحشــيف
وغادر في رئيس القـوم أخـرى	مُشَلْشِلَةً كما قـدّ النصيف
فلمّا خـرّ عنـد الحوض طافوا	بـه وأبـانـه منهـــم عريف
فقـال أمـا خشـيت وللمنايا	مصـارع أن تخرّقك السيوف
فقـال لقـد خشـيت وأنبـأتني	بـه العِقبـــان لو أني أعيــف
وقـال بعهـده في القـــوم اني	شفيت النفس لو يشـفى اللهيف

والقصتان تصـّوران الابن صعلوكا يغزو مع العدد القليل من أمثاله ، وهو لا يتخذ فرسا لأنه عداء يغزو على رجليه •• ونهايته نهاية الصعاليك •• فقد أحاط بـه العدوّ من كل ناحية •• وهو ينجو نجاء الصعاليك في القصة الاولى •• ويقتل قتلهم في القصة الاخرى بعد أن يقتل رئيس أعـدائـه •• ومثل هذا الولد جدير بأن يستخرج ما تكنّ الأم من حب ولهفة بتعرّضـه الدائم للاخطار •• وذلك هو ما يرمي اليه الشاعر •• فهو قد ساق القصـة كلها ليشبّه عاطفته بعاطفة هذه الأم •

ان أهم ميّزة وأظهرها في قصص الشعراء الجاهليين كما يبدو لي أنـه لا يساق لذاته ، بل على سبيل المثال ، ومن هنا كان في هذا القصص كثير من خصائص الامثال •

وأول ذلك مراقبة الشاعر للتطابق بين مورد المثل ومضربه أو بين المتمثل له والمتمثل به ، ويتجلّى ذلك في قصص الحيوان فيما لاحظناه من أنه ينهي قصته بنجاة الحيوان فيما عدا الرثاء ونحوه مما يعبر به عن ألم أو حزن أو تخاذل أمام القدر ، وقد تصل المطابقة بين القصة وسياقها الى مستوى أعلى من الدقة .. وذلك بعض السبب في الفروق التي لحظناها بين الروايات المختلفة للقصة الواحدة . يقول المرقّش الاكبر في قصة الوعل ، وهو يوردها في الرثاء[٩٢] :

لم يَشْجُ قلبي ملحوادث الا ّ صاحبي المتروكُ في تَغْلَم

ثعلبُ ضرّاب القوانسِ بالسيف وهادي القومِ ان أظلم

فاذهب فدى لك ابن عمك لا يخلُدُ الا ّ شابة وأدم

لو كان حيّ ناجيا لنجا من يومه المزلّم الأعصم

في باذخاتٍ من عَمايةَ أو يرفعه دون السماء خيْم

من دونه بيض الانوق وفو قه طويل المنكبين أشم

يرقاه حيث شاء منه وإمّا تنسه منيّة يهرم

فغاله ريب الحوادث حتى زلّ عن أريادِه فحُطِم

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم

والوالدات يستفدن غنى ثمّ على المقدار من يَعْقَم

ولو أخذنا قوله في القصة عن الوعل :

يرقاه حيث شاء منه واما تنسه منيّة يهرم

وقوله معلّقا على دلالتها :

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم

---

(٩٢) المفضليات رقم ٥٤ ص ٢٣٨ .

لوجدناه واحدا •• فالقصة إذن يراد بها التسلّي عن موت رجل شابّ لم يمهل حتى يتمتع بالحياة •• والشاعر يزعم أن هذه الميتة أفضل من طول البقاء المفضي الى الهرم • وهو يستغني عن الصائد في قصته لأنه يريد أن الفناء طبيعة الاشياء •• فهو لا يحتاج الى عنصر المفاجأة المتمثّل في الصائد ويكتفي بأن يزلّ الوعل زلة فيها نهايته •• ولو أنه لم يزل لهرم ولم ينج من هذه النهاية ••

ويذكر أمية بن ابي عائذ زوجه أم الصبي ويشير الى رزء أصابه في نفوس اهله ونقص لحق ماله •• ثم يصف ناقته ويشبهها بحمار وحشي يصيب الصيّاد أتنه وينجو هو •• فهذا الحمار الذى شبهت به الناقة قريب في الحقيقة من الشاعر في اصابتهما في الاهل دون النفس •• يقول امية بن ابي عائذ[٩٣] :

فقد هاجني ذكر أم الصبيّ من بعد سقم طويل المِطال
ومرء المنونِ بأمرٍ يغّولُ من رُزء نفس ومن نقص مال

حتى يقول :

كأني ورحلي اذا رعتها ... على جَمَزَى جازىء بالرمال

الى قوله :

فعمّا قليل سقاها معاً ... بمُزْعِفِ ذِيفان قِشْبٍ ثُمال
سوى العلج أخطاه رائغاً ... بنجراءَ ذاتِ غِرارٍ مُسال
فجال عليهنّ في نَفْره ... ليفتنهنّ زوال الزوال
فلمّا رآهنّ بالجلهتيـ ... ـن يكبون في مطحرات الألال
رمى بالجراميز عرْض الوجيـ ... ن وأرمدّ في الجري بعد انفتال

---

(٩٣) ديوان الهذليين ١٧٣/٢ . ويذكر محققو الديوان أن الشاعر اسلامي اموي ١٧٢/٢ . ويذكر حجر في الاصابة ١١٧/١ انه مخضرم عن المرزباني وقد تجوزت في الاستشهاد بشعره لوضوح المطابقة .

ويقول ساعدة بن جؤية في بعض قصص الانسان[٩٤] :

فان تك قد شطّت وفـات مزارها ... فأني بها ــ الا ّ العزاء ــ سـقيم

فهو يملك العزاء ويتعلل بالامل برغم ما شط من مزار صاحبته ولذلك فهو ينهي قصة الأم التي يشبّه وجده بوجدها بعودة الابن اليها بعـد ان يبلغها صاحباه بان الاعداء حاصروه وانه مقتول لا محالة . وبعد أن تبكيه أحر البكاء . أما أبو ذؤيب في ما أنشدناه من فائيته فهو يائس من موافاة صاحبته لموعد ضربته له . ومن هنا فهو ينهي قصة المرأة التي يتشبه بوجدها بأن يقتل ابنها .. وهو يقول تمهيدا لهذه القصة[٩٥] :

تواعدنا عكـاظ لننزلنـه ... ولـم تعلم اذا أني خليف

فسوف تقول اذ هي لم تجدني ... أخان العهـد أم أثم الحليف

ويقول عروة بن الورد في اصحاب الكنيف الذين لم يرض فعلهم لمـا استغنوا وهو يتهمهم بخيانة ما أسلف اليهم من الحسنى[٩٦] :

فاني واياكم كذى الأم أرهنت ... له ماء عينيها تفدّى وتحمـل

فلمّا ترجّت نفعه وشـبابه ... أتت دونها اخرى حديدا تكحل

فباتت لحدّ المرفقين كليهمـا ... توحوح مما نابهـا وتولول

تخيّر من أمرين ليسا بغبطة ... هو الثكل الا أنها قد تجمّل

عروة فيما خاب من ظنه بصحبه مثل هذه الأم التي سرقت الزوج منها ابنها .. والمطابقة بين القصة وبين سياقها واضحة .

وكون القصة في شعرهم مثلا يسوقونه لأغراضهم المختلفة يجعل هذه القصة في كثير من الاحيان تشبيها يمضي فيه الشاعر اكثر مما اعتاد .. أو

---

(٩٤) ديوان الهذليين ٢٢٨/٢ .
(٩٥) ديوان الهذليين ٩٩/١ .
(٩٦) ديوان عروة ص ٢٧ .

ممّا تتوقع بتعبير أدق وهذا هو الذى نسميه عادة الاستطراد .. والاستطراد الى القصة مقبول عند نقاد الشعر الجاهلي اذا كان قصصا من قصص الحيوان. ولكنهم يبدون شكوكا كثيرة في الاستطراد الى القصة التاريخية . واحسب انهما يحملان الروح نفسه .. فالشاعر الذى يذكر ناقته وينصرف عن وصفها الى قصة ما يشبهها من حيوان .. يستطرد الى القصة التاريخية التي يذكر أحد ابطالها عرضا في حديثه .. وهو في اللونين من القصص غير ملزم بهذا الاستطراد وهو قادر على ان يقطعه في أية مرحلة .. فقد يكتفي بتسمية الحيوان أو البطل التاريخي كما مرّ بنا .. وقد يستطرد الى قصة مختلفة الطول .. يقول أبو ذؤيب[٩٧] :

والدهر لا يبقى على حدثانه   في رأس شاهقة أعز ممنّع
والدهـر لا يبقى على حدثانه   جون السراة له جدائد أربع

هذان حيوانان .. اكتفى الشاعر بالاشارة الى أحدهما ومضى في قصة الآخر وذلك دون أن يكون في القصيدة ما يوجب ذلك عليه أو يبرره غير المزاج الفني للشاعر ويقول المتنخل الهذلي[٩٨] :

فاذهب فأىّ فتى في الناس أحرزه   من حتفه ظلم دعج ولا جبل
ولا السماكان ان يستعل بينهما   يطر بخطّه يوم شرّه أصل
ولا نعام بجو يستريد به   ولا حمار ولا ظبي ولا وعل

فهو يذكر فتى ونعاما وحمارا وظبيا في اشارة عابرة .. ويمضي في قصة الوعل . وليس هنا ايضا ما يبرر هذا الصنيع غير رغبة الشاعر .

وليس الامر مقصورا على قصص الحيوان في الرثاء ونحوه .. فهذه الظاهرة موجودة فيما وصفوا فيه الناقة في الاغراض الاخرى . هذا زهير

---

(٩٧) ديوان الهذليين ١/٤ .
(٩٨) ديوان الهذليين ٢/٣٥ .

في همزيته يذكر الظليم ثم ينصرف عنه ويذكر بعده ثورا يستطرد الى قصته • يقول زهير[٩٩] :

كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء
أصل مصلّم الاذنين أجنى له بالسيّ تنّوم وآء
أذلك أم شتيم الوجه جأب عليه من عقيقته عفاء

ويعكس ذلك علقمة بن عبدة •• فهو يشير اشارة وجيزة الى الثور ويستطرد الى قصة مفصلّة عن الظليم •• يقول علقمة في ناقته[١٠٠] :

تلاحظ السوط شزرا وهي ضامزة كما توجس طاوى الكشح موشوم
كأنها خاضب زعر قوائمه أجنى له باللوى شرى وتنّوم

ولست أجد هذه الظاهرة نفسها غريبة في القصص التاريخي ، مهما بدت القصة ملحقة غير محكمة الارتباط بالقصيدة •• فذلك مقيس على الاستطراد الذى يشيع في الشعر الجاهلي بعامة والقصص بخاصة • واذا اتخذنا معلّقة النابغة الدالية مثلا لنا فاننا نجد فيها ثلاث مناسبات يخرج فيها الشاعر عن سياقه •• فيستطرد في الاولى الى قصة الثور ويستطرد في الثانية الى بعض ما يعرفه من تاريخ سليمان عليه السلام •• وينصرف في الثالثة الى تصوير فطنة «فتاة الحي» ولست أجد مبررا للشك في بعض ذلك دون بعض فكلّه يحمل روحا واحدا ••

ومن الملاحظ ان بعض الشعراء الميالين الى القصة كالاعشى وعدى بن زيد يستغلون اسلوب الاستطراد لاتباع هذا الميل الفني •• والاعشى مثلا ممن يظهر في غزله لون قصصي يعتبر به من اساتذة عمر بن أبي ربيعة ••

---

(٩٩) شرح ديوانه ص ٦٣ ، مختار الشعر الجاهلي ص ٢٦٨ والنص منه .
(١٠٠) المفضليات رقم ١٢٠ ص ٣٩٩ .

ويظهر في خمرياته احيانا طابع قصصي وحوار يديره مع الخمّـــار والندامى والعواذل لـــه على الفتـــوة •• وهـــو من المكثرين من قصص الحيوان(١٠١) وهذا جدير بأن يصحح قصة السموأل وغيرها من قصصه التاريخي •• ولقد يبدو في قصة السموأل ضعف واضح في الصيــاغة •• وذلك أثر التعجيل في النظم أولا •• وهو كذلك من أثر الحوار الذى لـــم يستطع أهل الجاهلية تطويع شعرهم له يقول الاعشى في قصة السموأل راويا الحديث الذى دار بينه وبين الهمام(١٠٢) :

اذ ســامه خطّتي خسف فقال له ... مهما تقله فأني سامع حـــار

فقال ثكل وغدر أنت بينهمـــا ... فاختر وما فيهما حظ لمختـــار

فشك غير قليل ثم قال لـــــه ... اذبح هديّك اني مانـــع جارى

وفي هذه الابيات من آثار الحوار هذه التعابير •• فقال له ، مهما تقله•• فقال ثكل • •ثم قال له •• ولا شك في أن هذه الالفاظ التي لا جمال فيهـــا من تبعات الحوار التي اربكت الشاعر •• يضاف الى ذلك ان الشاعر ينساق بالسليقة الى أن يدير بين ابطال القصة حديثا مما يمكن ان يتحدث به الناس مما ينخفض بالمستوى الفني للشعر •• فهذه الابيات الثلاثة تخلو أو تكـــاد من الصور البيانية وتعتمد على التعبير المباشر الذى يشـــيع في كلام الناس المعتاد •• ويمكن ملاحظة كل ذلك في قول النابغة الجعدى راويا قصة كليب

---

(١٠١) ديوان الاعشى المقدمة ص ب م ، ص ٢٥٠ القصيدة رقـــم ٣٩ ص ٢٨٤ ، القصيدة رقم ٥٤ .. وذلك حيث يتحدث د . محمد حسين عن قصص الاعشى الغزلي والخمري والتاريخي .

(١٠٢) ديوان الاعشى رقم ٢٥ ص ١٧٩ .

وائل ـ ومن الملاحظ أنه يستطرد الى هذه القصة دون قصة داحس التي يلمح اليها ..[١٠٣] :

وبلغ عقالا أن خطة داحس ... بكفّيك فاستأخر لها او تقدّم
تجير علينا وائلا في دمائنا ... كأنك عمّا ناب أشياعنا عم
كليب لعمرى كان اكثر ناصرا ... وأيسر جرما منك ضرج بالدم
رمى ضرع ناب فاستمر بطعنة ... كحاشية البرد اليماني المسهّم
وما يُشْعِرُ الرمح الاصمّ كعوبه ... بثَرْوةِ رهطِ الأبلَخِ المتظلّم
فقال لجسّاس اغثني بشربة ... تمنّ بها فضلا عليّ وتنعم
فقال تجاوزت الأحصّ وماءه ... وبطنَ شبيثٍ وهوذ ومترسَّم

ويقول المسيب بن علس ضاربا المثل بسامة بن لؤى في ابائه الضيم وارتحاله عن قومه حين ظلموه[١٠٤] :

وقد كان سامة في قومه ... له مأكل وله مشرب
فساموه خسفا فلم يرضه ... وفي الارض عن خسفهم مذهب
فقال لسامة احدى النسا ... ء ما لك يا سام لا تركب
أكل البلاد بها حارس ... مدلّ وضرغامه أغلب
فقال بلى انني راكب ... واني لقومي مستعتب
فشدّ أمونا بانساعها ... بنخلةَ اذ دونها كبكب
فجنّبها الهَضْبَ تردِي به ... كما شجر القاربُ الاحقبُ
فلما أتى بلدا سرّه ... به مرتع وبه مَعْزَب
وحصن" حصين لأبنائهم ... وريف لأبلهم مخصب

---

(١٠٣) شعر النابغة الجعدي ص ١٤٢ .

(١٠٤) شعراء النصرانية ٣٥٢/٣ وهي اطول مما اوردناه .

ان الحوار في هاتين القصتين اوجد فيهما طابعا نثريا واضحا .. يبدو في عبارة : فقال لجساس .. نقال تجاوزت الاخص .. فقالت لسامة احـــدى النساء .. فقال بلى .. ويبدو في انخفاض مستوى الجمال الفني في مثـــل قول المسيب على لسان احدى النساء : مالك يا سام لا تركب .. وتلك فطنة فطرية الى أن الحوار الذى يدور بين شخوص القصص ينبغي أن يكون طبيعيا قريباً مما يجرى في الواقع . وهو يضعف القصة من حيث هي شعر قبل كل شيىء .. على أن أثر الحوار في تفكيك القصيدة يضعف حين لا يضـــطر الشاعر الى ذكر الاعلام كثيرا .. مقتصرا على : فقلت وقالت واجبتها ونحو ذلك .. أما شعرهم في وصف الحيوان وقصصـــه فهو يخلو في الغالب من الحوار .. وهو لذلك أمتن ديباجة وأشد تماسكا وأقرب الى روح الشعر .

الفصل الثاني

العناصر الفنيّة الأخرى

الصـورة

رأينا ان الشاعر الجاهلي متشائم في الغالب •• وهو لا يتأمل الحياة ولا يبدى رأيه فيها الا حين يدفعه الى ذلك ما يصادفه من ألم وحزن • ومن هنا تعرّضوا لجوانب الحياة غير البهيجة دون غيرهـا •• وانعكس ذلك على صورهم وتعبيراتهم ••

الحياة عندهم متاع نافد •• وهي عارية تردّ لاصحابها ومثلها المـال والشباب والاهل •• يقول لبيد[1] :

هل النفس الا متعة مستعارة   تعار فتأتي ربهـا فرط أشهر

ويقول ايضا :

وما المال والاهلون الاّ ودائع   ولابدّ يومـا أن ترد الودائع

ويقول المثقب العبدى او ثعلبة بن يزيد السلمي[2] :

عمرَكَ هل تدرين أن الفتى   شبابه ثوب عليـه معـار

ويقول الافوه الاودى[3] :

انما نعمـة قـوم متعـة   وحياة المرء ثوب مستعارْ

---

(١) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٥٧ ، رقم ٢٤ ص ١٧٠ .

(٢) الحماسة البصرية ٢١/١ والقطعة في المعمرين لعمر بن ثعلبة . وذكران الليث في قوله من زيادة خلف ص ٣٤ .

(٣) الطرائف الادبية ص ١١ .

ويقول عدى بن زيد[٤] :

فقضينـــا حاجــة من لذة   وحياة المــرء كالثوب المعار

ويقول دريد بن الصمّة[٥] :

أعاذلتي كل امرىء وابن امه   متــاع كزاد الراكب المتزود

ويقول بشر بن ابي خازم[٦] :

وكل غضارة لك من حبيب   لها بك أو لهوت به متـــاع
قليلا والشباب سحاب ريـح   اذا ولّى فليس لـــه ارتجاع

ويقول الاخنس بن شهاب[٧] :

فأديت عنّي ما استعرت من الصبا   وللمال عندى اليوم راع وكاسب

والانسان في قصر بقائه وعفاء أثره مثل الشهاب يتألق ثم يخبو وهو كالغصن يذوى بعد خضرته .. وليس هو كالحجر أو الحديد .. يقول امرؤ القيس[٨] :

بينمـــا المرء شـــهاب ثاقب   ضرب الدهر مناه فخمـــد

ويقول لبيد[٩] :

وما المرء الاّ كالشهاب وضـــوئه   يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

---

(٤) ديوان عدى بن زيد رقم ١٧ ص ٩٥ .
(٥) الاغاني « الدار » : ٧٠/١٠ .
(٦) ديوان بشر رقم ٢٣ ص ١١٢ .
(٧) المفضليات رقم ٤١ ص ٢٠٤ .
(٨) ديوان امرىء القيس رقم ٤٧ ص ٢١٧ .
(٩) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ ص ١٦٩ .

ويقول عدى بن زيد[١٠] :

الا من مبلغ النعمـــان عنّي علانية فقد ذهب الســـرار
بأن المرء لـــم يخلق حديدا ولا هضبا توقّاه الوبـــار
ولكن كالشهاب فثـــم يخبو وحادى الموت عنه ما يحـــار

ويقول عمرو بن قميئة[١١] :

وما عيش الفتى في الناس الاّ كما اشـــعلت في ريح شـــهابا
فيســـطع تـــارة حســـنا تراه ذكيّ اللون ثمّ يصيـــر هابا

ويقول امرؤ القيس[١٢] :

الاّ أبلغ بني حجر بن عمرو وأبلغ ذلك الحيّ الحريـــدا
بأني قـــد بقيت بقـــاء نفس ولـــم اخلق سلاما أو حديدا

ويقول زبان بن سيار الفزاري[١٣] :

خلقنـــا أنفســـا وبني نفوس ولم نخلق سلاما أو حديدا

ويقول عمرو بن قميئة[١٤] :

فيادهر قدك فاســـجح بنـــا فلســـنا سلاما ولسنا حديدا

ويقول النابغة الجعدى[١٥] :

وما البغي الاّ على أهلـــه وما الناس الاّ كهذا الشجر
ترى الغصن في عنفوان الشبا ب يهتز في بهجة قد نضـــر
زمانا من الدهر حتى التوى فعاد الى صـــفوه فانكســـر

(١٠) ديوان عدى بن زيد رقم ٦٠ ص ١٣٢ .
(١١) ديوان عمرو بن قميئة ص٦٣ القطعة رقم ١ .
(١٢) ديوان امرىء القيس رقم ٤٦ ص ٢١٣ .
(١٣) ذيل امالي القالي ص ٥١ .
(١٤) ديوان عمرو بن قميئة ص ٦٢ رقم ٢ من المقطعات .
(١٥) شعر النابغة الجعدي ص ٢١٩ ، الحماسة البصرية ٤١٣ .. وهي اكمل هنا .

ويقول كعب بن زهير[١٦] :

والمرء والمال ينمى ثم يذهبه مرّ الدهور ويفنيه فينسحق
كالغصن بينا تراه ناعما جذلا اذ هاج وانحتّ عن أفنانه الورق

ويقول عدى بن زيد[١٧] :

ثم أضحوا كأنهم ورق جفـ ـف فألوت به الصبا والدبور

والحياة رحلة والناس بين غاد ورائح .. والنهاية اقامة لاسفر بعدها..
تقول الخنساء[١٨] :

هوّن وجدى أن من سرّه مصرعه لاحقه لاتمار
وانما بينهما روحة في اثر غاد سار حدّ النهار

ويقول عبيد بن الابرص[١٩] :

فأنا ومن قد باد منّا فكالذى يروح وكالقاضي البيات ليغتدى

ويقول[٢٠] :

يا عمرو ما راح من قوم ولا ابتكروا الا وللموت في آثرهم حادى

ويقول لبيد[٢١] :

وانا واخوانا لنا قد تتابعوا لكالمغتدى والرائح المتهجّر

---

(١٦) شرح ديوان كعب ص ٢٢٨ .
(١٧) ديوان عدى رقم ١٦ ص ٩٠ .
(١٨) انيس الجلساء ص ٤٠ .
(١٩) ديوان عبيد رقم ١٩ ص ٥٧ .
(٢٠) ديوان عبيد رقم ١٦ ص ٤٨ .
(٢١) شرح ديوان لبيد رقم ٨ ص ٥٧ .

ويقول شعر جاهلي ينسب لجذيمة الابرش[٢٢] :

ربمـــا أوفيت في عـــلم ترفعـــن ثوبي شـــمالات
في فتو أنـــا رابئهـــم مـــن كـــلال غزوة ماتـــوا
ليت شـــعرى مـــا أماتهم نحن أدلجنـــاهم بـــاتوا

ويقول صخر بن عمرو بن الشريد[٢٣] :

أجارتنا لست الغداة بظاعن ولكن مقيم ما اقـــام عسيب

ويقول متمم[٢٤] :

فيا لعبيد حلفة ان خيـــركم بجزرة بين الوعشـــتين مقيم

ويقول عدى بن زيد[٢٥] :

أيهـــا الركب المخبّون على الارض المجـــدّون
فكمـــا انتم كنّـــا وكمـــا نحـــن تكونون

ومن هذه الاقامة سمّوا القبر بيتا .. يقول الافوه الاودي[٢٦] :

فرّموا لـــــه أثوابه وتفجّعوا ورنّ مرنات وثار بـــه النفـــر
الى حفرة يأوى اليهـــا بسعيه فذلك بيت الحق لا الصوف والشعر

ويقول بشر بن ابي خازم[٢٧] :

فمن يك سائلا عن بيت بشـــر فأن لـــــه بجنب الرده بابـــا

---

(٢٢) طبقات ابن سلام ص ٣٢ وهو مما صحح كونه من اقدم الشـــعر الجاهلي . . ونسبته الى جذيمة مما يشك فيه .
(٢٣) الاغاني « الدار » ١٠٢/١٥ .
(٢٤) معجم البلدان ٨٤/٣ .
(٢٥) ديوان عدى بن زيد رقم ١٣٥ ص ١٨٠ .
(٢٦) الطرائف الادبية ص ١٥ .
(٢٧) ديوان بشر رقم ٥ ص ٢٤ .

ويقول دويد بن نهد[٢٨] :

اليوم يبنى لدويد بيته

ومن هذه الاقامة كان للاموات بلد مثل الاحياء .. يقول خفاف بن ندبة[٢٩] :

كلّ امرىء فاقد أحبته ومسلم وجهه الى البلد

ويقول عدى بن زيد[٣٠] :

واذا ذكّرت نفسي ماخلا عاد في العين كتسهيد الرمد
من اناس كنت أرجو نفعهم أصبحوا قد خمدوا تحت البلد

ويقول النابغة الذبياني[٣١] :

لا يهنىء الناس ما يرعون من كلأ وما يسوقون من اهل ومن مال
بعد ابن عاتكة الثاوى على ابدى أمسى ببلدة لا عمّ ولا خال

والانسان رهن الدهر ليس له فكاك .. أو هو مدين للدهر وان كان لم يبع شيئا ولم يشتر .. يقول الاعشى[٣٢] :

أليس أخو الدهر مستوثقا عليّ وان قلت قد أنسأن
عليّ رقيب له حافظ فقل في امرىء غلق مرتهن

ويقول المتلمس[٣٣] :

أعاذل ان المرء رهن مصيبة صريع لعافي الطير او سوف يرمس

---

(٢٨) طبقات ابن سلام ص ٢٧ .
(٢٩) منتهى الطلب ١/١٥ .
(٣٠) ديوان عدى رقم ٤ ص ٤٣ .
(٣١) شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٩٠١ .
(٣٢) ديوان الاعشى رقم ٢ ص ١٥ .
(٣٣) ديوان المتلمس ص ١٨٢ .

ويقول ربيعة بن غزالة السكوني[٣٤] :

كذلك الدهر لا يرعي على أحـــد   والمرء رهن لريب الدهر مذ خلقا

ويقول عبيد بن الابرص[٣٥] :

كأن الشباب يلهّينا فيعجبنـــا   فمـا وهبنا ولا بعنـا بأرباح

ويقول النمر بن تولب[٣٦] :

كأنما كان شبابي قرضا

ومن صورهم المتعلقة بقصر الحياة وتبدّدها قولهم انها تبدو كالحلم أو الذكرى أو الحركة العابرة من اليد .. يقول لبيد[٣٧] :

وأمسى كأحلام النيـام نعيمهم   وأيّ نعيم خلتـــه لا يزايل

ويقول عدى بن زيد[٣٨] :

فخال ذلك احلاما أذكرهـــا   بعد النعيم وكان العيش أطوارا

ويقول حسّان[٣٩] :

فلبثت ازمانا طـوالا فيهـم   ثم ادّكرت كأنّني لم أفعـل

ويقول أبو كبير الهذلي[٤٠] :

فاذا وذلك ليس الاّ حينـه   واذا مضى شيء كأن لم يفعل

---

(٣٤) حماسة البحتري ص ١٣١ .
(٣٥) ديوان عبيد رقم ١١ ص ٣٤ .
(٣٦) ديوان المعاني ٢/٢٢٩ .
(٣٧) شرح ديوان لبيد رقم ٣٦ ص ٢٦٦ .
(٣٨) ديوان عدى رقم ٦ ص ٥٢ .
(٣٩) شرح ديوان حسان ص ٣١٠ .
(٤٠) ديوان الهذليين ٢/١٠٠ .

ويقول جندل بن أشمط العنزى[٤١] :

فكأن ذلك لم يكن   الا التذكر حين بادا

ويقول لبيد[٤٢] :

كأني وقد جاوزت تسعين حجة   خلعت بها عن منكبيّ ردائيا

ويقول عمرو بن قميئة[٤٣] :

كأني وقد جاوزت تسعين حجّة   خلعت بها يوما عنان لجامي

ويقول امرؤ القيس[٤٤] :

كأن الفتى لم يغن في الناس ساعة   اذا اختلف اللحيان عند الجريض

ومن ذلك كله عبّروا عن ضآلة الفرق بين الحي والميت .. يقول عبيد[٤٥] :

هل نحن الا كأرواح تمر بها   تحت التراب وأجساد كأجساد

ويقول مالك بن حطان النميمي[٤٦] :

فما بين من هاب المنية منكم   وما بيننا الا ليال قلائل

ويقول لبيد[٤٧] :

فلا يبعد ان المنية موعد   عليك فدان للطلوع وطالع

---

(٤١) الوحشيات ص ١٦٢ .

(٤٢) شرح القصائد السبع لابن الانباري ص ٥١٢ .

(٤٣) ديوان عمرو بن قميئة رقم ٣ ص ٢٢

(٤٤) ديوان امرىء القيس رقم ٥ ص ٧٧ .

(٤٥) ديوان عبيد رقم ١٥ ص ٢٦ ، رقم ١٦ ص ٤٨ ، رقم ١٢ ص ٤١ .

(٤٦) المؤتلف والمختلف ص ٩٠ .

(٤٧) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ ص ١٧١ .

ويقول حسّان في تعبير مجرد[٤٨] :

ان الحياة وان الموت مثلان

ومثله قول سلمي بن ربيعة الضبي[٤٩] :

والعسر كاليسـر والغنى كالفقر والحيّ للمنـون

وأبعد تجريدا قول ذى الاصبع[٥٠] :

فانهـا والانـام من تلف مـا حمّ أمر غيبة وقعـا

وقول موسى بن جابر الحنفي[٥١] :

وما للملك في الدنيـا بقاء وكيف بقاء ملك فيـه موت

وقول أبي قلابة الهذلي[٥٢] :

ان المنايا بجنبي كلّ انسان

فهؤلاء لا يرون ان الفناء طبيعة في الاشياء وليس شيئا داخلا عليها ..

ومن صور المعمرين أنهم يشبهون انفسهم بالسيف الذى رث جفنه وما يزال قاطعا .. وهم يعبّرون بذلك عن فضل من قوة يجدونها ورغبـة يحسّونها في الحياة . يقول لبيد[٥٣] :

فأصبحت مثل السيف غيّر جفنه تقادم عهد القين والنصل لامـع

---

(٤٨) شرح ديوان حسان ص ٤١٢ .

(٤٩) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٨٣/٣ .

(٥٠) منتهى الطلب ١٩٥/١ ، شعراء النصرانية ٩٢٩/٤ وفيه ما ان بها والامور من تلف . ونص منتهى الطلب أوضح ..

(٥١) معجم الشعراء ص ٣٧٦ .

(٥٢) ديوان الهذليين ٣٩/٣ . وفي الاصابة ٩٤/٦ نسب الشعر لسويد بن عامر المصطلقي .

(٥٣) شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ ص ١٧١ .

ويقول النابغة الجعدى[٥٤] :

مضت مائة لعام ولدت فيه — وعشر بعد ذاك وحجّتان
فقد أبقت صروف الدهر منّي — كما أبقت من السيف اليماني
تفلّل وهو مأثور جراز — اذا جمعت بقائمه اليدان

ويقول النمر بن تولب[٥٥] :

أبقى الحوادث والايام من نمر — أسباد سيف كريم اثره بادى
تظلّ تحفر عنه ان ضربت به — بعد الذراعين والساقين والهادى

ويقول شعبة بن قمير الطهوى[٥٦] :

وعدت كنصل السيف رثت جفونه — وأبدانه والنصل غير كليل

ويقول يزيد بن مخرم الحارثي[٥٧] :

وقد أبقت الايام منّي بقية — كخير حسام لم تخنه مضاربه

ويشبّه المعمر نفسه بفرخ الطير المرتعش ويصف اقامته مع النساء في قعر البيت وحمله مثلهن في ظعن قومه . واستغناء الناس عن رأيه واستخفافهم به ونحو ذلك .. يقول دريد بن الصمة واصفا حاله حين تقدمت سنه[٥٨] :

في منزل نازح مالحي منتبذ — كمربط العنز لا أدعى الى خبر
كأنني قارب قصّت قوادمه — أو جثة من بغاث في يدى خصر

---

(٥٤) شعر النابغة الجعدي ص ١٦١ .
(٥٥) الموشح ص ١١٣ ، ديوان المعاني ٥١/٢ .
(٥٦) المؤتلف والمختلف ص ١٤٣ .
(٥٧) معجم الشعراء ص ٤٩٤ .
(٥٨) الاغاني « الدار » ٢٥/١٠ .

ويقول[٥٩] :

ان يك رأسي كالثغامة نسله ... يطيف بي الولدان أحدب كالقرد
رهينة قعر البيت كل عشيــة ... كأني أراد ى أو أصوّب في مهد
فمن بعد فضل من شباب وقوة ... ورأس أثيث حالك اللون مسوّد

ويقول السمّال الاسدى[٦٠] :

وعاد كفرخ النسر اعمى عن التي ... يريد طوال الدهر يهذي ويهـذر

ويقول عوف بن سبيع القضاعي[٦١] :

وعـــاد كفرخ النسر يهتز جيده ... يرىدون شخص المرءشخصا اذا رأى

ويقول زهير بن جناب الكلبي[٦٢] :

ألا يالقومي لا أرى النجم طالعا ... ولا الشمس الاّ حاجبي بيميني
مُعَزِّبتَي عند القفا بعمودها ... فأقصى نكيرى أن اقول ذريني
أمين على اسرارهن وقد أرى ... أكون على الاســرار غير أمين
فللموت خير من حداج موّطـأ ... على الظعن لا يأتي المحلّ لحين

ويقول حاطب بن مالك النهشلي[٦٣] :

ومــاذا ترجّى من حيــاة ذليلة ... تعمّرهــا بــين الغطــارفة المرد
وأنت لَقَىً في البيت كالرأل مدنف ... وقد كنت سبّاقا الى غاية المجــد
وللموت خير لامرىء من حيــاته ... يدبّ دبيبا في المحلّة كالقـــرد

---

(٥٩) منتهى الطلب ٢٧٧/١ ، كتاب المعمرين ص ٢٠ .
(٦٠) كتاب المعمرين ٥٤ .
(٦١) كتاب المعمرين ص ٦٢ .
(٦٢) الاغاني « الساسي » ٩٦/٢١ .
(٦٣) المعمرين ص ٣٠ .

ويقول ابو الطمحان القيني[٦٤] :

حنتني حانيات الدهـــر حتّى كأني خاتل يدنو لصـــيد
قريب الخطو يحسب من رآني ولست مقيّـــدا اني بقيـــد

ويقول سلميّ بن غوية الضبي[٦٥] :

هزئت زنيبـــة أن رأت ثرمي وان انحنى لتقـــادم ظهرى
من بعد ما عهـــد فأدلفنـــي يـــوم يجيء وليلـة تسـرى
حتّى كأني خاتـــل قنصـــا والمـــرء بعـــد تمامه يحرى

واكثر صور الموت شيوعا في الشعر الجاهلي تتخيله في صورة المـــاء وما يتعلق به ، فهو كأس تشرب او حوض مشرع للواردين أو غمرة تخاض أو سحابة تمطر •• ونحو ذلك تقول الخنساء[٦٦] :

ووافوا ظمء خامسة فأمســـوا مع الماضين قد تبعوا ثمودا

ويقول ابو الذيال البلوى[٦٧] :

هل نحن الاّ كمن تقدّمنا منّـــا ومن ثمّ ظمـــؤه يرد

ويقول عمرو بن معد يكرب[٦٨] :

وقرّب للنطاح الكبش يمشي وطاب الموت من شرع وورد

وتقول الخنساء[٦٩] :

فاليوم أمسيت لا يرجوك ذو أمل لمّا هلكت وحوض الموت مورود

---

(٦٤) الاغاني « الدار » ٢/٣٥٢ ، ١٢/٣٤٧ ، الاصابة ٢/٦٦ ، ذيل ديوان عدى بن زيد ص ١٩٨ .
(٦٥) مجالس ثعلب ١/٢٤٥ .
(٦٦) انيس الجلساء ص ١٦ .
(٦٧) طبقات ابن سلام ص ٢٤٦ .
(٦٨) حماسة البحتري ص ٤٧ .
(٦٩) انيس الجلساء ص ٢١ .

ويقول الاعشى[٧٠] :

قد نال أهل شبام فضل سؤدده الى المدائن خاض الموت وادّرعا

ويقول عنترة[٧١] :

فأجبتها ان المنية منهل لابد أن أسقى بكأس المنهل

ويقول النابغة[٧٢] :

فهم يتساقون المنية بينهم بأيديهم بيض رقاق المضارب

ويقول طرفة[٧٣] :

والظلم فرّق بين حييّ وائل بكر تساقيها المنايا تغلب

ويقول الاعشى[٧٤] :

ثم أسقاهم على نفذ العيش فأروى ذنوب رفد محال

ويقول في هذه القصيدة :

ربّ حيّ أشقاهم آخر الدهر وحيّ سقاهم بسجال

ويقول[٧٥] :

فجادت على الهامرز وسط بيوتهم شآبيب موت أسبلت واستهلت

ويقول عنترة[٧٦] :

وما نذروا حتّى غشينا بيوتهم بغيبة موت مسبل الودق مزعف

---

(٧٠) ديوان الاعشى رقم ١٣ ص ١١١ .
(٧١) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٩ .
(٧٢) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦١ .
(٧٣) ديوان طرفة رقم ١ ص ٢٣ .
(٧٤) ديوان الاعشى رقم ١ ص ١١ ــ ١٢ .
(٧٥) ديوان الاعشى رقم ٤٠ ص ٢٦١ .
(٧٦) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٣ .

ويقول النابغة[٧٧] :

ولا تلاقي كما لاقت بنو أسد فقد أصابتهم منها بشؤبوب

ويقول علقمة الفحل[٧٨] :

كأنهم صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن دبيب

كذلك عبروا عن الموت بأكل السباع للانسان .. وقد رأينا في الرثاء أن ذلك مما يخيف الجاهلي .. ولذلك فهو يذكرها متألما حين يتحدث عمن يحب ويوردها شامتا أو متهددا اذا تحدث عن عدوله .. يقول امرؤ القيس في رثاء جماعة من قومة[٧٩] :

فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مَرِينا
فلم تغسل جماجمهم بغِسْل ولكن بالدماء مرمّلينا
تظلّ الطير عاكفة عليهم وتنتزع الحواجب والعيونا

ويقول ابو زبيد في غلامه الذى قتلته تغلب حين أعان عليهم المغيرين[٨٠]:

تذبّ عنه كف بها رمق طيرا عكوفا كزور العرس
عمّا قليل صبحن مهجته فهن من والغ ومنتهس

ويقول عروة[٨١] :

فاتركه بالقاع رهنا ببلدة تعاوره فيها الضباع الخوامع

---

(٧٧) مختار الشعر الجاهلي ص ١٦٤ .
(٧٨) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٢ .
(٧٩) ديوان امرىء القيس رقم ٣٧ ص ٢٠٠ .
(٨٠) شعر ابي زبيد رقم ٣٥ ص ١٠٦ .
(٨١) ديوان عروة ص ٢١ .

ويقول دريد بن الصمة[٨٢] :

فـــان تقتلوا فتيـــة أفردوا أصابهـــم الحـــين أو تظفروا
فان حزاما لـــدى معـــرك واخوته حولهـــم أنســـر

ويقول فيها :

تجرّ الضـــباع بأوصـــالهم ويلقحن منهم ولـــم يقبروا

ويقول[٨٣] :

فان تنج يدمى عارضاك فاننا تركنـــا بنيك للضباع وللرخم

ويقول[٨٤] :

وقـــد ترك ابن كعب في مكرّ حبيســـا بـــين ضبعان وذيب

ويقول جندل بن اشمط العنزى[٨٥] :

قعدك الله ألمّـــا تخبـــرى يا ابنة العمرىّ عن اهل قطر
تركـــوا جارهـــم تأكلـــه ضبع الوادى وترميه الشجر

ويقول محرز بن مكعبر الضبي[٨٦] :

ظلت ضباع مجيرات يعدنهم وألحموهن منهم أىّ الحـام

ويقول عنترة[٨٧] :

ان يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

---

(٨٢) الاغاني « الدار » ١٢/١٠ .
(٨٣) الاغاني « الدار » ٢٠/١٠ .
(٨٤) الاغاني « الدار » ٢٧/١٠ .
(٨٥) الوحشيات ص ٢٢١ .
(٨٦) الاغاني « الدار » ٣٣٧/١٦ .
(٨٧) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٧٧ ، ٣٨٠ .

ويقــول :

وتركته جزر السباع ينشنه   ما بين قلّة رأسه والمعصم

ويقول عباس بن مرداس[٨٨] :

أبا خراشــة أمــا أنت ذا نفر   فان قومي لم تأكلهم الضبع

ومن صورهم ذات الاصل التاريخي الاسطوري قول علقمة[٨٩] :

رغا فوقهم سقب السماء فداحض   بشــــكته لــم يستلب وسـليب

وقول أبي كبير الهذلي[٩٠] :

ورغا بهم سَقْبُ السماءِ وحُنّقت   مهــجُ النفوس بكارب متزلّف

وقول مالك بن خالد الخناعي :

كأن بذى دَوّان والجِزْعِ حوله   الى طَرَفِ المِقْراة أرغيةُ السَّقب

فهذه الصورة مأخوذة من قصة ناقة صالح عليه السلام وسقبها الذى رغا حين عقرت أمه فهلكت ثمود ..

ومن الصــور التاريخية اشارة زهــير الى عطر منشم وقد اختلفوا في تفسيرها[٩١] :

---

(٨٨) الخزانة ٨٢/٢ ، شرح العيني بهامشها ٥٥/٢ . الشعر والشعراء ١٥٨/١ .

(٨٩) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٢

(٩٠) ديوان الهذليين ١٠٨/٢ ، ١٧/٣ .

(٩١) شرح القصائد السبع لابن الانباري ص ٢٦١ . وقد ذكر ان (منشم) عطارة تشاءموا بها . . او ان التعبير من التنشيم في الشر وهو قول ابي عمرو بن العلاء أو انه للحرب وهو قول أبي عبيدة .

ومن الصور التي لانفهمها جيدا قول امرىء القيس[٩٢] :

وأفلتهنّ علبـــاء جريضـــا ولو أدركنه صفر الوطـــاب

وقول تأبط شرا[٩٣] :

أقول للحيـان وقد صفرت لهـــم وطابيويومي ضيّق الحِجْر مُعْوِر

لكم خصـــلة أما اســـار" ومنّة" واما دم والقتل بالحر اجـــدر

ولعل أصل هذه الصورة مأخوذ من السنة والمجاعة حين يقلّ اللبن ..
ومن الصور الغامضة اضلال الميت بمعنى دفنه .. ومنه قول النابغة[٩٤] :

فآب مضـــلّوه بعين جليّـة وغودر بالجولان حـزم ونـائل

وقول زهير :

ان الرزيـة لا رزيّـة مثلهـــا ما تبتغي غطفان يوم أضـــلّت

وقول المخبل السعدى :

أضلّت بنو قيس بن سـعد عميدها وفارسها في الدهر قيس بن عاصـم

وقول أبي الحارث بن نهيك[٩٥] :

فتى ما أضـــلت بـه أمّـه من القـوم ليـلة لا مـدّعم

ولا وجه لاعتبار اضاعة المرثين بهذا الشعر لونا من التأنيب .. لأنهم لم يقتلوا .. والبيت الاخير ينسب الاضلال الى الأم وليست ممن يسأل عن

---

(٩٢) ديوان امرىء القيس رقم ٢٣ ص ١٨٣ .

(٩٣) الاغاني « الساسي » ٢١٥/١٨ .

(٩٤) الحيوان ٤٨٩/٣ . ويقول الجاحظ أن الاضلال الدفن ويورد الامثلة الثلاثة التالية ..

(٩٥) النقائض ٣١٠/١ .

حماية الرجل ، ويمكن ان نفهم الصورة على انها تعبير عن الخسارة وفقد ما لا سبيل الى استعادته •• ويمكن كذلك أن تكون اشارة الى عالم آخر يضيع فيه الانسان ويتيه •

وبعض صور الحياة والموت مأخوذة مباشرة من الطبيعة والواقع• مثل صورة بطش الحيوان بالموتى •• وتصوّر الدهر راميا يصيد الانسان ويختله •• ومثل تشبيه حياة الانسان العابرة بتألق الشهاب •• وبعض هذه الصور من صنع الخيال وتقريبه بين الاشياء •• ومن ذلك تصور الانسان رهينة للدهر •• وتصور الحياة والشباب والنعمة في صورة الشيء المستعار الذي ينبغي أن يعاد الى صاحبه • ومن ذلك أيضا تصوير الموت على أنه ماء ، لانّ الطبيعة الصحراوية لا تجود بالماء في كميّة تسبب الخراب والفناء المباشر ، وينبغي أن تكون هذه الصورة من نتاج تفسير معين لدور الماء في الحياة ونحن بدون هذا التفسير لانجد وجها من التشابه أو الصلة بين المياه والفناء •• ويلاحظ في صور الحياة والموت بعامة أنها صور أساسية شديدة الصلة بموضوعها وليست من صور الزينة التي يمكن الاستغناء عنها •• فتصور الحياة عارية تعبير عن قلّة حيلة الانسان فيها •• وتصور الانسان رهينة للدهر يتضمن جبرية مطلقة وهي فكرة أساسية من أفكارهم• وتصور الدهر صيادا للاحياء صورة أساسية هي عمود كثير من الرثاء الذي يستخدم قصص الحيوان •• والاستغناء عنها يعني الغاء هذا القصص •• وصورة بطش الحيوان بالموتى صورة راعبة وليست من الترف الغني في شيء •• ويمكن أن يلاحظ مثل ذلك في أكثر الصور الاخرى •

---

(٩٦) النعمان بن الحارث الغساني مرثي النابغة مات كما يبدو في خروجه الى بعض متنزهاته . وذكر ذلك الاصمعي في كلامه على بعض شعر النابغة نفسه .

انظر مختار الشعر الجاهلي ص ١٩٨ ، ١٩١ . واما سنان بن ابي حارثة مرثي زهير فموته غامض . والجاحظ يرفض رواية هيامه في الصحراء .. الحيوان ٤٨٩/٣ . واما قيس بن عاصم فله وصية معروفة في وفاته مما يدل على ميتة طبيعية اسد الغابة ٢١٩/٤ .

اللغـة :

من الصعب أن نجد سمات عامة لغوية لما استعرضنا من الشعر ، فهـو ـ وان كان في موضوع واحد ـ ينتمي الى اغراض بعيد ما بينها .. ويمكن ان نلحظ بصفة عامة أن الحكمة والوعظ والرثاء المباشر تمتاز بلغـة ما تزال حيّة في اللسان العربي . وان الحماسة والصور والرموز القصصية تتخـذ لغة أجزل وأبعد في الغرابة الزمنية والبيئية ، فهي تمثل الجاهلية وتمثل كذلك البيئة البدوية الصحراوية ولكن ذلك كما قلنا حكم عام غير دقيق ..

ومما يهمنا أن نقف عنده ـ ونحن تتبين جوانب أصـيلة في العقل العربي ـ ان هذه اللغة التي رأيناها في ما استعرضنا من النصوص وأمثالها لغة عربية نقية الى أبعد الحدود . وقد ذكر بعض الباحثين ألفاظا غريبة دخلت العربية فذكروا من ألفاظ الفارسية : الابريق والسندس والزنجبيل والعنبر والكافور ، ومن اليونانية واللاتينية مما يفترض أنه دخل عن طريق الروم ألفاظ الفردوس ، والقسطاس والقنطار . ومن أخطر ما ذكروه ألفاظ الكاهن العبرية ، والنفاق والبرهان والحوارى والمصـحف والمنبر الحبشية والنبي الهيروغليفية التي دخلت عن طريق العبرية[97] .. وخطورة هـذه الألفـاظ العبرية والحبشية آتية من صلتها بالفكر الديني والنشاط العقلي للامة كمـا هو واضح ..

(٩٧) تاريخ اللغة العربية ٦ ـ ٨ ، ١١ ـ ١٢ . تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٤٤/١ ـ ٤٦ ، تاريخ الادب العربي لبلاشير ص ٦٢ ، النصرانية وآدابها ٦٥/١ . ١٥٢/٢ وما بعدها .. ويغلو شيخو غلوا شديدا ، ومن ذلك انه اعتبر الاعلام : بشير ، بعيث ، توبة ، ثابت ، جابر ، حبيب ، حكيم ، خالد ، الخليل ، سعد ، صالح ، مالك وغيرها مثلها غريبة ٢٤٧/٢ وما بعدها . واعتبر المسجد والكعبة والمحراب ، والقبلة ، والمنارة ، والمصباح ونحوها غريبة ايضا . ١٧٤/٢ وما بعدها .

ولنا على هذا التأثير اللغوي ملاحظة أولية هي ضعفه ، ويتجلى هـــذا الضعف في قلة هذه الالفاظ الى جانب ثراء اللغة العربية وغزارة مادتهـا .. وهذه الالفاظ ليست مما كثر استعماله في الشعر الجاهلي فهي ليست مما يمكن اعتباره مصطلحات أساسية في التفكير الجاهلي[98] . ويضاف الى ذلك أن العربي لم يكن متلقيا سلبيا دائما .. فقد كان اللفظ يتخذ على لسانه الشكل المناسب لنطق العربية .. وكان ــ وهو الاخطر ــ يزاد ثراه ويغنى بمعان ليست في أصله الغريب . فالبرهان في الحبشية النور والايضاح وهو في العربية أبعد في التجريد العقلي .. والنفاق في أصله البدعة وهو أرقى في عربيته ، والفردوس في الأصل البستان أو الروضة وهو في عربيته مصطلح ديني خاص ، والقسطاس في الاصل الميزان وهو على صلة ظاهرة بالعدالة عند العرب منذ الجاهلية ، يقول عدي بن زيد[99] :

في حديد القسطاس يرقبني الحا رس والمرء كل شيء يلاقي

وقد ذكرنا من الالفاظ العربية الاصيلة المستعملة في الجاهلية ما هـو قريب من المصطلح الفكري المحدد ومن ذلك الحق والعدل والوفاء والنصف والسوية والباطل والظلم والبغي والخير والشر وغيرها .. وذلك يحدد مرحلة عقلية بلغتها الجاهلية .. يساعدها في ذلك الفطرة البشرية وما عرفته

---

(٩٨) اكثر هذه الالفاظ قرآني كما هو واضح . . وهو نادر في الشعر . فالحواري مثلا لم يجد شيخو شاهدا لها الا بيتا لضابيء البرجمي الذي مات في سجن عثمان رضي الله عنه . وبيتا للسموال توحي ركته بانتحاله ، ولعل ضابئا أخذ اللفظ من القرآن الكريم . النصرانية وآدابها ١٨٩/٢ . ولامر بعد ذلك من محاولات غير المسلمين ايجاد صلات بين الاسلام وغيره من الاديان . وهي الصلة التي لا ينكرها القرآن الكريم ، لان الاسلام شريعة الله الذي شرع الاديان الاخرى : « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » . الاسراء ٧٧ « ما يقال لك الا ماقد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم » . فصلت ٤٣ فهذه موافقات المصدر الواحد..

(٩٩) ديوان عدى رقم ٩٢ ص ١٥١ .

من الأديان الكتابية وما ورثته من الحنيفية •• وقد جاءنا في الشعر الجاهلي مصطلحان متقابلان هما أوضح دلالة على المستوى العقلي لاهل الجاهليـــة وهما مصطلحا الفساد والصلاح بمعنى العدم والفناء ونحوهما والوجـــود والحياة وما في معناهما •• ومن استعمال اللفظين على وجه المقابلة قـــول الاعشى[١٠٠] :

انما نحن كشـــــيء فاسـد فـاذا أصـلحه الله صـلح

وقـولـه[١٠١] :

فالدهــر غيّر ذلك يا ابنة مالك والدهر يعقب صـــالحا بفسـاد

وقـولـه[١٠٢] :

ولكن أرى الدهر الذي هو خاتر اذا أصلحت كفّـاي عاد فأفسدا

وقول الاسود بن يعفر[١٠٣] :

فاذا وذلك لا مهـــــاه لذكـره والدهر يعقب صـــالحا بفســاد

وقول دويد بن نهد[١٠٤] :

والدهر ما أصلح يوما أفســـدا يصـــلحه اليوم يفســده غـدا

وقول جندل بن أشمط العنزي[١٠٥] :

فســعى لهم والدهــر يحــدث بعــد صــالحة فســادا

---

(١٠٠) البيت مما شكك د . شوقي ضيف في القصيدة كلها . تاريخ الادب العربي « الجاهلية » ص ٣٤٥ . مما يدل على تقديره لخطر اللفظتين والمستوى الذي يوحيان به .

(١٠١) ديوان الاعشى رقم ١٦ ص ١٣١ .

(١٠٢) ديوان الاعشى رقم ١٧ ص ١٣٥

(١٠٣) المفضليات رقم ٤٤ ص ٢٢٠ .

(١٠٤) طبقات ابن سلام ص ٢٨ .

(١٠٥) الوحشيات ص ١٦٢ .

وقول الافوه الاودي[١٠٦] :

والمرء ما تصـــلح لـــه ليـــلة بالسـعد تفسده ليـالي النحوس

وقول عدي بن زيد[١٠٧] .

وأبدت لي الايام والدهر أنـــــه فأرّخت من لا يصلح الامر يفسد

واللفظان يستعملان في كلامهم بمعنى ابقاء المال ونمائه أو انفــاقــه ، واتلافه ، يقول المتلمس[١٠٨] :

واصـــلاح القليل يزيد فيــه ولا يبقى الكثير على الفســـاد

ويقول عبيد أو أوس بن حجر[١٠٩] :

قاتلها الله تلحـــــاني وقد علمت أن لنفســي افســادي واصلاحي

ويقول عدي بن زيد[١١٠] :

فللوارث الباقي من المال فاتركي عتابي فأني مصـــلح غير مفسد

والمال عندهم في غالب الامر من الحيوان كالابل والغنم .. فافســاده يكون بنحره للضيف وعقره واصلاحه بحفظ حياته وزيادة انساله .. فهــذا الاستعمال قريب من المعنى العام ، ويؤيد ذلك أنهم عبّروا عن انفاق المــال بألفاظ الهلاك والفناء والتلف وهي ألفاظ صريحة .. ومن استخدامها قــول الاسود بن يعفر[١١١] :

وقالت لا أراك تليـق شـــــيئا أتهلك ما جمعت وتســـــــتفيد

---

(١٠٦) الطرائف الادبية ص ١٦ .

(١٠٧) ديوان عدى رقم ٢٣ ص ١٠٨ .

(١٠٨) الاغاني « الساسي » ١٣٦/٢١ .

(١٠٩) ديوان عبيد رقم ١١ ص ٣٤ .

(١١٠) ديوان عدى رقم ٢٣ ص ١٠٣ .

(١١١) الصبح المنير ٢٨٠ .

ويقول النمر بن تولب[112] :

يلوم أخي على اهـــلاك مالي ... وما ان غـــالـــه ظهري وبطني

ويقول تأبط شرا[113] :

يقول أهلكت مالا لو قنعت بـــه ... من ثوب صدق ومن بزّ وأعلاق

ويقول أبو ذؤيب[114] :

أعاذل لا اهـــلاك مالي ضرّني ... ولا وارثي ان ثمّر المـال حامدي

ويقول أوس بن حجر[115] :

والمخلـــف المتـلف المـرزّ ألـم ... يمتـع بضـعف ولـم يمت طبعـا

ويقول حاتم الطائي[116] :

تلومان لمّـــا غوّر النجـم ضلـّة ... فتى لايرى الاتلاف في الحمد مغرما

ويقول بشر بن أبي خازم[117] :

وعشت وقد أفنى طريفي وتالدي ... قتيـل ثلاث بينهن أصــــرّع

ونجدهم أحيانا يقابلون بين أحد المصطلحين وبين ما يرادف الاخر ، فمن استخدام الصلاح على هذا النحو قول تأبط شرّا[118] :

ثـمّ انقضى عصرها منّي وأعقبه ... عصر المشيب فقل في صـالح بادا

---

(112) منتهى الطلب ٤٨/١ .
(113) المفضليات رقم ١ ص ٣٠ .
(114) ديوان الهذليين ١٢٣/١ .
(115) ديوان أوس رقم ٢٦ ص ٥٣ .
(116) ديوان حاتم ص ٢٤ .
(117) ديوان بشر رقم ٢٥ ص ١١٩ .
(118) رسالة الغفران ص ٢٨٠ .

وقول أوس بن حجر(١١٩) :

أودى ربيع الصعاليك الألى انتجعوا   وكلّ ما فوقها من صالح مودى

وقول النمر بن تولب(١٢٠) :

فكأن صالح أهل جوّ غدوة   صبحوا بذيفان السمام المنقع

وفي هذه المواضع لا يمكن حمل الصلاح على المعنى السلوكي لان الصالح وغير الصالح مود ..

ومن استخدام الصلاح في المال قول عبيد(١٢١) :

اني وجدّك لو اصلحت ما بيدي   لم يحمد الناس بعد الموت اصلاحي

ومن استعمال الفساد بمعنى القتل والفناء ونحوه قول الاعشى في رفض بكر ان تعطي كسرى رهائن من أبنائها(١٢٢) :

آليت لا نعطيه من أبنائنا   رهنا فيفسدهم كمن قد أفسدا

وقول الحارث بن وعلة الجرمي يصف خيلا(١٢٣) :

تكرّ عليهم وتعود فيهم   فسادا بل أجلّ من الفساد

وقول أبي جندب الهذلي(١٢٤) :

وقلت لهم قد ادركتكم كتيبة   مفسّدة الأدبار ما لم تخفّر

---

(١١٩) ديوان أوس رقم ١١ ص ٢٥ .

(١٢٠) خزانة الادب ١/١٥٥ .

(١٢١) ديوان عبيد رقم ١٢ ص ٤١ .

(١٢٢) ديوان الاعشى رقم ٣١ ص ٢٢٩ .

(١٢٣) معجم البلدان ١/٣١٦ .

(١٢٤) ديوان الهذليين ٣/٩٤ .

ويقول كعب الغنوي[١٢٥] :

لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى   على يومه علق اليّ حبيب

وقول الخنساء[١٢٦] :

ان الجديدين في طول اختلافهما   لا يفسدان ولكن يفسد الناس

ومن استخدام الفساد في المال قول طرفة

كقبر غويّ في البطالة مفسد

وقول امريء القيس[١٢٧] :

ولبينا المرء يهوى قدما   أفسد الدهر غناه ففسد

ولعل الصلح جاء من أن المتصالحين يبقي بعضهم على حياة بعض .. كما أن اسم الفساد الذي أطلق على حرب طيء يمكن أن يفهم على أنه اشارة الى تفاني أبناء القبيلة[١٢٨] .

وهذان المصطلحان كما هو ظاهر عربيان من حيث مادتهما اللفظية ، وهما كذلك عربيان من حيث نباتهما في اللغة العربية وتولدهما من حاجة أهلها . يشهد على ذلك تنوّع استخدامها في المال والابقاء على الحياة والقتل والفناء والعدم والوجود .. ولو افترضنا أنهما مترجمان من لغة أخرى فان

---

(١٢٥) الاصمعيات رقم ٢٦ ص ١٠٣ .

(١٢٦) انيس الجلساء ص ٥١ .

(١٢٧) ديوان امرىء القيس رقم ٤٧ ص ٢١٩ .

(١٢٨) من استعمال اللفظتين في القرآن الكريم قوله تعالى : « واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون . » البقرة ١١ ، « ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها . » الاعراب ٥٦ ، « ان الله لا يصلح عمل المفسدين » يونس ٨١ ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » البقرة : ٢٥١ ، « لوكان فيهما آلهة الا اللهلفسدتا » الانبياء ٢٢ « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها . » النمل ٣٤ . وغير ذلك من الآى الكريم .

ذلك لا ينفي خطر وجودهما في لغة الجاهلية بل يثبت شعورهم بالحاجة اليهما .. وهي حاجة عقلية خالصة لا يقتضيها أمر مباشر من حياتهم .

والحق أن طبيعة الموضوع الذي أبحثه هي التي لفتت النظر الى هاتين الكلمتين ، ولقد يكون لهما أمثلة أخرى في لغتهم ، كذلك فان الحكم على لغة الجاهلية بشعرها وحده هو صعوبة أخرى تواجهنا ، لأن النثر ولغة الخطاب تتسع لما لا يتسع له الشعر من الالفاظ ذات الطابع العقلي المجرد ، ويمكن ان تقول في هذه الحدود ان اللغة العربية بلغت مرحلة من النضج مكنتها من تحمل ألوان التفكير الذي يرتفع عن الحاجات المباشرة للحياة الجاهلية واكتسبت صلاحية ومرونة كافية لايجاد المصطلحات المختلفة كانت بذلك قادرة على أن تصبح لغة القرآن الكريم وحضارة الاسلام .

التعبير بالبيت والقصيدة

تأتي أفكار الشاعر في الحياة مفاجأة لنا أحيانا في قصيدة ليست في جملتها مخصصة للتأمل . ولو حاولنا أن نعرف علّة بروز هذه الفكرة أو الخاطرة في هذا الموضع من القصيدة ما استطعنا أن نجزم بشيء .. وغاية ما يمكن أن يقال هو أن الفكرة ممّا يشغل الشاعر فهي تخطر له على غير انتظار ، فيثبتها حيث طغت في وعيه . ومن ذلك قول طرفة في قصيدة يفخر فيها بقومه وبكرمهم[١٢٩] :

ان التبالي في الحياة ولا   تغني نوائب ما جد عذره

وهي عبارة تشبه قول المسلم إن العمل ينقطع بالموت وان على الانسان أن يقدم لنفسه قبل ذلك ، وهذا البيت في القصيدة أشبه بالتعقيب الذي يصدر عن نفس الشاعر لا من حاجة القصيدة اليه . ولو أننا اسقطناه ما اختل شيء في القصيدة ككل ، ويشبه ذلك قول عمرو بن كلثوم في معلقته .

وأنا سوف تدركنا المنايا   مقدرة لنا ومقدرينا

---

(١٢٩) ديوان طرفة رقم ٨ ص ٩٩ .

وقول امريء القيس في الضادية[١٣٠] :

أرى المرء ذا الأذواد يصبح محرضا
كأحراض بكر في الديار مريض

كأن الفتى لم يغن في الناس ساعة
اذا اختلف اللحيان عند الجريض

وقول الاعشى في المعلقة :

في فتية كسيوف الهند قد علموا
أن ليس يدفع عن ذى الحيلة الحيل

وقول طرفة في البائية التي يطالب فيها بحق وردة[١٣١] :

ولقد بدا لي أنه سيغولني ما غال عادا والقرون فأشعبوا

وليست مثل هذه الافكار التي تفاجئنا في الشعر الجاهلي أحيانا منقطعة عن أفكار القصيدة التي ترد فيها .. ولكنها تعليقات موجزة على ما تقوله القصيدة مما يجعل البيت الذي يتضمنها يقف وحيدا لافتا للنظر .

وبعض تأملات الشعراء الجاهليين في الحياة تستغرق القصيدة كاملة ونجعلها ظاهرة الوحدة موثقة الترابط .. فغالب الرثاء والموعظة يرد في قصيدة كاملة ، ومثله بعض شعر الفتوة وتذكرها .. ومن أوضح أمثلة هذا النمط من الشعر دالية الاسود بن يعفر المفضلية[١٣٢] .. فالشاعر فيها يتحدث عن ثلاثة أقسام من حياته : هو في حاضره أعمى يشكو من شيخوخته وضعفه .. وهو يلقي بنظره الى امام فيجد اليقين الذي صار اليه من قبل آل محرق ، ثم يلقي نظرة الى وراء ليتذكر ألوانا من فتوته الذاهبة ..

---

(١٣٠) ديوان امرىء القيس رقم ٥ ص ٧٧ .
(١٣١) ديوان طرفة رقم ١ ص ٢٥ .
(١٣٢) المفضليات رقم ٤٤ ص ٢١٦ .

والقصيدة متينة الوحدة لا ثغرة فيها ومثلها بائيـــة أمــريء القيس التي أولهـا[١٣٣] :

أرانا موضــعين لأمر غيب ونســحر بالطعـام وبالشراب

وبائية عدي بن زيد التي أولها[١٣٤] :

لـم أر كالفتيـــان في غبن الايـــام ينســون ما عواقبهـــا

ومثلها مراثي لبيد التي مطالعها[١٣٥] :

الا ذهب المحـافظ والمحـامي ومانـع ضـيمنا يوم الخصام

• • • • • • •

و :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالـــع وتبقى البـلاد بعدنا والمصانع

و :

ألا تســألان المرء ماذا يحـــاول أنحب فيقضي أم ضلال وباطـــل

الى غير ذلك من شعر الجاهلية • ولعل مواجهة الشاعر عن قرب لمـآسي حياته هي التي تركز اهتمامه بموضوع واحد لا يخرج عنه •

والضرب الآخر من القصائد هي التي يفرغ الشاعر في قسم منها للتأمـل ويتصرف في أقسامها الباقية في مواضيع أخرى ومعاني مختلفـة • ومن أمثـلة هذا النمط معلّقة طرفة ، تحتوي على مقدمة في الاطلال والنسيب • ينتقـــل بعدها الى وصف رحلته على ناقة يصفها ثم يفرغ لحيـــاته يبيّن خطته فيهـــا وينساق بعد ذلك الى تبيان رأيه في الناس والقدر •

---

(١٣٣) ديوان امرىء القيس رقم ١١ ص ٩٧ .

(١٣٤) ديوان عدى بن زيد رقم ٥ ص ٤٥ .

(١٣٥) شرح ديوان لبيد رقم ٢٧ ص ٢٠١ ، رقم ٢٤ ص ١٦٨ ، رقم ٣٦ ص ٢٥٤ .

ولقد رأينا في مواضع متفرقة من هذا البحث أن لبعض هذه الاقسام قيمة نفسية خاصة أو لونا نفسيا معينا ، فالمقدمة الطللية قريبة من الرثاء من حيث هي تعبير عن الحزن لتفرق الجماعة أو فقدان الحبيب بفعل الدهر ، ورأينا ان الناقة والفرس ووصفهما تحمل معنى القوة والمقاومة والفرح وانها لذلك لا تلائم الرثاء ، وانما يذكر الشاعر الناقة والفرس لينسى ما أثاره الطلل وظعن الحبيبة من همّ • ورأينا أن قصص الحيوان يعبر عن الحالة النفسية للشاعر ويحمل آثارها •• فالحيزان ينجو من الصائد اذا شبهت به الناقة في شعر الفخر والمدح ونحوه ، ويكون فريسة للكلاب وتصيبه السهام اذا كان الشعر رثاء ، وهو في هذه الحالة لا يقارن بالناقة ولا تشبه به •• وكل هذه التوجيهات أو بعضها اذا اجتمعت تكشف عن جوّ نفسي عام •• ينتظم الاقسام المتميزة للقصيدة الواحدة •

ونبدأ بمثل من الرثاء لأنه أبسط توجيها وأيسر ، ففي قصيدة لساعدة ابن جؤية يتذمر فيها من حياة الشيخوخة نجد هذه البداية المباشرة التي يقول فيها[١٣٦] :

ياليت شعرى الا منجى من الهرم	أم هل على العيش بعد الشيب من ندم
والشيب داء بخيس لادواء له	للمرء كان صحيحا صائب القحم
وسنان ليس بقاض نومه أبدا	لولا غداة مسير الناس لم يقم
في منكبيه وفي الاصلاب واهنة	وفي مفاصلة غمز من العسم
ان تأته في نهار الصيف لاتره	الا ّ يجمّع ما يصلى من الجحم
حتى يقال وراء البيت منتبذا	قم لا أبا لك سار الناس فاحتزم
فقام ترعد كفّاه بمحجنه	قد عاد رهبا رذيّا طائش القدم

---

(١٣٦) ديوان الهذليين ١/١٩١ .

هذه الحياة ليس فيها ما يعجب الشاعر ، والشيب لادواء منه ولا برء الا ّ الموت •• وهو يقبله بلا ندم لأنه سيأتي بعد المشيب •• وهو يروى بعد هذه المقدمة المباشرة ثلاث قصص لوعل وصوار وجماعة من الناس وتنتهي كلهـــا بموت أبطالها وتبدأ بقوله ان الدهر لا يبقي على بطل القصة ••

ويبدأ أبو ذؤيب بعض مراثيه بمقدمة في الطلل ويشبه الاثافي بثلاث اينق يعطفن على ولد • ثم يشبه هذه الاينق بنوح الكريم المجتمعات لبكائه •• ثم ينتقل الى رثاء صريح يقول أبو ذؤيب (١٣٧) :

عرفت الديار كرقـــم الـــدوا	ة يزبرُها الكاتب الحميرىّ
برقم ووشي كمـــا زُخرفت	بميشمها المزدهـــاة الهـــدىّ
أدان وأنبـــــأه الا ّولـــو	ن أن المُـــدان المليّ الوفيّ
فينظر فـــي صحف كالريـــا	ط فيهنّ ارثُ كتابٍ محيٌ
على أَطْرُفـــا باليـــات الخيا	مِ الا ّ التمامُ والا ّ العصيّ
فلم يبق منهـــا ســوى هامد	وسَفحُ الخدودِ معا والنؤىّ
وأشعثَ في الدار ذي لمـــة	لدى إرث حوض نفاه الأتــيّ
كعوذ المُعَطف أحر ى لهـــا	بمصيـــدة المـــاء رأم رذىّ
فهن عكـــوف كنوح الكريـــ	ـــم قد لاح اكبادهن الهَوىّ
وأنىى نشيبـــةَ والجاهل الـ	مغمّر يحسب أني نســـــي

فهذه القصيدة من قسمين واضحين ، ولكن الحزن عام فيها يعبّر عنه القسمان كلاهمـــا ••

---

(١٣٧) ديوان الهذليين ٦٤/١

واذا عدنا الى معلّقة طرفة وجدنا ان بلى الاطلال وذكريات الحبيبة توحي له بالمقاومة والجلد ، فهو يقول بعدها[١٣٨] :

واني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتهتـدي

. . . .

على مثلها أمضي اذا قال صاحبي ألا ليتني أفديك منها وأفتـدى
وجاشت اليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد
اذا القوم قالوا من فتي خلت أنني عنيت فلم اكسل ولم اتبلد
أحلت عليها بالقطيع فأجـذمت وقد خبّ آل الامعز المتوقّـد
فذالت كما ذالت وليدة مجلس تري ربها أذيال سحل ممدّد

طرفة اذن في مقدمته الطللية ووصفه للناقة بعدها يعبّر عن القوة في الهم ، وعن عدم الاستسلام للحزن . وهذا هو روح فتوته التي يتحدث عنها بعد ذلك . وهو الشعور العام الذى يكون جوّ معلّقة لبيد أيضا ، فهو يقف على الطلل ثم يذكر أنه يقطع لبانة من تعرّض وصله بناقة يصفها وهو لا يتبع النوار التي حلت بفيد وجاورت أهل الحجاز بل يعاملها بالمثل فيرتحل هو أيضا ، وناقته تشبه حمارا وحشيا مقتدرا على اتانه يوجهها كما يشاء عنيفا بها حتى ينتهي الى عين مسجورة محفوفة بالنبات ، وتشبه بقرة فقدت الفرير فلم تضعف بل قتلت الكلاب ونجت من الصياد، فهو اذن رجل قوي يقطع حبل النوار على ناقة قوية ، وهو يعود الى النوار ليقول لها انه لا يزال يقطع حبلا ويصل حبلا ، وانه يشرب الخمر الغالية ويسمع الغناء والسمر ويحمي الحيّ ويربأ لهم ويدافع عنهم ويأخذ بحقهم ويقامر بسخاء ، وانه من بيت الرآسة والسيادة في قومه ،فلبيد يعبر عن القوة في كل اقسام القصيدة ، وليس في حديث فتوّته وحده ، أو حين يعنف في خطاب نوار ..

---

(١٣٨) اخترت رواية الاصمعي كما جاءت في مختار الشعر الجاهلي ص ٣١٠ ، ٣١٤ .

والقول بوجود جوّ نفسي عام في بعض المطوّلات الجاهلية لا يعني انكار وجود اقسامها المتميزة ، فهي أظهر من ان تنكر ، وكل قسم منها لـــه موضوع خاص وميزات فنية معينة ، وما نريد ان نصل اليه هو أن الشاعر لا يقفز من قسم من قصيدته الى قسم آخر مستأنفا شعورا جديدا لاصلة له بما مضى وما يأتي من كلامه ، وهذا الجو النفسي العام اظهر ما يكون حين يتأمل الشاعر حياته مثقلا بالحزن مسلـّما للقدر أو متمردا عنيفا في مواجهة الدهر .

الخاتمة

ليس كل ما سأستعرضه من نتائج البحث مما استقل به ، فبعضه مستند الى آراء سبقني اليها الباحثون كما يرى في هوامش الرسالة ولي منه جهد جمعه والتأليف بينه وعلي تبعة موافقة أصحابه ..

وقد عرض الفصل الاول من الباب الاول لعقائد الجاهلية ، وخرج بأن الحنيفية كانت علما على الشرك الجاهلي .. وان عقائدها كانت خليطا من الايمان بالله ومن الوثنية . وان عبادتها تأثرت بذلك الخلط فمنها ما هو موجه الى الله تعالى ومنها ما يراد به الشركاء من الجن والاصنام . وان الوثنية في نجد والحجاز ليست هي وثنية الجنوب العربي أو الوثنية السامية عامة كما انها ليست مقطوعة عنها ، وكانت المجوسية قليلة الانتشار بين العرب وتكاد تكون محصورة في الفرس الذين خالطوهم في مناطق النفوذ الفارسي ، وكان في قريش خاصة نفر من الذين يفكرون تفكيرا ماديا كالذى اصطلح على تسميته في عصور الاسلام بالزندقة ونسبته الى مصادر فارسية .

ومن الاديان الكتابية التي عرض لها البحث اليهودية وكانت متأثرة بالشرك العربي مؤثرة فيه .. وقد اتخذ انتشار اليهودية بين العرب شكل التهود وهو في الحجاز ظاهرة قبلية قبل ان تكون دينية . أما في اليمن فقد رجح الاثر الديني. ومن الاديان الكتابية النصرانية التي انتشرت بالتبشير بين عرب الشام والعراق وشرق الجزيرة وبعض القبائل مثل تغلب .. وانتشرت في اليمن بالتبشير والقوة العسكرية . ولم يكن تنصر هذه المواضع والقبائل كاملا بدلالة اخبارها التي تذكر بقاء الشرك فيها . ومذهب النصارى العرب كان اليعقوبية والنسطورية في الغالب .. وقد جاء في آثار الجنوب ذكر جماعة

موحدة هم عبدة الرحمن وهم جماعة عرفها العرب بدليل كرههم لاسم الرحمن من بين اسماء الله الحسنى • وذكر القرآن الكريم الصابئة مع اهل الكتاب مما يرجح كونهم منهم ، ويحتمل ان تكون تسمية المشركين للمسلمين بالصابئين اشارة الى هؤلاء •

والفصل الثاني من الباب يظهر آثار هذه العقائد في القيم الاجتماعية والخلقية ولم تمكن الافادة كثيرا من تصور الجاهلية للخلق الاول والبعث لان هذا التصور لم يصلنا كاملا • وكان المدخل الى فهم اثر الدين بدلا من ذلك اعتبار التحريم والتحليل • وبواسطته كشف البحث عن تفاوت في المنزلة الاجتماعية من أصل ديني وذلك هو معنى تقسيم القبائل العربية الى حمس وطلس وحلة • وكشف البحث ايضا عن الشرعية التي أضفاها الدين على حياة الغزو والحرب ويدل على ذلك تقسيم الشهور الى حرام وحلال •• كذلك شارك الدين في انكار الحرب داخل القبيلة الواحدة • وكان كل ذلك مدخلا لدراسة قضاء الجاهلية الديني والعرفي •• وفي هذا الفصل دراسة للدهر وهو رمز القدر الغالب الجائر في وهمهم والخير والشر بالمعنى المباشر والاخلاقي وهما يتأثران بجبريتهم المتشائمة ، والحق والعدل والنصف وهي امثلة عليا متأثرة بمعرفة العرب لله في شركهم وأديانهم الكتابية •

والفصل الاول من الباب الثاني يستعرض افكار الشعراء في الرثاء •• وفيه وقفة عند البكاء على الاطلال كلون من رثاء الجماعة أو بكاء الماضي بدليل وجود بعض المعاني في الرثاء وبكاء الاطلال معا • ويميز البحث بين موقف الشاعر مؤبنا مدفوعا بحزنه وواجبه الاجتماعي وبين موقفه مفتشا عن العزاء ومن افكارهم في موقف التأبين زعمهم انهم وجدوا راحة اليأس بعد الميت ، وان الميت افضل من الباقين في الاحياء فهم يشكون من العيش في الباقين أو يشكون من جور الدهر • وزعمهم ان الحياة صارت بعد الميت بلا طعم • ويعبر الشعراء في موقف التأبين عن مخاوفهم مما يحل بالانسان بموته، ويهزأون مما يصطنع للميت من تكريم • وموقف العزاء يستند الى ان الموت

جامع للناس • ويعبّر الشعراء عن ذلك بان كل اخ يفارق اخــاه ، وانهم لاحقون بالميت ، وان الميت سلك سبيلا كان لابد سالكها •• ويتأسون بالامثال من السادة والملوك أو يعبّرون عن رؤية الفناء محيطا بكل شيء •

والفصل الثاني في شعر الحماسة ، وفيه تميز بين الشاب الذى يزعم أنه يفتش عن المتعة لأنه موقن من الموت خائف من مفاجآته • وبين موقف الشيخ الذى يأسف لذهاب حياة الفتوة ويفخر بان حياته كانت عريضة غنية بالمتعة• ويلاحظ أن خمر الفتيان صبوح في أغلب الاحيان وذلك أثر من فخرهم بالتفرغ للهو والمبادرة الى المتعة خوف المفاجأة • وان المرأة تظل شابة في شعر الشيوخ الذين يبكون فتوتهم فهي ترمز في شعرهم الى التوق الى الحيــاة واللهو والشباب وتكشف رحلة الصيد في شعر الفتيان عن التداعي بين وصف الفرس والمطر وتكشف رحلتهم على الناقة عن ان وصفها والرحلة عليها شعر حماسي حتى اذا كان ذلك صلة للمديح • ومن شعر الحماسة المتأثر بافكار الشعراء في الحياة والموت شعر الكرم ••

ويرى ان انفاق المال خير من تركه للدهر يضيعه في حياة صاحبه أو بعد موته ، وشعر الفروسية وهو يذهب الى ان الجبن لا يطيل حياة الانسان ولا يخلده ، وشعر الرحلة وهو يقول بان الموت يدرك الانسان أقام ام ارتحل •

وشعر الحكمة موضوع الفصل الثالث من الباب ، ويلاحظ في الشكوى ـ وهي من الوان حكمتهم ـ انها تصور الانسان محاصــرا بين الموت المبكر والحرمان من بهجة العيش وبين الشيخوخة والضعف •• ومن الشكوى ـ بناء على هذا التصور ـ ما يشكو من مفاجأة الدهر وما يشكو من عمله غير المنظور ومن هذا شعر المعمرين والشيوخ وهو كثير في العربية • اما الموعظة فالعام منها اساسه السخرية من انشغال الانسان بمصالحه اليومية عن مشاكل وجوده وبعض هذه المواعظ العامة يحث على الثقة بما عنــد الله ويلمح الى الآخرة • وبعض المواعظ يوجه الى جماعة او شخص بعينه ، وهي تخوف الظالم والمغتر من مثل مصير المظلوم والضعيف لان الدهر لا يبقي على أحد •• او تحذر من

عقوبة الله وغالب الحكمة يعبّر عن جبرية الجاهلية المتشـائمة التي ترى ان الانسان شر بطبعه وان المرأة فطرت على الخيانة وان خلق الانسان ارث من آبائه او فطرة طبع عليها ولا حيلة له في صفاته وخلقه ولا يخرج على هـذه الجبرية المتشائمة غير الثقة بعدالة غيبية لا تسمح بانتصار الظالم أو نجاته .. وقد أدى ذلك الى تنصل الشعراء من الظلم وزعمهم انهم لا يحاربون ابتداء الا في حق .. وادى ذلك ايضا الى وضوح في مفاهيم العدالة فجاء الشعر بصفة الحاكم العادل والقضاء المستقيم وجاء يحمل مصطلحات قضائية دقيقة . ويبدو تقديس الجاهلية للقوة قبل كل قيمة في رفض الناس الاقرار للظلم .. فهم اما ان يردوه بالقوة أو بالارتحال عن دار الضيم .

والباب الثالث دراسة فنية ويستقل فصله الاول بدراسة القصة .. ومن قصص الحيوان التي يدرسها قصة الوعل الآمن في ذرى الجبال وهو لا ينجو من الدهر ، وقصة الجوارح التي تتخذ اوكارا في القمم وتنقض بعد ليلة باردة على صيد تراه فاما ان تصيده او تخفق ، والجوارح مما تشبه به الخيل في غير الرثاء مما يدل على ان الخيل رمز مفرح . وقصة حمار الوحش وبقر الوحش الـذي تصيده الكـلاب ويرميـه الصـياد في الرثاء وينجـو منهمـا في غيره وهما مما تشبه به الناقة في غير الرثاء مما يرجح كونها رمزا مفرحا ويجعل الصياد رمزا للقدر وهو يصور في شعرهم غير القصصي راميا للانسان بسهامه. ومن قصص الانسان القصص التاريخي ويلاحظ ميل بعض الشعراء له .. وهم يختارون قصصهم من التاريخ المعروف غير المنتشر ويميـلون الى الطرافة في اختيارهم .. اما القصص الشائع فيشار اليه . ومن الانسان ما يختار الانسان الاعتيادى ، وهو يشبه قصص الحيوان لان بعضه يرد في سياق قصص الحيوان في الرثاء ، فهو انسان منيع يصيبه الدهر ، وبعضه الآخر يشبه قصة الام من الحيوان التي تفقد ولدها ، والشاعر يشبه عاطفته بعاطفة هذه الام كما يفعل بقصة الام من الحيوان . والقصة في الغالب تستخدم استخدام المثل ولذلك تأتي مطابقة للممثل له مما يلون القصة المعادة ، ولذلك أيضاً كانت القصـة استطرادا تتحكم في امتداده رغبة الشاعر لا حاجة القصيدة .. وهذا يجعـل

القصة التاريخية خاصة تبدو كأنها قد زيد فيها •• اما الحوار فهو عنصر يضعف الشعر لانه يدخل فيه الفاظا وتعابير نثرية ضرورية لنقل اى حوار •

والفصل الاخير دراسة للجوانب الفنية الاخرى ومنها الصورة الفنية• ويلاحظ عليها التشاؤم غالبا فهي تصور الحياة عارية مردودة أو حلما ذاهبا أو متاعا زهيدا وتشبه الانسان في ضعفه بالغصن يكسر وفي قصر بقائه بالشهاب يتألق لحظة وتصور المعمر كالفرخ الضعيف يحيا حياة النساء في البيت وتصوره كلا على غيره ، ومن هذه الصور ما هو من البيئة مباشرة كصورة أكل الحيوان للميت ، ومنها التاريخي كالرمز للموت بسحابة ثمود، ومنها التي تستند الى تأويل خاص مثل الكناية عن الموت بالماء والوطب الفارغ وعن الدفن باضلال الميت ، ومعظم هذه الصور نابع من الافكار الجادة وليس من صور الزينة التي يمكن اسقاطها • ولغة الشعر مدار البحث عربية خالصة ليس فيها من الدخيل ما يذكر • وهي لغة تحمل من الالفاظ ما يعتبر شاهدا على قدرتها على الارتفاع عن مستوى الحاجة اليومية والخطاب المعتاد • ومن هذه الالفاظ الحق والباطل والخير والشر والعدل والظلم ومنها الصلاح والفساد بمعنى البقاء والفناء وهما شائعان في شعر الجاهلية ثم انهما استعملا في القرآن الكريم • وقد جاءت افكار الشعراء في الحياة والموت احيانا في صورة تعقيب يحمله بيت أو بيتان على افكار القصيدة • وجاء احيانا اخرى في قصائد كاملة موحدة الغرض كما جاء في الرثاء والموعظة ، وجاءت بعض أفكارهم في المطولات المتعددة المواضيع •• وهي تعبر عن شعور واحد في مجموعها كالقوة امام القدر أو التخاذل امام الاحداث • وهذا الفهم لبعض المطولات مستند الى نتائج البحث التي سبق الوصول اليها كفهم ما يرمز اليه قصص الحيوان ومعرفة ما يوحى به وصف المطر والتداعي بين بعض مواضيع الوصف ••

وبعد .. فاني ارجو ان لا أكون اسأت الى موضوع البحث ، وان لا يكون ما بلغ اليه جهدي أوهاما احملها تاريخ الجاهلية وشعرها .. وهو شاهد اصالة الامة الذي حاطته بالامانة والعناية ورجعت اليه في رسالة الله تعالى اليها وفهمها . فان أكن واهما في بعض ما ذهبت اليه فما كان ذلك عن رغبة في معاندة الحقيقة أو ميل الى الرأي الطريف .. واستغفر الله مما أدرى وما اجهل من شر النفس وأصلي وأسلم على محمد رسول الله وآله وصحبه.

المصادر

- الآثار الباقية : البيروني ـ تحقيق س . ادورد سخاو ـ ليبزك ١٩٢٣
- اخبار فطاركة كرسي المشرف : عمرو بن متي ـ تصوير مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة روما ١٨٩٦
- اخبار المراقشة واشعارهم : السندوبي ـ الاستقامة بمصر ١٩٣٩
- اخبار مكة : الازرقي وستفيلد ـ ليبزك ١٨٥٨
- اساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة : د . محمد حسين ـ منشاة المعارف ١٩٦٠
- أسباب النزول : الواحدي ـ الباب الحلبي بمصر ١٩٥٩
- الاستيعاب : ابن عبدالبر ـ الهند ١٢٨٠
- اسد الغابة : ابن الاثير ـ تصوير ايران عن طبعة الهند ١٩١٣
- الاشتقاق : ابن دريد ـ تحقيق ـ عبدالسلام هارون ـ السنة المحمدية بمصر ١٩٥٨
- الاصابة : ابن حجر ـ الشرقية بمصر ١٩٠٧
- الاصمعيات : الاصمعي ـ تحقيق ـ احمد محمد شاكر ـ دار المعارف ١٩٥٥ وعبدالسلام هارون بمصر .
- الاصنام : ابن الكلبي ـ تحقيق ـ أحمد زكي باشا ـ الاميرية بمصر ١٩١٤
- الاغاني : الاصفهاني ـ مصور عن طبعة دار الكتب المؤسسة المصرية ١٩٦٣
- الاغاني : الاصفهاني ـ الساسي ـ التقدم بمصر ١٣٢٣
- الاكليل : الهمداني ـ تحقيق الكرملي ـ بغداد ١٩٣١
- أمالي القالي وذيل الامالي : القالي ـ دار الكتب بمصر ١٩٢٦ والنوادر
- انساب الاشراف : البلاذري ـ تحقيق د . محمد حميدالله ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .
- انساب الخيل : ابن الكلبي ـ تحقيق احمد زكي باشا ـ دار الكتب بمصر ١٩٤٦ .
- أنيس الجلساء : احد الاباء اليسوعيين الكاثوليكية بلبنان ١٨٨٨
- ديوان الخنساء :

ــ أيام العرب في الجاهلية : احمد محمد جاد المولى وآخرون ــ البابي الحلبي بمصر ١٩٥٣
ــ البدء والتاريخ : مطهر بن طاهر المقدسي ــ كليمان هوار اوربا ١٨٩٩ ـ ١٩١٩ .
ــ البداية والنهاية : ابن كثير ــ السعادة بمصر ١٩٣٢
ــ بلوغ الارب : الآلوسي ــ اشراف الاثري ــ دار الكتاب العربي بمصر « الطبعة الثالثة » .
ــ البيان والتبين : الجاحظ ــ تحقيق عبدالسلام هارون ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر . مصر ١٩٤٨ .
ــ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ــ اشراف د . شوقي ضيف ــ الهلال بمصر ١٩٥٧ .
ــ تاريخ ابن الاثير « الكامل » : ابن الاثير ــ المنبرية بمصر ١٣٤٨
ــ تاريخ الادب العربي « الجاهلية » : د . شوقي ضيف ــ دار المعارف بمصر ١٩٦١ .
ــ تاريخ امراء غسان : نولدكه ــ ترجمة قسطنطين زريق وبندلي جوزي ــ بيروت ١٩٣٣ ــ
ــ تاريخ الادب العربي : بلاشير ــ ترجمة د . ابراهيم كيلاني ــ دمشق ١٩٥٦
ــ تاريخ الطبري حـ١ ــ ٣ : الطبري ــ محمد ابو الفضل ابراهيم ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٠
ــ تاريخ العرب قبل الاسلام : د . جواد علي ــ بغداد ١٩٥٥ حـ٤ ــ ٨
ــ التاريخ العربي القديم : رودكاناكيس . جرومان ، نلس ، هومل ــ ترجمة واضافته د . فؤاد حنين ــ النهضة بمصر ١٩٥٨ .
ــ تاريخ اللغة العربية : جرجي زيدان ــ الهلال بمصر ١٩٠٤
ــ تاريخ اليعقوبي . اليعقوبي ــ النجف بالعراق ١٩٥٨ .
ــ تاريخ اليهود : ولفنسون ــ نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ الاعتماد بمصر ١٩٢٧ .
ــ تفسير الرازي : الرازي ــ البهية بمصر ١٩٣٧
ــ تفسير الزمخشري « الكشاف » : الزمخشري ــ الاميرية بمصر ١٣١٨
ــ تفسير الطبري « جامع » البيان : الطبري ــ احمد محمد شاكر ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٠
ــ تفسير الطبري : الطبري ــ الاميرية بمصر ١٣٢٩

- تفسير القرطبي « جامع الاحكام » القرطبي ـ دار الكتب بمصر
- تفسير ابن كثير : ابن كثير ـ المنار ١٣٤٣هـ
- التنبيه : البكري ـ تحقيق الاب صالحاني ـ دار الكتب بمصر ١٩٢٦
- جمهرة اشعار العرب : القرشي ـ بيروت ١٩٦٣
- جمهرة انساب العرب : ابن حزم ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .
- جمهرة نسب قريش : الزبير بن بكار ـ تحقيق احمد محمد شاكر ـ المدني بمصر ١٣٨١هـ .
- حماسة البحتري : البحتري ـ تحقيق كمال مصطفى ـ الرحمانية بمصر ١٩٢٩ .
- الحماسة البصرية : ابن ابي الفرج البصري ـ تحقيق د . مختارالدين احمد ـ الهند ١٩٦٢ .
- حماسة ابن الشجري : ابن الشجري ـ تحقيق دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٣٤٥ .
- الحماسة : شرح المرزوقي ـ تحقيق احمد امين وعبدالسلام هارون ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٥١ .
- الحماسة : شرح التبريزي ـ بولاق ١٢٩٦
- الحيوان : الجاحظ ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨
- خزانة الادب : البغدادي ـ الاميرية بمصر ١٢٩٩
- دراسات في الادب العربي « شعر ابي داود الايادي » : غرنباوم ـ ترجمة د . احسان عباس وآخرون ـ بيروت ١٩٥٩ .
- ديوان الاعشى الكبير : رواية ثعلب ـ شرح د . محمد حسين ـ النموذجية بمصر ١٩٥٠ .
- ديوان امرىء القيس : رواية الاصمعي والمفضل وغيرهما ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .
- ديوان امية بن ابي الصلت : جمع بشير يموت ـ بيروت ١٩٣٤
- ديوان اوس بن حجر : جمع وتحقيق دكتور محمد يوسف نجم ـ بيروت ١٩٦٤ .
- ديوان بشر بن ابي خازم : تحقيق دكتور عزة حسن ـ دمشق ١٩٦٠.
- ديوان تميم بن أبيٍّ بن مقبل : تحقيق دكتور عزة حسن ـ دمشق ١٩٦٢
- ديوان حاتم الطائي : تحقيق ر . حسون ـ لندن ١٨٧٢

ـ ديوان الحطيئة : رواية السكري والسجستاني وابن السكيت ـ تحقيق نعمان امين طـه ـ البابي الحلبي بمصر ١٩٥٨
ـ ديوان حميد بن ثور : مصور عن طبعة دار الكتب ـ جمع وتحقيق عبدالعزيز الميمني ـ الدار القومية بمصـــر ١٩٦٥ .
ـ ديوان الخرنق : الاباء اليسوعيين ـ الكاثوليكية ببيروت
ـ ديوان سـلامة بن جندل : هوارث ـ باريس ١٩١٠
ـ ديوان طرفـه : تحقيق د . علي الجندي ـ الرسالة بمصر ١٩٥٧
ـ ديوان طفيل الغنوي : تحقيق كرنكو ـ لنــدن ١٩٢٧
ـ ديوان عبيد بن الابرص : تحقيق د . حسين نصار ـ البابي الحلبي بمصر ١٩٥٧ .
ـ ديوان عدي بن زيد : تحقيق عبدالجبار المعيبد ـ بغـداد ١٩٦٥
ـ ديوان عروة بن الورد : الاهليـة ببيروت
ـ ديوان عمرو بن قميئة : تحقيق شارلس ليال ـ كمبرج ١٩١٩
ـ ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق د . ابراهيم السامرائي واحمد مطلوب ـ بغـــداد ١٩٦٢
ـ ديوان المتلمس : تحقيق فولرس ـ ليبـزك ١٩٠٣
ـ ديوان المعاني : العسكري ـ تحقيق كرنكو ـ المقدسي بمصــــر ١٣٥٢
ـ ديوان النابغة الزيابي : رواية السكري وابن السكيت وغيرهما ـ نشر علي مكي ـ بيروت ١٩٥٨
ـ ديوان الهذليين : «مصور عن طبعة دار الكتب» ـ الدار القومية بمصر ١٩٦٥
ـ رســـائل الجاحظ : الجاحظ ـ تحقيق عبدالســلام هـارون ـ السنة المحمدية بمصـر ١٩٦٤ـ١٩٦٥
رســـالة الغفران : المعري ـ تحقيق دكتورة بنت الشاطىء ـ دار المعارف بمصـــر ١٩٥٠
ـ الروض الانف : السهيلي ـ الجمالية بمصـــر ١٩١٤
ـ شرح ديوان حسان : البرقوقي ـ السعادة بمصـــر ١٩٢٩
ـ شرح ديوان زهير : ثعلب ـ « مصور عن طبعة دار الكتب» ـ الدار القومية ١٩٦٤ .
ـ شرح ديوان كعب بن زهير : السكري « مصور عن طبعة دار الكتب » الدار القومية ١٩٦٥
ـ شرح ديوان لبيد : الطوسي ـ تحقيق د . احسان عباس ـ الكويت ١٩٦٢

- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ابو بكر بن الانباري ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
- شرح القصائد العشر : التبريزي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ـ السعادة بمصر ١٩٦٤ .
- شرح المعلقات السبع : الزوزني ـ تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ـ السعادة بمصر ١٩٦٤ .
- شعراء النصرانية : جمع لويس شيخو ـ الكاثوليكية بلبنان ١٨٩٠
- شعر ابي زيد الطائي : جمع وتحقيق دكتور نوري القيسي ـ بغداد ١٩٦٧
- شعر المثقب العبدي : تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين ـ بغداد ١٩٥٦
- شعر النابغة الجعدي : جمع وتحقيق عبدالعزيز رباح ـ دمشق ١٩٦٢
- الشعر والشعراء : ابن قتيبة ـ « اضافة دكتور احسان عباس ومحمد يوسف نجم على نشرة دى غوى » ـ بيروت ١٩٦٤
- الصابئون في حاضرهم وماضيهم ـ السيد عبدالرزاق الحسيني ـ صيدا لبنان ١٩٦٣ .
- صحيح مسلم : شرح النووى ـ المصرية بمصر ١٩٢٩
- صبح الاعشى : القلقشندي ـ الاميرية بمصر ١٩١٣
- الصبح المنير في شعر ابي بصير ـ جاير ـ فينا ١٩٢٧
- الصناعتين : العسكري ـ تحقيق البجاوي وابو الفضل ابراهيم ـ البابي الحلبي بمصر ١٩٥٢
- طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي ـ تحقيق احمد محمد شاكر ـ المعارف بمصر ١٩٥٢ .
- الطبقات الكبرى : ابن سعد ـ تحقيق ادورد سخاو ـ ليدن ١٩٢٥
- الطرائف الادبية : جمع وتحقيق عبدالعزيز الميمني ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٣٧
- «شعر الافوه الاودى والشنفري »
- العقد الفريد : ابن عبد ربه ـ تحقيق احمد امين وآخرين ـ لجنة التاليف والنشر ١٩٥٦ .
- العمدة : ابن رشيق القيرواني ـ محمد محيي‌الدين عبدالحميد ـ السعادة بمصر ١٩٥٥ .
- عيار الشعر : ابن طباطبا العلوي ـ تحقيق د . الجاهري ود . محمد زغلول سلام ـ التجارية بمصر ١٩٥٦ .

- عيون الاخبار : ابن قتيبة ـ « مصور عن طبعة دار الكتب » ـ المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣ .
- الفائق في غريب الحديث : الزمخشري ـ تحقيق البجاوي وابو الفضل ابراهيم ـ البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥ .
- فجر الاسلام : احمد امين ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٥
- الفصل : ابن حزم : الادبية بمصر ١٣١٧
- الفهرست : ابن النديم ـ الاستقامة بمصر ١٣١٧
- قلائد الجمان : القلقشندي ـ تحقيق ابراهيم الابياري ـ دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٣
- الكامل في الادب : المبرد ـ تحقيق زكي مبارك وآخرين ـ البابي الحلبي بمصر ١٩٣٦
- كتاب الخراج : ابن آدم القرشي ـ تحقيق احمد محمد شاكر ـ السلفية بمصر ١٣٤٧
- كتاب المعمرين : السجستاني ـ تحقيق جولد زيهر ـ ليدن ١٨٩٩
- كتاب النقول : السيوطي ـ « هامش الجلالين » ـ دمشق ١٣٧٩
- اللالي : البكري ـ تحقيق عبدالعزيز الميمني ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٣٦ .
- المؤتلف والمختلف : الامدي ـ تحقيق كرنكو ـ القدسي بمصر ١٣٥٤
- المبهم في تفسير اسماء شعراء الحماسة ابن جني ـ دمشق ١٣٤٨ . شعراء الحماسة
- مجاز القرآن : ابو عبيدة ـ تحقيق د . فؤاد سزكين ـ السعادة بمصر ١٩٥٤
- مجالس ثعلب : ثعلب ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر ١٩٤٩ .
- مجالس العلماء : الزجاجي ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ الكويت ١٩٦٢
- مجمع الامثال : الميداني ـ البهية بمصر ١٣٥٢
- مجموعة الامثال : مؤلف مجهول ـ الجوائب بتركيا ١٣٠١
- المحبر : ابن حبيب ـ « تصوير المكتب التجاري ببيروت » ـ تحقيق دكتورة ايلزه لينختن شتيتر ونشر دار المعارف العثمانية ـ الهند ـ ١٣٦١
- مختارات ابن الشجري : ابن الشجري ـ تحقيق محمود حسن زناتي ـ الاعتماد بمصر ١٩٢٦
- مختار الشعر الجاهلي : رواية الاعلم الشنتمري ـ تحقيق مصطفى السقا ـ الباب الحلبي بمصر ١٩٤٨ .

ـ مروج الذهب : المسعودي ـ تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ـ الرجاء بمصر ١٩٤٨ .
ـ مسند احمد : الامام احمد بن حنبل ـ الميمنية بمصر ١٣١٣
ـ المعارف : ابن قتيبة ـ تحقيق . ثروت عكاشه ـ دار الكتب بمصر ١٩٦٠ .
ـ المعاني الكبير : ابن قتيبة ـ تحقيق دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٤٩
ـ معاهد التنصيص : العباسي ـ البهية بمصر ١٣١٦
ـ معجم البلدان : ياقوت ـ السعادة بمصر ١٩٠٦
ـ معجم الشعراء : المرزباني ـ تحقيق كرنكو ـ المقدسي بمصر ١٣٥٤
ـ معجم ما استعجم : البكري ـ تحقيق مصطفى السقا ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ .
ـ المفردات في غريب القرآن : الراغب الاصفهاني ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ البابي الحلبي بمصر ١٩٦١
ـ المفضليات : المفضل الضبي ـ تحقيق احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٢
ـ الملل والنحل : الشهرستاني ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ البابي الحلبي بمصر ١٩٦١ .
ـ منتهى الطلب : محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون ـ مخطوط دار الكتب ـ ادب ١٢٦٣١
ـ الموشح : المرزباني ـ تحقيق البجاوي ـ نهضة مصر ١٩٦٥
ـ النزاع والتخاصم : المقريزي ـ الابراهيمية بمصر ١٩٣٧
ـ نسب عدنان وقحطان : المبرد ـ تحقيق عبدالعزيز الميمني ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٣٦
ـ النصرانية وآدابها : لويس شيخو ـ الكاثوليكية بلبنان ١٩١٢ .
ـ نقائض جرير والفرزدق : ابو عبيده ـ تحقيق بيفان ـ ليدن ١٩٠٧ « تصوير المثنى ببغداد » .
ـ نهاية الارب : النويري ـ دار الكتب بمصر ١٩٣٠
ـ نهاية الارب : القلقشندي ـ تحقيق ابراهيم الابياري ـ الشركة العربية بمصر ١٩٥٩ .
ـ النهاية في غريب الحديث : ابن الاثير ـ العثمانية بمصر ١٣١٠
ـ النوادر : ابو زيد الانصاري ـ تحقيق سعيد الخوري الشرتوني ـ الكاثوليكية لبنان ١٩٤

- الهجاء والهجاؤون : دكتور محمد حسين - الاداب بمصر
- الوحشيات : ابو تمام - تحقيق عبدالعزيز الميمني واحمد محمد شاكر - دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
- وفيات الاعيان : ابن خلكان - تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد - النهضة المصرية ١٩٤٨ .
- دائرة المعارف الاسلامية - « الانكليزية والعربية »
- لسان العرب - طبعة صادر وبولاق
- تاج العروس - طبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ
- المقتطف السنة (١٩) - مقالة في اساطير العرب لمحمد المويلحي
- المجلة البطريركية السنة الرابعة - الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية « تصدر في دمشق » البطريرك مار اغناطيوس يعقوب الثالث .

الفهرست

تصميم الغلاف : راجحة القدسي

الخطوط : رضا الخطاط

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١٠٢٩ لسنة ١٩٧٧

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م

الجمهورية العراقية
وزارة الإعلام
بغداد

دار الحرية للطباعة
١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

توزيع الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان

السعر: ٣٥٠ فلساً